

الذخائر والعقبات

مُبْعَمٌ وَثِقًا فِي جَامِعِ

فَسَمَاءُ بَيْتِهِ دَقِيَّةٌ نَاقِلَةٌ وَأُتْرُقِي سِتَّى الْوَارِثَةِ الْمَعَانِي
مَعَ الْفِطْرِ وَالشَّرْحِ وَالْتَقْرِيبِ وَتَحْرِيرِ الْفَائِزِ وَمَعَانِيهِمْ بِبَيْعِ الْبُتُوبِ

لِجَاهِدِ الْمَلِكِ وَاللُّغَةِ وَالْأَدَبِ
عَبْدُ الرَّحْمَةِ الْبُرْقُوقِي

١

مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر
القاهرة/ ت: ٩٣٦٢٧٧ - ٩٢٢٦٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وسلام على عباده الذين اصطفى

«أما بعد، فهذا مُعْجَمٌ ثَقَافِيٌّ جامعٌ لِشَيْءِ الْوَأْنِ الْمَعَانِي الَّتِي يَتَدَاوَلُهَا النَّاسُ ويتعاورونها بينهم، في شتى أغراضهم ومناحيهم، ومُثاقباتهم ومحاوراتهم، وسائر أسبابهم؛

ولقد أُلْقِيَ في رُوعِي^(١) أن أقومَ بوضعِ هذا المُعْجَمِ وتحقيقِهِ، فكانَ بعدَ عَوْنِ اللَّهِ وتَمَامِ توفيقِهِ؛

ولقد أُسْمِيَتْهُ «الذَّخَائِرُ وَالعَبَقْرِيَّاتُ»

ولهذا المُعْجَمِ وتأليفِهِ قصةٌ: ذلكَ أنَّ وِزَارَةَ المَعَارِفِ المِصْرِيَّةَ كَانَتْ قد أعلنتَ رَغْبَتَهَا مِنْذُ سُنِّيَّاتٍ، في أن يَخْتَارَ مَنْ يَرْتَعِبُ^(٢) مِنَ الأَدْبَاءِ، أَيَّمَا أَحَبِّ إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الطَّائِفَةِ مِنْ مُؤَلَّفَاتِ القُدَّامِيِ الَّتِي وَقَعَ عَلَيْهَا اخْتِيَارُ القَائِمِينَ بِالأَمْرِ فِي الوِزَارَةِ، كِي يَهْتَدُوا بِهَا وَيَجْلُوهَا عَلَى التَّلَامِيذِ وَأَشْبَاءِ التَّلَامِيذِ مِنَ النَّشَاءِ

(١) أُلْهِمْتُ، وَالرُّوعُ: القَلْبُ وَالعَقْلُ، وَوَقَعَ ذَلِكَ فِي رُوعِي: أَي فِي نَفْسِي

وَخَلَدِي وَبَالِي، وَالْمَرْقُوعُ: المُلْهَمُ كَأَنَّ الأَمْرَ يَلْقَى فِي رُوعِهِ

(٢) يَرْتَعِبُ: يَرْغَبُ

الشادين^(١) جِلْوَةً حَسَنَةً تَحْلُولِي بِهَا فِي أَعْيُنِهِمْ ، وَتَطْبِي^(٢) أَهْوَاءَهُمْ ، وَيَلْتَبِي بِهَا عَنْهُمْ مَا عَسَى أَنْ تَدْبُوبَهُ طِبَابُهُمْ ، وَتَتَجَا فِي أَدْوَابِهِمْ ؛ وَكَانَ مِنْ بَيْنِ هَذِهِ التَّوَلِّيفِ الَّتِي اخْتَارَتْهَا الْوِزَارَةُ كِتَابُ «مَحَاضِرَاتِ الْأَدْبَاءِ وَمَحَاوِرَاتِ الشُّعْرَاءِ لِأَبِي الْقَاسِمِ حُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَشْهُورِ بِالرَّاعِبِ الْأَصْبَهَانِيِّ^(٣) ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْكِتَابُ مِنَ الْكُتُبِ الْقِيَمَةِ بِحَقِّ فِي بَابِهِ حُبِّبَ إِلَيَّ بِأَدَى الرَّأْيِ^(٤) أَنْ أُضْرِبَ بِسَهْمِ ، فِي هَذَا الْعَمَلِ

(١) النشأ : تقرأ بفتح الشين جمع ناشئ. تكادم وخدم وتقرأ بسكون الشين مثل صحب وصاحب ، والشادى : الذى تعلم شيئاً من العلم والأدب ونحوهما ، أى أخذ طرفاً منه (٢) طباء واطباء : استماله ودعاه إليه .

(٣) قال الإمام جلال الدين السيوطى فى بغية الدعاة - وقد سماه المفضل بن محمد - قال : المفضل بن محمد الأصبهانى الراغب صاحب المصنفات ، كان فى أوائل المائة الخامسة ، له مفردات القرآن وأفانين البلاغة والمحاضرات - أقول : ومن مؤلفاته : الذريعة إلى مكارم الشريعة - قال السيوطى : وقفت على الثلاثة ، وكان فى ظنى أن الراغب معتزلى حتى رأيت بخط الشيخ بدر الدين الزركشى على ظهر نسخة من التواعد الصغرى لابن عبد السلام مانصه : ذكر الإمام فخر الدين الرازى فى تأسيس التقديس فى الأصول أن أبا القاسم الراغب من أئمة السنة وقرانه بالغزالى قال : وهى فائدة حسنة فإن كثيراً من الناس يظنون أنه معتزلى ، أقول : وفى كشف الظنون لكاتب جلبي : إن الإمام الغزالى كان يستصحب كتاب الذريعة دائماً ويستحسنه لنفسه . أقول : وفى الحقيق أن كتاب الذريعة من الكتب القيمة فى معناه ، وكثيراً ما اعتمدت عليه فى هذا المعجم ، ولعل منشأ اتهامه بالاعتزال هو هذا الكتاب - الذريعة - لأن طريقته فيه موفية على الغاية فى السداد ؛ وأزيد على ذلك : أن الراغب يبدو لى أنه شيعى يشبه ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة وذلك أنه يقرن اسم سيدنا على بن أبى طالب دائماً بقوله : عليه السلام ؛ وهذا وإن لم يك منكراً إلا أنا لم نألفه من غير رجال الشيعة (٤) فعلت كذا بآدى الرأى : فيما بدأ من الرأى وظهر

الضخم، فأعمدَ عمداً عينٍ إليه^(١)، وأحَقَّقَ بذلك ما ترامت وزارة المعارف إليه، بيدَ أني لما أتعمتُ النظرَ في ذلك الكتابِ واستقرَّيْتُه رأيتُ من الخير أن يبقَى على ما هو عليه، اللهمَّ إلا أن يتداركه أديب ضليعٌ درَّاكٌ، بالضبط والشرح والتحرير. ممَّا استبدَّ بهِ وطني عليه وتحوَّنه^(٢)، من التحريف والتصحيف والأخطاء التي ألوت بمجاسنه.

ولقد تلاح لي، بل بدأً لمخاً باصراً^(٣): أن الراغب إنما وضع هذه المحاضرات للبتين، لا للشادين، لأن مختاراته تكاد تكون خداجاً^(٤) مُتَضَبَّةً مبتورةً كأنها مُذكرات، أو رسوم مسائل «أملها الراغب لتكون منبهةً للأديب»^(٥) إذا هو استذكر بها ما قد اقتراً^(٦)، فداعت^(٧) الأشباه وتجاوبتِ النظائر، فطاع له المراد^(٨) فخور وحاضر وناقل وثاقف، فبذ الأقران، فاشترأت إليه الأعتاق، وتثبت به - كما يقال - الخناصر^(٩)؛ ومن هنا لا يكاد ينتفعُ بمحاضرات الراغب غير أولئك الذين اضطلعوا قبلاً بما فيها كاملاً غير منقوص في مظانها

-
- (١) إليه : متعلق بأعمد ، أى أقصد إليه متعمداً ، وعمد عين ، قال الزمخشري في الأساس : فعلت ذلك عمداً عيناً : إذا فعلته بجد ويقين قال عمر بن أبي ربيعة .
ثم صدَّتْ بوجهيها عمداً عينٍ زَيْبٌ للقضاء أم الحجاب
(٢) تحوَّنه وخون منه : تنقصه (٣) لمخاً باصراً : أمراً واضحاً
(٤) ناقصاً وهذا من الوصف بالمصدر (٥) منبهة للأديب . تعالى قدره
(٦) اقتراً : قرأ (٧) داعت وتجاوبت : دعا بعضها بعضاً فاجتمعت ؛
وتجاوبت كما تتجاوبت القهارى . . . (٨) طاع له المراد : أتاه طائعاً سهلاً
(٩) يقال : فلان ثنى به الخناصر : يبتدأ به إذا ذكر أشكاله

من القرآن الكريم والحديث الشريف، وسائر كتب الأدب واللغة والتاريخ
وموسوعات الثقافة العربية في شتى ألوانها.

هذا شيء، وشيء آخر، هو أن أبواب المحاضرات، أو حدوده، لم تُرقني،
أما تلك العناوين الصغيرة التي طواها الراغب تحت كل باب أو كل حد
فقد راقنتي كل الروق، وإن لم تُرق جلال الدين السيوطي^(١)...

لهذا كُله رَغِبْتُ عن مُعالجة المحاضرات على النحو الذي اقترحه وزارة
المعارف، وانصرفتُ نفسي عن ذلك إلى وضع مُعجم حاشدٍ حافلٍ مستقل،
يهجم فيه الطالب على طلبته، في أي معنى من المعاني «موضوعاً على طَرْفِ
الثَّمام^(٢) وحبل الذراع، من غير أن يحتاج في التقدير عنها إلى الإيجاف
والإيضاح.^(٣)

على أنني جَعَلْتُ محاضراتِ الراغب مُعَوَّلَى الأَوَّلَ في هذا المشوار،^(٤)

(١) اختصر السيوطي محاضرات الراغب وسمى كتابه «مختصر محاضرات الأدباء»،
واقصر فيه على ذكر الحدود، ويوجد من هذا المختصر نسخة خطية في دار الكتب
المصرية، وقد توفي السيوطي سنة ٩١١ ولعل عذر السيوطي عن عدوله عن العناوين
الصغيرة هو أن كتابه مختصر. (٢) الثمام: نبت ضعيف له خوص أو شبيهه
بالخوص وربما حشى به وسد به خصائص البيوت، الواحدة ثمامة ويقال: هو لك
على طرف الثمام وحبل الذراع إذا كان هين المتناول.

(٣) الإيجاف: ضرب من سير الإبل والخيال قال تعالى: فما أوجفتم عليه من خيل
ولاركاب، أي ما أعلمتم، والإيضاح، الإسراع في السير قال تعالى: ولا وضعوا خلالكم
والمراد: أن الطالب يعثر على طلبته بدون مشقة (٤) المشوار: المسكان تشار فيه
الداية أي يجريها رائضها لتعرف قوتها، وعثر يعثر عثاراً: كبا

الكثير العثار، ومنهلى العذب الذى اليه الايراد ومنه الإصدار، وعهدت في
لَمْ شمل الأشباه والنظائر، وكل ما كان من المعاني قد وشجته القربات والأواصر
ولقد تخيرت من المحاضرات سويدوات القلوب وأنامى العيون^(١)، وضممت
إليها أولات الأرحام^(٢) بما أغفله الراغب وأثبتته الآخرون، مثل ابن
قتيبة في عُيون الأخبار، وابن عبد ربه في العقد الفريد، وأبي هلال
العسكري في ديوان المعاني، والنويرى في نهاية الأرب، وفلان، وفلان،
ولم أجتزئ بذلك، بل زدت خيراً ما أترسمه^(٣) مما قرأت وأدارست طوال
هذا الدهر، فترى مافى الكامل للبرّد، والأمالى لأبي عليّ القالى، ومافى
لا يكاد يُحصى من الدواوين والأسفار، وما خلفه لنا الأوائل والأواخر
من عبقرى الآثار.

«وبعد» فليسمح لى القارئ فى أن أزيده علماً بكنه هذا المعجم وحقيقه
الطريقة التى اتبعتها، والجهد الجاهدة التى بذلتها، والملاحظات التى يصح
أن تلاحظ عليه، والنقد الذى رُبما يُوجهُ إليه؛ فإنى بما أعتمل^(٤)
جد بصير...

وأول ذلك وأولاهُ بالإشادة والتنويه: أنى أوَدعتُ هذا المعجم، كما
أسلفت؛ خيرَ مافى محاضرات الأدباء للراغب، حتى ليصح أن يُطلق عليه

(١) أحسن مافيه، وسويدوات القلوب: حباتها وفيه النور وإنسان العين: سوادها

(٢) المعاني التى تمت إليها بسبب وأصل، فهى من ذوات قرباها

(٣) قال الريحشرى فى أساس البلاغة: وأنا أترسم من ذلك الأمر شيئاً: أى

أتذكره ولا أحققه

(٤) أعتمل: أعمل

«مختارات المحاضرات» وإن كان في هذا الإطلاق بعض الظلم «للذخائر والعبقریات» لأنها في الواقع مختار المحاضرات وغير المحاضرات ، وإياك والظن أن هذا العمل وحده هينٌ لئن ، فقد علمت أن المحاضرات لقد طغى عليها التحريف والتصحيف إلى حد أن كلَّ حَرْفٍ ، فضلا عن كل كلمة ، من آيةٍ كريمة ، أو حديثٍ شريف ، أو بيت من الشعر ، أو كلمة مأثورة ، لا بدَّ أن أحققه بالرجوع إلى مصادره المختلفة حتى يستقيم ويقرَّ به القرار ، وإذ ذلك ألقى عصا التسيار ، إذ تقرَّ عيني كما قرَّ عينا بالإياب المسافر ...

يجيء بعد ذلك أني كلما رأيتُ الراغب يورد في أي باب من الأبواب أثرًا من آثارهم ، أكان من المنظوم أم من المنثور ، فرعتُ إلى عَظائمه ، فأكلت مالا بدَّ من إكاله ، وزدت ما أستحسن زيادته ، من كل ما قد يعلق بالذاكرة ، أو أتستر عليه في أثناء مطالعته ومراجعاته .

أما أبواب هذا المعجم فقد عدلتُ بها وانحرفت لا عن أبواب المحاضرات فحسب ، بل عنها وعن سائر ما كان على غرار المحاضرات من سائر الموسوعات ، وأنت إذا تصفحت الذخائر والعبقریات بدا لك أني ابتكرتُ طريقةً مثلي في تبويبها ، فقد جهدتُ جهدي أن تكون الأبواب متجانسة متجاوبة ، ومن ثمَّ كسرتُ هذا المعجم على كُتب وطويتُ الكتب على أبواب وأدرجت في كل باب سائر المعاني المتشابهة الأرحام ...

أما عناوين المعاني فقد انتفعت بعناوين الراغب كل الانتفاع ، فخذوت على حدوها بعد شيء من التصرف والتحوير والزيادة في أكثر العناوين^(١)

(١) يلاحظ الناظر في الجزء الأول من الذخائر والعبقریات ، أن خطني

يأتى بعد كل أولئك أنى امتزجت عن الراغب وغير الراغب بعمليْن عظيمين ، فأما أولهما فهو شرح كل ما يجُمَلُ شَرُحُه من العبقریات ، وقد يُلاحظ أنى تبسطت فى الشرح - فى كثير من المواضع - إلى الحد الذى قد يُسَكِرُه الخاصّة ، ولكن يجُمَلُ أن يلاحظ كذلك أنى وضعتُ هذا المعجمَ للخاصّة وغير الخاصّة ، أى لكل قارئ ، على أن هذه الشروح هى الأخرى لَوْنُ من ألوانِ الأدب والثقافة ، وقلبا تخلو من الفوائد والعوائد ... وعلى أن هناك من العبقریات - كبعض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والحكم والمواعظ ، وبعض الألفاظ المتداولة - ما حرّفه السواد الأعظمُ عن مواضعه وجعلوا مغزاه الذى يغزوه قائلوه ، فكان لامندوحة عن تبيان معناه^(١)؛ وفى هذا علاوة على ذلك امتثال لقول سيدنا رسول الله : يجُمَلُ هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ... وأما العمل الآخر فهو تصدير كل باب بكلمة أكشف بها المراد بما عقد له هذا الباب ، وذلك كقولنا على البر والتقوى ، وعلى الصبر ، وعلى الشكر ، وهكذا وهكذا ... وهذا عمل له قيمته التى ما منها بُدُ .

وما امتاز به هذا المعجم أنى لم أقتصر على إيراد العبقریات من الأقوال

كانت أن أضع عنوان كل طائفة من المعاني فى أوائل السطور ومضيت على هذه الطريقة إلى قريب من ثلث صفحات هذا الجزء ثم استحسن أن أعدل عن هذه الخطة إلى وضع العناوين وسط السطور لتكون أدنى إلى التيسير وأعون للطالب على العثور بضالته من أقرب سبيل وهذه - كما يرى القارئ - من الهنات الهيئات التى تغتفر وقد تدوركت فى سائر الكتاب

(١) يلاحظ أن الشرح يرى طوراً فى عمود الكتاب وصلبه وطوراً فى هامشه

وإنما عَرَضْتُ فيما عَرَضْتُ لترجمة بعض العبقرين الذين نبغوا في معنى من المعاني، مثل القاضي أحمد بن أبي دواد، تلك الشخصية الضخمة التي خُلِّدت آثارها في اصطناع المعروف والإحسان إلى الناس، وإن كنت أوجزت القول في ذلك كلَّ الإيجاز، وكذلك عَرَضْتُ للتعريف بالشعراء والعلماء والزهاد والحكماء الذين أوردت في هذا المعجم عبقرياتهم، وإن كان ذلك في أجزاء اختصار، وقد يلاحظُ أنني أغفلت التعريف بكثير من القائلين، كما أغفلت في بعض المواضع شرح كثير من أقوالهم، وذلك إما لأني عرفت ما من يجب أن يُعرَّف وشرحت ما يجمُل أن يشرح في مواضع أخرى، وإما حَدَثَ ذلك سَهْواً رَغْلةً، وقد يَجْدُثُ - وذلك في النَّدْرَة - أن يكون الإغفال - ولا سيما إغفال التعريف بالرجال - لأنَّ لمْ أَوْفَّقْ إلى التَّعْرِفِ عليهم ...

هذا وكانت النية أن أتوسَّع في إيراد عبقریات المعاصرين، ولكنني اقتصدت في ذلك كل الاقتصاد، لأن هذا المعجم من ناحية ليس كتاب مختارات بالمعنى المعروف وإنما هو معجم معانٍ، وإن كنت قد عملت ما وجدت إلى ذلك السبيل على أن يكون كتاب مطالعة بجانب أنه كتاب مراجعة، ومن ناحية تحشيتُ أن أهتم بما أنا براء منه في الواقع إذا أنا أوردتُ المختار من عبقریات بعض المعاصرين دون بعض، على أن آثار المعاصرين كثيرة التداول بين قراء هذا الجيل، ومن هنا أوردت فيه بعض عبقریات المعاصرين ممن استأثر الله بهم، وأوردت أيضاً ما استحسنت إirاده بما نُقِل إلى العربية من اللغات الأجنبية، وبخاصة ما نُشِرَ قديماً في مجلة البيان التي كنت أقوم

بإخراجها من سنة ١٩١١ إلى نهاية سنة ١٩٢١ ميلادية؛ وكذلك وقع اختياري على البارع كل البراعة من الكلمات الطويلة بعض الطول لبعض العبقرين من الغابرين، وإن كان ذلك في النادر الذي لا يؤبه له، لندرته، وإن كنت كذلك حذف ما اخترت من هذا الضرب كثيراً من الفضول.

أما تسمية هذا المعجم «الذخائر والعبقرات» فلهذه التسمية مغزى أغزوه، أما العبقرات فإني أريد بها - كما هو واضح - كلماتهم القصيرة الماثورة المتفوقة في معناها، على أني لم آلُ جهداً في تخيير العبقرى في معناه ومبناه معاً؛ وأما الذخائر فإني لم أقصر في هذا المعجم على اختيار نوابغ الكلم، وإنما قد تلجئُ الحالُ إلى أن أشعشعته كما تُشعشع الرياح، بالماء القراح^(١) فأورد بعض المباحث اللغوية والعلمية، على شريطة أن تكون بجانب مكائنها الرفيعة في بابها جميلة مستطرفة مُحذقة^(٢) قصيرة مُتجردة من الأذنان والفضول، كبعض كلمات بارعة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تراها مبعثرة ههنا وههنا في كتابه الحيوان، مثل كلامه على الخصاء والخصيان، وكلامه على اتنين وأفاعيلها في المعين، وكبعض كلمات كذلك لغيره... وأمثال لهذا كثيرة، على أن كلا الحرفين - الذخائر والعبقرات - مما يصح أن يوضع موضع الآخر، فيطلق على كل ما يؤثر ويُدخّر لنفسه، سواء كان من الكلمات أم من الموضوعات، فكل عبقرى من القول هو ذخيرة من الذخائر، وكل موضوع قيم هو عبقرى من العبقرات.

(١) شعشع الشراب: مزجه، والماء القراح: الخالص الذي لا يشوبه شيء.

(٢) كلام محذف: من قولهم حذف الصانع الشيء: سواه تسوية حسنة كأنه حذف

كل ما يجب حذفه حتى خلا من كل عيب وتهذب

وهذا المعجم يقع في زهاء عشرة أجزاء ، كل جزء منها يستوعب ما يُرَبَى على العشرين والثلاثمائة صفحة من هذا القِطْع ، من هذا الورق الذي ترى ...

«وبعد، فإنى على هذا الجهدِ الجاهد لأُبرئُ هذا الكتاب ، من العاب^(١)، وهل يصح في الأفهام أن رجلاً يجرُّ وراءه نَيْقاً وستين سنةً ، مَوْقَرَةً بكلِّ ما يُضْعِفُ المنة^(٢) ويوهن القوى ، وَيَعْرِصُ بالحَيوية عَصْفاً ، لا تتكاثر هفواته وَعَثْرَاتُهُ ، وتَوَاقُرُ سَقَطَاتُهُ وزَلَّاتِهِ ، في عمَلٍ مثلِ هذا يُجَاوِلُهُ ، وتَأليفِ تشعبِ موضوعاته ومَسَائِلِهِ ، وإذا كانت الموسوعات التي منها تُخَيَّرْتُ حساباً فهذا المعجم فذَلِكَ ، وإذا كانت عبقرياتهم ههنا نظاماً نهى نثاراً مبددةً هنالك ، وإذا كان المؤلفون يستظهرون على إخراج مؤلفاتهم في العادة بالوراقين^(٣) والمصححين فلقد قمت وحدي بهذا العمل دون الاستعانة بأحد من أولئك... على أن النقصان ، عالت بالإنسان ، كان من كان ، وإنما الكمال ، للحي الذي لا يموت ذى الجلال ...

اللهم إني أبرأ إليك من الحول والقوة ، اللهم عالم الغيب والشهادة فاطر السموات والأرض ، يا مَنْ لا يَنْفَعُ ذا الجِدِّ منك الجِدَّة^(٤) ، يا مَنْ وَعَدْتَ الَّذِينَ هُمُ مُحْسِنُونَ^(٥) بِحُسْنِ الْجَزَاءِ وحاشَ اللهُ أَنْ يُخْلِفَ

(١) العاب : العيب

(٢) المنة : القوة

(٣) أعنى بالوراقين من يسمون اليوم « السكرتيرين الخصوصيين »

(٤) الجِد : الحظ ومعنى لا يَنْفَعُ ذا الجِدِّ منك الجِد : لا يَنْفَعُ ذا الغنى عندك غناه ،

وإنما يَنْفَعُهُ العمل بطاعتك ، وملك : معناه عندك

(٥) المحسنون : أى الذين يحسنون أعمالهم ويتقنونها

الوَعْد ، سبحانك تبارك اسمك وتعالى جدك ، أسألك يا مَنْ تُجِيبُ دَعْوَةَ
الدَّاعِي إِذَا دَعَاكَ ، أَنْ تَهَبَ هَذَا الْكِتَابَ مِنْ تَوْفِيقِكَ مَا يَتَّصِلُ مَعَهُ بِرِضَاكَ ،
وَيَعْمُ الْإِتِّفَاعُ بِهِ وَالْإِفَادَةُ مِنْهُ مَا اخْتَلَفَ الْمَلَوَّانِ ، وَكَرَّرَ الْجَدِيدَانِ (١) . . .

ديسمبر سنة ١٩٤١

عبد الرحمن البرقوقي

ذو القعدة سنة ١٣٦٠

(١) الملوان والجديدان : الليل والنهار

استدراك

نذرت بعض أخطاء مطبعية في المقدمة وها هي ذى :

سطر	صفحة	خطأ	صواب
١٧	ط	وسويدوات القلوب حباتها	وسويداوات القلوب حباتها
١٧	ط	وإنسان العين سوادها	وإنسان العين سوادها وفيه النور
٦	ل	اختصار	قول
٧	ل	ما من	من

الْكِتَابُ الْأَوَّلُ

في الفضائل وصالح الأخلاق والمثل العليا
التي يَجْمَلُ بِكُلِّ مَنْ يَنْشُدُ السَّعَادَةَ فِي
الْدَارَيْنِ أَنْ يَجْهَدَ جُهْدَهُ فِي التَّحَلِّيِّ بِهَا

[وهذا الكتاب مكسورٌ على خمسة عشر باباً بينها]

[جميعاً لِحَمَّةِ نَسَبٍ وَقَرَابَةِ]

الباب الأول

في البرِّ والتقوى

البرُّ وألوانه

قال علماءنا ما خلاصته : إنَّ أصلَ معنى البرِّ : السَّعة ، ومنه البرُّ - بفتح الباء - مقابل البحر ، ثم اشتُقَّ منه البرُّ بمعنى التوسُّع في فعل الخير ، وكُلَّ فِعْلٍ مَرَضِيٍّ ... وهكذا أطاؤه على التوسُّع في الإحسانِ إلى الناس ، وهو كُبابُ البرِّ ؛ وعلى صلَّة الرَّحِمِ ، وهي عنوانُ البرِّ ؛ وعلى التقوى ، وهي جَماعُ البرِّ^(١) ، قال تعالى : **وَاسْكُنْ الْبِرَّ مِنْ أَيْتِي** ، وقال كبيد :

• وَمَا الْبِرُّ إِلَّا مُضْمَرَاتٌ مِنْ الثَّقَى •

وَوَرَدَ الْبِرُّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ وَفِي شِعْرِ الْعَرَبِ مُقَابِلًا الْإِثْمِ - وَالْإِثْمُ : الشَّرُّ وَكُلُّ فِعْلٍ غَيْرِ مَرَضِيٍّ بِمَا يُؤْتَمُّ - قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّوَدَانَ .** واقترانه بالتقوى يدلُّ على أنَّ البرَّ بسبيلِ مِنَ التقوى ، ورُوي أنَّ سائلاً سأل المصطفى صلواتُ الله عليه عن البرِّ والإثم ، فقال : **البرُّ ما سكنتُ إليه نفسُك واطمأنَّ به قلبُك ، والإثمُ ما حاكَّ في نفسِك وتردَّدَ في صدرك ، وإنَّ أفتاك الناس ، أو كما قال .** « حاكَّ في نفسِك : أي أترَّ فيها ورَسَخَ وحرَّزَ

(١) ولأن البرَّ يطاق على كل أولئك ، قال الإمام البيضاوي : البرُّ ثلاثة : برُّ في

عبادة الله ، وبرُّ في مراعاة الأقارب ، وبرُّ في معاملة الأجانب

وَقَدَحَ ، وقوله : وإن أفنأك الناس : أى وإن جعلوا لك فيه رُخصةً وجوازاً ،

وقال زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُئْلَى :

وَالِإِثْمِ مِنْ شَرِّ مَا يَصَالُ بِهِ وَالْبِرِّ كَالغَيْثِ نَبْتُهُ أَمْرٌ

« ما يصال به : ما يُفتخر به ، وأمرٌ : كثيرٌ مُبارك ، ومن أسماء الله البرّ -

بفتح الباء - ومعناه الواسع الخير ، وقوله تعالى : لَن تَنَالُوا البرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا

تُحِبُّونَ ، فمعناه : لَن تَنَالُوا بِرَّ اللهِ ، أى لَن تَنَالُوا خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ حَتَّى

تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، أمّا خير الدنيا فهو ما ييسره الله للعبد من الهدى والنعمة ،

وأمّا خير الآخرة فهو الفوز بالنعيم الدائم فى الجنة ، أو تقول : لَن تَنَالُوا

حَقِيقَةَ البرِّ - أى الخير - حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ... وَالْأَبْرَارُ : الأخيار ، جمع برّ ،

وقد قوبلت كلمة الأبرار بالفُجَّار فى قوله تعالى : إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ

الْفُجَّارَ لَفِي جَهَنَّمَ - والفجار : الذين يلبعثون فى الشرور والآثام - وحج

مَبْرُورٌ : مقبول يجازى بالبر ، أى الثواب ، أى خير الآخرة ؛ وَبَرٌّ فى يَمِينِهِ

أى صدق ، أى كان خيراً فيه بهذا الصدق -

« وبعد » فكل ما أوردوه من معانى البرّ فالى الخير مرّده ...

ولهم فى البرِّ مُطلقاً ، أى الخير غير مقيد بلون من ألوانه ، عبقریات وذخائر ،

فمن ذلك قول الحطيئة :

وَمَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ

« جوازیه : جمع جازية اسم مصدر للجزاء ، كالعافية ، أى لا يعدم جزاء عليه ،

قال أبو عمرو بن العلاء : لم يقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت الحطيئة

هذا ، فقيل له : فقول طرفة بن العبد :

سَتُبَدِّى لَكَ الْآيَامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

فقال : «ن يأتيك بها بمن زردت أكثر ، وليس بيت مما قالته الشعراء إلا وفيه مطعن ، إلا قول الحطيئة هذا . ويروى أن كعباً الحنبر - المشهور بكعب الأحبار - لما سمع هذا البيت قال : والذي نفسى بيده : إن هذا البيت لمكتوب في التوراة . . . وقال عبيد بن الأبرص :

والخيرُ يَبْقَى وإن طالَ الزمانُ به والشَّرُّ أَخْبَثُ ما أوعيتَ من زادٍ
« يقال : أوعيت الزاد والمتاع : إذا جعلته في الوعاء ،
وقال أبو العتاهية :

لَيَعْلَمَنَّ النَّاسُ أَن التَّقَى واليَرَّ كَانَا خَيْرَ ما يُدْخَرُ
وقبَّله قال الأخطل - ورواه المبرد في الكامل للخليل بن أحمد واضع علم العروض - :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال
روى صاحب الأغاني : أن هشام بن عبد الملك لما سمع الأخطل وهو يقول هذا البيت قال : هنياً لك أبا مالك هذا الإسلام ! فقال الأخطل : يا أمير المؤمنين ، ما زلت مسلياً في ديني ؛ وقبَّله هذا البيت في ديوان الأخطل :
والناس همهم الحياة وما أرى طول الحياة يزيد غير خبال
« الخبال : الفساد ، أو هو لون من الجنون ، . . .

وقال أحمد شوقي في نهج البردة : - وهذه الآيات يصح أن تذكر في باب التقوى وفي باب الدنيا وفي الزهد ، كما يصح أن تذكر في هذا الموضع - :

يا نفسُ دُنْيَاكِ تُخْفِي كُلَّ مُبْكِيَةٍ وإنْ بَدَأَكَ مِنْهَا حُسْنُ مُبْتَمِرٍ
فُضِي بَتَقْوَاكِ فَأَمَّا كَلِمَا صَحِيحَتْ كما يُفْضُ أَدَى الرَّقْشَاءِ بِالسَّرْمِ
لا تَحْنَلِي بِجَنَاهَا أَوْ جِنَايَتِهَا الموتُ بِالزَّهْرِ بِمِثْلِ الموتِ بِالْفَتَمِ

صَلَحُ أَمْرِكَ لِلْأَخْلَاقِ دَرْجَعُهُ فَقَوِّمِ النَّفْسَ بِالْأَخْلَاقِ تَسْتَقِمِ
وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَاقِبَةٍ وَالنَّفْسُ مِنْ شَرِّهَا فِي مَرَاتِعِ وَخَمِ
«المبتسم: يريد الابتسام، أو موضع الابتسام، وهو الثغر. والرقشاء
من الحيات: المنقطة بالسواد والبياض. وأذى الرقشاء: سُئِمَهَا. والأرم:
كسر السن من أصلها. والجنى: ما يُجْنَى من أشجاره ويقطف من ثمرها؛
يقول في هذا البيت: إن سعادة الدنيا وشقاءها بمنزلة سواء، وكلاهما ألم
غير أن أحد الألمان ينزل بساحة النفس سافراً غير مُتسكِر - وهو جنايتها
أى آلامها - والآخر - وهو جناها أى لذاتها - يتسرب إليها من أبواب
غفلتها فيتجمل ويختلب حتى ينال منها، إذ أن من ورائه السَّمَّ ناعماً، فثلهما في
ذلك مثل الموت بالفحم والموت بالزهر، كلاهما موت، وإن كان هذا من
أثر الاختناق بأرج الزهر، وذاك من دَخْنِ الفحم. والمرتع: من رتعت
الماشية: أكلت ماشاءت، والمرتع: مكان الرتوع، والوخم: الرديء البوء»
وقال المعمرى:

وَلْتَفْعَلِ النَّفْسُ الْجَمِيلَ لِأَنَّهُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ لِأَجْلِ تَوَابِهَا
«يقول المعمرى: إن فعل كُله ما هو جميلٌ خيرٌ وأحسن من فعل
ماليس بجميل، ولو لم يجن المرء من وراء الجميل وفعله إلا أنه خير وأحسن
وأسمى وأرفع؛ لكان في ذلك العناء كله، أما فعل الجميل ونُصِبَ عينِ فاعله
ذلك الثواب الذى سيجازى به، فإن هذا إسفاف بالإنسانية إلى الحضيض
الأوهد، ويُعدُّ من الأعمال التى يرفعها الله إلى أسفل، وجملة القول: إنه غير
لائق بالكمال والمثل الأعلى، أليس من كان هذا شأنهم إنما يتاجرون الله الذى
يعلم السرّ وأخفى، والذى هو جميل يحب الجمال! وسترى فى باب التقوى

كثيرا من عقوباتهم في هذا المعنى - منى فمل الخير حُبا في الخير، وولوعا بالحق والجمال والمثالية الكامنة فيه.

وبما روى لنا من أحاديث سيدنا رسول الله في هذا الباب قوله صلوات الله عليه: رأيت الجنة والنار فلم أر مثل الخير والشر... قال ابن الأثير في النهاية: أي لم أر مثلهما لا يميز بينهما فيبالغ في طلب الجنة والهروب من النار... أقول: ولعل الأظهر أن يكون المعنى: لم أر شيئا يكون وُصلةً إلى دخول الجنة مثل الخير، ولم أر شيئا يكون سبباً في دخول النار مثل الشر^(١). . هذا، وإن أبن الملحدون وأشباه الملحدين إلا أن يؤولوا الجنة بأنها الهناءة وغبطة الروح التي يشعر بها الأخيار البررة. ويرأحون لها في هذه الحياة، والنار بأنها الشقاوة التي يعانها الأشرار الفجرة، ويتسعر لهيها في أحناء ضلوعهم، فهم وما يختارون ويختلوي لهم، إذ أن هذا - أي سعادة الخير في الدنيا وشقاوة الشر فيها - حق وصحيح في ذاته، وإن لم يك مراداً لآنياء الله ورسله بالجنة والنار، حين يريدون الجنة والنار بمعناها المعروف، فلي أن الإسلام على ذلك يمتد بالسعادة والشقاوة في الدنيا كما أنه يعتد بهما فيما بعد الموت... وفي الحديث أيضا: خيركم من يرجي خيره ويؤمن شره، وشركم من لا يرجي خيره ولا يؤمن شره... وقال صلوات الله عليه:

(١) ورد هذا الحديث عن أنس بن مالك هكذا: صلى لنا النبي صلى الله عليه وسلم ثم رقى المنبر، فأشار بيده إلى قبة المسجد وقال: لقد رأيت الآن منذ صليت لكم الجنة والنار مثلتين في قبة هذا الجدار فلم أر كاليوم في الخير والشر. والجامع الصغير،

خير الناس خيرهم لنفسه « وممناه : إذا جاملَ الناسَ جاملوه وإذا أحسن إليهم كفافوه بمثله » وأما الحديث : خيركم خيركم لأهله ؛ فهو حث على صلة الرحم ، وسيأتي . . . ومما يُؤثرُ من أحاديث سيدنا رسول الله في هذا الباب قوله صلوات الله عليه : شرُّ الناس من خافه الناس اتقاءً شره « ومثل هذا القول تبكيت للشرير ، وأنه وإن ظفر بما يظفر به من أغراض هذه الدنيا فهو خاسرٌ دائم » وكان من دعاء سيدنا رسول الله : إن الخيرَ بيدك والشرُّ ليس إليك « يريد : أن الشر لا يُتقرب به إليك ولا يُبتغى به وجهك ، أو أن الشر لا يصعد إليك وإنما يصعد إليك الطيب من القول والعمل ، كما قال سبحانه : إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه . وفي هذا الدعاء إرشاد إلى استعمال الأدب في الثناء على الله والدعاء ، وأن تضاف إليه محاسن الأشياء دون مساوئها . . . ومن كلمة لعلي بن أبي طالب : إن للخير والشر أهلاً ، فهما تركمونه منهما كفاكموه أهله « يقول رضى الله عنه : إن عنَّ لك باب من أبواب الخير وتركته فسوف يكفيك بعض الناس ممن جعله الله أهلاً للخير ، وإن عنَّ لك بابٌ من أبواب الشر فتركته فسوف يكفيك بعض الناس ممن جعلهم الله أهلاً للشر وأذى الناس ، فاختر لنفسك أيما أحب إليك : أن تحظى بالمحمدة والثواب وتفعل ما إن تركته فعله غيرك وحظي بحمده وثوابه ، أو أن تتركه ، وأيما أحب إليك : أن تشقى بالذم عاجلاً والعقاب آجلاً وتفعل ما إن تركته كفاك غيرك وبلغت غرضك منه على يد غيرك ، أو أن تفعله ؛ وإذا نجزير بالعاقل أن يُؤثرَ فعلَ الخير وتركَ الشر ما وجد إلى ذلك سبيلاً . ومن قولهم في أوصاف البررة الأخيار : فلانٌ نقيُّ الساحة من المآثم ، يرىُ الذمّة من الجرائم ؛ إذا رضى لم يقل غير الصدق ، وإذا سخط لم يتجاوز

جانب الحق ؛ يرجع إلى نفس أمارة بالخير ، بعيدة من الشر ، مدلولته على سبيل البر ... ووصف أعرابي رجلا بلون من ألوان البر وبالأمعية والذكاة والحصافة والأناة قال : كان - والله - الفهم منه ذا أذنين ، والجوابُ ذا لسانين ، لم أرَ أحداً كان أرتقَ لِيخللَ رأْيٍ منه ، ولا أبعدَ مسافةَ رويتهِ ومَرَادَ طَرْفٍ ، إنما يرمى بهمته حيث أشار إليه الكرم ، وما زال - والله - يتحصى حرارة أخلاق الإخوان ويتسقيهم عُذوبة أخلاقه ... « كان الفهم منه ذا أذنين : يريد أنه كان يعي ويتفطن لما يرى ويسمع فطنة أوفت على الغاية ، إذ أنها فطنة مضاعفة ، فكأن له أذنين . أما قوله : والجوابُ ذا لسانين : فإنما يريد قوة المعارضة واللسن ، وهذا غير قولهم : فلان ذو وجهين وذو لسانين ، يريدون : النفاق والذبذبة . ورتق الفتق : أصاحه ، والمراد : المكان من راد يرود : إذا جاء وذهب ، ويتحصى : يقال حسا الماء : شربه ، وتحساه : إذا شرب في مهلة ، وهو هنا مجاز ،

ومن كلمة لابن المقفع يصف الرجل يتلاقى البر في بُرديه بألوان شتى من المُثل العليا وأخلاق السادة ، في أسلوب بديع - وقد وردت هذه الكلمة في نهج البلاغة منسوبة لعلي بن أبي طالب رضی الله عنه - : كان لي أخٌ في الله ، كان أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عيني ، كان خارجا من سلطان بطنه ؛ فلا يتشهى ما لا يجِد ، ولا يُكثِر إذا وجد . وكان خارجا من سلطان فرجه ؛ فلا يدعو إليه ، وئوته ، ولا يستخف إليه رأيا ولا بدنا ، وكان لا يتأثر عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجا من سلطان لسانه ؛ فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يماري فيما علم . وكان خارجا من سلطان الجهالة ؛ فلا يُقدم أبدا إلا على ثقة بنفسه ، وكان

أكثرَ دهره صامِتًا ، فإذا قال برَّ القائلين ، وكان ضعيفا مستضعفا ، فإذا جسدَّ الجسدُّ فهو الليث عاديا ، وكان لا يدخل في دعوى ، ولا يشارك في وراء ، ولا يُدلي بوجهة ، حتى يرى قاضيا فهيمًا وشهودا عدولا ، وكان لا يلومُ أحدا فيما يكون العذر في مثله حتى يعلمَ ما عذرُه ، وكان لا يشكو وجعَه إلا عند من يرجو عنده البرَّ ، ولا يستشير صاحبًا إلا أن يرجو منه النصيحة . وكان لا يتبرم ولا يتسخط ، ولا يتشكى ولا يتشهى ، ولا ينتقمُ من العدو ولا يغفبلُ عن الوليِّ ، ولا يخصُّ نفسه بشيء دون إخوانه ، من اهتمامه وحيكته وقوته ... فمليك بهذه الأخلاق إن أطقها ، ولن تطيق ، ولكن أخذ القليل خيرٌ من ترك الجميع ... قوله كان لي أخ الح : فليس يعنى أخوا بعينه ولكن هذا كلام خارج يخرج المثل ، وعادة العرب جارية بذلك مثل قولهم في الشعر : قلت لصاحبي ، ويا صاحبي : وقوله : فلا يتشهى مالا يجسد ، فإن ذلك لعمرى من سقوط المروءة . قال الأحنف بن قيس : جئبوا مجالسنا ذكر تشهى الأطعمة وحديث السكاح ؛ ومن طرف الجاحظ مارواه عن نفسه : جاسنا في دار فملنا تشهى الأطعمة ، فقال واحد : أنا أشتهى سباجة كثيرة الزعفران ، وقال آخر : وأنا أشتهى هريسة كثيرة الدارصيني ... وإلى جانبنا امرأة بيننا وبينها بئرُ الدار ، فضربت الحائط وقالت : أنا حامل ، فأعطوني مِلَّة . هذه الغضارة - الصحيفة - من طبيخكم ، يقال نمامة بن الأشرس : جارتنا هذه تشم رائحة الأمانى وقوله : وكان ضعيفا مستضعفا : يريد : كئيب الجانب ، وطأ الأكناف ، ... وقرع رجلٌ بابَ بهض الخبيرين من السلف ، في ليل ، فقال لجارته : أبصرى من القارع ، فأتت البابَ فقالت : من ذا؟ قال أنا صديقُ مولاك ، فقال الرجل : قولى له : والله إنك لصديق ؟ فنالت له ذلك ، فقال :

والله إني لصديق ، فهض الرجل ويده سيف وكيسٌ يسوق جاربة ، وفتح الباب وقال : ماشأئك ؟ قال : راعنى أمر ، قال : لايك ماساءك ، فإني قد قسمتُ أمرك بين صديق : فهذا المال ، وبين عدو : فهذا السيف ، أو مشوق : فهذه الجارية . فقال الرجل : لله بلادك ، مارأيت مثلك . . . « أقول : هذه لعمرى هي أخلاق السادة النبلاء ذوى البر والمروءة والوفاء والحزم والظرف ، وكونٌ - وجود - أمثال هؤلاء من ذوى الإنسانية العالية هو الذى يُحسِّنُ ظننا بالحياة ويجملها فى أعيننا ، ويجعلها مُحتملة مطاقَةً ، لا كما نرى اليوم . . . » وقال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يصف رجلاً قليل الخير - أى لا خير فيه :-^(١)

أَبَى لَكَ فِعْلَ الْخَيْرِ رَأَى مُقَصِّرٌ وَنَفْسَ أَضَاقَ اللهُ بِالْخَيْرِ بِأَعْيَا
إِذَا مَا أَرَادَتْهُ عَلَى الْخَيْرِ مَرَّةً عَصَاهَا وَإِنْ هَمَّتْ بِشَرٍّ أَطَاعَهَا

ومن قولهم فى قائل الخير :

هُوَ فِي الْخَيْرِ قَطُوفٌ وَهُوَ فِي الشَّرِّ وَسَاعٌ

« القطوف من الإنسان والحيوان : البطيء المتقارب الخطو ، ووساع : واسع الخطو سريع السير ، ومن قولهم فى المتسارين فى الخير والشر . هما كَقَرَسَى رَهَانَ ، وهذا فى الخير ، وأما فى الشر فيقال : هُما كِحِمَارَى الْعِبَادَى . والعبادى : رجل من العباد ؛ وهم قوم من قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية فأَنِفُوا أَنْ يَتَسَمَّوْا بِالْعَبِيدِ وَقَالُوا : نحن العباد ، وقد نزلوا بالحيرة . ومنهم عَدَى بن زيد العبادى الشاعر المشهور . أما هذا العبادى فيروى أنه قيل له - أى حِمَارِيكَ شَرٌّ ؟ فقال : هذا ، ثم هذا !

(١) كان عبد الرحمن هذا قد سأل محمد بن عمرو وعامل سليمان بن عبد الملك حاجة فلم يقضها ، فسألها عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقضاهما ، فقال أبياتا منها هذان البيتان

وقال الأشعر الرقبان - وهو شاعر جاهلي من بني أسد - يخاطب ابن عمه

له يسمى رضوان ، يصفه بالشر واللؤم والنذالة والفسولة :

بِحَسْبِكَ فِي الْقَوْمِ أَنْ يَعْلَمُوا بِأَنَّكَ فِيهِمْ غَنِيٌّ مُضِرٌّ
وَقَدْ عَلِمَ الْمَعَشَرُ الطَّارِقُوكَ بِأَنَّكَ لِلضَّيْفِ جُوعٌ وَقُرٌّ
إِذَا مَا انْتَدَى الْقَوْمُ لَمْ تَأْتِهِمْ كَأَنَّكَ قَدْ وَلَدْتَكَ الْحُمُرُ
مَسِيخٌ مَلِيخٌ كَلَامِ الْحَوَارِ فَلَأَنْتَ حُلُوٌّ وَلَا أَنْتَ مُرٌّ

وقوله : غَنِيٌّ مُضِرٌّ ، فالمُضِرُّ : الذي له ضرةٌ من المال ، وهي القطعة من المال والإبل والغنم ، أو المال الكثير ، كما هنا ، وانتدى القوم : اجتمعوا في ناديم ، والمسيخ : الذي لا طعم له ، والمليخ مثله ، وخص به بعض اللغويين الحوار الذي ينجر حين يقع من بطن أمه فلا يوجد له طعم ، ونال ابن الأعرابي : المليخ من الرجال : الذي لا تشتهي أن تراه عينك فلا تجالسه ، ولا تسمع أذنك حديثه ، والحوار : ولد الناقة ساعة تضعه « ... ومما يحسن إيرادَه في هذا الباب لِلْبَسْتَةِ واشتباهاه قول عمر رضي الله عنه - وقد قيل له : فلان لا يعرف الشر - فقال : ذلك أوقع له فيه ، إذ أن معناه : أن لا يكون الإنسان مغفلا وإنما الواجب انفضة والحذر وسوء الظن بالناس ، لما أُجبل عليه سوادهم من الشر واللؤم والخداع ، وفي معناه يقول حكيم لابنه : استعد بالله من شرار الناس وكن من خيارهم على حذر ... وقد كان الفاروق رضي الله عنه لا يقنع له بالشنان^(١) وكان سيئ الظن بالناس ، يدل على ذلك شدته وصرامته

(١) لا يقنع له بالشنان : مثل ، أي لا يخدع ولا يروع ، وأصله من تحريك الجلد اليابس للبعير ليفزع ، ومعنى القعقة : التحريك ، والشنان : جمع شن وهو القرية الخلق أو الخلق - البالي - من كل وعاء صنع من جلد .

وحذرُهُ وسياسته الخازمة الرشيدة... «وبعد، فإنك ترى في باب طبائع الإنسان كثيرا من عقرياتهم في الشر ووصف الأشرار وحكمة امتزاج الخير بالشر في العالم ، كما أنه سيمرُّ بك قريبا كثير من عقرياتهم في التقوى وحسن الخلق...»

ومن أروع وأجمع ما قيل في البر على سائر ألوانه قوله جلّ شأنه : ليسَ البرَّ أنْ تُؤلُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَرِيَّةً قُرْبَىٰ وَيَتِيمًا وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ...

نزلت هذه الآية الكريمة بعد أن أكثر أهل الكتاب من يهود ونصارى، الخوض في أمر القبلة حين حول رسول الله إلى الكعبة ، وزعم كل من الفريقين أن البر هو التوجه إلى قبليته ، ففند الله سبحانه هذا الزعم وبهرجه وقال : ليس البر العظيم الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البر هو أمر القبلة ، ولكن البر الذي يجب الاهتمام به وصرف الهمة إليه هو بر من آمن وقام بهذه الأعمال... هذا ، وقوله . ليس البر أن تؤلوا ، فالبر بالنصب خبر ليس مقدم ، وأن تؤلوا ، وول بمصدر اسم ليس مؤخر ، وقوله : ولكن البر من آمن : إما مثل قول الخنساء (١) :

(١) الخنساء : هي تماضر بنت عمرو بن الشريد من سرورات قبائل بني سليم من أهل نجد ، أشعر النساء في عصرها أدركت الإسلام وأسلمت توفيت سنة ٢٤ هـ وقولها فإنما هي إقبال وإدبار ، من أبيات تراثها صخرها تقول فيها :

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ ﴾ أو تقول ؛ ولكنّ البرّ : أى ذا البرّ
أو تقول ، إنه على حذف مضاف ، أى يرّ من آمن . وقوله سبحانه : والكتاب ،
يعنى جنس كتب الله ، أو القرآن . وقوله : على حبه ، أى مع حُبّ المال
والشُّحِّ به ، وقَدَّم ذوى القربى لأنّ الإحسان إليهم أفضل ، كما وَرَدَ فى
الأثر : صَدَقْتُكَ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَى ذِي رَحِمِكَ اثْنَتَانِ ، صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ ،
وابن السبيل : المسافر المنقطع ، وقيل الضيف ؛ لأنّ السبيل يرْعَفُ به - أى
يتقدم به ويبرزه للقيمين كما يرْعَفُ الأنف بدم الرعاف - وقوله : وفى الرقاب : أى
وفى مُعَاوَنَةِ الْمَكَاتِبِينَ حَتَّى يَفْكَوْا رِقَابَهُمْ وَقِيلَ : فى شراء الرقاب وإعتاقها ،
وقيل : فى فكّ الأسارى . وقوله : والموفون بمهدم : عَطَفَ عَلَى مَنْ آمَنَ
وقوله : والصابرين ، فهو منصوب على المدح ، ولم يُعْطَفْ ، لفضل الصبر على
سائر الأعمال ، والبأساء ، أى فى الأموال كالنقر ، والضراء ، أى فى الأنفس
كالمرض . وحين البأس : أى وقت مجاهدة العدو ... أليست هذه الآية الكريمة
- كما قال الإمام البيضاوى ، وكاترى - جامعة للكلمات الإنسانية بأسرها ، دالة
عليها صريحا أو ضمنا ، فإنها على تشعبها منحصرة فى ثلاثة أشياء : صحة الاعتقاد ،
وحسن المعاشرة ، وتهذيب النفس . وقد أشير إلى الأول بقوله : مَنْ آمَنَ

فَمَا عَجُولٌ عَلَى بَوِّ مُطَيِّفٍ بِهِ لَهَا حَيْنَانٌ إِعْلَانٌ وَإِسْرَارٌ
تَرْتَعُ مَا غَفَلَتْ حَتَّى إِذَا ادَّكَّرَتْ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ
يَوْمًا بِأَوْجَدَ مِنِّي حِينَ فَارَقَنِي صَخْرٌ وَلِدَهْرٍ إِحْلَاءٌ وَإِسْرَارٌ
العجول من الإبل : الرواله التى فقدت ولدها ، لعجلتها فى جيبتها وذهابها جزعا
والبرّ : جلد ولد الناقة يحشى تبنا ونحوه ويقرب منها فتعطف عليه وتدّر ، وقولها : فإنما
هى إقبال وإدبار : جعلها نفس الإقبال والإدبار مبالغة ، أى أنها تنلهى عن الرعى فتقبل
وتدبر جزعا :

بالله . إلى : والنبیین ، وإلى الثاني بقوله : وآتى المال ... إلى : والرقاب ،
وإلى الثالث بقوله : وأقام الصلاة ... إلى آخرها . ولذلك وُصِفَ المستجمعُ
لها بالصدق ، نظراً إلى إيمانه واعتقاده ، وبالتقوى ، اعتباراً بمعاشرته للخلق
ومعاملته مع الحق سبحانه ، ولذلك قال عليه السلام : مَنْ عمل بهذه الآية فقد
استكمل الإيمان .

برُّ الوالدين وصِلَةُ الرَّحِمِ

وعقوباتهم في الآباء والأبناء والأقارب من بابات شتى *

وإليك شَدُّوا مِن عِبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي لَوْنٍ مِنَ ألوان البر لقد نراه بادي الرأى قليلَ
الخطر ، وهو عند الله الحقُّ ، ولى لقاء البال إليه ، وإنعام النظر فيه ، عظيمٌ
كُلِّ الْعِظَمِ ، خطير كلِّ الخطر ، ذلك هو صلة الرحم بعامة ، وبر الوالدين بخاصة ،
ولقد قرَنَ اللهُ بِرَّ الوالدين بالتوحيد ، وأكثر في كتابه المُنزَلِ مِنَ الحَضِّ .
على هذا البر بأسلوب يُحْيِلُ إلى السامع إليه أن برَّ الوالدين ركن من أركان
الدين ، وأساس من أسس الأخلاق لا يُؤَبِّه لساثرها بدونه ، وإنه لكذلك ،
وفي الحق إن هذه الإشادة البالغة من الإسلام ببر الوالدين وصلة الرحم
لمَّا يُعَدُّ من فضائل هذا الدين الحنيف وخصائصه التي يمتاز بها . فليُلقِ أبناءُ
اليوم بالهم إلى ذلك ، وليجعلوه دائماً نُصَبَ أعينهم ، إن كانوا يريدون الخير
لأنفسهم ، وإلا فلا يُبْعِدُ اللهُ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ . . . هذا وستسمع بادئ ذى بدءٍ خيرَ

(هـ) البابة عند العرب : الوجه ، والبابات الوجوه وأنشدوا التميم بن مقبل :

بنى عامر ماتاً مروناً بشاعرٍ تخير بابات الكتاب هجانياً

معناه : تخير هجائى من وجوه الكتاب ، ويقال فلان من أهون باباته الكذب
وهى أنواع خبثه ، وإذا قال الناس : هذا شئ من بابتي ، فمعناه من الوجه الذى أريده
ويصلح لى .

ما قالوا في هذا اللون من البر، ثم نعقبه بخير ما قالوا في الآباء والأبناء والأتارب، مما يتأشب إلى هذا المعنى، وينشعب به القول، ولا يخلو بعضه من طرافة، حتى نستوعب المنتقى من كلامهم في كل باب، وحتى يكون فيما يستطرف منه استراحة للقارئ وانتقال ينفى ملل الجِدِّ عنه... فمن ذلك ما يقول الله عز وجل - وتَنَجَّرُ أ بهذه الآية الكريمة الجامعة عن سائر الآيات التي يَزْتَحِرُّ بها كتاب الله في باب البرِّ بالوالدين - : وَآضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، وبالوالدين إحساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَوْفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صبغياً ، رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِهِمَا فِي نَفْسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ، وآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ... الآيات

«قوله سبحانه : وَآضَى رَبُّكَ : أى أمر امرأ مقطوعاً به ... وإِنَّهَا لَكَلِمَةٌ مُرْوَعَةٌ تَرْجُحُ النَّفْسَ رَجًّا وَتُزَلِّزُ أَرْجَاءَهَا زَلِيزًا شَدِيدًا . وَلَا جَرَمَ أَنَّهُ كِتَابُ اللَّهِ الَّذِي أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ . أَمَا قَوْلُهُ سَبْحَانَهُ : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ : أى قَضَى رَبُّكَ بَأَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ؛ لِأَنَّ غَايَةَ التَّعْظِيمِ لَا تَحِقُّ إِلَّا لِمَنْ لَهُ غَايَةُ الْعِظَمَةِ وَنَهَايَةُ الْإِنْعَامِ . وَقَوْلُهُ : وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا ، أى وَفَضَى بِأَنْ تُحْسِنُوا بِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا ، وَقَوْلُهُ : إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا ، فَإِمَّا : هِيَ إِنْ الشَّرْطِيَّةُ زِيدَتْ عَلَيْهِمَا تَأْكِيدًا لَهَا ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : إِنْ يَبْلُغَنَّ ، وَأَحَدُهُمَا فَاعِلٌ يَبْلُغَنَّ ، وَأَوْفٍ : صَوْتٌ يَدُلُّ عَلَى التَّضَجُّرِ ، وَعِنْدَكَ : قَالَ الزَّمخَشَرِيُّ : مَعْنَاهُ : أَنْ يَكْبُرَا وَيُعْجِزَا وَيَصِيرَا كَلًّا عَلَى وَلَدِهِمَا لِأَكْفَالِهِمَا غَيْرِهِ ، فُهِمَا فِي بَيْتِهِ وَكَتْفِهِ ، وَذَلِكَ أَشَقُّ عَلَيْهِ وَأَشَدُّ أَحْتِمَالًا وَصَبْرًا ، وَرَبِّمَا تَوَلَّى مِنْهُمَا مَا كَانَ يَتَوَلَّى مِنْهُ فِي حَالِ الطُّفُولَةِ ، فَهُوَ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَسْتَعْمَلَ مَعَهُمَا وَطَأَةَ الخُحِّ وَرَيْنَ الْجَانِبِ

والاحتمال ، حتى لا يقول لهما - إذا أضجره ما يُستقَدَّر منهما أو يستثقل
من دُونهما - : أْفِ ، فضلا عما يزيد على أْفٍ ... قال : ولقد بالغ سبحانه
في التوصية بهما كما ترى ، حيث افتتح الآية بأن شَفَعَ الإحسان إليهما بتوحيده ،
ونظمهما - التوحيد والإحسان إلى الوالدين - في سلك القضاء - الأمر -
بهما مدا ، ثمَّ ضَيَّقَ الأمر في مراعاتهما حتى لم يُرَخِّص في أدنى كلمة تفلت
من المتضجر ، مع موجبات الضجر وممتضياته ، ومع أحوال لا يكاد يدخل
صبر الإنسان معها في الاستطاعة ... وتوله : ولا تهرهما : أى لا تنهههما عما
يتعاطيانه بما لا يعجبك ، وقل لهما قولا كريما : أى جيلا ، كما يقتضيه حسن
الأدب والنزول على المروءة . وتوله سبحانه : واخفض لهما جناح الذل ،
قال الإمام الزمخشري : فيه وجهان : أحدهما أن يكون المعنى : واخفض
لهما جناحك كما قال : واخفيض جناحك للمؤمنين ، فأضافه إلى الذلِّ أو الذلِّ^(١)
كما أضيف حاتم إلى الجود ، على معنى واخفض لهما جناحك الذليل أو
الذلول ، والثاني : أن تجعل لِدُلَّة أو لِدِلَّة لهما جناحا خفيا كما جعل لبيدٌ
- الشاعر المخضرم - للشمالَ يدًا وللقرَّة زماما^(٢) مُبالغة في التذلل والتواضع
لهما ، وتوله سبحانه : من الرحمة : أى من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما
لِسكَبَرِهِما وافتقارهما إلى مَنْ كان أفقر خاق الله إليهما بالأمس ،

(١) الذل الأول من ذل ذلافهوذليل بمعنى الخضوع ، والذل الثاني بكسر الذال ،

وبضها أيضا - من ذل يذل فهو ذلول بمعنى اللين (٢) في قوله من معلقته :

وَعَدَاةٍ رِيحٍ قَدْ كَشَفَتْ وَرِقْرَةَ إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا

• القرَّة : البرديقول لبيد : كم من غداة تهب فيها الشمال - وهى أبرد الرياح - وبرد قد

ملكته الشمال زمامه ، قد كفت عادية البرد عن الناس بنحر الجزر لهم ، وتحرير المعنى :
كم من برد كفت غرب عادته ياطعام الناس .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: رَضَا اللهُ فِي رِضَاِ الْوَالِدَيْنِ، وَوَسَخَطُهُ فِي سَخَطِهِمَا. وَرَوَى: يَفْعَلُ الْبَارُّ مَا يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَيَفْعَلُ الْعَاقُ مَا يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ: وَقَالَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ: إِنَّ أَبَوَيَّ بَلِغَا مِنَ السِّكْبَرِ أَنْ أَلِيَ مِنْهُمَا مَا وَاوَلِيَا مِنِّي فِي الصَّغَرِ، فَهَلْ قَضَيْتُهُمَا حَقَّهُمَا؟ قَالَ: لَا، فَإِنِمَا كَانَا يَفْعَلَانِ ذَلِكَ وَهَمَا يُحِبَّانِ بَقَاءَكَ، وَأَنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ وَأَنْتَ تَرِيدُ مَوْتَهُمَا: وَعَنْ حُدَيْفَةَ: أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَتْلِ أَبِيهِ وَهُوَ فِي صَفِّ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: دَعُهُ يَلِدُ غَيْرُكَ. وَسُئِلَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ عَنِ الرَّوَالِدَيْنِ، فَقَالَ: أَنْ لَا تَقْرَمَ إِلَى خِدْمَتَيْهِمَا عَنِ كَسَلٍ، وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ: قَالَ: أَنْ لَا تَرْفَعَ صَوْتَكَ عَلَيْهِمَا، وَلَا تَنْظُرَ شِزْرًا إِلَيْهِمَا، وَلَا يَرِيَا مِنْكَ مُخَالَفَةً فِي ظَاهِرٍ وَلَا بَاطِنٍ، وَأَنْ تَسْتَرْحِمَ عَلَيْهِمَا مَا عَاشَا، وَتَدْعُو لَهَا إِذَا مَاتَا، وَتَقْرَمَ بِخِدْمَةِ أُودَارِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا، فَعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنْ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وَدِّ أَبِيهِ... أَمَا قَوْلُهُ تَعَالَى: وَأَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ: فَهَذَا تَوْصِيَةٌ بِغَيْرِ الْوَالِدَيْنِ مِنَ الْإِقْرَابِ بَعْدَ التَّوَصِيَةِ بِهِمَا، يَقُولُ سَبْحَانَهُ: آتَوْهُمْ حَقَّهُمْ، وَحَقَّهُمْ صَلَّتُهُمْ بِالْمُودَةِ وَالزِّيَارَةِ وَحَسَنِ الْمَعَاشِرَةِ وَالْمُؤَالَفَةِ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْمَعَاوَدَةِ إِنْ كَانُوا مِيَاسِيرَ، وَتَعَهُدُهُمْ بِالْمَالِ إِنْ كَانُوا عَاجِزِينَ عَنِ الْكَسْبِ

« انظر التفصيلات في كتب الفقه » وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: إني أريد الغزو، فقال عليه الصلاة والسلام: أحى أبواك؟ قال: نعم، قال: فإنيهما فجاهد. وسئل الحسن البصري رضي الله عنه عن برّ الوالدين، فقال: أن تبذل لهما ما ملكت، وتطيعهما فيما أمراك، ما لم يكن معصية، وآية ذلك قوله تعالى: وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس

لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعِمُهُمَا، وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ...

وَمَا يُؤْتِرُ مِنْ أَخْبَارِ الْبِرَّةِ : مَا يَقُولُ الْمَأْمُونُ بْنُ الرَّشِيدِ : لَمْ أَرَ أَحَدًا
أَبْرَّ مِنْ الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى - الْبُرْمَكِيِّ - بَأْيِهِ ، بَلَغَ مِنْ بِرِّهِ بِهِ أَنْ يَحْيَى كَانَ
لَا يَتَوَضَّأُ إِلَّا بِمَاءِ مُسَخَّنٍ وَهُمَا فِي السِّجْنِ ، فَتَمَّعَهُمَا السَّجَّانُ مِنْ إِدْخَالِ الْخَطْبِ
فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ ، فَقَامَ الْفَضْلُ - حِينَ أَخَذَ يَحْيَى مَضْجَعَهُ - إِلَى قُمْصَةٍ ^(١) كَانَ يُسَخِّنُ
فِيهِ الْمَاءَ ، فَلَاهُ ثُمَّ أَدْنَاهُ مِنَ الْمَصْبَاحِ ، فَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا وَهُوَ فِي يَدِهِ حَتَّى
أَصْبَحَ ... وَقِيلَ لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ : إِنَّكَ
مِنْ أَبْرِّ النَّاسِ بِأَمِّكَ وَلَسْنَا نَرَاكَ تَأْكُلُ مَعَ أُمَّكَ فِي صَحْفَةٍ ، قَالَ : إِنِّي أَخَافُ
أَنْ تَسْبِقَهَا يَدِي إِلَى شَيْءٍ سَبَقَتْ عَيْنُهَا إِلَيْهِ فَأَكُونَ قَدْ عَقَقْتُهَا . وَقِيلَ
لِعُمَرَ بْنِ ذَرٍّ ^(٢) - وَقَدْ مَاتَ ابْنُهُ - : كَيْفَ كَانَ بِرُّ آبْنِكَ بِكَ ؟ قَالَ :
مَا مَاشَيْتُهُ قَطُّ نَهَارًا إِلَّا مَشَى خَلْفِي ، وَلَا لَيْلًا إِلَّا مَشَى أَمَامِي ، وَلَا رَقِيَّةَ
سَطَّحًا وَأَنَا تَحْتَهُ .

وَمَا يَرُوى فِي بَابِ الْعُقُوقِ وَأَحْوَالِ الْعَقَقَةِ : « وَالْعُقُوقُ ضِدُّ الْبِرِّ » ،

(١) إِنَاءٌ مِنْ نَحَاسٍ يُسَخَّنُ فِيهِ الْمَاءُ (٢) هُوَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ذَرِّ بْنِ زُرَّارَةَ بْنِ مَسْعُودِ الْهَمْدَانِيِّ
كَانَ وَعَظْمًا بَلِيغًا وَعَابِدًا صَالِحًا وَكَانَ ابْنُهُ - وَاسْمُهُ ذَرٌّ - مَبَارِكًا طَبِيعًا لَهُ . دَخَلَ يَوْمًا عَلَى
ابْنِهِ وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَقَالَ : يَا بَنِيَّ ، إِنَّهُ مَا عَلَيْنَا مِنْ مَوْتِكَ غَضَاظَةٌ - ذَلْ وَانْكَسَارٌ وَفُتُورٌ -
وَلَا بِنَا إِلَى أَحَدٍ سِوَى اللَّهِ حَاجَةٌ . فَلَمَّا مَاتَ وَصَلَّى عَلَيْهِ وَوَارَاهُ وَقَفَ عَلَى قَبْرِهِ ؛ وَقَالَ :
يَا ذَرُّ ، قَدْ شَغَلْنَا الْحَزْنَ لَكَ عَنِ الْحَزَنِ عَلَيْكَ ، لِأَنَّا لَا نَدْرِي مَا قَلْتَ وَمَا قِيلَ لَكَ . اللَّهُمَّ
إِنِّي وَهَبْتُ لَهُ مَا قَصَرَ فِيهِ مِمَّا افْتَرَضْتَ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّ ، فَهَبْ لَهُ مَا قَصَرَ فِيهِ مِنْ حَقِّكَ
وَاجْعَلْ ثَوَابِي عَلَيْهِ - يَرِيدُ ثَوَابَ صَبْرِهِ - لَهُ ، وَزِدْنِي مِنْ فَضْلِكَ ، إِنِّي إِلَيْكَ مِنَ الرَّاعِيَيْنِ
قَالَ ابْنُ خُلِّكَانَ : وَكَانَ عُمَرُ الْمَذْكُورُ يُعَدُّ مِنَ الْمَرْجُئَةِ ، وَتُوفِيَ سَنَةَ ١٥٥ هـ

وأصله من العتق وهو الشق والقطع ، يقال عتق الولد والدته يُعقِّه عتقا وعتوقا ومعقَّةً : إذا شق عصا طاعته ، وعتق والدته : قطعتهما ولم يصل رحمه منهما وقد يُعمُّ بلفظ العتوق جميع الرحم ، والولد عاق ، والجمع عَقَقَةٌ ، مثل كَفَرَةٌ « فمن قوَّلم في العتوق : العتوقُ نُكَلُّ من لا يُشكَلُ » الشكل الموت والحلاك ، وأكثر ما يُستعملُ في فقدان الرجل والمرأة ولدَهما ، يعنون أن من ابتلى بولدٍ عاقٍ فكأنه نُكِلَهُ ، وقال بعضهم لابن له عاقٍ : أنت كالإصْبَعِ الزائدة ، إن تُرِكَتْ شانتُ وإن قُطِعتْ آذت ... وقيل لأعرابيٍّ كيف ابنُك ؟ - وكان عاقاً - فقال : عَذَابُ رَعِيفٍ به الدهر ، فَلَيتَنِي قَدْ أودَعْتُهُ القبرَ ، فإنه بلاءٌ لا يقاومه الصبر ، وفائدة لا يجب فيها الشكر قوله رَعِفَ به الدهر : يريد تقدم به الدهر وعَجِلَ ،

وأورد أبو العباس المبرد في الكامل هذه الأبيات لامرأة يقال لها أم ثواب الهزانية ، في ابنها - وكان لها عاقاً - وقد اختارها أبو تمام في حماسته :

رَيْتُهُ وَهُوَ مِثْلُ الفَرخِ أَعْظَمُهُ	أُمُّ الطَّعَامِ تَرى فِي ريشِهِ زَعْبًا
حَتَّى إِذَا آضَ كالفُحَالِ سَدَبُهُ	أَبَارُهُ وَتَفَى عَن مَسْتَبِيهِ الكَرْبَا
أَنْشَا يُخَرِّقُ أَنْوَابِي وَيَضْرِبُنِي	أَبْعَدَ سِتِّينَ عِنْدِي يَبْتغِي الأَدبَا
إِنِّي لَا بُصِيرُ فِي تَرْجِيلِ لِمَتِهِ	وَحَطَّ لِحَيَّتِهِ فِي وَجْهِهِ عَجَبَا
قَالَتْ لَهُ عِرْسُهُ يَوْمًا لِتُسْمِعَنِي	رِفْقًا بِإِنِّ لَنَا فِي أُمَّنَا أَرْبَا
وَلَوْ رَأَيْتَنِي فِي نَارٍ مُسْعِرَةٍ	مِنَ الجَحِيمِ لَزَادَتْ فَوْقَهَا حَطْبَا

« هذه أبيات من شعر الفطرة ، تصف في دقة حال الابن العاق يكون ضلعه وهواه مع زوجته على أمه ، وكذلك تصف ذلك العداء القديم بين الكنة

وسمّاها^(١)، وقولها: أعظمه أمّ الطعّام، وصف للفرخ، ومعناه: أكبر
أعضائه أمّ الطعّام: أى معدته، وكذلك قولها: ترى فى ريشه زغبا: وصف
آخر للفرخ، والزغب: أول ما يبدو من ريش الفرخ، تصف ضعف نشأة
ابنها، وآض: صَارَ، والفُحّال: فحال النخل، أى الذكْر منه، وأبارُه: الذى
يصاحبه يقال: أبرت النخل: إذا لَقَحْتَهُ، وشدّبه: قطع ما عليه من الكرائيف
وهى أصول السّعف الغلاظ التى إذا يَبَسَتْ صارت أمثال الأكتاف،
ومته: فتن كل شيء مظهر منه، والكرب: ما يبقى من أصول السّعف فى النخل
تريد: حتى إذا بلغ أشده واستوى طوله، وأنشأ: أصله أنشأ، تريد: أبدأ
وأقبل، وقولها: أبعدين عندى يتغنى الأدبا، تريد: أن ضربه إياها يريد تأديها
بعد أن بلغت الستين حق منه وعبت^٢، إذ من العناء رياضة الحرّم، وقولها:
إنى لأبصر... البيت، فاللمة: الشعر الذى يلم بالمنسكب، والترجيل: تسريح الشعر
تصفه بالحسن والجمال، وعرسه: زوجته، وأمنأ... أضاقها إلى نفسها خديعة،
وأربا: حاجة، تريد: لا ينبغي لك أن تهينها... .

وقيل لرجل أبطأ فى الزواج: لم أبطأت؟ فقال: أريد أن أسبق أولادى
فى اليُسّم قبل أن يسبقونى فى العقوق...

وأورد المبرّد أيضا عن رجل يسمى أبا المَحْش حديثا طريفا قال:
قال أبو المَحْش: كانت لى ابنة تجلس معى على المائدة فتمبرز كفا كأنها
طلّعة، فى ذراع كأنها جمارة، فلا تقع عينها على أكلة نفيسة إلا خصّتى بها

(١) الكنة: امرأة الابن - وامرأة الإخ أيضا - والحماة: أم زوجها؛ قال الشاعر:
إن الحماة أولعت بالكنة وأت الكنة إلا ضنّه

فَزَوَّجْتُهَا .. وصار يجلس معي على المائدة ابن لي ، فَيُسْبِرُ كَمَا كَانَتْهَا
 كِرْنَاقَةً ، فِي ذِرَاعِ كَانَتْهَا كَرَبَةً ، فَوَاللَّهِ إِنْ تَسْبِقُ عَيْنِي إِلَى لُقْمَةِ طَيِّبَةٍ إِلَّا
 سَبَقَتْ يَدُهُ إِلَيْهَا ... « الطَّلَعَةُ فِي كَلَامِ أَبِي الْمِنْخَشِ هَذَا جَمْعُهَا طَلَعٌ ، وَهُوَ تَوْرُ
 النَّخْلَةِ مَا دَامَ فِي الْكَافُورِ ، وَهُوَ عَاوُهُ الَّذِي يَنْشَقُّ عَنْهُ ، وَالْجَمَارَةُ : شِجْمَةُ النَّخْلَةِ
 الَّتِي إِذَا قَطَعْتَ قِمَّةَ رَأْسِهَا ظَهَرَتْ كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ سَنَامٌ ، وَالْكَرْنَاقَةُ : طَرْفُ
 الْكَرْبَةِ الْعَرِيضِ الَّذِي يَتَّصِلُ بِالنَّخْلَةِ كَأَنَّهُ كَتْفٌ ، وَقَوْلُهُ : إِنْ تَسْبِقُ عَيْنِي
 فَإِنَّ نَافِيَةَ بِمَعْنَى مَا »

وأورد أبو تمام في باب الهجاء من حماسته لأحد الشعراء أياتاً لها قصة
 فيها اعتبار لمن أراد أن يعتبر من عَقَقَةِ الأبناء ، وإليك هذه القصة والأيات :
 كان في زمن عبد الملك بن مروان رجل يُسَمَّى مُنَازِلَ بْنَ فُرْعَانَ ، وَكَانَ
 لِمُنَازِلِ هَذَا ابْنٌ يُقَالُ لَهُ خَلِيْجٌ - وَهُوَ مِنْ رَهْطِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ - فَعَقَّ
 خَلِيْجٌ أَبَاهُ مُنَازِلًا ، فَقَدَّمَهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَرَبِيِّ ، وَالِى الْيَمَامَةِ ، مُسْتَعْدِيًا
 عَلَيْهِ - وَقَالَ :

تَظَلَّنِي حَقِّي خَلِيْجٌ وَعَقَى	عَلَى حِينٍ كَانَتْ كَالْحَنِي عِظَامِي (١)
لَعَمْرِي لَقَدْ رَبَّيْتُهُ فِرْحًا بِهِ	فَلَا يَفْرَحُنْ بَعْدِي أَمْرٌو بُلْغَامِ
وَكَيْفَ أُرَجِّي النِّفْعَ مِنْهُ وَأُمُهُ	حَسْرَامِيَّةٌ ؟ مَا غَرَّنِي بِحَرَامِ (٢)
وَرَجَّيْتُ مِنْهُ الْحَيَرَ حِينَ اسْتَزَدْتُهُ	وَمَا بَعْضُ مَا يَزْدَادُ غَيْرَ غَرَامِ (٣)

(١) كانت كالحني عظامي : أى كانت عظامي كالحني ، وهو جمع حنية ، وهي القوس ،
 لأنها حنية ، أى معطوفة

(٢) حرامية : نسبة إلى حرام وهي قبيلة

(٣) الغرام هنا : العذاب والشر الدائم والبلاء الذي لا يستطيع أن يتفصى منه قال

تعالى : إن عذابها كان غراما : أى هلاكا دائما ملحا

فأراد إبراهيم بن عَرَبِي ضَرْبَهُ ، فقال : أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ ، لا تَعْجَلْ عَلَى
أَتَعْرِفَ هَذَا ؟ قال : لا ، قال : هَذَا مُنَازِلُ ابْنِ فُرْعَانَ ، الَّذِي عَقَّ أَبَاهُ ، وَفِيهِ
يَقُولُ أَبُوهُ :

جَزَتْ رَحِمُ بَيْنِي وَبَيْنَ مُنَازِلِ جَزَاءَ كَمَا يَسْتَنْزِلُ الدِّينَ طَالِبُهُ (١)
لَرَبِّيْتُهُ حَتَّى إِذَا آضَ شَيْظَمًا يَكَادُ يُسَارِي غَارِبَ الفَجْلِ غَارِبُهُ (٢)
فَلَمَّا رَأَى أَبْصَرَ الشَّخْصَ أَشْخَصًا قَرِيبًا وَذَا الشَّخْصِ البَعِيدِ أَقَارِبُهُ (٣)
تَعَمَّدَ حَتَّى ظَلِمْنَا وَلَوْ يَدِي لَوْ يَدُهُ اللهُ الَّذِي هُوَ غَالِبُهُ (٤)
وَكَانَ لَهُ عِنْدِي إِذَا جَاعَ أَوْ بَكَى مِنَ الزَّادِ أَحْلَى زَادِنَا وَأَطْيَبُهُ
وَرَبِّيْتُهُ حَتَّى إِذَا مَا تَرَكَتُهُ أَخَا القَوْمِ وَأَسْتَعْنَى عَنِ المَسْحِ شَارِبُهُ (٥)
وَجَمَعْتُهَا دُهِمًا جِلَادًا كَأَنَّهَا أَشَاءُ نَحِيْلٍ لَمْ تُقَطَّعْ جَوَانِبُهُ (٦)

(١) يدغو على ابنه منازل ، وجعل فعل الجزاء للرحم والجازي هو الله سبحانه
يقول : جرى الله منازل على الرحم أى القرابة التى بينى وبينه - فقد قطعها - جزاء
يستوفى له وعليه ، كما يستنزل صاحب الدين حقه من المدين

(٢) الشيطان : الطويل ، ولربيتته : جواب قسم انطوى عليه الكلام ، وربيتته وربيتته
وترببته وربته تربيبا : بمعنى واحد ، وآض : صار ، وأصل الغارب فى الإبل - وهو
ما يكون قدامه السنام - ثم استعير حتى قيل لأعلى كل شئ : غوارب ، يقول : إنه رباه
حتى يبلغ مبلغ الرجال

(٣) قريبا : حال ، والمعنى : أبصر الشخص مقاربا ، أى أبصره - وأقارب منه - أشخصا ،
وأقاربه : أظنه قريبا ، يقول : لما رأى شيئا كبيرا ضعف نظره واختلقت مواقع
بصارتة حتى يرى الشخص القريب منه شخصا ويرى الشخص البعيد منه قريبا
(٤) تعمد حتى : ستره وأخفاه ، وقوله : ولوى يدي : أى قتلها وأزالها عن
حالتها وهيئتها

(٥) أخا القوم : قال الإمام التبريزي : نصب أخا القوم على الحال من الهاء فى
تركته ، وجاز كونه حالا وإن كان معرفة فى اللفظ لأنه لا يعنى قوما بأعيانهم وإنما
يريد تركته قويا لاحقا بالرجال (٦) وجمعتها : الضمير إلى الخيل وإن لم

فَأَخْرَجَنِي مِنْهَا سَلِيْبًا كَأَنِّي حُسَامُ يَمَانٍ فَارَقْتُهُ مَضَارِبُهُ^(١)
 أَنْ أُرْعَشْتُ كَفًّا أَيْكَ وَأَصْبَحْتُ يَدَاكَ يَدَيَّ لَيْثٌ فَإِنَّكَ ضَارِبُهُ^(٢)
 فقال الوالي : يا هذا ، عَقَقْتُ فَعُقِقْتُ ، فَمَا لَكَ مَثَلًا إِلَّا قَوْلُ خَالِدِ
 لِأَبِي ذُوَيْبٍ :

فَلَا تَجْزَعَنَّ مِنْ سِيْرَةٍ أَنْتَ سِرَّتَهَا فَأَوْلُ رَاضِي سِيْرَةٍ مَنْ يَسِيْرُهَا
 قال الإمام التبريزي : وذلك أن أبا ذُوَيْبٍ^(٣) هذا كان غلاما ، وكان
 لِرَجُلٍ صَدِيقَةً ، فكان الرجل يبعث أبا ذُوَيْبٍ إلى صديقته بالرسائل ، فلما
 ترعرع أبو ذُوَيْبٍ كسرها على الصديق - يريد أفسدها وأمالها عنه إليه - ،
 ولما تزَّجَّجَ أبو ذُوَيْبٍ - يريد صار رجلا - مُنِعَ منها وحُجِّبَتْ عنه
 وحجب عنها ، فكان يبعث خالدا إليها بالرسائل ، وخالد يومئذ
 غلام ، فلما ترعرع خالد كسرها على أبي ذُوَيْبٍ ، فقال أبو ذُوَيْبٍ يعنف
 المرأة :

تُرِيدِينَ كَيْ تَجْمَعِيَنِي وَخَالِدَا وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ وَرَيْحُكَ فِي غَمْدِ
 وَجَعَلَ يُؤَنِّبُ خَالِدَا ، فَقَالَ خَالِدٌ :

يذكرها وهذا أسلوب معروف لهم ، ودعما : جمع أدم ، وهو الأسود ، وجلادا : صلابا ،
 والأشياء بالفتح والمد : صغار النخل وقيل النخل عامة واحده أشامة (١) السليب : الذي سلب
 ماله ، استعاره من الشجر يسلب ورقه ويعزى منه ، والمضارب : جمع مضرب : حد السيف ،
 يقول : لما جمعت من الخيل الدم الجلاد ما جمعت وأعدتها لي وله ، عدا على بعد
 أن ريته وبلغ مبلغ الرجال وجزدني من الخيل وتركني سليا ، فأشبهه حال السيف
 البان القاطع تقلل حده (٢) أرعشت كفا أيك : يريد : أبعث أن كبر أبوك وبلغ
 من الكبر عتيا وأصبحت أنت شابا قويا ، تجترئ عليه وتمينه وتضربه
 (٣) أبو ذُوَيْبٍ هذا هو الشاعر أبو ذُوَيْبٍ الهذلي ، وخالد هو ابن أخته ، والمرأة
 هي امرأة رجل يقال له عبد عمرو بن عامر من بني عامر بن صعصعة ، انظر أمثال
 الميداني في شرحه هذا المثل ولا تجزعن من سيرة أنت سرتها ، ،

فلا تَجَزَّعَنَّ مِنْ سِيرَةِ أَنْتَ سِرَّتِهَا البيت
 ولأُمَيَّةَ بنِ أَبِي الصَّلْتِ الشَّاعِرِ الجَاهِلِي (١) آيَاتُ حَسَانٍ يُشْكُو فِيهَا هُوَ
 الأَخْرُ ابْنَهُ الذِي عَقَّه وَأَسَاءَ إِلَيْهِ: وَقَدْ اخْتَارَهَا أَبُو تَمَامٍ فِي حِمَاسَتِهِ قَالَ:
 عَذَوْتُكَ مَوْلودَا وَعُائِكَ يَا بَعَا تُعَلُّ بِمَا أُذِنِي إِلَيْكَ وَتُنْهَلُّ (٢)
 إِذَا لَيْلَةٌ نَابَتِكَ بِالشَّكْوِ لَمْ أَبَيْتْ لِشَكْوَاكَ إِلَّا سَاهِرًا أَتَمَّلُّ (٣)
 كَأَنِّي أَنَا المَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي طُرِقْتَ بِهِ دُونِي وَعَيْتِي تَهْمَلُّ (٤)
 فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالغَايَةَ الَّتِي إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أَوْمَلُّ
 جَعَلْتُ جِرَائِي مِنْكَ جَبْهًا وَغَلْظَةً كَأَنَّكَ أَنْتَ المُنْعَمُ المُنْتَفِضُّ (٥)

(١) اسمه عبد الله بن ربيعة بن عوف من بني بكر بن هوازن . وكان ممن حزم
 الخزفي الجاهلية ورفض عبادة الأوثان والتمس الدين وطمع في النبوة فلما بعث سيدنا
 رسول الله صلى الله عليه وسلم حسده وقال : إنما كنت أرجو أن أكونه
 (٢) وعائك : من عال عياله يعولهم : كفاهم معاشهم ، ويروى : ومنتك ، من مان
 أهله يورثهم مونا : أنفق عليهم ، وياقما : شابا ، من أيقع الغلام مثل أبقل الموضع فهو
 ياقل وأورق النبت فهو وارق وأورس فهو وارس وأقرب فهو قارب : إذا
 قربت إليه من المساء ليلا ، وكلهن نوادر ، وتعل من عله يعله : سقاه ثانية ، وتهل من
 أنهله : سقاه أول سقية ، يرد ، إطعامه وسقيه مرة بعد أخرى
 (٣) الشكو : المرض نفسه قاله الليث وأنشد :

أَخِي إِنْ تَشَكَّى مِنْ أَدَى كُنْتُ طِبَّهُ وَإِنْ كَانَ ذَاكَ الشَّكْوُ بِي فَأَخِي طِبِّي
 وَأَتَمَّلِلُ : يريد يتقلب على فراشه من غمه عليه . قال اللغويون : إذا نبا بالرجل
 مضجعه من هم أو وصب قيل قد تملل ، وأصله أتملل ، من الملة وهي الرماد الحار يدفن
 فيه الخبز لينضج كأن المتقلب على فراشه من الهم يتقلب على تلك الملة
 (٤) المطروق من طرقه الهم يطرقه - بالضم - طرقا : أتاه ونزل به ، مجاز من طرق
 القوم : جاءهم ليلا ، وتهمل : تسيل وتفيض وقد هملت عينه تهمل - بالضم والكسر -
 هملا وهملانا : سالت وقاضت (٥) جنبها مصدر جنبه بالمكروه : استقبله به ،
 وذلك مجاز من جنبه : صك جنبته . ويروى : جعلت جرائي غلظة وفضاظة

فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرَ حَقَّ أَبِيِّ فَقَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمُجَاوِرُ يَفْعَلُ^(١)
 وَتَسَمَّيْتَنِي بِاسْمِ الْمُنْفِنِ زَايُهُ وَفِي رَأْيِكَ التَّفْنِيدُ لَوْ كُنْتَ تَعْقِلُ^(٢)
 تَرَاهُ مُعِدًّا لِلْخِلَافِ كَأَنَّهُ بَرَدٌ عَلَى أَهْلِ الصَّوَابِ مُوَكَّلٌ^(٣)

* * *

ومن المستطرف من أقوالهم في الأولاد المتخلفين : ما يُروى أن رجلاً
 بعث ابنه ليُشترى حبلاً ، فقال له : آجعله عشرين ذراعاً ، فقال الولد :
 في عرض كم ؟ قال : في عرض مُصيبي فيك . . وكان لأبي العباس المبرّد
 صاحب الكامل ابنٌ متخلفٌ ، فقيل له يوماً : غَطَّ سَوْءَ تَك ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى
 رَأْسِ ابْنِهِ . . وقيل لصبيٍّ : لِمَ لَا تَتَعَلَّمُ الْآدَبَ ؟ فقال : إِنِّي أَخَافُ أَنْ أُكْذِبَ
 وَالِدِي ، لِأَنَّهُ قَالَ لِي : إِنَّكَ لَا تَفْلُحُ أَبَدًا . . .

* * *

هذا وكما أن لوالدك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حقٌّ : وما ورد
 في ذلك ما جاء في الحديث : من حَقَّ الْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ أَنْ يُحْسِنَ آدَبَهُ ، وَأَنْ
 يُعِفَّهُ إِذَا بَلَغَ . « أَنْ يُحْسِنَ آدَبَهُ : أَنْ يُعْنَى بِرَبِيَّتِهِ وَتَهْدِيَّتِهِ وَتَعْلِيمِهِ ،
 وَأَنْ يُعِفَّهُ : أَيِ يَعْمَلُ عَلَى أَنْ يَكُونَ عَفَاً عَنِ الْحَرَامِ فِي زَوْجِهِ ، . . . وَقَالَ حَكِيمٌ
 مِنْ آدَبِ وَلَدِهِ صَغِيرًا ، مُرَّبِّهِ كَبِيرًا ، وَقَالُوا : مَنْ آدَبَ وَلَدَهُ ، أَرْغَمَ حَاسِدَهُ .
 وَمِنْ آدَابِ الْإِسْلَامِ : إِذَا بَلَغَ أَوْلَادُكُمْ سَبْعَ سِنِينَ فَفَرِّوهُمْ بِالطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ
 وَإِذَا بَلَغُوا عَشْرًا فَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا ، وَإِذَا بَلَغُوا ثَلَاثَةَ عَشْرٍ فَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي
 الْمَضَاجِعِ ؛ وَمِنْ كَلَامِهِمْ : لَا عَيْبَ ابْنِكَ سَبْعًا وَعَلَيْهِ سَبْعًا وَجَالَسْ بِهِ إِخْوَانَكَ .

(١) كما الجار المجاور يفعل : أي كما يراعى الجار حق الجوار من الوفاء به

(٢) المنفند رأيه : اسم مفعول من فند رأيه : خطأه (٣) معددا : اسم فاعل .

أعد الأمر عدته : هياه له

سبعاً يتبين لك أخلفٌ هو بعدك أم تخلفٌ « الخلف - بفتح اللام : الولد الصالح ، والخلف - بسكونها : الطالح ، تقول : أعطاك الله خلفاً مما ذهب لك ولا تقل خلفاً ، وتقول أنت خلفٌ سوء من أبيك ، هذا هو الأعراف عند أهل اللغة ^(١) ، وقال رجل لأبيه . يا أبت ، إن عظيم حَقِّكَ على لا يُدْهِبُ صغيرَ حَقِّي عليك ، وإن الذي تمتُّ به إلى أمتُ بمثله إليك ، ولست أزعِمُ أننا على سواء ، ولكن لا يجِلُّ الاعتداء ...

وقالوا : إنَّ الولدَ البارَّ أبرُّ من الوالدِ ، لأنَّ برَّ الوالدَيْنِ طبيعةٌ ، وبرُّ الولدِ واجبٌ ، والواجبُ أبداً ثقيلٌ ، ولعلَّ المنتهي ينظر إلى هذا المعنى إذ يقول :

إنما أنت والدٌ والأبُّ القا طعُ أحنى من واصلِ الأولاد

وبما يستطرف في هذا الباب ما يروى من احتجاج بعض العقبة لعقوقهم : فقد قيل لبعض الفلاسفة : لم تعقُ والدَيْكَ ؟ قال : لأنهما أخرجاني إلى الكون والفساد ... وضربَ رَجُلٌ أباهُ ، فقيل له : أما عَرَفْتَ حَقَّهُ ؟ قال : لا ، لأنه لم يعرف حَقِّي ، قيل : فما حَقُّ الولدِ على الوالدِ ؟ قال : أن يتخَيَّرَ أمَّهُ ، ويُحَسِّنَ اسمَهُ ، وَيُخْتَنَّهُ ، وَيُعَلِّمَهُ القرآنَ ، ثم كشف عن عورته فإذا هو أقلفٌ - لم يُخْتَنَ - وقال : أسْمِي بُرْعُوث ... ولا أعلم حَرْفاً من القرآن ، وقد استَوْلَدَنِي من زَنْجِيَّةٍ ... فقيل للموالد : احتمله ، فإنك تستأهل ...

(١) قال الله عز وجل : خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وقال لبيد :

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيت في خلفٍ جلد الأجر

وعبر رجل ابنته بأمة، فقال الابن: هي والله خير لي منك، لأنها أحسنت الاختيار فولدتني من حري، وأنت أسأت الاختيار فولدتني من أمة... وقال رجل لابنته: ما أطيب الشكل يا بني! فقال الابن: اليشم أطيب منه يا أبت! وقيل لبعضهم: أي ولدك أحب إليك؟ قال: صغيرهم حتى يكبر، ومرتضهم حتى يبرأ، وغائبهم حتى يقدم...

وأقول: وإنما قال صغيرهم حتى يكبر، لأن كبير الأولاد في المادة قلبا يظفر من حب أبيه بمثل ما يظفر به الصغير، وقد قالوا في ذلك ما بين عن السبب، وهو ما روى أن رجلا من العرب رأى بنيه يثيرون على الخيل وقد تنادوا بالغارة، فذهب يروم ذلك مرة وثانية فلم يقدر، فقال: من سره بنوه ساءته نفسه... وفي ضد هذا المعنى يقول أكثم بن صيفي حكيم العرب:

إِنَّ بَنِي صَيْفِيَّةٍ صَيْفِيُونَ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ رِبْعِيُونَ
 يقال أصاف الرجل يصيف إصافة: إذا لم يؤد له حتى يسن ويكبر
 وأولاده صيفيون، والواحد صيفي، والرّبعيون: الذين ولدوا في حدائته
 وأول شبابه، ولما حضرت سليمان بن عبد الملك الوفاة تمثل بهذا البيت
 لأنه لم يكن في أبنائه من يقلده العهد بعده، ومعنى ذلك عندهم: أن الأولاد
 الكبار أفضل من الصغار لدى الوالد، ولا سيما إذا كبر. وهذا على تقيض
 قول القائل: من سره بنوه ساءته نفسه، وإن كان لكل وجه هو موليا،



وناول عمر بن الخطاب رجلا شيئا فقال له: خدّمك بنوك، فقال عمر:
 بيل أغنانا الله عنهم.

وكان يقال: ابْنُكَ رِيْحَانُكَ سَبْعًا، وَخَادِمُكَ سَبْعِمَا تَمَّ عَدُوٌّ أَوْ صَدِيقٌ ...

وفى الأثر: رِيْحُ الْوَالِدِ مِنْ رِيْحِ الْجَنَّةِ ...

وكان رسول الله يُقْبَلُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ حَفِيدُ الْمُصْطَفَى -

يَوْمًا، فَقَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ: إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا قَبِلْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ،

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: فَمَا أَصْنَعُ إِنْ كَانَ اللَّهُ تَزَعَّ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ!

ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ انْقَطَعَ

عَمَلُهُ، إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَالدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ.

وقالوا: خَيْرٌ مَا أُعْطِيَ الرَّجُلُ بَعْدَ الصَّحَةِ وَالْأَمْنِ وَالْعَقْلِ وَالدُّ مَوْافِقٌ.

من زوجةٍ موافقةٍ * ومُتَعَةُ الْعَيْشِ بَيْنَ الْأَهْلِ وَالْوَالِدِ * .

وكانت الْعَرَبُ تُسَمِّي مَنْ لَا وُلْدَ لَهُ صُنْبُورًا، وَالصُّنْبُورُ فِي اللَّغَةِ: الْأَبْتُ

لِأَعْقَبٍ لَهُ وَلَا أُخْ، فَإِذَا مَاتَ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ وَكَانَ كَفَّارٍ قُرَيْشِيٍّ يُطْلَقُونَ

عَلَى رَسُولِ اللَّهِ: صُنْبُورًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: إِنَّ شَانِتَكَ هُوَ الْأَبْتُ « شَانِتُكَ:

مبغضك، والأبتر الذي لا عقب له » ...

وقال حكيم في مَيِّتٍ: إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَهُوَ حَيٌّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ

فَهُوَ مَيِّتٌ

ومن أمثال العرب: أَبْنُكَ ابْنُ بُوْحِكَ « أَى ابْنُ نَفْسِكَ لِأَمِنْ تَبْنَيْتَهُ،

ومثله: وَوَلَدُكَ مِنْ دَمِّي عَقْبِيكَ « يعنون: الذى نَفَسْتِ بِهِ فَادَى النَّفَاسُ

عَقْبِيكَ، أَى: ابْنُكَ مِنْ وَلَدَتِهِ لِأَمِنْ تَبْنَيْتَهُ» وقيل لحكيم: مَا السَّعَادَةُ؟ قَالَ:

أَنْ يَكُونَ لِلرَّجُلِ ابْنٌ وَاحِدٌ، فَقِيلَ لَهُ: الْوَاحِدُ يُخْشَى عَلَيْهِ الْمَوْتُ! قَالَ:

لَمْ تَسْأَلُونِي عَنِ الشَّقَاوَةِ ...

وهناك فريقٌ من الناس يذهبون إلى ذمِّ الولد وقلة جدِّواه : وما يروى في هذا الباب أنه قيلَ لبعض الزهَّادِ : هَلَّا تزوجت ؟ فربما يكون لك خَلْفٌ ؟ فقال : كفى بالزهيد فيه قوله تعالى : إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ؛ وقوله سبحانه وتعالى : إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ... وقالوا : قِلَّةُ العيالِ أحدُ اليَسَارِينِ ، وقال المتنبِّي :

وما الدهرُ أهلٌ أن يُومَلَ عنده حياةٌ وأن يُشتاقَ فيه إلى النسلِ
هلِ الولدُ المحبُّوبُ إلاَّ تَعَلَّةٌ

وهلِ خَلْوَةٌ الحَسَنَاءِ إلاَّ أذى البِعَلِ (١)

وقد ذُكِرَتْ خَلْوَاءُ البَنِينِ عَلَى الصَّبَا فَلَا تَحْسَبْنِي قَلْتُ مَا قَلْتُ عَنْ جَهْلِ
وقال الكعريُّ - وهو إمام الساجطين ، « أو المتشائمين كما يقولون اليوم » - :

أَرَى وُلْدَ الفَقِي عَيْبًا عَلَيْهِ لَقَدْ سَعِدَ الَّذِي أَضْحَى عَقِيمًا
فإِمَّا أَنْ يُرِيْبَهُ عَدُوًّا وَإِمَّا أَنْ يُخَلِّفَهُ يَتِيمًا
وَإِمَّا أَنْ يُصَادِفَهُ حِمَامٌ فَيَسْقِي حُزْنَهُ أَبَدًا مُقِيمًا

وَبُشِّرَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ بِابْنٍ فَقَالَ : لا مَرْحَبًا بَيْنَ إِنْ كُنْتُ غَنِيًّا أَذْهَلَنِي ،
وَإِنْ كُنْتُ فَقِيرًا أَتَعْبَنِي ، لا أَرْضَى كَدِّي لَهُ كَدًّا ، وَلا سَعِي لَهُ فِي الحَيَاةِ
سَعِيًّا ، أَهْتَمُّ بِفَقْرِهِ بَعْدَ وَفَاتِي ، حِينَ لا يَنَالُنِي بِهِ سرورٌ ، وَلا يُهِمُّهُ لِي حُزْنٌ ،
وَأَحْسَرُ الحَسَنَ يَوْمًا - أَى ذَهَبَ إِلَى الصَّحْرَاءِ - فَرَأَى صَيَّادًا فَقَالَ : مَا أَكْثَرُ

(١) تَعَلَّةٌ : يقال : فلان يعمل نفسه بتعلة : أى طباها به كما يعمل الصبي بشيء من الطعام يتجزأ به عن اللبن . يقول : إن السرور بالولد المحبوب لا يدوم وإنما هو تعلق إلى وقت ، ثم قال : وخلصتك بامرأتك أذى لك في الحقيقة لأنها تجلب لك ولدًا تغم من أجله وتتأذى بتربيته وربما كانت العاقبة إلى الشكل

ما يَقَعُ فِي شَبَكِيكَ؟ قَالَ: كُلُّ طَيْرٍ زَاقٍ «أَيُّ يَزُقُّ أَفْرَاخَهُ أَيْ يُطْعِمُهَا
بِفِيهِ، فَتَمَالَ الْحَسَنُ: هَلَكَ الْمُعِيلُونَ «أَيُّ الَّذِينَ لَهُمْ عِيَالٌ كَثُرَ،
وَقَالَ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَحَدِ ابْنَيْ بَدْتِهِ: إِنَّكُمْ لَتُجَبِّنُونَ
وَأَنْتُمْ لَتُبَخِّلُونَ وَإِنَّكُمْ لَمِنْ رِيحَانِ اللَّهِ، وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا: الْوَالِدُ مُجَبِّنُهُ
مُجَهَّلُهُ مَبَخِّلُهُ .. «يَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ الْوَالِدَ يَحْمِلُ أَبَاهُ عَلَى الْجُبْنِ، فَلَا
يُجَاهِدُهُ وَلَا يَشْجَعُ، لِأَنَّهُ يُحِبُّ الْبَقَاءَ لِأَجْلِهِ، وَعَلَى الْجَهْلِ، بِمَلَاعِبَتِهِ إِيَّاهُ
وَيُزْوِرُهُ إِلَى مُسْتَوَاهُ، وَتَرْكِهِ الْعَقْلَ وَمُقْتَضَاهُ، أَوْ بَاشْتِغَالَهُ بِهِ عَنْ طَلَبِ الْعِلْمِ،
وَعَلَى الْبَخْلِ، لِأَنَّهُ يُبْقِي عَلَى الْمَالِ لِأَجْلِهِ وَيَبَخُلُ بِهِ وَيَشْحُ ..

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي الْإِشْفَاقِ عَلَى الْأَوْلَادِ: فَوَلُّ حِطَّانَ بْنِ الْمُعَلَّى - وَهُوَ
شَاعِرٌ إِسْلَامِيٌّ، وَأَبْيَاتُهُ هَذِهِ فِي الْحَاسَةِ -:

أَنْزَلَنِي الدَّهْرُ عَلَى حُكْمِهِ مِنْ شَاخٍ عَالٍ إِلَى خَفِضٍ
وَعَالَنِي الدَّهْرُ بِوَفْرِ الْغِنَى فَلَيْسَ لِي مَالٌ سِوَى عِرْضِي
أَبْكَانِي الدَّهْرُ رِيًّا رُبَّمَا أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بِمَا يُرِضِي
لَوْلَا بُنْيَاتُ كَرْعِ الْقَطَا رُدِدَنَّ مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضٍ
كَكَانَ لِي مُضْطَرَبٌ وَاسِعٌ فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ
وَإِنَّمَا أَوْلَادُنَا بَيْنَنَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ
لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ لَأَمْتَمَعَتْ عَيْنِي مِنَ الْغَمِضِ
«أَنْزَلَنِي الدَّهْرُ عَلَى حُكْمِهِ: أَنْزَلَهُ مِنَ الْعِزَّةِ إِلَى الذَّلَّةِ بِحُكْمِ فِيهِ بِمَا شَاءَ،
وَمِنْ شَاخٍ: مِنْ جَبَلٍ شَاهِقٍ طَوِيلٍ فِي السَّمَاءِ، وَإِلَى خَفِضٍ: إِلَى مَطَامِنٍ مِنَ
الْأَرْضِ، وَهَذَا تَمْثِيلٌ. وَعَالَنِي الدَّهْرُ: أَخَذَهُ غِيْلَةً مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرُ، وَبِوَفْرِ

الغنى : يريد : فى كثرة ماله ، وقوله : فليس لى مال سوى عرضى يريد : لم يبق له الدهر شيئاً إلا أتى عليه سوى عرضه فلم ينتقصه . والعرض : قال ابن الأثير : موضع المدح والذم من الإنسان سواء كان فى نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره ، وقيل : هو جانبه الذى يصونه من نفسه وحسبه ويحامى عنه أن يُنتقص ويُتَلَبَّ ، وقال أبو العباس ثعلب : إذا ذكر عرض فلان فمعناه أمره التى يرتفع أو يسقط من جهتها بحمد أو بدم ، فيجوز أن تكون أموراً يوصف هو بها دون أسلافه ويجوز أن تذكر أسلافه لتلحقه النقيصة بعيهم وقول الشاعر :

✽ وأدركُ ميسورَ الغنى ومعى عرضى ✽ أى أفنالى الجميلة

وقوله : بما يرضى : أى أضحكنى أحياناً بما يرضينى . وقوله : كزغب القطا : واحدها زغباء والذكر أزغب والمصدر الزغب ، وهو أول ما يبدو من ريش الفرخ ، وكذا من شعر الصبي ، وقوله : رُدِّدْن من بعض إلى بعض : تصوير لهيئة تداخل الأفراخ وانضمام بعضهن إلى بعض أول نشأتهم ، يصف بناته بأمن ضعاف لا يستطعن القيام بشؤونهم . ومضطرب : أى اضطراب ، أى تحرك . وأكبادنا : تمثيل لمعنى الشفقة عليهم ، وقد بينها بقوله : لو هبت الريح ... البيت ... والغمض بضم الغين : النوم «

✽ ✽ ✽

ويقول إسحاق بن خلف^(١) - من شعراء الدولة العباسية - فى بنت أخت له

(١) ترجم له صاحب الإغاني وإسحق هذا هو الذى يقول فى صفة السيف :

أَلْقَى بِجَانِبِ خَصْرِهِ أَمْضَى مِنَ الْأَجْلِ الْمَتَّاحِ
وَكَأَنَّهَا ذَرٌّ الْهَبَا عَلَيْهِ أَنْفَاسُ الرِّيحِ =

تسمى أديمة كان حديبا عليها كلفا بها ، وهي من أبيات الحماسة :

لولا أديمة لم أجزع من العدم ولم أذاس الذجى في حنيس الظلم -
 وزادنى رغبة في العيش معرفى ذل اليتيمة يحفوها ذوو الرجم -
 أحاذر الفقر يوما أن يُيلم بها فيهتك الستر عن لحم على وضم -
 تهوى حياتى وأهوى موتها شفقا

والموت أكرم نزال على الحرم -

أخشى فظاظة عم أو جفأ أخ
 وكنت أبقى عليها من أذى الكليم

«العدم: الفقر، وقوله: فيهتك الستر، فالهتك: جذبك الستر تقطعه من موضعه أو تشق منه جزءا فيبدو ما وراءه، وإسناده إلى الفقر مجاز، وقوله عن لحم على وضم، فالوضم: ما وضع عليه اللحم من خشب ونحوه، وكانت العرب في باديتها إذا نُحر بعير للحي يقتسمونه، تقلع شجرا وتضع عليه اللحم مُقطعا يأخذ منه كل شريك قسمة ولم يعرض له أحد، وكانت تضرب المثل في

== وهو الذى يقول فى مدح العربية من أبيات :

النحو يبسط من لسان الألكن والمرء تُكسرُهُ إذا لم يلحن
 قال المبرد: وأحسبه أخذ قوله: والمرء تكسره إذا لم يلحن من حديث حدثنا
 به عن الأصمعي قال: كان يقال: ثلاثة يحكم لهم بالنبل لا يدرى من هم: رجل رأته
 راكبا في شارة حسنة، أو سمعته يعرب، أو شممت منه طيبا. وثلاثة يحكم عليهم
 بالاستصغار حتى يدرى من هم: رجل شممت منه رائحة نبيذ في محفل، أو سمعته في
 مصرعربى يتكلم بالفارسية - أو الفرنسية أو الانكليزية أو غيرهما من اللغات - ورجل
 رأته على ظهر طريق ينازع في القدر .. ما أطيب هذا الكلام وأسماء وأليقه
 بأخلاق السادة ..

ضعف النساء ورقة امتناعهن على طلابهن إلا أن ينادَ عنهن ، بذلك اللحم مادام مع الوضم .
 وقوله : شققا ، أى خيفة ، وقد شقق يشفق - بالفتح - وأشفق عليه يُشفق :
 خاف ، وقوله : والموت أكرم تزال على الحرّم ؛ فالحرّم ، جمع حرمة ، وهى
 عيال الرجل ونساؤه ، يريد : أن الموت أكرم ضميف ينزل عليهن ، وفى هذا
 المعنى قولهم .. دَفَنُ البنات ، من المسكرّ مات ، وسيمر عليك كلامهم فى هذا المعنى
 فى باب النساء ، وقوله : وكنت أبقي عليها : من أبقيت عليه : إذا أرعيت عليه
 ورحمته «... وقال عمران بن حِطّان - وقد كان رأس القعد من الصُفْرىة
 « طائفة من الخوارج ، وكان خطيبهم وشاعرهم ، وهو من التابعين - :

لقد زاد الحياة إلى حُبًا بناتي أنهن من الضعافِ
 مخافة أن يرين البؤس بعدي وأن يشرين رنقا بعد صافِ
 وأن يعرين إن كسى الجوارى فتلبوا العين عن كرم عجافِ
 ولولا ذلك قد سومت مهري وفى الرحمن للضعفاء كافِ
 أبانا من لنا إن غبت عنا وصار الحى بعدك فى اختلافِ

« الرنق : الماء البكر ، وكرم : قال ابن سيده وغيره : رجُلٌ كرم :
 أى كريم ، وكذلك الإثنان والجمع والمؤنث تقول : امرأة كرم ونسوة كرم
 لأنه وصف بالمصدر ، وعجاف : جمع عجفاء على غير قياس ، والنجف : الهزال
 وسومت مهري : فالخيل المسومة : المرسلّة وعليها ركبائها ، وفى التنزيل العزيز :
 والخيل المسومة ، من قولك سومت فلانا إذا خليتّه وسومه ، أى : وما يريد ، وقيل
 الخيل المسومة : هى التى عليها السمة والسومة وهى العلامة »

وقال شاعر جاهلى يمدح ابنه لبيبه به ، وهى من أبيات الحماسة :

رأيت رباطا حين تم شبا به وولى شبابى ليس فى بره عتبُ
 إذا كان أولاد الرجال حزازة فانت الحلال الحلو والبارد القذبُ

لنا جانب منه دميثٌ وجانبٌ إذا رآته الأعداءُ مُمتنعٌ صعبٌ
 وتأخذهُ عند المكارمِ هزةٌ كما هتزت تحت البارحِ الغصنُ الرطبُ
 «قوله ليس في برِّه عتبٌ: يريد ليس في بره لومٌ ولا سخطٌ، وقوله: إذا كان أولاد الرجال حرازةً، فالحرازة: وجع في القلب من غيظٍ ونحوه والجمع حرازات، وتروى: إذا كان أولاد الرجال مرارةً، وهي الأنسبُ بقوله فانت الحلال الحلو، يكتنى به عن الرجل الذي لا رية فيه، على المثل بالحلوى الحلال مما يُذاق، يصف طيب أخلاقه، وقوله: دميث: أى سهل لئى، والبارح: الريح تهب من الشمال في الصيف خاصة،

وقال عمرو بن شأس - وهو شاعر فارس شهد مع سيدنا رسول الله الحديبية وكانت امرأته تُؤذى ابته عراراً - وكان من أمة سوداء - تُعيره بالسواد وتشتمه، فلما أعتت أباه عمراً أنشأ كلمة عدتها عشرون بيتاً اختار منها أبو تمام هذه الأبيات:

أرادت عراراً بالهوانِ وإن يردُ
 فإن كنتِ منىً أو تُريدينِ صُحبتى
 وإن كنتِ تهوينِ الفراقَ ظعيتى
 وإلا فبيرى مثلَ ماسارِ راكبِ
 وإن عراراً إن يكنْ ذا شكيمةِ
 وإن عراراً إن يكنْ غيرَ واضحِ
 عراراً لعمرى بالهوانِ فقد ظلمُ
 فكونى له كالمسنِ رُبَّ له الأدمُ
 فكونى له كالذئبِ ضاعت له الغنمُ
 تجشمَ خنسا ليس فى سيره يتمُ
 تُفاسيها منه فما أمكُ الشيمُ
 فإنى أحبُّ الجونَ ذا المنكبِ العمُ

«قوله: فإن كنت منى: نقل الكلام من الإخبار إلى الخطاب. ومعنى فإن كنت منى: وإن كنت توافقينى، من قولهم فلان منياً، أى: يوافقنا. وقال المرصني: معناه: فإن كنت مثل نفسى سيدة، وقوله: أو تريدين صحبتي: أى أو تكونين مثل غيرك في المعيشة لا حظ

لها في السيادة، وقوله: فكوفى له كالسمن: أى كوفى له كالسمن الذى لا يتغير،
والرب: خلاصة التمر بعد طبخه وعصره، والأدم: اسم جمع للأديم وهو الجلد
المدبوغ، يريد الاسقية التى يجعل فيها الرب. وكانت العرب تدهن وعاء السمن
بالرب لتمنع فساده ويزيد فى طيب ريحه، فقوله: رُبّ له الأدم: أى جعل فيه
الرب لئلا يفسد، وقوله وإن كنت تهوين الخ يقول: وإن كنت تؤثرين
مفارقى مصممة على ذلك فكوفى له ذنبا أهملت له الغنم يعيىث فيها، ويقال لزوج
الرجل: ظعينة، وهى مقيمة، والأصل فى الظعينة المرأة فى هودجها وهى سائرة،
وقوله: وإلا فسيرى الخ، فالخمس: فلاة بعد ماؤها حتى إر الإبل كترده فى اليوم
الرابع سوى اليوم الذى شربت فيه وصدرت، واليتم: التتور والتقصير
والإبطاء، يقول: وإلا فارقينى وسيرى سير راكب تكلف ورود الماء
للخمس، وقوله: وإن عرارا... البيت، فالشكيمة: شدة النفس وإباؤها، والشيمة:
الخلقة، وكان عرار هذا حديد القلب ذرب اللسان، يقول: لأفدر على
تغيير خلقه، وإما أن تلاميذه على ما تقاسينه من حدته، وإما أن تفارقينى فإنه أحب
إلى منك، وقوله غير واضح: أى غير أبيض: مستعار من وضح الصبح
وهو يياضه، والجون هنا: الأسود المشرب حمرة، والمنسكب: مجتمع عظم
العضد والكتف، يصفه بالقوة والشدة، والعم: التام، قالوا: كان عرار
هذا أحد فصحاء العقلاء، توجه عن المهلب بن أبى صفرة إلى الحجاج رسولا
فى بعض فتوحه، فلما مثل بين يدي الحجاج لم يرفه، وازدراه، فلما استنطقه
أبان وأعرّب ماشاء وبلغ الغاية والمراد فى كل ما سأل، فأنشد الحجاج
متمثلا:

أرادت عرارا بالهوان ومن يرِد عرارا لعمرى بالهوان فقد ظلم

فقال عرار : أنا - أيد الله الأمير - عرار ، فأعجِبَ به وبذلك الاتفاق .

صلة الرحم : « وبعد » فلنورد بعض ماقلوا في صلة الرحم ، والرحم في الأصل : موضع تكوين الولد ، ثم سميت القرابة رحماً ، فالرحم : خلاف الأجنبي ، وقال ابن الأثير : ذُو الرحم : هم الأقارب ، ويقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب - قرابة - ويطلق في الفرائض - علم المواريث - على الأقارب من جهة النساء . ويقال : رَحِمَ ورَحِمَ ورِحِمَ ، وهي وثنية ، قال زهير بن أبي سُلي :

خُذُوا حَظَّكُمْ يَا آلَ عِكرِمٍ واذكُرُوا

أواصِرْنَا والرَّحِمُ بِالغَيْبِ مُتَذَكِّرٌ (١)

ومما ورد في صلة الرحم : قوله جل شأنه : واتقوا الله الذي تَسَاءَلُونَ به والأرحامَ . أى واتقوا الأرحام أن تقطعوها ، وفي قراءة : والأرحام بالخفض ، وإذن يكون المعنى : تَسَاءَلُونَ به وبالأرحام ، وهو قولهم : تشدتك بالله وبالرحم . . . ، وقال صلى الله عليه وسلم : الرحم شُجْنَةٌ من الله - وفي رواية : من الرحمن - معلقةً بالعرش تقول اللهم صلِّ مَنْ وَصَّأى واقطعْ مَنْ قَطَعَنى ... وقال الجوهري : الشجنة بالضم والفتح والكسر : عروق الشجر المشتبكة ، و : بينى وبينه شجنة رحم : أى قرابة مشتبكة ، ومن ذا قولهم : الحديث ذو شجرين : أى ذو سُعَبٍ وامتسك بَعْضُهُ ببعض ، وعبارة أبى عبيدة في تفسير هذا الحديث : شجنة من الله : أى قرابة من الله مشتبكة كاشتباك العروق ، شبهه بذلك مجازاً واتساعاً ، وأصل الشجنة . شعبة من غصن

(١) من أبيات جميلة تراها في خزانة البغدادى ج ٢ ص ٢٨٧ « طبعة السلفية »

من غصون الشجر ثم استعمل اتساعاً في الرحم المشتبكة ، وقال عبد الله بن أبي أوفى : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : لا يجالسنا قاطع رحم ، فقام شاب ، فأثى خالته له ، - وكان بينه وبينها شيء - فأخبرها بقول النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستغفرت له واستغفر لها ، ثم رجع والنبي صلى الله عليه وسلم في مجلسه فأخبره ، فقال النبي : إن الرحمة لا تنزل على قاطع رحم . وفي الحديث : من أحب أن يبسط له في رزقه ، ويُنسأ له في أجله ، فليصل رحمه ، ينسأ : يؤخر ومنه الحديث . صلة الرحم مَثْرَاةٌ في المال مَنسَأَةٌ في الأثر . منسَأَةٌ : مفعلة من اللَسَّ بِأَيِّ مَظِنَّةٍ لَهُ وَمَوْضِعٍ ، والأثر : الأجل ، وفي الحديث : لا تستنسؤا الشيطان أي إذا أردتم عملاً صالحاً فلا تؤخروه إلى غد ولا تستهلوا الشيطان ، يريد : أن ذلك مهلةٌ مَسْوَلَةٌ من الشيطان . ولعل المراد من تبسيط الرزق ومد العمر : البركة والخير والسعادة ورفاعة العيش ، وللعلماء في ذلك كلام كثير راجعه في المطولات . . .



وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم : مَنْ كان منهم يؤثر أقرباه بالولايات والعمالات وإسناد أمور الدولة إليهم ، فإنما كان ذلك - بعد كفاية الأقرباء واستحقاقهم - للبر صرفاً ، أي امتثالاً لأمر الله في وجوب صلة الرحم ، ومن كان منهم يؤثر الأجانب ويُفصِي الأَقْرَبَ وَيَحْرِمُهُم أعمالَ الدولة . فإنما كان ذلك للبر أيضاً ، إذ كان ذلك إمعاناً في التورع والتأثم وتركاً لما يريب إلى مالا يريب . . . وفي ذلك يقول الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه : كان عمر يمنع أقرباه ابتغاء وجه الله ، وأنا أعطى قراباتي لوجه الله ، ولن يُرى مثلُ عمر . . . فنأمل قوله : ولن يُرى مثل عمر . . . أي لن يبلغ إنسان مبلغه في

الحزم والسياسة الرشيدة وَضَبِطَ النفس أَنْ تَسْتَرْسل مع ما يُشبه الهوى ...
يعنى أَنَّ مُحَمَّدًا أَفْضَلُ مِنِّي، رَضِيَ اللهُ عَنِ الْجَمِيعِ ..

ومما يروى فى معنى حث الأقارب على التعاون: أَنَّ أَكْثَمَ بْنَ صَيْفِيٍّ
حَكِيمَ الْعَرَبِ دَعَا أَوْلَادَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ، فَاسْتَدْعَى بِضِيَامَةٍ مِنَ السَّهَامِ «أَيَّ حُزْمَةٍ
مِنْهَا، لَغَةٌ فِي الْإِضْمَامَةِ» وَتَقَدَّمَ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ أَنْ يَكْسِرَهَا، فَلَمْ يَقْدِرْ وَاحِدٌ
عَلَى كَسْرِهَا، ثُمَّ بَدَّدَهَا وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَكْسِرُوهَا، فَاسْتَسْمَلُوا كَسْرَهَا، فَقَالَ:
كُونُوا بِجَمْعِهِمْ، لِيَتَعَجَّزَ مِنْ نَاوَأِكُمْ «أَيَّ عَادَاكُمْ» عَنِ كَسْرِكُمْ، لَعَجْزِكُمْ ...
وقال الشاعر فى هذا المعنى:

إِنَّ الْقِدَاحَ إِذَا اجْتَمَعْنَ قَرَأَتْهَا بِالْكَسْرِ ذُو حَرْدٍ وَبَطْشٍ أَيْدٍ (١)
عَزَّتْ فَلَمْ تُكْسَرْ، وَإِنْ هِيَ بَدَّدَتْ فَالْوَهْنَ وَالتَّكْثِيرُ لِلْمُتَبَدِّدِ
وقال آخر فى هذا المعنى:

إِذَا مَا أَرَادَ اللهُ ذُلَّ قَبِيلَةَ رَمَاهَا بِتَشْتِيتِ الْهَوَى وَالتَّخَاذُلِ
«وهذا كما يقال فى الأقارب يقال فى كل جماعة بينهم حُزْمَةٌ تجتمعهم، من
وطن وغير وطن، ومما يروى: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ قَتَلَ ابْنَ أَخِيهِ، فَدَفَعَ
إِلَى أَخِيهِ لِيَقْتَادَ مِنْهُ فَلَمَّا أَهْوَى بِالسَّيْفِ أُرْعِدَتْ يَدَاهُ، فَالْقَى السَّيْفَ مِنْ
مِنْ يَدِهِ وَعَقًّا عَنهُ، وَقَالَ: - وَالْبَيْتَانِ فِي الْحَمَاسَةِ -:

(١) الحرد بتسكين الراء وبفتحها لغتان: الغضب والغيظ، قال الأشهب
ابن رُمَيْلَةَ:

أَسْوَدُ شَرِّى لَأَقْتَ أَسْوَدَ خَفِيَّةٍ تَسَاوَأُوا عَلَى حَرْدِ دِمَاءِ الْأَسَاوِدِ
والأيد: القوى

أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَأْسَاءً وَتَعْزِيَةً . إِحْدَى يَدَيَّ أَصَابَتْهُ وَلَمْ تُرِدْ (١)
يَكْلَاهُمَا خَلْفَ مَنْ فَقَدِ صَاحِبَهُ هَذَا أُخِي حِينَ أَدْعُوهُ وَذَا وَلَدِي (٢)
وفي مثل هذا المعنى يقول الحارث بن وَعَلَةَ الذُهَلِيّ - وهي من
أبيات الحماسة -:

قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا، أُمِّيمَ، أَخِي فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي
فَلَيْنَ عَنَوْتُ لِأَعْفُونَ جَلَالًا وَلَيْنَ سَطَوْتُ لِأَرْهَنَنْ عَظْمِي
لَا تَأْتِنَنْ قَوْمًا ظَلَمْتَهُمْ وَبَدَأْتَهُمْ بِالشِّتْمِ وَالرَّغْمِ
أَنْ يَأْبُرُوا نَحْلًا لِغَيْرِهِمْ وَالشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْبِي
وَزَعَمْتُمْ أَنْ لِأَحْلُومَ لَنَا إِنَّ الْعَصَا قَرِعَتْ لِدِي الْحِلْمِ
وَوِطِئْتَنَا وَطَأً عَلَى حَتَقِي وَطَأَ الْمُقَيِّدِ نَابِتَ الْهَرَمِ
وَرَكَّتْنَا لَحْمًا عَلَى وَضَمٍ لَوْ كُنْتَ تَسْتَبِقِي مِنَ اللَّحْمِ

• يقول في البيت الأول : قَوْمِي - يَا أَمِيمَةَ - هم الذين قَتَلُونِي بِأَخِي
وَوَطِئُونِي فِيهِ ، فَإِذَا حَاطَتْ الْإِتِّصَارَ مِنْهُمْ عَادَ ذَلِكَ بِالنِّكَايَةِ فِي نَفْسِي ،
لِأَنَّ عِزَّ الرَّجُلِ بَعْشِيرَتُهُ . وَهَذَا الْكَلَامُ تَحْزُنٌ وَتَفْجُوعٌ وَلَيْسَ بِإِخْبَارٍ . وَقَوْلُهُ :
فَلَيْنَ عَفَوْتُ ... الْبَيْتِ . يَقُولُ : إِنْ تَرَكَتُ طَلِبَ الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ صَفَحْتُ
عَنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ . وَإِنْ انْتَقَمْتُ مِنْهُمْ أَوْهَنْتُ عَظْمِي : أَيِ أَضَعَفْتُهُ ، وَيُقَالُ :

(١) تَأْسَاءٌ : تَفْعَالٌ مِنَ الْإِسْوَةِ ، يَقُولُ : أَعَزَى النَّفْسَ عَنْهُ مَتَأْسِيًا بِغَيْرِي مِمَّنْ
قَتَلَ وَوَلَدَهُ ، وَقَوْلُهُ إِحْدَى يَدَيَّ : مَبْتَدَأٌ ، وَأَصَابَتْهُ خَبْرٌ ، وَلَمْ تُرِدْ : فِي مَوْضِعِ الْحَالِ ، وَالْجُمْلَةُ
فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ لِقَوْلِهِ أَقُولُ
(٢) يَقُولُ : كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْإِخْوَانِ وَالْإِبْنِ الْمَفْقُودِ يَصَاحُ لِأَنَّ يَرْضَى بِهِ عَوَضًا
مِنْ فَقْدَانِ الْآخَرِ

عقوت بن الذئب : إذا صفحت عنه ، والسطو : الأخذ بعنف ، والجالل : من الأضداد : يكون الصغير ويكون العظيم ، وهو المراد ههنا . وقوله : لا تأمننّ توما ... البيتين ، حوّل الكلام عن الإخبار إلى الخطاب مُتَوَعِّدًا ، والرغم : مصدر رغمت فلانا : إذا فديت به ما يُرغمُ أنفه ويُذله ، وقوله : أن يأبروا : في موضع نصب على البدل من قوما في البيت الذي قبله ، كأنه قال : لا تأمننّ أبرد قوم ظلمتم نخلا لغيرهم ، يقال : أبرتُ النخل وأبرته : إذا لَقَّحته . يقول : إذا ظلمت قوما فلا تأمنهم أن ينتقموا منك فنشتفي أعداؤك منك ، فتكون كمن أصلح أمر غيره ، وقال بعضهم : المعنى : إن ظلمتونا تحوّلنا عنكم ، فلا يكون لكم بعدنا مُقائم - إقامة - فتحولون أو يملككم العدو ، فيكون ما أبرنا نحن وأنتم ، لهم دوتنا ودونكم ، وقال أبو العلاء المدي : قد اختلف في معنى هذا البيت ، فقيل : أراد أنه يُفاريقهم ويهبط هو وتوأمه أرضا ذات نخل كان لغيرهم فيفدونهم عنه ويأبرونه ، كأنه يتهددهم بترثله عنهم ، لأن ذلك يؤديهم إلى الذل ، واستدلوا على هذا الوجه بقوله في القصيدة :

قَوْضِ خِيَانِكَ وَالتَّمِيسِ بِلَدَا يِنَأَى عَنِ الغَاشِيكِ بِالظُّلْمِ

وقيل : بل يريد أنه يحاربهم فيصلحهم لغيره فيجمعاهم كالنخل التي قد أبرت ، إذ كان عدوهم ينال غرضه منهم إذا أعانه عليهم ، وقيل : بل عني أنه يسبي نساءهم فتوطأ فيكون ذلك كالإبار الذي هو تلقيح النخل . قال التبريزي : وهذا الوجه أشبه بمذهب العرب مما تقدم ، لأنهم يكنون عن النخلة بالمرأة . وقوله : ورعتم أن لاحلوم لنا : فأكثر ما يستعمل الزعم فيما كان باطلا أو فيه آرتياب ، والحلوم : العقول ، وقرع العصا : كناية عن التنبيه ،

واختلف في أول من قرعت له العصا ، ف قيل عمرو بن الظرب العدواني وقيل عمرو بن جُمّة الدوسي ، وخبرهما : أن كل واحد منهما كان حَكَمًا للرب يتحاكون إليه في كل مُعضلة ، قالوا : إن العرب أتوا عمرو بن حُمّة يتحاكون إليه ، فغلط في حكومته - وكان قد أسن - فقالت له ابنته : إنك قد صرتَ بهم في حكومتك - أي تغلط - فقال : إذا رأيت ذلك مني فأقرعي العصا ، فكان إذا قرعت له العصا فطن . يقول : زعمت أنه لا عقول لنا وأنا سفيه ، فإن كان الأمر على ما زعمت فنبهونا أتم ، وهذا تهكم من الشاعر بهم ، وقوله : وَوَطِئْنَا ... ألبيت ، فالحنق : الغيظ ، والهرم : شجر ، أو البقلة الحقاء - هي التي تُسعى الرجلة - ، أو ضرب من الخيض فيه ملوحة وهو أذله وأشده انبساطا على الأرض واستبطاها ... وفي المثل : أذل من الهرمة ، يقول : وأثرت فينا تأثير الحنق الغضبان كما يؤثر البعير المقيد إذا وطئ هذا النبات الضعيف ، وخصّ المقيد لأن وطأته أثقل ، لأنه لا يتمكن من وضع قوائمه على حسب إرادته . كما خص الحنق لأن إبقائه أقل . ومن قول العرب : أعوذ بالله من وطأة الدليل ، أي من أن يطأني ، لأن وطأته أشد لسوء ملكته ، كما قال امرؤ القيس :

فإنك لم يَفْخَرْ عليكَ كفاخِرٍ ضعيفٍ ولم يَغْلِبْكَ مثلُ مُغْلَبٍ

وخص النبات وأراد : الحديث النبات ، وهو أغصن له وأرق ، ويروى : يابس الهرم ، وقوله وتركنا لما على وضم : فالوضم : الخشبة التي يَصْعُ الجزار اللحم عليها يُوقى بها اللحم من الأرض ، أو تقول : خوان الجزار ، وقد تقدم يقول . تركنا لادفاع بنا كاللحم على الوضم يتناوله من شاء ، ثم قال : لو كنت تسبقني من اللحم ، أي لو كنت تترك بقية ، قال التبريزي : جعل ذلك مثلا

لاستفساده لهم وسماحته بهم ،

والعرب تقول في العطف على القريب والحمية له وإن لم يكن وادّأ :
« أَنْفَكَ مِنْكَ وَإِنْ ذَنْ ^(١) » وَعَيْضَكَ مِنْكَ وَإِنْ كَانَ أَشِبَّأ ^(٢) » وقال
قائلهم - وهو حُرَيْثُ بْنُ جَابِرٍ - :

إِذَا ظَلِمَ الْمَوْلَى فَزَعْتُ لِظُلْمِهِ فحَرَكَ أَحْشَائِي وَهَرَّتْ كِلَابِيَا ^(٣)
وقيل لأعرابي : ماتقول في ابن العم ؟ فقال عَدُوُّكَ وَعَدُوُّ عَدُوِّكَ ، ولما
مات عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ بكى عليه أخوه أَوْسُ بْنُ الصَّامِتِ ، فقيل له : أتبكي
عليه وقد كان يريد قتلك ؟ فقال : حركني للبكاء عليه ارتكاضنا في بطن ،
وَارْتِضَاعُنَا مِنْ تَدْيٍ . . . ودخل رجل من أشرف العرب على بعض الملوك ،
فسأله عن أخيه . فأوقع به يعيبه ويشتمه ، وفي المجلس رجل يشنؤه -
يبغضه - فشرع معه في القول ، فقال له : مَهْلًا ! إِنِّي لَا أَكُلُ لَحْمِي وَلَا أَدْعُهُ
لَأَكُلَ . . . وقال الشاعر - قيل هو زرارة بن سُبَيْحٍ ، وقيل فضلة بن خالد ، وقيل
دودان بن سعد ، وكلهم من بني أسد ، شعراء جاهليون ، والأبيات من الحماسة :

لَعَمْرِي لَرَهْطُ الْمَرءِ خَيْرُ بَقِيَّةٍ عَلَيْهِ وَإِنْ عَالُوا بِهِ كُلَّ مَرَكَبٍ
مِنَ الْجَانِبِ الْأَقْصَى وَإِنْ كَانَ ذَاغِي جَزِيلٌ وَلَمْ يُخْبِرْكَ مِثْلُ مُجْرَبٍ

(١) ذَنْ أَنْفَهُ يَذَنْ : إذا سال ، والذنان والذنين : الخياط الرقيق الذي يسيل من
الأنف (٢) العيص : منبت الشجر ، والأشب : الملتف ، ومعنى المثل : أصلك منك
وإن كان ذا شوك مشتبك غير سهل : أى أصلك منك وإن كان أقاربك على خلاف
ماتريد ، فاصبر عليهم فإنه لا بد منهم . .

(٣) هز الكلب يهر هريراً : إذا نبح وكشر عن أنيابه ، ومن طبع الكلب أن
يهر دون أهله ويذب عنهم

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ عَدَى لَسْتَ مِنْهُمْ . فَكُلْ مَا عَلِفْتَ مِنْ خَبِيثٍ وَطَيِّبٍ
 « عالوا به يريد : عملوا به ، كل مركب : صعب أو ذلول ، يريد : وإن
 حمله مالا يستطيع ، ومن الجانب الأقصى ، يريد : من الحى الأبعد ، وقوله :
 ولم تك منهم ، يروى : * إذا كنت في قوم عدى لست منهم *
 وعدى بالكسر : غرباء ، فأما قوم عدى فقد ورد فيها الضم والكسر
 وقوله : فكل ما علقت : فهذا مثل ، يريد به : المسألة والمدارة ، ويروى للشاعر
 بعد هذا البيت :

فَإِنْ حَدَّثْتَكَ النَّفْسَ أَنَّكَ قَادِرٌ عَلَى مَا حَوَتْ أَيْدِي الرِّجَالِ فَكَذِّبْ
 * * *

وقديما أكثروا من شكوى الأقارب : من جهة أنهم يحكم تجاورهم
 وقرابتهم أدنى إلى الحسد والعداوة ، فقالوا : الأقارب عقارب وأنسهم بك
 رحا أشدهم بك لدغا ، وقال بعض حكماء العجم : ثلاث لا يُستصاح فسادهم
 بشيء من الحيل : العداوة بين الأقارب ، وتحاسد الأكفاء ، والركاكة في
 الملوك . . . ولذلك شكوا من أن عداوة الأقارب أشد على النفس من عداوة
 الأباعد فقالوا : — والفائل طرفة بن العبد — :

وَوَظَلُّمٌ ذَوِي القَرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى المَرءِ مِنْ وَقَعِ الحُسَامِ المُهَنْدِ
 وقال الشريف الرضى :

وَلِلذُّلِّ بَيْنَ الأَقْرَبِينَ مَضَاضَةٌ وَالدُّلُّ مَا بَيْنَ الأَبَاعِدِ أَرْوَحُ
 وَإِذَا أَتَكَ مِنَ الرِّجَالِ قَوَارِصُ فِسْهَامُ ذِي القَرْبَى القَرِيبَةَ أُجْرَحُ (١)
 فمنهم من يحلم ويبقى على مقتضيات القرابة ، ويتجافى عن ذنوب

(١) القوارص : جمع قارصة وهي الكلمة المؤذية قال الفرزدق :

قَوَارِصُ تَأْتِينِي وَتَحْتَمِرُونَهَا وَقَدْ يَمَلَأُ القَطْرُ الإِنَاءَ فَيُفْعَمُ

أقربائه على الرغم من عدائهم ، فيقولون - والقائل محمد بن عبد الله الأزدي -
صحابي جليل - وهذه الأبيات في الحماسة - :

لَا أَدْفَعُ ابْنَ الْعَمِّ يَمْشِي عَلَى شَفَا وَإِنْ بَلَغْتَنِي مِنْ أَذَاهُ الْجِنَادِ عُ
وَلَكِنْ أُوَاسِيهِ وَأُنْسَى ذُنُوبَهُ لِيَسْتَرْجِعَهُ يَوْمًا إِلَى الرَّوَاجِعِ
وَحَسْبُكَ مِنْ ذُلِّ وَسُوءِ صَنِيعَةٍ مَنَاوَاةُ ذِي الْقُرْبَى وَإِنْ قِيلَ قَاطِعُ

د الشفا : حرف الشيء وحده ، مثل الشفير ، وقد أشفى على الهلاك : أشرف -

والجنادع في الأصل - كما قال أبو حنيفة الدينوري - : الجنادب الصغيرة ، وجنادب -

الضب : دواب أصغر من القردان تكون عند جحره فإذا بدت هي
عُليم أن الضب خارج فيقال حيثد : بدت جنادعه ، ثم قيل لأوائل الشر :
بدت جنادعه ، يقول الشاعر : لا أدفعه يمشي على حد الهلاك وإن بالغ في
الإساءة ، والمناوأة : المدااة ، وأصله الهمز يقال : ناواه مناوأة : أى عاداه ،
وقوله : وإن قيل قاطع : يريد : وإن قيل في ذى القربى إنه قاطع لرحمه فلا
يحملك ذلك على مناوأة ، وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب :

مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مَهْلًا وَوَالِينَا لَا تَنْبِشُوا بَيْنَنَا مَا كَانَ مَدْفُونًا
لَا تَطْمَعُوا أَنْ تُهَيِّنُونَا وَنُسْكِرَ مَكْمُكُمْ وَأَنْ نَكْفَ الْأَذَى عَنْكُمْ وَتُؤْذُونَا
مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مِنْ نَحْتِ أُنْتَلْنَا سِيرُوا رُويْدًا كَمَا كُنْتُمْ تَسِيرُونَا
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّا لَا نُجِيبُكُمْ وَلَا تَلُومُكُمْ إِنْ لَمْ تَحْبُونَا
كُلُّهُ نَيْسَةٌ فِي بُغْضِ صَاحِبِهِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ تَقْلِيكُمْ وَتَقْلُونَا

د مهلا : يريد : رققا وسكونا لاتعجلوا ، ويريد بنى عمه : بنى أمية ، وقد

كان في صدورهم أحقاد ، وقوله لاتنبشوا : يريد لاتستخرجوا ما كان بيننا

من العداوة مدفونا في الصدور، وقوله: من نحت أثنتنا، فالأثلة: واحد الأثل وهو من العَصَاه شجر طوال مستقيم الخشب ومنه تصنع الأقداح والجفان ونحتها: قشرها أو نشرها، يريد: هلا بني عمنا في إظهار المثالب والمعائب التي تلصقونها بنا، وقوله: كل له نية الخ يريد: إنا وإياكم لعلى طرفي تقيض نحن نبغضكم لاغتصابكم الملك واستيلائكم على أموال المسلمين وأنتم تبغضوننا على قرباننا من النبي صلوات الله عليه، وقلاه يقلبه قلى: أبغضه، وقد حذف نون الرفع من تقولنا ضرورة «

وقال ذو الأصبع العدواني: (١)

لولا أو اصر قربي لست تحفظها ورهبة الله في مؤلى يعاديني
إذن برئيتك برياً لا انجبار له إني رأيتك لا تنفك تبريني

ومنهم من اضطر إلى الانتقام من أقاربه: أو ممن تربطه بهم آصرة مائمه
تأسف، فقال قيس بن زهير في ذلك:

سفت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفاني
قتلت ياخوتي سادات قومي وقد كانوا لنا حلى الزمان
فإن أك قد بردت بهم غليلي فلم أقطع بهم إلا بساني
وقال الفيرى:

فإنك حين تبلغهم أذاه وإن ظلموا لمحترق الضمير

(١) واسمه حُرثان بن الحارث بن محرز، شاعر فارس من قدماء الشعراء في الجاهلية، وبيتاه هذان من قصيدة له في ابن عم له اسمه عمرو وهي قصيدة بارعة جدا أولها:

يامن لقلب شديد الهم محزون أمسى تذكر ليلى أم هارون
وقد ترجم له صاحب الأغاني، انظر الجزء الثالث طبعة دار الكتب،

وقال المتنبي في ذلك :

وكيف يَتَمُّ بأُسْكٍ في أناسٍ تُصِيبُهُمْ فِدْوُ الْمَكِّ الْمُصَابُ
وقال البحترى من قصيدة له يمدح بها المتوكل على الله العباسى ويذكر
صلح بني تغلب - :

وِفِرْسَانٍ هَيَجَاءِ تَجِيئُشْ صَدُورُهَا بِأَحْقَادِهَا حَتَّى تَضِيقَ دُرُوعُهَا
تُقْتَلُ مِنْ وَتِرٍ أَعَزَّ نَفُوسِهَا عَلَيْهَا بِأَيْدٍ مَا تَكُادُ تُطِيعُهَا
إِذَا أَحْرَبَتْ يَوْمًا ففَاضَتْ دِمَاؤُهَا تَذَكَّرَتِ الْقُرْبَى ففَاضَتْ دَمُوعُهَا

وقال سيدنا على كرم الله وجهه - حين تصفح القتلى يوم الجمل : شَفَيْتُ
نَفْسِي ، وَجَدَعْتُ أَنْفِي - وسيمر بك هذا الكلام بتمامه في موضع آخر من هذا
الكتاب ... ومنهم من يركب رأسه وَيُحِبُّ فِي عِدَاءِ أَقَارِبِهِ خَبًا وَلَا يَبَالِي -
وقد قال قائلهم - أوس بن حَبِيْنَاءِ التَّمِيمِيِّ - :

إِذَا الْمَرْءُ أَوْلَاكَ الْهَوَانَ فَأَوْلُهُ هَوَانًا وَإِنْ كَانَتْ قَرِيبًا أَوْاصِرُهُ

ويبلغ الحق بهذا الصنف من الناس أن يظاهر الأجنبي على القريب
وقد شبه العرب هذا الصنف بذئب السوء قال الفرزدق - :
وَكَأَنَّ كَذِئْبَ السُّوءِ لَمَّا رَأَى دَمًا بِصَاحِبِهِ يَوْمًا أَحَالَ عَلَى الدِّمِّ
« وهو معلوم أن الذئب إذا رأى بصاحبه دمًا أقبل عليه ليأكله ، وإنه
لبديهي أن هذا التماؤ للآجنبي على القريب لا يُشعر إلا الضرر الموق ، وقد
قال قائلهم في ذلك - وهو أبو يعقوب الحَرَمِيُّ - :

كَانُوا بَنِي أُمَّ فَفَرَّقَ شَمْلَهُمْ عَدَمُ الْعُقُولِ وَخِيفَةُ الْأَحْلَامِ

وقد ورد في علاج العداة الذي يحدث بين الأقارب : وهو علاج مُسَكَّن ... ولكنه لا علاج غيره - قولُ أَكْمَ بنِ صَيْفِي حَكِيمِ الْعَرَبِ : تَبَاعَدُوا فِي الدِّيَارِ تَقَارَبُوا فِي الْمَوَدَّةِ ... وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري : مُرِّذِي الْقَرَابَاتِ أَنْ يَتَزَاوَرُوا وَلَا يَتَجَاوَرُوا ... وقال في هذا المعنى وزاد شاعر جاهلي من بني أسد - وكان له ابن عم يترصد له موافع السوء :-

دَاوِ ابْنَ عَمِّ السُّوءِ بِالنَّأْيِ وَالغِنَى كَفَى بِالغِنَى وَالنَّأْيِ عَنْهُ مُدَاوِيَا
يَسْأَلُ الْغِنَى وَالنَّأْيُ أَدْوَاءَ صَدْرِهِ وَيُسَيِّدِي التَّدَانِي غَلْظَةً وَتَقَالِيَا
أَعَانَ عَلَى الدَّهْرِ إِذْ حَكَ بَرَكُهُ كَفَى الدَّهْرُ لَوَوَكَّتَهُ بِي كَافِيَا

« النَّأْيُ : البعد ، والغِنَى : مصدر غَنِيََ عَنِ الشَّيْءِ يَغْنَى : استغنى عنه ، واطَّرَحَهُ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ ، وَيُسَلُّ : يَنْزِعُ بَرَفَقَ ، وَأَدْوَاءُ صَدْرِهِ : أضعفانه وأحقاقه ، والتَّدَانِي : يريد إظهار التقارب منه ، وتَقَالِيَا : تباعضا ، وحكَّ بَرَكُهُ : فالحك : إمرار جرم على جرم ، والبرك في الأصل : كلنكل البعير ، وهو صدره الذي يدكُّ به ماعته ، استعاره لا هر ، وقوله . كَفَى الدَّهْرُ الخ : يريد : كَفَى حَدَثَانِ الدَّهْرِ وَحَدَّةً فِي الْإِسَاءَةِ فَلَا تَكُونُ إِعَانَتُهُ وَحَادِثُ الدَّهْرِ مَاعَالِيَهُ ،

ومن كلامهم في الإخوة : ماورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : حَقُّ كَبِيرِ الْإِخْوَةِ عَلَى صَغِيرِهِمْ حَقُّ الْوَالِدِ عَلَى وَاَلِدِهِ ... وَيُرْوَى أَنَّ إِخْوَةَ حَضَرُوا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَتَكَلَّمُوا أَصْغَرَهُمْ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَلَكَبِيرِ الْكَبِيرِ ... « الكبر : جمع الأ كبر ، كأخمر وأخمر : أى ليبدأ الأ كبر بالكلام ، أرقدوا الأ كبر ، إرشادا إلى الأدب في تقديم الأسن ، وقيل للحكيم معه أخ أكبر منه : أهذا أخوك ؟ فقل بل أنا أخوه ... وكان بين الحسن والحسين رضي الله عنهما كلام ، فقيل للحسين : أدخل

على أخيك فهو أكبر منك ، فقال : إني سميتُ جدِّي صلى الله عليه وسلم
يقول : أيما اثنين جرى بينهما كلام ، فطلب أحدهما رضا الآخر ، كان سابقه
إلى الجنة ، وأنا أكره أن أسبق أخى الأكبر ، فبلغ قوله أخاه ، فأتاه
عاجلاً وأرضاه ...

ومما يتصل بالإخوة وينشعب به القول في هذا الباب : ما روى في الآخوين
يختلفان في النجابة والتخلف والحسن والدمامة ، فهذا كئيس ربيع ، وهذا أحق
وضيح ؛ وهذا جميل ، وهذا دميم ، قال الأصمعي : لم يقل أحد في تفضيل أخ على
أخ وهما لأب وأم مثل قول ابن المعتز لأخيه صخر :

أبوك أبي وأنت أخى ولكن تقاضت المناكب والرؤس

وفي هذا المعنى يقول بعضهم :

تفرّد بالعلياء عن أهل بيته وكلُّ يهتدي به إلى المعجد والد

وتختلف الأثمار في شجراتها إذا شيرقت بالماء والماء واحد

وقال رجل لأخيه : لا هجوّك ، فقال : كيف تهجونى وأنا أخوك لأبيك

وأملك ؟ فقال :

غلام أمّاه الأوم من شطر نفسه ولم يأت به من شطر أم ولا أب

وقال رجل لآخر ، وكان هذا الآخر قبيحاً ومعه أخ صبيح ، ما أملك

إلا شجرة البلوط ، تحمل سنة بلوطاً وسنة عفاً^(١) وفي هذا المعنى

يقول آخر :

(١) البلوط : أبو فروة ، والعفص : تتره يكون على شجرة البلوط أو ضرب منه

أَمَا رَأَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَ وَوَدَّ خُلِقُوا كَأَنَّهُمْ خُبْرٌ بَقَالٍ وَكِتَابٍ (١)

قطيعة الإخوة

ومما جاء في قطيعة الإخوة وتبريرها - والقطيعة الهجران ، ضد الصلة - : ما روى أنه قيل لأعرابي : لِمَ تَقْطَعُ أَخَاكَ شَقِيْقَكَ ؟ فقال : أنا أَقْطَعُ الْفَاسِدَ مِنْ جَسَدِي الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ إِلَيَّ مِنْهُ ، فَكَيْفَ لَا أَقْطَعُهُ إِذَا فَسَدَ ! وكتب الفضل بن سهل الوزير إلى المأمون - الخليفة العباسي - : أما بعد ، فإن الخلوِّع - يريد الأمين أخا المأمون - وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النسب والأحمة ، فقد فرَّق كتابُ الله بينهما فيما اقتصَّ علينا من تبايُ نوح ، فقال : يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عملٌ غيرُ صالح ، فلا صلةَ لِأَخِي فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، وَلَا قَطِيْعَةَ مَا كَانَتِ الْقَطِيْعَةُ فِي ذَاتِ اللَّهِ ، وَالسَّلَامُ . . . وقيل لِإِبْرَاهِيْمَ : أَخُوكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ صَدِيْقُكَ ؟ فقال : إنما أحبُّ أخي إذا كان صديقاً . ويقال : القَرَابَةُ محتاجة إلى المودَّة ، والمودَّة أقرب الأنساب ، والبيت المشهور في هذا :

فَإِذَا الْقَرَابَةُ لَا تُقَرِّبُ قَاطِمًا وَإِذَا الْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ الْأَنْسَابِ

الناس تجاه البنات

وقد كان الأوائلُ يُجَاهُ البنات - وكذلك الناس إلى يومنا هذا - حريقين - : فأما فريقٌ فقد كانوا يُفَضِّلُونَهُنَّ وَيَحْنُونَ عَلَيْهِنَّ ، وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي ذَلِكَ مَا يُرْوَى أَنَّ مَعْنَ بْنَ أَوْسٍ الْمُرْنِيَّ - شاعر إسلاميٍّ من الفحول -

(١) البقال : بائع البقول ، والكتاب : المدرسة يحفظ فيها كتاب الله وما إليه .

كان مثنائاً - وكان له ثمان بنات ، وكان يُحْسِنُ مُحَبِّبَتَهُنَّ وَتَرَبِّبَتَهُنَّ ، فَوَلِدَ لِبَعْضِ عَشِيرَتِهِ بِنْتٌ ، فَكَرِهَهَا وَأَظْهَرَ حِزْجًا مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ مَعْنُ :

رَأَيْتُ رِجَالًا يَكْرَهُونَ بَنَاتِهِمْ

وَفِيهِنَّ - لَا تُكَذِّبُ - نِسَاءَ صَوَالِحِ

وَفِيهِنَّ - وَالْأَيَّامُ يَعْتُرُنَ بِالْفَتَى - عَ - وَائِدُ لَا يَمْلِكُنَّهُ وَتَوَالِحُ

وَدَخَلَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى مَعَاوِيَةَ وَعِنْدَهُ ابْنَتُهُ عَائِشَةُ ، فَقَالَ : مَنْ هَذِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ : هَذِهِ تَفَاحَةُ الْقَلْبِ ؛ فَقَالَ : أَنْبِذْهَا عَنَّا ، قُلْ : وَلِمَ ؟ قَالَ : لِأَنَّهَا تَلِدُنَّ الْأَعْدَاءَ ، وَيُقَرِّبُنَ الْبُعْدَاءَ ، وَيُورِثُنَ الضَّغَائِنَ ^(١) ، فَقَالَ : لَا تَقُلْ ذَلِكَ يَا عَمْرُو ، فَإِنَّ اللَّهَ مَا مَرَضَ الْمَرَضَى وَلَا نَدَبَ الْمَوْتَى وَلَا أَعَانَ عَلَى الْأَحْزَانِ وَيُثَلِّهُنَّ ، وَإِنَّكَ لَوَاجِدٌ خَالًا قَدْ نَفَعَهُ بَنُو أُخْتِهِ ؛ فَقَالَ لَهُ عَمْرُو : مَا أَعْلَمُكَ إِلَّا حَبِيبَتَهُنَّ إِلَى ..

وقال بعضهم : البناتُ حسناتٌ . والبنونُ نعمٌ ، والحسناتُ مُثَابٌ عليها ، والنعمُ مُسْتُولٌ عنها ...

وأما الفريق الآخرُ فيكره البنات : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ - كما قال سبحانه وتعالى - وَقَدِيمًا قَالُوا : نِعْمَ الْخَيْتَانُ الْقَبْرِ ^(٢) ... وَدَفِنُ الْبَنَاتِ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ ...

* وَمَا تَحَدَّثَنُ فِينَا أَعْفُ مِنَ الْقَبْرِ *

ونظر أميراني إلى بنت تُدْفِنُ ، فَقَالَ : نِعْمَ الصَّهْرُ صَاهِرْتُمْ ... وقال

(١) يورث : من أوتت النار : أوقدها (٢) الخين : زوج البنت

الحسين بن علي رضي الله عنه : والد الميت مُتَمَبُّ ، والدُ بِمَتَسِينٍ مُثَقَلٌ ،
 ووالد ثلاث فعلى الناس أن يُعينوه... وقال الزهري : كانوا لا يَرَوْنَ علي
 صاحب ثلاثِ بَنَاتٍ صَدَقَةً ولا جِهَادًا ... وكانت العَرَبُ لا تأكل طعامَ
 صاحب البناتِ وقد قال قائلهم :

إذا ما المرءُ سبَّ له بَنَاتٌ عَصَبِنَ برأسه عَتْنَا وَعَارَا

وأد البنات : وناهيك في هذا الباب سُتْعَةٌ وَسُوءٌ صَلِيحَةٌ بما كان العربُ يفعلون
 في الجاهلية من وأد البنات^(١) ... وما فِتِنُوا إلى أن أُرْسِلَ سَيِّدُ البشر صلوات الله
 عليه ، فنَهَى عن ذلك ، وأزل الله عز وتقدس : وإذا المَوُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ
 ذنبٍ قُتِلَتْ ؟ وكثيرا من الآيات في هذا المعنى المُفْطِح ... ودخل قيس بن
 عاصم المِنَقَرِيُّ - وهو سيّد أهل الوبر - على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :
 إني وأدتُ آثَلَتِي عَشْرَةَ بِنَاتٍ ، فما أصبَحُ ؟ فقال رسول الله : أَعْتَقَ عَنْ
 كُلِّ نَوُودَةٍ نَسَمَةً ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : فما الذي حَمَلَكَ على ذلك
 وأنت أكثرُ العرب مالا ؟ فقال : مَخَافَةٌ أَنْ يَنْكِحَهُنَّ مِثْلُكَ^(٢) ، فتبسم رسول
 الله وقال : هذا سيّد أهل الوبر ... قال قيس : ما وُلِدْتُ لِي ابْنَةٌ إِلَّا وَأَدْتُهَا
 سوى بُبَيَّةٍ وُلِدَتْهَا أُمُّهَا وأنا في سفرٍ ، فلما عُدْتُ ذَكَرْتُ أَنَّهَا وُلِدَتْ ابْنَةً
 مَيْتَةً ... فَأَوْدَعْتُهَا أَخْوَالَهَا حَتَّى كَبُرَتْ ، فَأَدْخَلْتُهَا مَنْزِلِي مُتَرَيِّنَةً ،

(١) وأد بنته يتدها وأدا : دفنها في القبر وهي حية

(٢) هذه عجرفة وعنجهية من هذا الاعرابي الجلف في حق الصديق رضي الله عنه
 وإن كان قيس بن عاصم سيّد أهل الوبر ، وما أحلم سيدنا رسول الله الذي أرسل
 ليتم مكارم الاخلاق ، والذي أمر بأن يدعو الناس الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة
 الحسنة .

فاستحسنتها ، فقلت : من هذه ؟ فقالت : هذه ابنتك ، وهي التي أخبرتك أنني ولدتها ميتة ، فأخذتها ودفنتها حية وهي تصيح وتقول : اتتركني هكذا ؟ فلم أعرج عليها ، فقال صلى الله عليه وسلم : من لا يرحم لا يرحم ...

الخال والخولة

بقي بعد ذلك أن نورد شيئا مما قالوا في الخولة والخال : والقول في ذلك ينشعب أيضا ، فقد قالوا في مدح الخال وذمه ، وقالوا في معنى نزاع الولد إلى خاله ^(١) ، فلمنتق شيئا مما قالوا في هذه المعاني ، فأما قولهم في اعتبار الخولة وكونها كالأبوة ، فن ذلك ما يروى أن الأسود بن وهب خال رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن عليه ، فبسط صلى الله عليه وسلم له رداءه ، فقال الأسود : حسبي أن أجلس على ما أنت عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم : أجلس فإن الخال والوالد ... ومن طريف هذا الباب ما يروى أن الحجاج قال لابن معمر : إنك تزعم أن الحسن والحسين ابنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، قال : والله لا قتلنك ، فقال ابن معمر : أليس الله يقول : ومن ذريته داود وسليمان ، إلى قوله : وزكريا ويحيى وعيسى ، وإنما عيسى ابن مريم : ابن بنت ، فقال نجوت ... وأما من عد الخولة ليست من النسب والقرابة ، فن قولهم في ذلك - والقائل ضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطن - شاعر جاهلي - وقيل غيره - :

إذا كنت في سعدٍ وأملك منهم غريبا فلا تغررك خالك من سعدٍ

(١) نزاع فلان إلى أبيه أو خاله ينزع نزوعا ونزاعا : ذهب إليه وأشبهه ، ومثله نزاع الإنسان إلى أهله والبعير إلى وطنه ونزوعا ونزوعا : حن واشتاق

فإنَّ ابنَ أُخْتِ القومِ، صُعِيَّ إناؤُهُ إِذا لم يُزاحِمْ خالَهُ بِأبِ جَدِّهِ (١)
وتقدم شابُّ إلى عبد الله بن الحسين رضى الله عنه فقال: إِنَّ جَدِّي أَوْصَى
بِثُلْكَ مالِهِ لوليدٍ وِأَلَدِهِ، وَأنا من ولدِ بِنْتِهِ، والوصى لیس يُعْطِينِي منه، فقال:
لاحقَّ لك فيه، أما سمعت قول الشاعر:

بُنُونًا بَنُو أَبْنائِنَا وَبِنَاتِنَا بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرَّجَالِ الْإِبَاعِدِ
« يقول: إن بنى أبنائنا مثل بنينا، أما بنو بناتنا فليسوا منا وإنما هم أبناء
الأجانب، فبنونا خير مقدم وبنو أبنائنا مبتدأ مؤخر، وهذا البيت لا يعرف
قائله على شهرته. قال الإمام العيني: هذا البيت استشهد به النحاة على جواز
تقديم الخبر، والقرضيون - علماء المواريث - على دخول أبناء الأبناء
في الميراث وأن الانتساب إلى الآباء، والفقهاء كذلك في الوصية،
وأهل المعاني والبيان في التشبيه، ولم أر أحدا منهم عزاه إلى قائله،
وقالوا في نزاع الولد إلى خاله:

عليك الحال إنَّ الحالَ يسرى إلى ابنِ الأختِ بالشَّبهِ المُبينِ
وقالوا:

لِكُلِّ امرئٍ شَكْلٌ يَقرُّ بِعَيْنِهِ
وَقُرَّةُ عَيْنِ القَسَلِ أَنْ يَصْحَبَ القَسَلَا
وتعريف في مجدي امرئٍ مجد خاله
ويندُلُ أن تَلْقَى أختَ أمِّهِ تَدَلَا

(١) مصعَى إناؤه: نقص حظه، يقال أصغى فلان إناؤه فلان: إذا أماله ونقصه
من حظه يقول هذا الشاعر: لا تغتر بخولتك فإنك منقوص الحظ ما لم تزاحم أحوالك
بآباء شراف وأعمام أعزة.

« الفسل : النذل الذى لامرؤة له ولا جلد » وقال رافع بن هرهم :-

شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم ، يخاطب بنى أخوته :-

قَهْلًا عَيْرَ عَمَّكُمْ ظَلَمْتُمْ إِذَا مَا كُنْتُمْ مُتَّظِّلِينَا
عِفَارِيَتَا عَلِيٍّ وَأَكْلِ مَالِي وَجُبْنَا عَنْ رِجَالِ آخِرِينَا
وَلَوْ كُنْتُمْ لِمُكَيِّسَةَ أَكَّسْتُمْ وَكَيْسُ الْإِثْمِ كَيْسُ لِبْنِينَا
وَلَكِنْ أَمُّكُمْ حَمَقَتْ جُنْتُمْ غَثَاثَا مَا نَرَى فِيكُمْ سَمِينَا

وموضع هذه الآيات باب إنجاب الإهات فى كتاب النساء وترى نظائرله هناك
« قوله متظللينا ، تقول : تظلمنى مالى : أى ظلمنى مالى ، و « ما » فى : إذا ما كنتم :
زائدة ، والمكيسة : المرأة التى تلد أولادا أكياسا ، وأكاست المرأة : ولدت
ولدا كياسا ، والكيس : خلاف الحق ، ورجل كيس : أريب ظريف ، وقوله :
ولكن أمكم حمقت : أى صارت حمقاء ، والغثا : جمع غثيث بمعنى مهزول ،

مدعو القرابة البعيدة

ومما يستطرف من محاسنهم فى مدعى القرابة البعيدة : قول رجل لآخر :
لست ترعى حقى وبيننا قرابة ا فقال : من أين ؟ قال : إن أباك كان قد خطب
أمى ، فلو تم الأمر لكنت أنا أنت ... فقال : هذه والله رحيم ماسة ...
وتعرض رجل لهشام بن عبد الملك وأدعى أنه أخوه ، فسأله : من أين ذلك ؟
قال : من آدم ا فأمر بأن يُعطى درهما ، فقال : لا يُعطى مثلك درهما ،
فقال هشام : لو قسمت ما فى بيت المسال على القرابة التى ادعىتها لم ينالك
إلا دون ذلك ... وفى هذا المعنى - معنى ادعاء القرابة وانتفانها -
يقول حسان بن ثابت :

كَعْمُرِكَ إِنَّ إِلَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ كَيْلَ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النِّعَامِ^(١)

محاسنهم في الآباء والأبناء والأقارب من بابات شتى

ولنعطف على سائر محاسنهم في الآباء والأبناء والقربات من بابات شتى :
تقن ذلك تفاخرهم بالحسب وكرم المَحْتَدِ ، قال عدى بن أرطاة لإياس : دُلّني
على قوم من القراء أو ليهم ، فقال : القراء ضربان : ضربٌ يعملون للدينا ،
شما ظنك بهم : وضربٌ يعملون للآخرة فلا يعملون لك ، وليكن عليك
بأهل البيوتات الذين يستحيون لأحسابهم ... وقال زهير بن أبي سلمى :

وما يكُ من خير أتوه وإنما توارثه آباء آبائهم قبيلُ

وقال :

وهل يُنبتُ الحَطّىُّ إلا وشيجهُ وتُفرَسُ إلا في منابتها النخل

« الحَطّىُّ : الرمح ، قال أبو حنيفة الدينوري العالم النباتي الأشهر : الحَطّىُّ :
الرمح ، وهو نسبة قد جرى مجرى الاسم العلم ونسبته إلى الحَطّ ، خط البحرين ،
ولها ترفاً انسفن إذا جاءت من أرض الهند ، وليس الحَطّىُّ - الذي هو الرمح -
من نبات أرض العرب . وزاد الجوهري : وإنما نسبت إلى الحَطّ لأنها تحمل
من بلاد الهند فتقوم به . ووشيجه : فالوشيح شجر الرماح ، ... »

ودخل بعض أولاد عبد الله بن الزبير على سليمان بن محمد ، فجنس على مُمرقة

(١) الإلّ : القرابة ، والسقب : ولد الناقة ، والرأل : ولد النعام ، يهجو حسان
أبا سفيان الخارث بن عبد المطلب ، وزعم بعضهم أن هذا الشعر يقوله حسان لعقبة بن
أبي معيط ، وذكروا أنه كان لونية ولذلك قال له عمر حين أمر رسول الله بضرب
عنقه ، فقال : أقتل من بين قريش صبوا ، فقال عمر : « حنّ قدح ليس منها »

«الوسادة يتكأ عليها ، فاغناظ من ذلك وقال : مَنْ أجالسك ههنا؟ قال : صَفِيَّةٌ
 بنت عبد المطلب : فسكن غضبه . وقال أبو تمام :

تَسَبُّ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نُورًا وَمِنْ فَاتِي الصَّبَاحِ عَمُودًا

وقالوا فيمن يشبه أباہ في علاء ابنتاه : شَنِئْتَهُ أَعْرِفُهَا مِنْ أُخْزَمِ (١) و :
 وَإِنَّ امْرَأَةً فِي الْفَضْلِ أَشْبَهَ جَدَّهُ وَوَالِدَهُ الْأَذَى لَغَيْرِ ظُلُومِ
 وقال أبو تمام فيمن مكارمُهُ تَدُلُّ عَلَى كَرِيمِ أَسْلَافِهِ :

فُرُوعٌ لَا تَرِفُ عَلَيْكَ إِلَّا شَهِدَتْ بِهَا عَلَى طِيبِ الْأُرُومِ (٢)
 وَفِي الشَّرَفِ الْحَدِيثُ دَلِيلُ صِدْقِ لِمُخْتَبِرٍ عَلَى الشَّرَفِ الْقَدِيمِ
 وقال عامر بن الطفيل (٣) في المستغنى بنفسه عن حسبه :

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنَ فَارِسٍ عَامِرٍ وَفِي السَّرِّ مِنْهَا وَالصَّمِيمِ الْمَهْدَبِ (٤)
 فَمَا سَوَّدَتْني عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةِ أَبِي اللَّهِ أَنْ أَشْمُو بَأْتَمٍ وَلَا أَبِ
 وَلَكِنِّي أَحْبَبِي حِمَاها وَأَتَّقِي أَذَاهَا وَأُرْجِي مِنْ رَمَاهَا بِمَقْتَبِ (٥)

(١) الشنئنة : العادة والطبيعة وهذا مثل ، وأصله لاني أخزم الطائي وهو جده
 جدهم تين-حاتم الطائي ، وكان له ابن يقال له أخزم كان عاقاً ثمات وترك بنين فوثبوا يوماً
 على جدهم أبي أخزم فأدموه فقال :

إِنَّ نَبِيَّ ضَرَجُونِي بِالْأَمِّ شَنِئْتَهُ أَعْرِفُهَا مِنْ أُخْزَمِ

يعني أن هؤلاء أشبهوا أباهم في العقوق

(٢) الأروم : جمع أرومة ، وهي الأصل

(٣) شاعر مخضرم وفارس مذكور بعيد الصوت في العرب

(٤) وفي السر منها : من سر الوادي ، وهو أكرم موضع فيه يريد أنه في

كرم موضع من نسبها (٥) مقنب كبير : جماعة الخيل والرجال والجمع مقانب

ويروى : من رماها بمنكب ، والمنكب في الأصل : مجتمع عظم العضد والكتف ، ضربه

مثلاً للشدّة والقوة

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب :
 لَسْنَا وَإِنْ كُرِمَتْ أَوَائِلُنَا يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ نَسِكُلُ
 نَبِيِّ كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَتَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

وقال المتنبي :

خُذْ مَاتِرَاهُ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنِ زُحُلِ
 وقال :

لَا يَقْوَى شَرَفْتُ بِلِ شَرُفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَفَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي
 وَمَا فَضَّلَ الْوَلَدَ عَلَى الْوَالِدِ بِأَحْسَنَ مِنْ قَوْلِ الْمُنْبِيِّ :
 وَإِنْ تَكُنْ تَغْلِبُ الْعَلْبَاءُ عُنُصْرَهَا فَإِنَّ فِي الْخَيْرِ مَعْنَى لَيْسَ بِالْعِنَبِ
 وقوله أيضا :

وقال ابن الرومي فيمن ازداد شرف آباءه به :
 وَكَمْ أَبٍ قَدْ عَلَا بِابْنِ دُرٍّ شَرِيفٍ كَمَا عَلَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ عِدْنَانُ
 يَسْمُو الرِّجَالُ بِآبَاءِ وَأَوْنَةٍ تَسْمُو الرِّجَالُ بِأَبْنَاءِ وَتَزْدَانُ

وقالوا في أنه لا اعتداد بمن شرف أصله إذا لم يشرف بنفسه :
 - والقائل المعلم الأول أرسطوطاليس - : إذا كان الإنسان تحسيس الأبوين
 شريف النفس ، كانت خسته أبويه زائدة في شرفه ، وإذا كان شريف الأبوين
 خسيس النفس ، كان شرف أبويه زائداً في خسته . وقال ابن الرومي :
 وَمَا الْحَسْبُ الْمُرُوثُ لِأَدْرَ دَرُّهُ ؛ حَتَّسِبِ إِلَّا بِآخَرِ مُكْتَسَبِ
 إِذَا الْعُودُ لَمْ يُثْمِرْ وَإِنْ كَانَ سُعْبَةً
 مِنَ الْمُثْمِرَاتِ اعْتَدَهُ النَّاسُ فِي الْحَطَبِ

« لا ذرّ درّه : لازكا عمله ، دعاء عليه أن لا يجعله الله نافعا ،

وقال سقراط - في الاعتذار عن شرفت نفسه ولم يشرف أصله - وقد
عَيَّرَهُ رجل بحسبه - : حَسْبِي مِنِّي ابْتَدَأُ ، وَحَسْبُكَ إِلَيْكَ اتَّهَى ... وقال قائل
في هذا المعنى : لَأَنَّ يَكُونُ الرَّجُلُ شَرِيفَ النَّفْسِ ذِيَّ الْأَصْلِ ، أَفْضَلُ مِنْ
أَنْ يَكُونَ ذِيَّ النَّفْسِ شَرِيفِ الْأَصْلِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ رَأْسَ الْكَلْبِ خَيْرٌ مِنْ
ذَنَبِ الْأَسَدِ !

ومما يستظرف من اعتذار المتخلفين الأندال ، عن تخلفهم عن آباؤهم الأشراف
ماروى : أنه قيل لأعرابي : ما أشبهت أباك ا فقال : لو أشبهت كل رجل أباه
كنا كآدم ... وخطب رجل قَصَرَ عن أبيه إلى رجل رفيع القدر ، ابنته ، فقال
له العظيم : لو كنت مثل أبيك ا فقال : لو كنت مثل أبي لم أخطب إليك ...

ومن محاسنهم في ذم من قصر عن آباؤه : قول بعضهم :
لَئِنْ فَخَّرْتَ بِآبَائِهِمْ لَهْمُ شَرِّفَ لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَكِنْ يَنْتَسِمَا وَالدُّوَا
وقول أبي تمام :

يَا أَكْرَمَ النَّاسِ آبَاءَ وَمُقْتَحَرًّا وَالْأَمَّ النَّاسِ مَبْلُؤًا وَنُحْتَبَرًا
ونظر رجل إلى ابن نذل من أب كريم فقال : سبحان الله من قائل :
يُخْرِجُ الْحَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ . وقال شاعر في لثيم النفس كريم الأبوين :
فَلَا يَعْجَبَنَّ النَّاسُ مِنْكَ وَمِنْهُمَا فَمَا حَبِثُ مِنْ فِضَّةٍ بِعَجِيبِ
« الحبث من الحديد والفضة ونحوهما : مانفاه الكبير ولاخير فيه ،

وقالوا فيمن يَخْزِي من ذكر آبائه : فمن ذلك أن رجلاً سُئِلَ عن نسبه ، فقال : أنا ابن أخت فلان ، فقال أعرابي : الناس ينتسبون طولاً وأنت تنتسب عرضاً

ومن محاسنهم فيمن لا يُعتدُّ بأبيه : قول الأخطل :
 وإذا وَضَعْتَ أباك في ميزانهم رَجَحُوا وشال أبوك في الميزانِ
 « شال الميزانُ : ارتفعت إحدى كفتيه ، ويقال : شال أبوك في الميزان ، وهو مثل في المفاخرة يقال : فأخزته فشال ميزانه : أى فَخَزْتُهُ بِآبَائِهِ وَغَلَبْتَهُ ، وقال بعض شعراء أصفهان :

تَبَجَّحَ بِالكَتَابَةِ كُلُّ وَغْدٍ قُبَّحًا لِلْكَتَابَةِ وَالْعِمَاءِ
 أَرَى الْآبَاءَ نَسَبَتَهُمْ جَمِيعًا إِلَى الْإِبْنَاءِ مِنْ فِرطِ النَّدَالَةِ

وقالوا في الابن يجارى أباه : العصا من العَصِيَّةِ و : هل تَلِدُ الحيةُ لِأُحْيِيَّةٍ
 وقال شاعر :

وإنَّ أَحَقَّ النَّاسِ أَنْ لَا تَلُومَهُ عَلَى الشَّرِّ مَنْ لَمْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ وَالِدُهُ
 إِذَا الْمَرْءُ أَلْفَى وَالِدَيْهِ كِلَيْهِمَا عَلَى اللَّؤْمِ فَأَعْدِرُهُ إِذَا خَابَ رَأْدُهُ (١)
 وقالت الخنساء - وقيل لها : ما تَدْحَتِ أَخَاكَ حَتَّى هَجَوْتَ أَبَاكَ فَقَالَتْ :
 جَارَى أَبَاهُ فَأَقْبَلَا وَهُمَا يَتَعَاوَرَانِ مُلَاءَةً الْحَضِرِ
 حَتَّى إِذَا نَزَّتِ الْقُلُوبُ وَقَدْ كُرَّتْ هُنَاكَ الْعُذْرُ بِالْعُذْرِ
 وَعَلَا هُتَافُ النَّاسِ أُيْهِمَا قَالَ الْمُجِيبُ هُنَاكَ : لَا أَدْرِي

(١) أصل الرائد : الذى يتقدم القوم يبصر لهم السكلا ومساقط الغيث

بَرَزَتْ صَحِيفَةٌ وَجْهَ وَالِدِهِ وَهَضَى عَلَى غُلُوَاتِهِ يَجْرِي
أُولَى فَأُولَى أَنْ يَسَاوِيَهُ لَوْلَا تَجَلُّلُ السَّنِّ وَالْكِبَرِ
وَهُمَا وَقَدْ بَرَزَا كَأَنَّهُمَا صَقْرَانِ قَدْ حَطَّأَ إِلَى وَكْرِ

«قوله: ملاءة الحضر: فالحضر: العدو والجرى، وإنما تريد بملاءة الحضر: العُبار.

وكان عدى بن الرقاع نظر إلى هذا في قوله يصف حمارا وأنا ما:

يتعاوران في العُبار ملاءةً بيضاء مُحدَّثةً هُما نَسَجَاهَا

ونزت القلوب: يريد طمحت وشرأت لتعرف من السابق، ولُزَّت: قرنت.

والعذر: جمع عذار وهو ما سال من اللجام على خد الفرس، ويروى القدر

بالقدر، والقدر: المنزلة، والكبر: أظنها بضم الكاف بمعنى الأَكْبَرِ أى ولولا

جلال الأَكْبَرِ، ولك أن تقرأها الكبر بكسر الكاف أى الكِبَرِ ولكنه

أسكن الباء ضرورة،

أما الإسلام فقد عدَّ الشرف والحسب إنما هو بالثقي فقال سبحانه: إن

أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، قال بعضهم: ما أبقى الله بهذه الآية لأحد شرف

أبوة... ورأى عمر بن الخطاب رجلا يقول أنا ابن بطحاء مكة، فوقف

عليه وقال: إن كان لك دينٌ فلك شرف، وإن كان لك عقل فلك مُرُوءة.

وإن كان لك علم فلك شرف، وإلا فأنت وإلخمارُ سواء، وقالوا: كان

الشرف في الجاهلية بالبيان والشجاعة والسماحة، وفي الإسلام بالدين والتقى...

وقالوا في الدعوة: أى ادعاه الولد الدعى غير أبيه، أى انتسابه إلى

غير أبيه، وقد كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية. فنهى الإسلام عنه، وكان سيدنا

رسول الله قد تبنى زيد بن حارثة عتيق الرسول، فكانوا يقولون له: ابن

محمد ، فأمر الله عزّ وجل أن ينسب الناس إلى آباؤهم وأن لا ينسبوا إلى من
تبناهم فقال: وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم « أى للاحقيقة
له فى الواقع ، والله يقول الحق « أى ماله حقيقة عينية » وهو يهدى
السييل، أدعواهم لآباؤهم هو أوسط عند الله « هو: أى دعوتهم لآباؤهم، وأوسط:
أعدل، ومعناه البالغ فى الصدق ، فإن لم تعدوا آباؤهم فأخوانكم فى الدين
ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم ، وكان
الله غفورا رحيمًا ...

والأحاديث فى ذلك متوافرة ، فمنها قوله صلوات الله عليه : الولدُ للفراش
وللعاهر الحجرُ ... « يعنى أن الولد لصاحب الفراش ، من السيد أو الزوج ،
وللزاني الخيبة والحرمان ، وهذا كما تقول : مالك عندى شى غير التراب ،
وما بيدك غير الحجر ، رذهب قوم إلى أنه كنى بالحجر عن الرجم ، قال ابن
الأنثير : وليس كذلك لأنه ليس كلُّ زانٍ يُرجمُ .. وقالوا فى التعريض بالنسب -
والقاتل أبو نواس :

إذا ذكرتَ عَدِيًّا فى بنى مُعَلِّ
فقدّم الدال قبل العين فى النسب
ودخل ابن مُكْرَمٍ على أبى العيناء - صاحب النوادر والمجون وكان ضرباً -
ليهنّيه بآبن وُلِدَ له ، فوضع عنده حجراً ، فلما خرج أخبرَ أبو العيناء ،
فقال : لعن الله هذا ، أما تعلمون ماذا عَنَى ؟ إنما أراد قول رسول الله :
الولد للفراش وللعاهر الحجر ...

ولتى رجل رجلاً فقال له : من أنت ؟ قال : قُرشي والحمد لله ، فقال :
لحمد لله فى هذا الموضع ريبة ... وقال زياد بن أبيه - وهو ابن أبي سفيان لربيبة -
لرجل : يادعى ، فقال : الدعوة قد تشرف بها المدعى على ، فكيف عيّرها !

وفي قولهم فيمن لا يشبه والديه وذويه خَلَقَةً :

أَلْوَانُهُمْ إِلَيْكَ عَنْ أَنْسَابِهِمْ مُعْتَدِرَهُ

وكان بأصْبَهَانَ رجل مجنون يعرف بابن المستهام ، فقيل لأحمد بن عبد العزيز : إنه مليح ذو نوادر ، فاستحضره ، فلما تأمله قال - أي المجنون - :

في اختلاف الوجوه من آلِ عَجَلٍ لَدَلِيلٌ عَلَى فسادِ النساءِ
فأراد أحمد أن يبيّش به ، ثم كَفَّ عنه مخافة أن يتحدث الناس بذلك ...
ومن طريف ما قالوا أيضا في التعريض بالرجل أن ابنه من زِنْيَةٍ ، ما يروى
أنه قيل لرجل : إن امرأة فلان وُلِدَتْ بعد الرَّفَافِ بِحَمْسَةِ أَشْهُرٍ فقال : إنه
بَنَى جَدَارَهُ عَلَى أَسِيٍّ غَيْرِهِ ...
وخاصم ذو الرمة رجلا من ولَدِ زياد بن أبيه فقال له الزياتي : يادعي ،
فأنشد ذو الرمة :

بَيْتِنَةُ قَالَتْ يَا جَمِيلَ أَرَبْتَنَا قَقَلْتَ كَلَانَا يَا بَيْتِنُ مَرِيْبٌ (١)

ومما يصح أن يذكر في هذا الباب : كما يصح أن يذكر في كتاب النساء قولهم في أن الولد الذي يَنْسِلُ من الأقارب يخرج ضاويا ضعيفا ، فمن ذلك قوله صلوات الله عليه : « اُعْتَرِبُوا لِاتُّضُوا » أي تزوجوا الغرائب دون القرائب فإن ولد الغريبة أنجب وأقوى من ولد القرية ، وقد أضوت المرأة إذا ولدت ولدا ضعيفا ، فمعنى لاتضوا : لاتأثوا بأولاد ضاوين ، أي ضعفاء نحفاء ، الواحد : ضاير ، وكذلك قال صلوات الله عليه : لا تَنْسِكُوا الْقَرَابَةَ الْقَرِيْبَةَ

(١) أَرَبْتَنَا : رأينا منك ما يربينا ونكرهه منك

فإن الولد يُخلق ضاويًا... ونظر عمر رضى الله عنه إلى قوم من قريش صغار الأجسام فقال: مالكم صغرتم؟ قالوا: قُربُ أمهاتنا من آبائنا، قال: صدقتم، اغتربوا لاتضُّوا... وقال العتيبي: تزوج أهل بيت، بعضهم في بعض، فلما بلغوا البطن الرابع بلغ بهم الضعف إلى أن كانوا يحبُّون حيوانًا لا يستطيعون القيام ضعفاً...

الرضاعة

وكذلك نورد هنا قولهم في الرضاعة: قال رسول الله: يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب «بانظر كتب الفقه»، ونهى رسول الله عن رضاع الحنقاء وقال: لا ترضعوا الحنقاء فإن الولد ينزع إلى اللبن... وقال رجل في وصف آخر نسبه إلى الرعونة: كيف لا يكون أرعن وقد أرضعته فلانة! والله إنها كانت تزُق الفرخ - أى بفيها - فأرى الرعونة في طيرانه.. ورووا أن الحسن البصرى رحمه الله عليه كانت أمه تغشى أم سلبه زوج سيدنا رسول الله، فدرت عليه من لبنها، فورث منه علمه وفصاحته وورعه:

الإحسان

وعبقرياتهم في الجود واصطناع المعروف وقرى الأضياف

وذم البخل والسؤال

وهذا لون ثان من ألوان البر هو في الواقع ينظم لوتين، فأما أولهما فهو هذا الذى نحن بصدده الآن، وهو الجود واصطناع المعروف، وسائر ما يمت إلى ذلك بسبب واصل من قرى الأضياف وذم البخل، وأما الآخر فهو حُسن الخلق، وسنفرده له وصلًا تراه عقيب هذا.

تحفى الإسلام بالإحسان: وكما أنَّ صِلَةَ الرَّحْمِ بِعَامَّةٍ، وِيرَ الوالدين بِخَاصَّةٍ،
 بما تحفى به الإسلامُ كُلَّ التحفى، حتى قرَّنه بالتوحيد وبالتقوى، ترى هذا الدينَ
 الخفيفَ، لقد تحفى كذلك كلَّ التحفى بالإحسانِ إلى مُستحقِّيه، وذمَّ الشُّحَّ ونعاهُ،
 على أهليه، وامتدحَ الجودَ وآوَه به كلَّ التنوبه، حتى قرَّنه ذكره بالإيمان،
 ووصفَ أهله بالفلاح، والفلاح اسمٌ جامعٌ لسعادة الدارين، فقال سبحانه
 وتقدس: ألم، ذلك الكتاب لارِيبَ فيه هُدىً للمتقين الذين يؤمنون بالغيب
 ويقيمون الصلاة وما رزقناهم يُنفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل
 من قبلك وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون..
 وقال في وصف الأنصار: ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ،
 وَمَنْ يُوَقِّ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَفْلِحُونَ... «الخصاصة: الفقر، ويوقى:
 يصاب»، وقال عزَّ وجلَّ: مَثَلُ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
 أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
 وَاسِعٌ عَلِيمٌ، إلى أن قال سبحانه: ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة
 الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل حبةٍ برَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلهَا ضِعْفَيْنِ...
 الآيات... «قوله سبحانه: كمثل حبة... الآية، فإن ذلك تمثيل لا يقتضى
 وقوعه، والجنة: البستان، والربوة: الموضع المرتفع، وشجره في العادة يكون
 أحسن منظرأ وأزكى ثمراً، والوابل: المطر العظيم، وقال: لن تنالوا البرَّ حتى
 تنفقوا بما تحبون، وما تنفقوا من شيء فهو يخلفه والله خير الرازقين.
 «والبر ههنا: فهو يرُّ الله، أى خيرُ الدنيا والآخرة، أى السعادةُ والفلاحُ
 والفرزُ، أو تقول: لن تنالوا البرَّ: أى لن تنالوا حقيقةَ البرِّ حتى تُنفقوا
 بما تحبون»

قال الراغب في الذريعة : وَحَقَّ لِلْجُودِ أَنْ يُقَرَّنَ بِالْإِيمَانِ ، فَلَا شَيْءَ أَخْصُّ بِهِ ، وَأَشَدُّ مُجَانَسَةً ، مِنْهُ ، إِذْ مِنْ صِفَةِ الْمُؤْمِنِ انْشِرَاحُ الصَّدْرِ : فَمَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يُشْرِحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُضِلَّهُ يُجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ . . . وهذا من صفات الجوادِ والبخيلِ ، لأن الجوادَ يوصفُ بِسَعَةِ الصَّدْرِ لِلإِنْفَاقِ ، والبخيلُ يوصفُ بِضَيْقِ الصَّدْرِ لِلإِمْسَاكِ . . .

الناس مجبولون على البخل

« وأما بعد » فإن أكثر هذا الناس لقد جُبلوا على البُخْلِ ، فالْبُخْلُ هو الأصل ، وإِنَّمَا الْجُودُ فِي سَائِرِ أَلْوَانِهِ ، تَكْلُفٌ وَتَعَمُّلٌ وَحَمْلٌ لِلنَّفْسِ عَلَى مَكْرُوهِهَا وَعَلَى غَيْرِ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ ، وَقَدْ قِيلَ لِحَاتِمِ الطَّائِيِّ الَّذِي يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْجُودِ : كَيْفَ تَجِدُ الْجُودَ فِي قَلْبِكَ ؟ فَقَالَ : إِنِّي لِأَجِدُهُ كَمَا يَجِدُهُ النَّاسُ ، وَلَكِنِّي أَنْجِلُ نَفْسِي عَلَى حُطْطِ الْكِرَامِ (١) ، وَقَالَ بَعْضُ الْأَجْوَادِ : إِنَّمَا لَنَجِدُ كَمَا يَجِدُ الْبِخْلَاءُ وَلَكِنَّا نَصْبِرُ وَلَا يَصْبِرُونَ . . . وَفِي هَذَا الْمَعْنَى : وَوَلِ الْبِحْتَرَى : وَأَشَقُّ الْأَفْعَالِ أَنْ تَهَبَّ الْأَنْفُسُ مَا أُغْنِيَتْ عَلَيْهِ الْأَكْفُ وَبِقَوْلِ أَبُو يَعْقُوبَ الْخُرَيْمِيُّ :

وَدُونَ النَّدَى فِي كُلِّ قَلْبٍ ثَلِيَّةٌ بِهَا مَصْعَدٌ حَزْنٌ وَمُنْحَدَرٌ سَهْلٌ (٢)

ويقول أبو العتاهية :

إِطْرَحْ بِطَرَفِكَ حَيْثُ شِئْتِ فَلَنْ تَرَى إِلَّا بَخِيلًا

ويقول ابن نباتة السعدي :

(١) الحطط: جمع الحططة ، وهي الحال والأمر والخطب

(٢) الثنية : المكان المرتفع الصعب المطلق ، أي أن الكرم شاق على النفس

كيف السبيلُ إلى الغنى والبخلُ في الناسِ فظننه
وأكثرُ من يتسبَّحني ويجودُ فإتما يجودُ رَغَبًا أو رَهَبًا - رغباً في عاجل
الجزاء ، كملقَى الحَبِّ للطَّير ليصيدَ به لا لِيَتَنَفَّعَهُ ،
وَمَنْ يَظُنُّ نَثْرَ الحَبِّ جُودًا وَيَنْصِبُ تَحْتَ مَا نَثَرَ الشبَاكَ (١)
ورَهَبًا مِنْ عَابٍ يَلْتَصِقُ بِهِ أَوْ مَكْرُوهٍ يُصِيبُهُ :
مِثْلُ الحِمَارِ المَوْقَعِ الظَّهْرَ لَا يُعْطِيكَ شَيْئًا إِلَّا إِذَا رَهَبَا (٢)
وهناك صِنْفٌ مِنَ النَّاسِ يُعْطَى وَيَمْنَعُ لَا بُخْلًا وَلَا كَرَمًا ، وَإِنَّمَا يَكُونُ
ذَلِكَ تَهَوُّرًا وَانْدِفَاعًا مَتَّعَ مَعَ نَزْوَةٍ مِنَ نَزَوَاتِ النَّفُوسِ ، كَمَا قَالَ الأديب
أبو بكر الخوارزمي في الوزير الصاحب بن عباد :

لَا تَحْمَدَنَّ ابْنَ عِبَادٍ وَإِنْ هَطَلَتْ يَدَاهُ بِالْجُودِ حَتَّى أَخْجَلَ الدَّيْمَا
فإنهَا خَطَرَاتٌ مِنْ وَسَاوِسِهِ يُعْطَى وَيَمْنَعُ لَا بُخْلًا وَلَا كَرَمًا
وَقَلَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَجُودُ اسْتِجَابَةً لِفَطْرَتِهِ ، وَلِدَاعَى الضَّمِيرِ ، كَمَا يَقُولُونَ ،
فَلْيُنَظِّظْ هَذَا ، وَلْيُنَظِّظْ كَذَلِكَ أَنَّ البُخْلَ رَذِيلَةٌ تَسْتَبِيعُ رذَائِلَ ، وَنَاهِيكَ
بِالجِبْنِ رَذِيلَةٌ ، هِيَ أَلْزِمُ الرذَائِلِ للبُخْلِ : كَمَا أَنَّ الجُودَ فَضِيلَةٌ تَسْتَبِيعُ فَضَائِلَ ،
وَحَسْبُكَ بِالشَّجَاعَةِ فَضِيلَةٌ هِيَ أَخْصُ الفَضَائِلِ بِالْجُودِ :

(١) للبنني ، وقوله ومن يظن : عطف على كل نفس في البيت قبله وهو :

وَأَمَّا فِدَاءُ كُلِّ نَفْسٍ وَإِنْ كَانَتْ لِمَلَكَةٍ مَلَكَ

يقول : الملوك يجودون لطلب العوض كما نثر الصائد جباته تحت الشبكة ، ولا يعتد
ذلك جوداً لأنه إنما نثر لآخذ الصيد الذي هو خير من الحب
(٢) للحكم بن عبدل الاسدي ، والموقع الظهر : الذي بظهره آثار الدبر لكثرة ما حمل
عليه وركب ، فهو ذلول .

ذَرِينِي فَإِنَّ الشُّحَّ يَا أُمَّ هَيْتَمٍ إِصْلَاحِ أَخْلَاقِ الرَّجَالِ سَرُوقٌ^(١)

وإذا اختبرت علمت غير مُدَا فِعْرٍ أَنْ السَّمَاحَ سَجِيَّةَ الْإِبْطَالِ
وقال أبو تمام في ذلك - من أبيات يمدح بها خالد بن يزيد الشيباني :
وإذا رأيت أبا يزيد في نَدَى وَوَعَى وَمُبْدَى غَارَةٍ وَمُعِيدَا
يَقْرِي مُرَجِيهِ مُشَاشَةً مَالِهِ وَشَبَا الْأَسِنَّةِ نُغْرَةً وَوَرِيدَا
أَيَقْنَتَ أَنْ مِنَ السَّمَاحِ شِجَاعَةً تُدْمِي وَأَنَّ مِنَ الشَّجَاعَةِ جُودَا^(٢)
وقال المتنبي :

هو الشجاع يَعُدُّ الْبُخْلَ مِنْ جُبِينٍ وَهُوَ الْجُودُ يُعَدُّ الْجُبْنَ مِنْ بُخْلِ
وقد عدوا الشجاعة لونا من الجود فقال مسلم بن الوليد :
يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ صَنَّ الْبُخِيلُ بِهَا وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ

(١) من أبيات جميلة نبيلة لعمر بن الاهم ، وبعد البيت :

ذَرِينِي وَحُطِّي فِي هَوَايَ فَإِنِّي عَلَى الْحَسْبِ الْعَالِي الرَّفِيعِ شَفِيقٍ
وَمُسْتَمْتِحٍ بَعْدَ الْمُدْوَى دَعْوَتِهِ وَقَدْ كَانَ مِنْ سَارِي الشَّتَاءِ طُرُوقُ
فَقَلْتُ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فَهَذَا مَيْتٌ صَالِحٌ وَصَدِيقٌ
أَضْفَتْ فَلَمْ أَفْحَشْ عَلَيْهِ وَلَمْ أَقْلُ لِأَحْرَبَتِهِ إِنَّ الْفِنَاءَ مَضِيقُ
لَعْمَرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلَادُ بَاهِلَهَا وَلَكِنْ أَخْلَاقُ الرَّجَالِ تَضِيقُ

(٢) الوغى : الحرب ، وقرى الضيف يقريه قرى : أضافه وأحسن اليه ، والمشاشة
واحدة المشاس وهو رأس العظم الذي يمكن مضغه ، يقول : انه يطعم المجتدى ماله حتى
انه ليمتش العظم وهذه مبالغة في أنه يمكن المجتدى من ماله . والشبا : جمع شباة ، وشباة
كل شيء : حده ، والنغرة : نغرة النحر

ولأجل هذين الملاحظين ، تظاهرت الآيات والأحاديثُ وما أُثِرَ عن الأوائِل من العلماء والحكماء والشعراء والربّانيّين ، على ذمّ البخل وامتداح الجود والإحسان ، وأكثروا وافتنوا وأبدعوا ، الأمرُ الذي يدلُّ على أنهم قدروا أثرَ الجودِ والبُخلِ في الخلقِ حقَّ قدره ، وأنهم لذلك سَنُوا هذه الغارةَ الشَّعْواءَ على الإنسانِ الأناثيِّ الكزِّ الشحيحِ الكاينِ في نفسِ كُلِّ إنسانٍ ...

عقرياتهم في مدح الجود وذم البخل

ولناخذ الآن في عقرياتهم في ذم البخل ومدح الجود والإحسان واصطناع المعروف ، والكلام في هذه المعاني يدخلُ بعضه في بعض . . . كتب رجلٌ مِنَ البُخلاء إلى رجلٍ من الأسخياء يُخَوِّفُهُ الفقرَ ، فأجابه : الشيطانَ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً ... وإنى أكرهُ أن أتركُ أمراً قد وقعَ لِأَمْرٍ لَعَلَّهُ لَا يَقَعُ . ويقول سبحانه : إِنَّ الشَّيْطَانَ يَعِدُ النَّاسَ الْفَقْرَ فِي الْإِنْفَاقِ ، أى يقول لهم : إن عاقبةَ إنفاقِكُم أن تفتقروا - والوعدُ كما يُسْتَعْمَلُ في الخيرِ يستعملُ في الشَّرِّ - ويأمرُكم بالفحشاء ، أى يغيرُكم بالبُخْلِ ومنعَ الصدقاتِ إغراءَ الأمرِ للمأْمورِ ، فالفحشاءُ هنا : البُخْلُ ، والفاحِشُ عند العرب : البُخيلُ ، قال طرفةُ بنُ العبدِ في مُعلَّقتِه :

أرى الموتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي

عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ (١)

ثم قال سبحانه : والله يعدكم في الإنفاق مغفرةً لذنوبكم وكفارةً لها ، وأن

(١) يعتام : يختار ، والعقائل : كرائم الأموال والنساء ، الواحدة عقيلة ، والفاحش البخيل ، يقول طرفة : إن الموت لا يبقى على الأجواد والبخلاء فيصطفي الكرام وكرائم أموال البخلاء فلا يجدى البخل على صاحبه ، فالجود أحرى لأنه أحمد .

يُخْلَفَ عَلَيْكُمْ أَفْضَلَ مِمَّا أَنْفَقْتُمْ» وقيل لإبليس : مَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيْكَ ؟ فقال : عابِدُ بَخِيلٍ ... قيل : فَمَنْ أَبْغَضُ النَّاسَ إِلَيْكَ ؟ قال : فَاسِقُ سَخِيٍّ ، فإن سَخَاءَهُ يُنْجِيهِ ... أفرأيتَ ! أليس هذا الكلامُ تمثيلاً جويلاً لِحَالِي البَخِيلِ والجوادِ ! حتى إنهم فَضَّلُوا الفاسقَ السَخِيَّ على العابدِ البَخِيلِ ، وَأَحْسَنُ مِنْهُمَا جميعاً لعمري : العابدُ الكَرِيمُ ، وإِنَّمَا كان العابدُ البَخِيلُ مفضولاً ، لأنَّ العبادةَ الْحَقَّ لا تَجْتَمِعُ والبُخْلَ ... وقال بعضهم لآخر : إِنَّكَ مِتْلَأْفٌ ، فقال : مَنْعُ الْجُودِ سُوءٌ ظَنَّ بِالْمَعْبُودِ ، قال تعالى : وما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يَخْلِفُهُ وهو خيرُ الرازقين . ومن هذا قول بعض الحكماء : عَلَيْكُمْ بِأَهْلِ السَّخَاءِ وَالشَّجَاعَةِ فَانْتَهُمُ أَهْلُ حُسْنِ ظَنِّ بِاللَّهِ ، ولو أَنَّ أَهْلَ الْبُخْلِ لم يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ مِنْ ضَرِّ مُبْخَلِهِمْ ، وَمَدَمَّةِ النَّاسِ لَهُمْ ، وإِطْبَاقِ الْقُلُوبِ على بُغْضِهِمْ ، إِلا سُوءَ ظَنِّهِمْ بِهِمْ فِي التَّخْلَفِ - أى العوض - لكان عظيمًا ، وفي هذا المعنى يقول محمود الوراق :

مَنْ ظَنَّ بِاللَّهِ خَيْرًا جَادَ مُبْتَدِنًا وَالْبُخْلُ مِنْ سُوءِ ظَنِّ الْمَرْءِ بِاللَّهِ
ورود في الحديث : تَخَصَّلْتَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ : الْبُخْلُ وَالسَّكْبُ
وقال بعضهم في هذا المعنى :

أُنَاسٌ تَأْتَهُونَ لَهُمْ رُؤَاؤُهُ تَغِيْمُ سَمَاؤُهُمْ مِنْ غَيْرِ وَبَلٍ (١)
ومن أمثالهم في ذلك : رَبُّ صَلَفٍ تَحْتَ الرَّاعِدَةِ ... « الراعدة : السحابة ذات الرعد ، والصلف قلة الخير ، وهذا المثل يضرب للبخيل مع الوُجْدِ والسعة ، ولأئمة اللغة كلام كثير في هذا المثل رَاجِعُهُ في مادة « صلف » بإسكان

(١) تأتون : من التيه وهو الزهو والكبر . والرواء : حسن المنظر ، والويل : المطر العظيم

العرب «... ومن قولهم في البَحِيل لا يُرَجِي خَيْرُهُ ولا يَبِضُّ حَجْرُهُ :
يُعالج نفساً بينَ جَنَيْهِ كَزَّةً إذا هَمَّ بالمعروفِ قالتُ له مَهْلاً
ومن المستطرف من كُنَاياتهم في هذا المعنى ما روى : أن امرأة قالت
لزوجها : والله ما يُقيم الفأرُ في دارِكَ إلا لِحُبِّ الوطن ... وقال رجل : إنني
أُصد فلاناً راجياً نداءه ، فقال له صاحبه :

و تَرُجُو النَّدَى من إِنْاءٍ قَلْنَا ارْتَشَحْنَا

كالمُستَدِيبِ لِشَحْمِ الكَلْبِ مِنْ ذَنْبِهِ

وقال ابن الرومي - وهو من مُقَدِّعانه المُضْحِك - :

يُقَسِّرُ عَيْسَى على نَفْسِهِ وليس بِيَاقٍ ولا خَالِدٍ

ولو يَسْتَطِيعُ لِتَقْتِيرِهِ تَنْفَسُ مِنْ مَنْخَرٍ وَاحِدٍ

« الْمَنْخَرُ : ثقب الأنف » وقال آخر :

يُحِبُّ المَدِيحَ أبو خَالِدٍ وَيَفْزَعُ مِنْ صِلَةِ المَادِحِ

كَيْسَرَ تَوَدُّ لَذِيذَ النِّكَاحِ وَتَهَامِعُ مِنْ صَوْلَةِ النَّاكِحِ

وقال البُحْتَرِيُّ - وهو معنى بديع - :

جِدَّةٌ يَدُودُ البُخْلِ عن أطرافها كالبَحْرِ يَدْفَعُ بِمَاحِهِ عن مَائِهِ (١)

وقال بشار :

إذا جِئْتَهُ في حاجةٍ سَدَّ بَابَهُ فَلَمْ تَلْقَهُ إلا وَأَنْتَ تَكِينُ

إذا سَلَّمَ المِسْكِينُ طارُ فُؤَادِهِ مَخافةً سُؤْلِ واعْتِراهُ جُؤُونُ

(١) الجدة : الغنى ، وبدود : يدافع

وقال ابن الرومي . وهو كذلك من هجائه المضحك :

تَجَنَّبَ سَلِيْمَانَ قَوْلَ النَّدَى فَقَدَ يَدُوسُ النَّاسَ مِنْ فَتْحِهِ
وَلَوْ كَانَ يَمْلِكُ أَمْرَ اسْتِهِ لَمَا طَمِعَ الْحُشُّ فِي سَلِيحِهِ

« الحُشُّ : المستراح - موضع قضاء الحاجة - والسليح : النجر - الغائط - »
وقال ابن الرومي أيضا - وهو معنى بديع - وإن كان من بابة غير هذه البابة :

وَإِذَا أَمْرٌ وَمَدَحٌ أَمْرًا لِلنَّوَالِهِ وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَرَادَ هِجَاءَهُ
لَوْ لَمْ يُتَمَدَّرْ فِيهِ بَعْدَ الْمُسْتَقَى عِنْدَ الْوَرُودِ لَمَا أَطَالَ رِشَاءَهُ

« الرشاء : جبل الدلو » وقالوا : من لم يأت الخبز صغيرا لم يأت كبيراً ، وفي ذلك يقول المَعْلُوطُ السَّعْدِيُّ - وهو شاعر إسلامي - :

إِذَا الْمَرْءُ أَعْيَتْهُ الْمُرُوءَةُ نَاشِئًا فَطَلَبُهَا كَهَلَا عَلَيْهِ شَدِيدٌ ^(١)

. وقالوا في البخيل كلما ازداد ثراء ازداد بخلاً وكزازة ، والقائل ابن الرومي -

والبيتان من أوابده وتوليداته البديعة :

إِذَا غَمَّرَ الْمَالُ الْبَخِيلَ وَجَدَّتْهُ يَزِيدُ بِهِ يُبَسِّأُ وَإِنْ ظَنَّ يَرْطُبُ
وَلَيْسَ عَجِيبًا ذَاكَ مِنْهُ فَإِنَّهُ إِذَا غَمَّرَ الْمَاءُ الْحِجَارَةَ تَصْلُبُ

وقال :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ يُهْلِكُ أَهْلَهُ إِذَا جَمَّ آتِيَهُ وَسَدَّ طَرِيقَهُ

(١) من أبيات جميلة يقول فيها :

مَتَى مَا يَرَى النَّاسُ الْغَنَى وَجَارُهُ فَتَمِيرُ يَقُولُوا عَاجِزٌ وَجَمِيدٌ
وَلَيْسَ الْغَنَى وَالْفَقْرُ مِنْ حِيلَةِ الْفَتَى وَلَسَكُنْ أَحَاطَ قَسَمَتْ وَجُدُودٌ
فَكَمْ قَدَرْنَا مِنْ غَنَى مُتَمَمِّمٍ وَصُغْلُوكِ قَوْمِ مَاتَ وَهُوَ حَمِيدٌ
إِذَا الْمَرْءُ البيت

وَمَنْ جَاوَرَ الْمَاءَ الْغَزِيرَ جَمَّهُ وَسُدَّ سَبِيلُ الْمَاءِ فَهُوَ غَرِبَهُ

وقال :

الْمَالُ يُكْسِبُ رَبَّهُ - مَالٌ يَفِضُ فِي الرَّاعِبِينَ إِلَيْهِ - سُوءُ ثَنَاءِ

كَلِمَاءِ تَأْسُنُ بِثَرُّهُ إِلَّا إِذَا خَبِطَ السُّقَاةُ جِجَامَهُ بِدَلَاءِ

« تأسن : تتغير ، وخبطه : ضربه ، والجمام : بثنايث الجيم : معظم الشيء »

عبرياتهم في الجود واصطناع المعروف

ولندع البُخلَ والبخلَاءَ لحظةً وننتقل إلى عبرياتهم في الجود والإحسان واصطناع المعروف : جاء في كليله ودمته : إن أحسنَ الناسَ عَيْشاً من حَسَنَ عَيْشِ الناسِ فِي عَيْشِهِ ، وإن من أَلَذِّ اللَّذَّةِ الْإِفْضَالَ عَلَى الْإِخْوَانِ ، وفي الحديث : ليس لك من مالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَنْفَيْتَ ، أو لَبِستَ فَأَبْلَيْتَ ، أو أعطيتَ فَأَمْضَيْتَ ، وما سوى ذلك فهو مِلْكُ الْوَارِثِ وقال شاعرهم :

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَمْسَكْتَهُ فَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَاَلْمَالُ لَكَ

وقال سعيد بن العاص من حُطْبَةِ لَه : مَنْ رَزَقَهُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً فَلْيُنْفِقْ مِنْهُ سِرّاً وَجَهراً حَتَّى يَكُونَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ ، فَإِنَّهُ إِذَا يُسْتَرَكُ لِأَحَدٍ رَجُلِينَ : إِذَا مُصْلِحٌ ، فَلَا يَقُلْ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَإِذَا مُفْسِدٌ فَلَا يَبْقَى لَهُ شَيْءٌ ... فقال معاوية : يَجْمَعُ أَبُو عَثْمَانَ طَرَفِي الْكَلَامِ ...

وقال الأحنف بن قيس : مَا شَأْنُكُمْ رَجُلًا مُذْكَتُ رَجُلًا ، وَلَا زَحْمَتُ رُكْبَتَيْ رُكْبَتَيْهِ ، وَإِذَا لَمْ أَصِلْ مُجْتَدِي حَتَّى يَنْتَسِحَ جِيبُنِي عَرَفَا كَمَا يَنْتَسِحُ الْحَمِيَّتُ ، فَوَاللَّهِ مَا وَصَلْتُهُ ... « قوله : مجتدى : يريد . الذي يأتيه يطلب ماله يقال : اجتداه يجتديه واعتفاه يعتفيه واعتراه يعتريه واعتراه يعتريه وعراه

يعرّوه ، : إذا قصده يتعرّض لناثله . وَيَسْتَيْحُ كَيْضَرِبُ : يَرشَحُ ، وَالْحَمِيْتُ : وعاء السمن . يقول الأحنف : إنه لا يُحوج سائله إلى أن يترشّحَ جبينه . عرقا ، لمبادرته بإعطائه « وقال معاوية بن أبي سفيان لوزدان مولى عمرو بن العاص : ما بقي من الدنيا تلذّه ؟ قال : العريض الطويل ، قال : وما هو ؟ قال : أن أتى أخا قد نكّبه الدهر فأجبره ، قال : نحن أحقّ بهذا منك . . . قال : إن أحقّ بهذا منك من سبقك إليه . . . وقال ابن عباس : ثلاثة لا أكافئهم : رجلٌ بدأني بالسلام ، ورجلٌ وسّع لي في المجلس ، ورجلٌ اغتبرت قدماه في المشى إلى إرادة التّسليم عليّ ؟ فأما الرابع فلا يكافئه عني إلا الله عز وجل ، قيل : ومن هو ؟ قال : رجلٌ نزل به أمرٌ فبات ليلته يفسكركُ بمن يُنزله ، ثم رأني أهلا لحاجته فأنزله بي . وقال ابن عباس أيضا : لا يُهدّئك في المعروف كُفْرٌ من كفره ، فإنه يشكرك عليه من لم تصطنعه إليه : « كفر من كفره : يريد : كفر النعمة ، أي عدم شكرها ، وقوله : من لم تصطنعه إليه يريد الله عز وجل »

وَأُنشِدُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، أَحَدُ الْأَجْرَادِ فِي الْإِسْلَامِ
قَوْلَ الشَّاعِرِ :

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمَضْنَعِ^(١)

فقال : هذا رجل يريد أن يُبخلَ الناس ، أمطر المعروفَ مطرا فإن

صادف مؤضعا فهو الذي قصدت له ، وإلا كنت أحقّ به

« وبعد » فهناك في هذا المعنى كما ترى مذهبان ، فذهب يرى إعطاء

(١) الصنّيعه : ما أسديت من المعروف ، وبعد هذا البيت :

فإذا صنّعت صليعة فاعمد بها . لله أو لذوى القراب أودع

المستحق وغير المستحق ، الكريم- واللئيم ، الشاكر ، والكافر : ويقول
هذا المذهب - والقائل الشاعر محمود الوراق :

فإمَّا كريمٌ صُنْتُ بِالْجُودِ عِرْضَهُ وَإِمَّا لئيمٌ صُنْتُ عَنْ لُؤْمِهِ عِرْضِي
وقال بعضهم : لَأَنْ أَخْطِئَ بِأَذْلَا ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُصِيبَ مَانَعَا بِأَذْلَا
ومانعا : حالان من فاعل أخطئ وأصيب «

ومذهب آخر يرى حرمان اللئيم وَمَنْ يُسْتَضْرَّ بِإِعْطَائِهِ ، قَالَ قَاتِلُهُمْ :
اتَّقُوا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ وَاللَّئِيمِ إِذَا شَبِعَ . وقالوا : اللئيمُ يَزْدَادُ بِالْعُرْفِ
خَبَالًا ، كما يزداد المريض من كثرة الطعام وبالآ ، « خبالا : فسادا ،
وقال شاعر :

* لَيْسَ فِي مَنَعٍ غَيْرِ ذِي الْحَقِّ بُخْلٌ *

وقال الآخر :

وَمَنْ يَصْنَعِ الْمَعْرُوفَ مَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ

يُبْلِقُ كَمَا لاقَى مُجِيرُ أُمِّ عَامِرٍ (١)

(١) أم عامر : الضبيح ، وكان من حديث هذا المثل أن قوما خرجوا إلى الصيد
في يوم حار ، فبينما هم كذلك إذ عرضت لهم أم عامر ، وهي الضبيح ، فطردوها - أي
حاولوا صيدها - فأتعبتهم حتى ألجأوها إلى خباء أعرابي فاقتمحته ، فخرج إليهم
الأعرابي فقال : ما شأنكم ؟ فقالوا : صيدنا وطريدتنا . قال : كلا ، والذي نفسي بيده
لا تصلون إليها ما ثبت قائم سيني بيدي . فرجعوا وتركوه . فقام إلى لقمة - د اللقمة :
الناقة الحلوب الغزيرة اللبن ، خلبها وقرب إليها ماء ، فأقبلت مرة تلغ من هذا ومرة
تلغ من هذا حتى عاشت واستراحت ، فبينما الأعرابي نائم في جوف بيته إذ وثبت عليه
فبقرت بطنه وشربت دمه وأكلت حشوته - أمعاهه - وتركته فجاء ابن عم له فوجده
على تلك الصورة فالتفت إلى موضع الضبيح فلم يرها فقال : صاحبتى والله ، وأخذ سيفه
في كنانته واتبعها فلم يزل حتى أدركها فقتلها وأنشد البيت

وأخيراً قالوا - والقائل أبو العتاهية :-

إذا المال لم يُوجِبْ عليك عطاءه صديعةٌ تقوى أو خليلٌ مُخالفةٌ
منمتٌ وبعض المنع حزمٌ وقوةٌ ولم يبتدلك المال إلا حقائقه^(١)

وقال الحسنُ والحُسَيْنُ رضوان الله عليهما لعبد الله بن جعفر: إنك قد أسرفتَ في بذلِ المالِ ! قال: بأبي أنتما، إن الله عودني أن يُفِضَلَ عليّ، وعودته أن أُفْضَلَ علي عباده، فأخاف أن أقطع العادة، فيقطع عني... ومرّ يزيدُ بنُ المهلبِ بأعرابية، في خروجه من بين عمر بن عبد العزيز^(٢)، يريد البصرة، فقرأته عَنزاً فقبلها، وقال لابنه معاوية: مامعك من النفقة؟ فقال: ثمانمائة دينار، قال: فادفعها إليها، فقال له ابنه: إنك تريد الرجال، ولا يكون الرجال إلا بالمال، وهذه يرضيها اليسير، وهي بعد لا تمرُّ فك، فقال له: إن كانت ترضى باليسير فأنا لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لاتعرقني، فأنا أعرف نفسي، أدفعها إليها...

وأورد المبردُ في الكامل ما يأتي: وأشرف عمرُ بنُ هُبيرة الفزاري - والى العراقيين يزيد بن عبد الملك - من قصره بالكوفة يوماً، فإذا هو بأعرابيٍّ

(١) حقائقه: جمع حقيقة: ما يحق عليك أن تحميه

(٢) وذلك سنة ١٠١ للهجرة، وكان عمر بن عبد العزيز أخذه بعدة وعدما سليمان بن عبد الملك، وذلك أن يزيد كان عاملاً على حراسان، فانتح جرجان وطبرستان، ثم بشره بفتحهما في كتاب أرسله إليه يقول فيه: وقد صار عندي من خمس ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار لكل ذي حق حقه في النية والنعمة ستة آلاف ألف، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله... ثم مات سليمان وولى الخلافة عمر، فسأل يزيد، فتلكتاً فأمر بسجنه، ثم هرب لما بلغه شدة مرض عمر الذي مات به مخافة من يزيد بن عبد الملك الخليفة بعده لما كان بينهما من التباغض

يُرَقِّصُ جَمَلَهُ الْآلُ^(١) فقال : لحاجبه : إن أرادني هذا فأوصله إلى ، فلما دنا الأعرابي سألته ، فقال : قصدت الأمير ، فأدخله إليه ، فلما مثل بين يديه قال له عمر : ما خطبك ؟ فقال الأعرابي :

أَصْلَحَكَ اللهُ قُلَّ مَا بِيَدِي فَمَا أَطِيقُ الْغِيَالَ إِذْ كَثُرُوا
أَلْحَ دَهْرٌ أَنَحَى بِكُلِّكَلِهِ^(٢) فَأَرْسَلُونِي إِلَيْكَ وَانْتَظَرُوا
رَجْوِكَ لِلدَّهْرِ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ نَعَيْتَ سَحَابٍ إِنْ خَانَهُمْ مَطَرٌ

فأخذت عمر الأريحية ، فجعل يهتز في مجلسه ، ثم قال : أرسلوك إلى وانتظروا الإذن والله لا تجلس حتى ترجع إليهم غانما . وأمر له بألف دينار ، وردّه على بعيره ... قال المبرد : وحدثت أن الخبر لمعن بن زائدة . أقول : وقد أورده ابن خلكان منسوبا لمعن .



وهذا معن بن زائدة هو الآخر له في المكارم غرر وأوضاع ، وهو أشهر في باب الأريحية والجود والإقدام والحلم من أن يتوّه به ، وهو معن بن زائدة الشيباني ، كان في أيام بني أمية مُتَنَقِّلاً في الولايات ، ومنقطعا إلى يزيد ابن عمر بن هبيرة وإلى العراقيين ، فلما أدال من بني أمية بنو العباس ، وجرى بين أبي جعفر المنصور وبين يزيد بن عمر المذكور ماجرى ، أبلى يومئذ معن مع يزيد بلاء حسنا ، فلما قُتِلَ يزيد خاف معن من أبي جعفر المنصور ، فاستتر عنه مدة وجرى له مدة استتاره غرائب ، وهذا يحدثنا شاعره الفحل مروان بن حفصة بحديث طريف من هذه الغرائب . قال :

(١) الآل : ما تراه في الضحى كالماء بين السماء والأرض ، ويرقصه : يحمله على

الرقص ، وهو نوع من السير كالخباب

(٢) انحى : اعتمد ومال ، والكلكل : الصدر ، استعاره لوطاة الدهر وثقله

أخبرني معنٌ وهو يومئذ مُتَوَلَّى بِبِلَادِ الْيَمِينِ : أَنَّ الْمَنْصُورَ جَدَّ فِي طَلْبِي ، وَجَمَلُ مَنْ يَحْمِلُنِي إِلَيْهِ مَالًا ، قَالَ مَعْنٌ : فَاضْطُرِرْتُ لِإِلْحَاحِهِ فِي الطَّلَبِ إِلَى أَنْ تَعَرَّضْتُ لِلشَّمْسِ حَتَّى لَوَّحَتْ وَجْهِي ، وَلَبِئْسَتْ جُبَّةً صُوفٍ ، وَرَكِبْتُ جَمَلًا ، وَخَرَجْتُ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْبَادِيَةِ لِأُقِيمَ بِهَا ، فَلَمَّا خَرَجْتُ مِنْ بَابِ حَرْبٍ - أَحَدِ أَبْوَابِ بَغْدَادٍ - تَبِعَنِي أَسْوَدٌ مُتَقَلِّدٌ سَيْفًا حَتَّى إِذَا غَبَّتْ عَنِ الْحَرَسِ ، قَبِضَ عَلَيَّ خِطَامِ الْجَمَلِ ، فَأَنَاحَهُ ، وَقَبِضَ عَلَيَّ يَدِي ، فَقُلْتُ لَهُ : مَا بَكَ ؟ قَالَ : أَنْتَ طَلِيْبَةٌ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، قُلْتُ : وَمَنْ أَنَا حَتَّى أَطْلُبَ ! قَالَ : أَنْتَ مَعْنُ بْنُ بَزَائِدَةَ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا هَذَا ، اتَّقِ اللَّهَ عِزَّ وَجَلَّ ، وَأَيُّنَ أَنَا مِنْ مَعْنٍ ! فَقَالَ : دَعْ هَذَا ، فَإِنِّي - وَاللَّهِ - لَأَعْرِفُ بِكَ مِنْكَ ، فَلَمَّا رَأَيْتَ مِنْهُ الْجِدَّةَ قُلْتُ لَهُ : هَذَا عِقْدُ جَوْهَرٍ قَدْ حَمَلْتُهُ مَعِيَ بِأَضْعَافِ مَا جَمَعَلَهُ الْمَنْصُورُ لِمَنْ يَجِيئُهُ بِي ، فَخُذْهُ وَلَا تَكُنْ سَبِيًّا لِسَفْكِ دَمِي ، قَالَ : هَاتِهِ ، فَأَخْرَجْتُهُ إِلَيْهِ ، فَظَنَرْتُ فِيهِ سَاعَةً ، وَقَالَ صَدَقْتَ فِي قِيَمَتِهِ ، وَلَسْتُ قَابِلَةً حَتَّى أَسْأَلَكَ عَنْ شَيْءٍ ، فَإِنْ صَدَّقْتَنِي أَطْلَقْتُكَ ، قُلْتُ : قُلْ ، قَالَ : إِنْ النَّاسُ قَدِ وَصَفُوكَ بِالْجُودِ ، فَأَخْبِرْنِي : هَلْ وَهَبْتَ مَالَكَ كُلَّهُ قَطْ ؟ قُلْتُ : لَا ، قَالَ فَنِصْفَهُ ، قُلْتُ : لَا ، قَالَ : فَنُكَلِّهِ قُلْتُ : لَا ، حَتَّى بَلَغَ الْعُشْرَ ، فَاسْتَحْيَيْتُ وَقُلْتُ : أَظُنُّ أَنِّي قَدِ فَعَلْتُ هَذَا ، قَالَ : مَا ذَاكَ بِعَظِيمٍ ، أَنَا وَاللَّهُ رَاجِلٌ - يَرِيدُ مِنَ الْمَشَاةِ - وَرِزْقِي مِنْ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ كُلِّ شَهْرٍ عَشْرُونَ دِرْهَمًا ، وَهَذَا الْجَوْهَرُ قِيَمَتُهُ أَلُوفٌ دِينَارٍ ، وَقَدْ وَهَبْتَهُ لَكَ وَوَهَبْتُكَ لِنَفْسِكَ وَرِجُودَكَ الْمَأْتُرَ بَيْنَ النَّاسِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَنْ هُوَ أَجْوَدُ مِنْكَ ، فَلَا تُعْجِبُكَ نَفْسُكَ ، وَلَتَحْتَمِرَ بَعْدَ هَذَا كُلِّ جَوْدٍ فَعَلْتَهُ وَلَا تَتَوَقَّفُ عَنْ مَكْرُمَةٍ ، ثُمَّ رَمَى الْعَقْدَ فِي حِجْرِي ، وَتَرَكَ خِطَامَ الْجَمَلِ ، وَوَلَّى مُنْصَرَفًا ، فَقُلْتُ : يَا هَذَا ، وَاللَّهِ لَقَدْ فَضَحْتَنِي ،

وَأَسْفَكَ دُمِي عَلَى أَهْوَنِ مِمَّا فَعَلْتَ ، فَخُذْ مَا دَفَعْتُهُ لَكَ نَائِيً غَنِيٌّ عَنْهُ ، فَضْحَكَ .
 وَقَالَ : أَرَدْتَ أَنْ تُكَدِّبَنِي فِي مَقَالِي هَذَا ! وَاللَّهِ لَا أَخَذْتُهُ وَلَا أَخَذَ لِمَعْرُوفٍ .
 ثَمَّنَا أَبَدًا ، وَدَضَى لِسَابِلِهِ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ طَلَبْتَهُ بَعْدَ أَنْ أَوْنَتْ ، وَبَذَلْتَ لِمَنْ يَجِيءُ
 بِهِ مَا شَاءَ فَمَا عَرَفْتَ لَهُ خَيْرًا ، وَكَأَنَّ الْأَرْضَ ابْتَلَعَتْهُ ... أَلَا تَرَى مِمِّي أَنْ
 مَا فَعَلَهُ هَذَا الْجَنْدِيُّ الْفَقِيرُ إِنْ لَمْ يُفَقِّ بِهٍ مَعْنَى بَنٍ زَائِدَةٌ وَأَشْبَاهَةٌ مَعْنَى بِنِ
 زَائِدَةٌ ، فِي بَابِ الْمَرْوَةِ وَالْفَتَاوَةِ وَالنَّجْدَةِ وَالْكَرْمِ وَعِبْرَةٌ الرُّوحُ فَإِنَّهُ لَا يَقِلُّ
 عَنْهُمْ !

جُهِدُ الْمَيْلِ إِذَا أَعْطَاكَ نَائِلَهُ وَمُسْكِرٌ مِنْ غَنَى سَيَّانٍ فِي الْجُودِ
 فَهُوَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

وَلَمْ يَكُ أَكْثَرَ الْفَتِيَانِ مَالًا وَلَكِنْ كَانَ أَرْحَبَهُمْ ذِرَاعًا



وَمِنْ هُنَا حَثُّوْا عَلَى الْجُودِ وَالْمَرْوَةِ . وَالتَّسَخُّي حَتَّى فِي حَالَةِ الْعُسْرِ وَالضَّقِيقِ
 فَمِنْ ذَلِكَ مَا قَرَأْنَاهُ مَلْسُوبًا لِـ بُزْرِجَهْرَ أَوْ لِيحْيَى بْنِ خَالِدِ الْبَرْمَكِيِّ أَوْ لِمَرْأَةٍ
 مِنَ الْعَرَبِ تَوْصَى بِهَ إِبْنِهَا ، وَهُوَ : إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَيْكَ الدُّنْيَا فَانْفِقْ ، فَإِنَّهَا لَا تَقْفَى ،
 وَإِذَا أَذْبَرْتَ عَنْكَ فَانْفِقْ فَإِنَّهَا لَا تَبْقَى . أَخَذَهُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ فَقَالَ :

وَأَنْفِقْ إِذَا أَنْفَقْتَ إِنْ كُنْتَ مُوسِرًا

وَأَنْفِقْ عَلَى مَا خَيَّلَتْ حَسِينَ تُسِرُّ

فَلَا الْجُودُ يُفْنِي الْمَالَ وَالْجُدُّ مُقْبَلٌ

وَلَا الْبَخْلُ يُبْقِي الْمَالَ وَالْجُدُّ مُدْبِرٌ

وَقَالَ الْآخَرُ فِي مَعْنَاهُ :

لَا تَبْعَانِ بَدُنِيَا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ فَلَيْسَ يَنْقُصُهَا التَّبْدِيرُ وَالسَّرْفُ

فَإِنْ تَوَلَّاتْ فَأَحْرَىٰ أَنْ تَجُودُ بِهَا وَالشُّكْرُ مِنْهَا إِذَا مَا أَدْبَرْتَ خَلْفُ



ولا تنسَ أن مرادهم بالإففاق والجُود هنا: الإففاقُ في سبيل الله والبرِّ لافي سبيل الشيطان والإثم، والجُودُ على ذوى الحقوق ومن هم في حاجة إليك حتى مع إدبار الدنيا عنك، وبالحرى مرادهم بالسرف: السرفُ في الشرف، وما يُكسب المرءَ محمِدةً ومِقةً^(١). ويؤثر عن معاوية أو المأمون - وقد قيل لاحدهما: لاخير في السرف - فقال: لا سرفَ في السرف ...

وقال سلم بن قتيبة: أحدكم يحقر الشيء فيأتى ما هو شر منه «يعنى المنع، يريد الحث على إعطاء القليل إن لم يستطع إعطاء الكثير»، وقال حماد بن عمار في ذلك من آيات:

بُتَّ النَّوَالِ وَلَا تَمْنَعَكَ قِلَّتُهُ فَكُلْ مَا سَدَّ فَقْرًا أَهْوَى مَحْمُودُ

يقول فيها:

إِنَّ الْكَرِيمَ لِيُخْفِي عَنْكَ عُسْرَتَهُ حَسْبِي تَرَاهُ غَنِيًّا وَهَوْرَ مَجْهُودُ
إِذَا تَكَرَّمْتَ أَنْ تُدْطِيَ الْقَلِيلَ وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرِ الْجُودُ
وَاللَّبْخِيلِ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلَلٌ زُرُقُ الْعُمُونَ عَلَيْهَا أَوْجُهُ سُودُ
أُورِقُ بِجَنِيهِ تُرَجِّي لِلنَّوَالِ فَمَا تُرَجِّي الشُّمَارُ إِذَا لَمْ يُورِقِ الْعُودُ

والعرب تقول: من حقرَ حَرَمَ ... «حقر الشيء: عده حقيراً، أى من حقر يسيراً يقدرُ عليه ولم يقدر على الكثير ضاعت لديه الحقوق» وفي الحديث: لا ترذوا السائلَ ولو بظلفٍ مُحرَّقٍ «الظلف من كل ما يجسَّرُ من

(١) مقة: حجة

الحيرانات كالبقرة والظبي بمنزلة الحافر من الفرس ، ويقال : أحرق الشيء بالنار وحرّقه شدّد لكثرة ، وقال المعري :

إذا طرَقَ الْمِسْكِينُ بِأَبْكَ فَأَحْبُهُ قَلِيلًا وَلَوْ مِقْدَارَ حَبَّةِ خَرْدَلٍ
وَلَا تَحْتَقِرْ شَيْئًا تُسَاعِفُهُ بِهِ فَكَمْ مِنْ حَصَاةٍ أَيْدَتْ ظَهَرَ مَجْدَلٍ

المجدل : النصر المشرف ، وكان ابن عباس يقول : صاحب المعروف لا يفتح ، فإن وقع وجد مُتَسَكِّأً . وهذا من قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : المعروف يَبْقَى مِصْرَاعَ السُّوءِ ... وكان ابنُ عَبَّاسٍ يقول أيضا : مارأيت رجلا أوليته معروفًا إلا أضاء ما بيني وبينه ، ولا رأيت رجلا أوليته سوءًا إلا أظلم ما بيني وبينه ، وما يروى في هذا المعنى أن رجلا كان في مجلس خالد بن عبد الله القسريّ ، فقام من المجلس ، فقال خالد : إني لأُبغِضُ هذا الرجلَ وماله إلى ذئبٍ ، فقال رجل من القوم : أوله أيها الأميرُ معروفًا ففعل ، فما كُتِبَ أن تحفّ على قلبه وصار أحدَ جلسائه . وفي هذا المعنى يقول سيّدُ مُوسِيَقِيّ الإسلامِ أبو إسحاق الموصلي :

أرى الناسَ سُخْلَانَ الْجَوَادِ وَلَا أرى بِخَيْلِهِ فِي الْعَالَمِينَ خَلِيلُ
وَمِنْ خَيْرِ حَالَاتِ الْفَتَى لَوْ عَلِمْتَهُ إِذَا نَالَ شَيْئًا أَنْ يَكُونَ يُبْدِلُ
فَإِنِّي رَأَيْتُ الْبَخْلَ يُزْرَى بِأَهْلِهِ فَأَكْرَمْتُ نَفْسِي أَنْ يُقَالَ بَخِيلُ

وبقول المتنبي :

وَأَحْسَنُ وَجْهِ فِي الْوَرَى وَجْهُ مُحْسِنٍ وَأَيْمَنُ كَيْفَ فِي الْوَرَى كَيْفَ مُنْعِمٍ
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ اتَّصَلَتْ نِعْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ ، فَمَنْ لَمْ يَحْتَمِلْ تِلْكَ الْمَوْنُ عُرِّضَ لِرُزَالِ تِلْكَ النِّعَمِ ، وقال خالد بن عبد الله القسريّ أيضا : حوائج الناس إليكم نعمٌ من الله عليكم ،

عَلَّامُوا النَّعْمَ فَتَحَوَّلَ نِقَمًا، قال الشاعر :

بَدَا - حِينَ أُثْرِيَ - بِإِخْوَانِهِ قَتَلَلَّ عَنْهُمْ شِبَابَةَ الْعَدَمِ (١)
وَذَكَرَهُ الْحَزْمُ غِبَّ الْأُمُورِ فَبَادَرَ قَبْلَ انْتِقَالِ النَّعْمِ
وعن سيدنا رسول الله : تَنْزِيلُ الْمَعُونَةِ عَلَى قَدْرِ الْمَثُونَةِ « ومعناه : أنه كلما
تكاثر على المرء من يحق عليه أن يعولهم ويقوم بمؤنتهم ، ففعل ، أو كلما أنفق
المرء في سبيل البر ، أعطاه الله بمقدار ذلك ، وجاء في الحديث المرفوع :
مَنْ وَسَّعَ وَسَّعَ عَلَيْهِ ، وَكَلِمَا كَثُرَ الْعِيَالُ كَثُرَ الرِّزْقُ ...

وقالوا في معنى النجدة وإقالة العثرات وواجبات ذوى الجاه :
بِذَلِّ الْجَاهِ زَكَاةُ الشَّرَفِ . وفي الحديث : إِنْ اللَّهُ يَسْأَلُ الْعَبْدَ عَنْ جَاهِهِ كَمَا
يَسْأَلُهُ عَنْ مَالِهِ وَعُومَرِهِ ، فيقول : جعلتُ لك جاهاً فهل تَصْرَتَ بِهِ مَظْلُوماً
أَوْ قَوِّمْتَ بِهِ ظالماً أَوْ أَغْنَتْ بِهِ مَكْرُوباً ! وفي الحديث أيضا : أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ
تُعِينَ مَنْ لَاجِأَ لَهُ ... وقال أبو تمام :

وَإِذَا أَمْرٌ أُسْدِيَ إِلَى صَنِيعَةٍ مِنْ جَاهِهِ فَكَأَنَّمَا مِنْ مَالِهِ
وكان زياد بن أبيه يقول لأصحابه : أَشْفَعُوا لِمَنْ وَرَاءَكُمْ فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ
أَرَادَ السُّلْطَانَ - يَرِيدُ : كُلُّ مَنْ بِيَدِهِ الْأَمْرُ - وَصَلَ إِلَيْهِ ، وَلَا كُلُّ مَنْ وَصَلَ
اسْتَطَاعَ أَنْ يُسَكِّمَهُ ... وَالْأَصْلُ فِي هَذَا قَوْلُهُ سَبَّحَانَهُ : مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةَ حَسَنَةٍ
يَكُنُّ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةَ سَيِّئَةٍ يَكُنُّ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَبِئًا . « قال المفسرون : الشفاعةُ الحسنةُ : هِيَ التَّوْبَةُ وَعَمَلُهَا
حَقُّ مُسْلِمٍ وَدَفْعُهَا عَنْهُ شَرٌّ أَوْ جُلْبُ إِلَى خَيْرٍ وَابْتِغْيَ وَجْهَ اللَّهِ وَلَمْ

(١) بدا ، هي : بدأ ، بالهمز ، فسهل للشعر ، والشبابة : طرف السيف وحد كل شيء .
وقل : كسر

مُتَوَخِّذٌ عَلَيْهَا رِشْوَةٌ ، وَالسَّيِّئَةُ مَا كَانَتْ بِخِلَافِ ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ : يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا : فَذَلِكَ النِّصِيبُ : هُوَ ثَوَابُ الشَّفَاعَةِ وَجَزَائُهَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَقَوْلُهُ يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا : أَيْ نَصِيبٌ مِنْ وَزْرِهَا مُسَاوٍ لَهَا فِي الْقَدْرِ ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا ، فَالْمُقِيمَةُ : الْمُتَمَسِّدَةُ مِنْ أَقَاتِ عَلَى الشَّيْءِ : إِذَا قَدَّرَ ، قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ وَقِيلَ لِأَبِي قَيْسٍ بْنِ رِفَاعَةَ :

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ

وَكَنتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ مُقِيمًا ^(١)

وَفَسَّرَ الْمُقِيمُ بِالْحَافِظِ وَاشْتِقَاقُهُ مِنَ الْقُوَّةِ ، فَإِنَّهُ يَقْوَى الْبَسْدَانَ وَيَحْفَظُهُ .

وَمِنْ أَجْلِ مَا قِيلَ فِي الْجُودِ قَوْلُ حَاتِمِ طَيْئٍ :

أَمَاوِيٌّ مَا يُعْنِي السُّرَّاءُ عَنِ الْفَتَى

إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

(١) رَوَى الصَّاعِقَانِي هَذَا الْبَيْتَ مَعَ آيَاتٍ أُخْرَى هَكَذَا :

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ وَكَنتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ أُقِيمُ

يَبِيتُ اللَّيْلَ مُرْتَفِقًا ثَقِيلًا عَلَى فَرَشِ الْفَتَاةِ وَمَا أَيْتُ

تَعْنُ إِلَى مِنْهُ : وَذِيَاتُ كَمَا تُؤْذِي الْجَذَائِرَ الْبُرُوتُ

وَالْمُرْتَفِقُ : الْمَتَكِّعُ عَلَى مَرَقِيهِ ، وَتَعْنُ : تَسْرَعُ وَتُظْهِرُ ، وَالْجَذَامَارُ : مَا بَقِيَ مِنْ أَصْلِ السَّفْعَةِ ، وَالْبُرُوتُ : الْفَأْسُ ، لُغَةٌ يَمَانِيَةٌ يَنْطَقُونَهَا الْبَرْتُ وَالْبُرْتُ ، وَالْبُرُوتُ فَاعِلٌ تَوْذِي ،

(٢) مَارِيٌّ : مُنَادِي مَارِيَّةٍ وَهِيَ زَوْجَةُ حَاتِمِ ، وَحَشْرَجَتْ : أَيْ النَّفْسُ وَإِنْ

لَمْ يَتَقَدَّمْ لَهَا ذِكْرٌ ، لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ

أماويّ إن يُصِبح صدائى بِقَفْرَةٍ
 مِنِ الأَرْضِ لأماءُ لَدَىّ ولا تُحْمَرُ (١)
 تَرَى أن ما أَبَقَيْتُ لم أَكُ رَبَّهُ
 وَأَبْ يَدَىّ مِمَّا بَخَلْتُ بِهِ صَفْرُ (٢)
 أماويّ إن المَالَ غادٍ وَرَاحُ
 وَيَبْقَى مِنَ المَالِ الأَحاديثُ وَالذِّكْرُ
 غَنِينا زَمانًا بِالتَّصَعُّمِ والغِنَى
 وَكَلَّا سَقاناهُ بِكأَسِيهِما الدَّهْرُ (٣)
 فما زادنا بَأواً على ذى قرابة
 غِنانا ولا أزرى بأحسابنا الفِقر (٤)

أُست معى فى أن على هذه الأبيات مَسحَةٌ من الجِمالِ وأثرا بيننا من الصِدقِ
 وأن لها لَوَطَّةً مِن نَمِّمٍ بالقلبِ ا أليس حاتمٌ يقول : الحَقُّ أَتول : إنه لا يلبغى
 لك ياماوية أن تلومنى على إنفاقِ مالى فى سبيلِ البرِّ والإلطافِ ، والتَّخَرُّقِ فى
 النوالِ وقرى الأضيافِ ، أما تعلِّمين أن مال المرء لا يُغنى عنه شيئاً إذا
 ما الموت رماه بسهامه وغادر هذه الحياة ، أما تعلِّمين أن المرء متى نُبذَ جِسدُه
 بالعرَاءِ وأودع حُفْرَةً مُوحِشَةً مُقْفَرَةً ليس معه شيء مما كان يُحْتَازُهُ فى هذه
 الدنيا من مال ، بدا لك أن المال الذى تركتهُ وَبَخَلْتُ بِهِ على مُسْتَحِقِّهِ أصبحَ

(١) الصدى هنا : جسد الانسان بعد موته

(٢) ربه : صاحبه ، وصفر: خلو (٣) غنينا : عشنا ، غنى كفرح : عاش ، وغنى

بالمكان : أقام ، والمراد بالتصعك الفقر ، وبكأسيهما : يعنى الفقر والغنى

(٤) البأو : الكبر والفخر ، يقال : بأوت على القوم أبأى بأوا ...

ملكاً لغيري وأصبحت أنا خالي الوفاض^(١) بادي الإنفاض^(٢) لا أملك من هذا المال شروى نقير^(٣) ! أليس الأخلقُ بي لذلك أن أنفقهُ وأنسخني به على أهليه ، فأنفع بعد موتي - إذا أنا فعلتُ - بالذكر في الناس والحديث الحسن وأية قيمة للمال ياماوية ، ذلك الذي يجيء ويذهب ، ويغدو ويروح ! ليس الأخلقُ بالمائل الثاقب النظر أن يُفقد منه ما هو أبقى على الزمن الباقي من الزمن - أن يفيد منه الذكر من طريق إنفاقه ، والجود به في وجوه استحقاقه القدر عشنا يزوجني حيناً من الدهر أغنياء كما عشنا حيناً فقراء ، وكلاً سقناه الدهر بكأسيهما ، فما أزرى الدهر بأحسابنا ، ولا أضغى إناءة أعراضنا ، ولا أسف بأخلاقنا ، كما هو شأنه مع ضمفاء النفوس ، وكذلك إذ كنا أغنياء ، ما أبطرنا الغنى ، وما أطفأنا ، على ذوى قربانا ، لانا فعلم علما ليس بالظن أن المال عرض زائل ، أما الجوهر ، أما الذكر ، أما الشرف ، أما الخلق ، فكل أولئك هو الذي عليه المعول ، وإنه لخيرة لاتنفد ، وهي حسب العاقل الذي راض نفسه على السكون إلى الحقائق ، ولم يُخلد إلى أم دفر^(٤) باطل الأباطيل . . .

«أما بعد» فلقد أذكرتنا هذه العبيريات الكريمة من القول، عبقرية رجل من رجالات السلف لقد بلغ المبالغ في الإحسان واصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف، وإنه لحق علينا أن نعرض شيئاً لهذه العبقريّة من القمال^(٥)، إذ أن كتابنا هذا ليس بمقصود على العبقري من القول وإنما نعرض كذلك للعبقري من الأناسي في أي معنى من المعاني^(٦) على شريطة أن يكون ذلك لتماماً، فلا

(١) فارغ الجراب (٢) ظاهر الفقر (٣) التقير : نكته في النواة يكون منها منبت النخلة وشروى نقير : مثل هذه النكته (٤) أم دفر: الدنيا وأصل الدفر : التن (٥) القمال بفتح القاء : الفعل الحسن (٦) في أي معنى : متعلق بالعبقري

نَعْمَلُ الإِغْفَالَ كُلَّهُ مَا يَعْنِينَا مِنْ سِيرِ الْعَبْقَرِيِّينَ ، وَبِمَتْ مِنْهَا بِسَبَبِ وَاصِلٍ إِلَى أَيْ
بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ هَذَا الْكِتَابِ ، وَلَا تَبْسُطُ التَّبْسُطَ الَّذِي يُلْحِقُنَا بِأَصْحَابِ السَّيْرِ
وَالْمُسْتَرْجَمِينَ ؛ وَشَخْصِيَّتِنَا الَّتِي حَبَّبَ اللَّهُ إِلَيْنَا أَنْ نُكَلِّمَ بَعْبَقَرِيَّتَهَا فِي بَابِ الْبِرِّ
وَالإِحْسَانِ هُوَ رَجُلٌ مِنْ رِجَالِ أَسْلَافِنَا كَمَا قُلْنَا - هُوَ قَاضِي الْقَضَاةِ أَحْمَدُ بْنُ
أَبِي دُوَادٍ

أحمد بن أبي دواد *

كَانَ هَذَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُوَادٍ شَخْصِيَّةً ضَخْمَةً ذَاتَ أَثَرٍ فَعَالٍ خَالِدٍ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ ،
إِذْ أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَشْيَاعِ الْمُعْتَرِلَةِ ، وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ الْقَائِلِينَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ،
الْعَامِلِينَ عَلَى تَرْوِيجِ هَذِهِ الْبِدْعَةِ ، مُسْتَظْهِرًا عَلَى ذَلِكَ بِجَاهِهِ وَنُفُوذِهِ لَدَى
الْمَأْمُونِ وَالْمُعْتَصِمِ وَالْوَائِقِ . وَلا يَسُ فِيهِ مِنْ مَعْمَرٍ - فِي نَظَرِ رِجَالِ الْحَدِيثِ
وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ - إِلَّا هَذِهِ ... قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى الصُّوَلِيُّ : لَوْلَا
مَا وَضَعَ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ مَحَبَّةِ الْمِحْنَةِ - مِحْنَةِ الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ، وَحَمَلِ
النَّاسِ عَلَيْهِ - لَاجْتَمَعَتِ الْأَلْسُنُ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يُضَفَّ إِلَى كَرَمِهِ كَرَمٌ أَحَدٌ ...
وَمَنْ أَحَبَّ الْوُقُوفَ عَلَى مَوْقِفِ ابْنِ أَبِي دُوَادٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَلْيَرْجِعْ
إِلَى مَقَاتِلِهَا ... وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي مَكَاتِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، وَمَنْزِلَتِهِ
مِنَ الْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ ، وَرَسُوخِ قَدَمِهِ فِي الْفَضْلِ وَالتَّسْبِيلِ وَمَكَارِمِ

(٥) قَالَ ابْنُ خُلِكَانٍ - بَعْدَ أَنْ سَرَدَ نَسَبَهُ وَنَمَاهُ إِلَى إِيَادِ بْنِ نَزَارِ بْنِ مَعْدِ بْنِ عَدْنَانَ
أَيْ أَنَّهُ عَرَبِيٌّ إِيَادِيٌّ - إِنْ أَصْلُهُ مِنْ قَرْيَةٍ بِقَنْسَرِينَ ، وَاتَّجَرَ أَبُوهُ إِلَى الشَّامِ وَأَخَذَهُ مَعَهُ
وَهُوَ حَدِيثٌ ، فَتَشَأَ أَحْمَدُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَخَاصَّةً الْفِقْهِ وَالْكَلَامِ حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ ، وَحَبَّبَ
هِيَاجُ بْنُ عَلَاءِ السُّلَمِيُّ - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ - فَصَارَ إِلَى الْإِعْتِزَالِ ، وَكَانَتْ
وِلَادَتُهُ سَنَةَ ١٦٠ هـ بِالْبَصْرَةِ وَتُوفِيَ سَنَةَ ٢٤٠ هـ بَعْدَ أَنْ أَصِيبَ بِالْفَالِجِ فِي زَمَنِ الْمُتَوَكِّلِ

الأخلاق ، وأفاعيله المخلّدة في هذه المعاني - والكلام يدخل بعضه في بعض - : قال أبو العيناء^(١) ما رأيت رئيساً قط أفصح ولا أنطق من ابن أبي دؤاد ، وقال : كان ابن أبي دؤاد شاعراً مجيداً ، فصيحاً بليغاً : وقد ذكره دجيل بن علي الخزاعي - الشاعر العبقرى - في كتابه الذي جمع فيه أسماء الشعراء وروى له أبياتا حسنا : وقال أبو بكر الجرجاني : سمعت أبا العيناء الضرب يقول : ما رأيت في الدنيا أقوم على أدب من ابن أبي دؤاد - يريد أبو العيناء بالأدب هنا : أدب النفس - ما خرجت من عنده يوماً قط فقال : يا غلام خذ بيده ، بل قال : يا غلام أخرج معه ، فكنت أتتقد هذه الكلمة عليه ، فلا يُخِلُّ بها ولا أسمعها من غيره ... قالوا : وهو أول من افتتح الكلام مع الخلفاء ، وكانوا لا يبدؤهم أحد حتى يبدؤه . وقال إبراهيم بن الحسن : كنا عند المأمون ، فذكروا من بايع من الأنصار ليلة العقبة ، فاختلفوا في ذلك ، ودخل ابن أبي دؤاد ، فمدّم واحداً واحداً بأسمائهم وكذاهم وأنسابهم ، فقال المأمون : إذا استجلس الناس فاضلاً فمِثْلَ أحد ، فقال أحمد : بل إذا جالس العالم خليفة فمِثْلَ أمير المؤمنين ، الذي يفهم عنه ، ويكون أعلم بما يقوله منه . وقال أحمد بن عبد الرحمن الكلبي : ابن أبي دؤاد رُوِّحَ كُلُّهُ من قرينه إلى قديمه . وقال لازون بن اسماعيل : ما رأيت أحداً قط أطوع لأحد ، من المعتصم لابن أبي دؤاد ، كان - المعتصم - يُسْتَلُّ الشيء اليسير فيمتنع منه ، ثم يدخل ابن أبي دؤاد فيكلمه في أهله

(١) أبو العيناء هو أبو عبدالله محمد بن القاسم الضرب ، ولد سنة ١٩١ وتوفي سنة ٢٨٢ كان من ظرفاء العالم وفيه من اللسن وسرعة الجواب ما لم يكن لأحد من نظرائه ، وترى نوادره مبعثرة في هذا الكتاب

وفي أهل الثغور وفي الحرمين وفي أقاصي أهل المشرق والمغرب ، فيجيبه إلى كل ما يريد ، ولقد كلفه يوماً في مقدار ألف درهم ليخفف بها نهر في أقاصي خراسان ، فقال له : وما عليّ من هذا النهر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى يسألك عن النظر في أمر أقصى رعيتك ، كما يسألك عن النظر في أمر أدناها ، ولم يزل يرفقُ به حتى أطلقها . قالوا : وكان ابتداء اتصال ابن أبي دُراد بالمأمون ما حدث به ابنُ أبي دُواد نفسه ، قال : كنت أحضرُ مجلسَ القاضي يحيى بنِ أكثم ، مع الفقهاء ، فإني عنده يوماً إذ جاء رسولُ المأمون ، فقال له : يقول لك أميرُ المؤمنين : انتقل إلينا أنتَ وجميعُ من معك من أصحابك ، فلم يُجبْ أن أحضرَ معه ، ولم يستطع أن يؤخّرني ، فحضرت مع القوم ، وتكلّمنا بحضرة المأمون ، فأقبل المأمون ينظر إليّ إذا شرعتُ في الكلام ، ويتفهم ما أقول ، ويستحسنه ، ثم قال لي : من تكون ؟ فانتبّتُ له ، فقال : ما أخرك عنا ؟ فكبرهت أن أجيبَ عليّ يحيى ، فقلت : حبسة القدر ، وبلوغ الكتاب أجله ، فقال : لا أعلمن ما كان لنا من مجلس إلا حضرتَه ، فقلت : نعم ، يا أمير المؤمنين ، ثم اتصل الأمر ، وقيل : قدِم يحيى بنُ أكثم قاضياً على البصرة من خراسان ، من قبيل المأمون ، في آخر سنة ٢٠٢ وهو حَدَثٌ ، سنه نيفٌ وعشرون سنة . فاستصحب جماعةً من أهل العلم والمروآت ، منهم ابنُ أبي دُراد ، فلما قدِم المأمون بغداد في سنة ٢٠٤ قال ليحيى : اختر لي من أصحابك جماعةً يجالسونني ويكثرون الدخول إليّ ، فاختر منهم عشرين ، فيهم ابنُ أبي دُواد ، فكثروا على المأمون ، فقال : اختر منهم ، فاختر عشرة فيهم ابنُ أبي دُواد ، ثم قال : اختر منهم ، فاختر خمسة ، فيهم ابنُ أبي دُواد ، واتصل أمرُه ٠٠٠ وكان من وصية المأمون إلى أخيه المعتصم عند الموت :

وأبو عبدالله أحمد بن أبي دواد لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمر، فإنه مريض ذلك، ولا تتخذن وزيراً، فلما ولي المعتصم، جعل ابن أبي دواد قاضي القضاة مكان يحيى بن أكرم، وكان لا يفعل فعلاً باطناً ولا ظاهراً إلا برأيه... ولما مات المعتصم وتولى بعده ولده الواثق بالله حسنت حال ابن أبي دواد، وما زال إلى أن ولي أخوه المتوكل، فأصيب ابن أبي دواد بالفالج فكانت مدة عظمة ابن أبي دواد ونفوذه وجاهه نحواً من ثمان وعشرين سنة... قال ابن خلكان - الذي نعتمد عليه في هذا الباب - : وكان ابن أبي دواد كثيراً ما يُنشد - ولم يذكر أنهما له أو لغيره - :

مأنت بالسبب الضعيف وإنما تُجرح الأمور بقوة الأسباب

فاليوم حاجتنا إليك وإنما يدعى الطبيب لشدّة الأوصاب

ومن كلامه : ثلاثة ينبغي أن يُجلبوا وتُعرف أقدارهم : العلماء، وولادة العدل، والإخوان، فمن استخفّ بالعلماء أهلك دينه، ومن استخفّ بالولادة أهلك دنياه، ومن استخفّ بالإخوان أهلك روعته، ومن كلامه أيضاً : ليس بكامل من لم يُحمِلْ وريته على منبر ولو أنه حارس، وعدوه على جذع ولو أنه وزير^(١)

(١) هذا على حد قول عبدالله بن معاوية :

إذا أنت لم تنفع فضرّ فإنما يُرجى القتي كما يضرّ وينفعا

وقول الآخر :

ولكن قتي الفتيان من راح وأغتمدى لضرّ عدوٍ أو لنفع صديقي

وقول المتنبي :

لمن تطلب الدنيا إذا لم تُردّها سرورٌ محبٍ أو إساءة مجرم

وقول ابن الرومي :

=

وكان بين ابن أبي دواد وبين الوزير الجبار محمد بن عبد الملك الزيات ، الذى -
تؤثر عنه هذه الكلمة : الرحمة خور في الطبيعة - منافسات وشحناء ، حتى إن
شخصاً كان يصحب ابن أبي دواد ويختص بقضاء حوائجه ، منعه الوزير المذكور
من التردد إليه ، فبلغ ذلك ابن أبي دواد ، فجاء إلى الوزير وقال : والله ،
ما أجيئك متكثراً بك من قلة ، ولا متمتزازاً بك من ذاة ، ولكن أمير المؤمنين
رتبتك مرتبة أوجببت لقاءك ، فإن لقيناك فله ، وإن تأخرنا عنك فلك ... ثم
نهض من عنده ... قال ابن خلكان : وكان فيه - فى ابن أبي دواد - من
المكارم والمحامد ما يستغرق الوصف ... وكان يقال : أكرم من كان فى دولة
بنى العباس البراءة ثم ابن أبي دواد ... حدث الجاحظ قال : غضب المعتصم على
رجل من أهل الجزيرة الفرائية ، وأحضر السيف والنّطع ^(١) فقال له المعتصم :
قللت وصنعت ، وأسر بضر عنقه ، فقال له ابن أبي دواد : يا أمير المؤمنين ،
سبق السيف العذل ^(٢) ، فأنّ فى أمره فإنه مظلوم ، قال : فسكن المعتصم

== وليس يصلح لاستصلاح مملكتك غير أنرى نافع بالحق ضرار
ووليه : يريد صديقه وكل من يمت إليه بسبب واصل ، ويريد بحمله على المنبر
نصرته والارتفاع به ، ويريد بحمل عدوه على جذع : صلبه والقضاء عليه ، وقوله : ولو
أنه حارس ، أى خفير ، يريد ولو أنه حقير ، ولعله قال هذه الكلمة وهو يعرض بابن
الزيات الوزير .

(١) النّطع : بساط من جلد يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس وفيه لغات :

نطع ونطع ونطع ونطع والجمع نطوع وأنطاع

(٢) هذا مثل ، والعذل : اللوم وأصله أن الحارث بن ظالم ضرب رجلاً قتلته فأخبر

بعذره فقال : سبق السيف العذل ، يضرب لما قد فات

قليلا ، قال ابن أبي دواد : وَغَمَّرَنِي الْبَوْلُ فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى حَبْسِهِ ، وَعَمِلْتُ أَنِّي
 إِن مُتُّ يُقِيلُ الرَّجُلَ ، جُمِعَتْ ثِيَابِي تَحْتِي وَبُلْتُ فِيهَا ، حَتَّى خَلَّصْتُ الرَّجُلَ
 قَالَ : فَلَمَّا قَمْتُ نَظَرْتُ الْمَعْتَصِمَ إِلَى ثِيَابِي رَطْبَةً فَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، أَكُنْ تَحْتِكَ
 مَاءٌ ؟ فَقُلْتُ : لَا ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، فَضَحِكَ
 الْمَعْتَصِمُ ، وَدَعَا لِي وَقَالَ ، أَحْسَنْتَ ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَأَمَرَ لَهُ
 بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ... وَقَالَ أَبُو الْعِينَاءِ : كَانَ الْأَفْشِينُ - السَّرَكِيُّ وَكَانَ مِنْ أَجْلِ
 قَوَادِ الْمَعْتَصِمِ ، وَأَبِي فِي أَمْرِ بَابِكَ الْخَرَمِيِّ بِلَاءَةً حَمِدَهُ لَهُ - يَحْسُدُ أَبَا دُلْفٍ
 الْقَاسِمَ بْنَ عَيْسَى الْعِجْلِيَّ ^(١) - وَهُوَ كَذَلِكَ أَحَدُ قَوَادِ الْمَأْمُونِ ثُمَّ الْمَعْتَصِمِ
 مِنْ بَعْدِهِ . وَكَانَ تَحْتَ إِمْرَةِ الْأَفْشِينِ فِي حَرْبِ بَابِكَ - لِلْعَرَبِيَّةِ وَالشَّجَاعَةِ

(١) وهذا أبو دلف كان كذلك كريما سوريا جوادا بمدحا شجاعا مقدما فاضلا ،
 مدحه أبو تمام وعلي بن جبلة المعروف بالعكوك وبكر بن النطاح ، وفيه يقول العكوك
 قصيدته التي يقول فيها :

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلْفٍ بَيْنَ مَغْزَاهُ وَمَحْتَضِرِهِ
 فَإِذَا وَتَى أَبُو دُلْفٍ وَتَى الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ
 كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضِرِهِ
 مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرُمَةٌ يَكْتَسِبُهَا يَوْمَ مَفْتَحِرِهِ

ويقول بكر بن النطاح :

يَا طَالِبَا لِلْكِيمِيَاءِ وَعَلَيْهِ مَدْحُ ابْنِ عَيْسَى الْكِيمِيَاءِ الْأَعْظَمِ
 لَوْلَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا دِرْهَمٌ وَمَدْحَتَهُ لِأَنَّكَ ذَاكَ الدِّرْهَمِ
 وَقَدْ أَعْطَاهُ أَبُو دُلْفٍ عَلَى هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ... هَذَا وَدُلْفٍ اسْمُ
 عِلْمٍ مَنُوعٍ مِنَ الصَّرْفِ لِلْعَمَلِيَّةِ وَالْعَدْلِ لِأَنَّهُ مَعْدُولٌ عَنْ دُلْفٍ ، قَالَ ابْنُ بَرِي

فاحتال عليه حتى شهد عليه بجناية قتل ، فأخذه ببعض أسبابه ، فجلس له وأحضره ، وأحضر السيف ليقتله ، وبلغ ابن أبي دؤاد الخبر ، فركب من وقته مع من حضر من عدوله ، فدخل على الأفيشين ، وقد جرى بأبي دؤاد ليقتل ، فوقف ، ثم قال : إني رسول أمير المؤمنين إليك ، وقد أمرت أن لا أحدث في القاسم بن عيسى حديثاً حتى تسلمه إليّ ، ثم انفتحت إلى العدول وقال : أشهدوا أنني أدت الرسالة إليه عن أمير المؤمنين والقاسم حتى معافى ، فقالوا : قد شهدنا ، وخرج ، فلم يقدر الأفيشين عليه ، وسار ابن أبي دؤاد إلى المعتصم من وقته ، وقال : يا أمير المؤمنين ، قد أدت عنك رسالة لم تقلها ، ما أعتد بعمل خيراً منها ، وإني لأرجو لك الجنة بها ، ثم أخبره الخبر ، فمضبّ رأيه ، ووجه من أحضر القاسم ، فأطلقه وذهب له : وعنف الأفيشين فيما عزم عليه ... ومن مرواته : أن المعتصم كان قد اشتد غضبه على محمد بن الجهم البرمكي ، فأمر بضرب عنقه ، فلما رأى ابن أبي دؤاد ذلك وأن لا حيلة له فيه وقد شدّ برأسه وأقيم في النطح وهز السيف قال ابن أبي دؤاد للمعتصم : وكيف تأخذ ماله إذا قتله ؟ قال المعتصم : ومن يحول بيني وبينه ؟ قال : يا أبا الله تعالى ذلك ، وبأباه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأباه عدل أمير المؤمنين ، فإن المال للوارث إذا قتله حتى تُقيم البيّنة على ما فعله ، وأمره باستخراج ما اختاره أقرب عليك وهو حتى ، فقال : أحبسوه حتى يناظر ، فتأخر أمره على مالٍ حمله « أي كفسله ، وخلص محمد ... » وقال أبو العيناء : غضب المعتصم على خالد بن يزيد بن يزيد الشيباني ، وأشخصه من ولايته ، لتعجز لحقه في مالٍ طلب منه ، وأسباب غير ذلك : فجلس المعتصم لعقوبته ، وكان قد طرح نفسه على ابن أبي دؤاد ، فنكلم فيه فلم يجبه المعتصم ،

فلما جلس لعقوبته حضر ابن أبي دواد، فجلس دون مجلسه، فقال له المعتصم: يا أبا عبد الله، جلست في غير مجلسك! فقال له: ما ينبغي أن أجلس إلا دون مجلسي هذا... فقال له: وكيف؟ قال: لأن الناس يزعمون أنه ليس موضعي موضع من يشفع في رجل فلا يشفع، قال: فارجع إلى مجلسك، قال: مُشَفَّعاً أو غير مُشَفَّع^(١)؟ فقال: بل دشَفَّعاً، فارتفع إلى مجلسه، ثم قال: إن الناس لا يعلمون رضا أمير المؤمنين عنه إن لم يخْلَع عليه^(٢) - فأمر بالخلع عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، قد استحقَّ هذا وأصحابه رِزْقَ ستة أشهر لا بد أن يقبضوها، وإن أمرت لهم بها في هذا الوقت قامت مقام الصلوة، قال: قد أمرت لهم بها، فخرج خالد وعليه الخلع، والمال بين يديه، وإن الناس ينتظرون في الطرق الإيقاع به، وصاح رجل: الحمد لله على خلاصك ياسيد العرب، فقال خالد: أنسكت، سيد العرب والله أحمد بن أبي دواد... وقال الواثق يوماً لابن أبي دواد - تَضَجُّراً بكثرة حوائجه: قد اختلَّت بيوت المالِ بطلباتك للآئدين بك والمتوسلين إليك! فقال: يا أمير المؤمنين، هي تتأخَّرُ شُكْرُها مُتَّصِلُ بك، وذخائرُ أجرها مكتوب لك. ومالي من ذلك إلا أن أخلِّدَ المدح فيك، فقال: أحسنت.

«وبعد، فلننتجراً بهذا المقدار من مساعي ابن أبي دواد سيد العرب وعبريتها في النجدة والمروءة والكرم والأريحية والشجاعة الأدبية

(١) يقال: شفع له وتشفع له إلى الملك مثلاً، فشفعه فيه تشفيحاً، فالطالب شفيع وشافع، والمشفع: الذي تقبل شفاعته، أما المشفع فهو الذي يقبل الشفاعة
(٢) قال في أساس البلاغة: خلع عليه: إذا نزع ثوبه وطرحه عليه، وكساه الخلعة والخلع

يوماً ألفَ لِفَ هذه المعاني السكرية مما انبعثت له قرائحُ خولِ شعراء الإسلام، أمثالِ
أبي تمام، فأنطقهم بالماثور من الشعر الفخم، وامتدحوا به هذا الرجل العظيم،
فقال أبو تمام :

لقد أنستُ مساويَ كلِّ دهرٍ محاسنُ أحمدَ بنِ أبي دُوادِ
وما سافرتُ في الآفاقِ إلا ومن جدِّ والكَرَّاحِ لِحَى وزادِ

قال علي الرازي: رأيت أبا تمام عند ابن أبي دواد ومعه رجل يُبشِدُ عنه
قصيدة منها هذان البيتان ، فلما أنشدتها قال ابن أبي دواد لأبي تمام :
هذا المعنى تفرّدتَ به أم أخذته ؟ فقال : هولى ، وقد ألتمتُ فيه بقول
أبي نواس :

وإن جرتِ الألفاظُ منّا بِمدْحَةٍ لغيرِكَ إنساناً فأنتَ الذي نَعِنِي
ومدحه أبو تمام أيضا بقصيدته التي أولها :

أرأيتَ أيَّ سوائفٍ وُحْدُودِ عَنَّتْ لنا بين اللّوى وزُرُودِ

وفيها الآيات الثلاثة البديعة في الحسد :

وإذا أرادَ اللهُ نَشَرَ فِضِيلَةٍ طُوِيَتْ أَمَاحَ لها لسانَ حَسودِ

لولا اشتعالُ النارِ فيها جاورَتْ ما كان يُعرَفُ طيبُ عَرَفِ العُودِ

لولا التَّخَوُّفُ للعوافِبِ لم تزلْ للحاسِدِ التُّعمى على المحسُودِ

ودخل أبو تمام عليه يوما ، وقد طالَت أيامه في الوقوفِ ببابه ولا يصل
إليه ، ولما وصل قال له ابن أبي دواد : أَحَسَبُكَ عابيا يا أبا تمام ، فقال
أبو تمام : إنما يُتَبُّ على واحدٍ وأنتَ الناسُ جميعا ، فكيف يُتَبُّ عليه ؟
فقال له : مِنَ أينَ لك هذا يا أبا تمام ؟ فقال من قول الحاذِقِ - يعنى
أبا نواس - في الفضل بن الربيع :

وليس على الله بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ^(١)
ولما وُلِّيَ ابْنُ أَبِي دُوَادٍ الْمُنْظِمَ قَالَ أَبُو تَمَامٍ قَصِيدَةً يَتَظَلَّمُ إِلَيْهِ، مِنْ جَمَلَتِهَا
قوله :

إِذَا أَنْتَ ضَيَّعْتَ الْقَرِيضَ وَأَهْلَهُ فَلَا عَجَبٌ إِنْ ضَيَّعْتَهُ الْأَعَاجِمُ
فَقَدْ هَزَّ عِظْفَيْهِ الْقَرِيضُ تَوَقُّعًا لِعَدْلِكَ مُذْ صَارَتْ إِلَيْكَ الْمُنْظِمُ
وَلَوْلَا خِلَالُ سَنِّهَا الشَّعْرُ مَا دَرَى بُغَاةَ الْعُلَى مِنْ أَيْنَ تَوَوَّى الْمَكَارِمُ

وَمَدَائِحُ أَبِي تَمَامٍ وَغَيْرِ أَبِي تَمَامٍ فِيهِ كَثِيرَةٌ مُتَوَافِرَةٌ ... وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ
دَرِيدٍ : كَانَ ابْنُ أَبِي دُوَادٍ مُؤَالِفًا لِأَهْلِ الْأَدَبِ مِنْ أَىِّ بَلَدٍ كَانُوا ، وَكَانَ
قَدْ ضَمَّ مِنْهُمْ جَمَاعَةً يُعَوِّظُهُمْ وَيَمُنُّهُمْ ، فَلَمَّا مَاتَ حَضَرَ بِيَابِهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ
وَقَالُوا يُدْفَنُ مِنْ كَانُ سَاعَةَ الْكَرَمِ^(٢) وَتَارِيخَ الْأَدَبِ وَلَا نَسْكَمُ فِيهِ إِنْ
هَذَا وَهْنٌ^(٣) وَتَقْصِيرٌ ، فَلَمَّا طَلَعَ سَرِيرُهُ قَامَ إِلَيْهِ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ :
الْيَوْمَ مَاتَ نِظَامُ الْمَلِكِ وَاللَّسِنِ وَمَاتَ مَنْ كَانَ يُسْتَعْدَى عَلَى الزَّمَنِ^(٤)

(١) وَأَخَذَهُ أَبُو نُوَّاسٍ مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيَّ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابًا

(٢) السَّاقَةُ : جَمْعُ سَائِقٍ وَهُمْ الَّذِينَ يَسُوقُونَ جَيْشَ الْغَزَاةِ وَيَكُونُونَ مِنْ وَرَائِهِ
يَحْفَظُونَهُ ، فَلَعَلَّ هَؤُلَاءِ الْأَدْبَاءُ يَرِيدُونَ يَقُولُهُمْ بَنُ كَانُ سَاعَةَ الْكَرَمِ : أَنَّهُ كَانَ يَحِوِطُ
الْكَرْمَ وَيَحْفَظُهُ فَكَأَنَّهُ الْجَيْشَ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ جِيُوشَ الْكَرْمِ ، وَالْمُرَادُ : أَنَّهُ أَمِيرُ الْكَرْمِ
إِذْ أَنَّهُ يَحِوِطُهُ وَيَحْفَظُهُ

(٣) وَهْنٌ : ضَعْفٌ

(٤) يُقَالُ : اسْتَعْدَيْتُ الْإِمِيرَ عَلَى فُلَانٍ فَأَعْدَانِي : أَى اسْتَعْنَيْتُ بِهِ عَلَيْهِ فَأَعَانَتِي
وَالْأَسْمُ مِنْهُ الْعُدُوِيٌّ وَهِيَ الْمَعُونَةُ

وَأظَلَّتْ سُبُلُ الْآدَابِ إِذْ حُجِبَتْ شمسُ الْمَكَارِمِ فِي غَشِيمٍ مِنَ الْكَفَنِ

وتقدم الثاني فقال :

تَرَكَ الْمَنَابِرَ وَالسَّرِيرَ تَوَاضَعًا وَلَهُ مَنَابِرٌ لَوْ يَشَاءُ وَسَّرِيرٌ

وَلغیره يُجَبِّي الْخِرَاجُ وَإِنَّمَا تُجَبِّي إِلَيْهِ تَحَامِدٌ وَأُجُورٌ^(١)

وتقدم الثالث فقال :

وَلَيْسَ فَتِيقُ الْمَسْكِ رِيحٌ خُبُوطِهِ وَلَسَكَنُهُ ذَاكَ الثَّنَاءُ الْمُخَلَّفُ^(٢)

وَلَيْسَ صَرِيرُ النَّعْشِ مَا تَسْمَعُونَهُ وَلَكِنَّهُ أَصْلَابُ قَوْمٍ تَقْصَفُ^(٣)

رسالة للجاحظ ينضح فيها عن الجود

«وبعد» فلتنطف على كلامهم في الجود وذم البخل : أورد الجاحظ في كتابه «البخلاء» رسالة جميلة جدا نسبها إلى أبي العاصي بن عبد الوهاب ابن عبد المجيد الثقفي - أرسلها إلى رجل من عشيرته، وقد سمع بأنه يجلس إلى قوم من البخلاء، أمثال سهل بن هارون والأصمعي، وقد تأثر بمذهبهم في البخل وامتداحهم إياه، فكتب إليه هذه الرسالة ينعى فيها على البخلاء مذهبهم، ويذم البخل ويتوه بالجود - ونحن فإننا نقطف من هذه الرسالة مُتَقًا ونترك سائرها لمن يجب أن يراجعها في كتاب البخلاء - قال :

(١) أجور : جمع أجر وهو الثواب

(٢) فتق المسك : استخراج رائحته بشيء تخلطه به، ومسك فتق : مستخرج

الرائحة بجملة في غيره - كما يفعلون اليوم به وبالعنبر .

(٣) الاصلاب : جمع صلب وهو العظم من لدن الكاهل إلى العجب، وتقصف :

يحذف إحدى التامين أى تتقصف والتقصف : التكسر

وهل تزيد حال من أنفق جميع ماله ، ورأى المكروة في عياله ، وظهر
 فقره ، وسمت به عدوه ، على أكثر من انصراف المؤمنين عنه ، وعلى بغض
 عياله ^(١) ، وعلى خشونة اللبس ، وجشوبة المأكل ^(٢) ؟ وهذا كله ، يجتمع
 في مسك ^(٣) البخيل ، ومضروب على هامة ^(٤) الشحيح ، وموجل للثيم ^(٥) وملازم
 للبتوع ؛ ألا إن المنفق قد ربح المحمدة ، وتمتع بالنعمة ، ولم يعطل
 المقدرة ^(٦) ووفى كل خصلة من هذه حقها ، ووفر عليها نصيبها ، والممسك
 معذب ، يحضر نفسه ، وبالكد لغيره ؛ مع لزوم الحجة ^(٧) ، وسقوط
 الهمة ^(٨) والتعرض للذم والإهانة ، ومع تحكيم العرة السوداء في نفسه ^(٩)
 وتسليطها على عرضه ، وتمكينها من عيشه ، وسرور قلبه ^(١٠)

إن الله جواد لا يبخل ، وصدوق لا يكذب ، ووفى لا يعدر ، وحكيم
 لا يعجل ، وعدل لا يظلم . وقد أمرنا بالجد ، ونهانا عن البخل ؛ وأمرنا
 بالصدق ، ونهانا عن الكذب ؛ وأمرنا بالحلم ، ونهانا عن العجلة ؛ وأمرنا
 بالعدل ، ونهانا عن الظلم ؛ وأمرنا بالوفاء ، ونهانا عن العدر .

- (١) أى بغضهم له (٢) جشوبة المأكل : غلظه وخشونته أو قلة إدامه
 (٣) المسك : الجلد والمراد : النفس والشخص (٤) الهامة : الرأس
 والجمع : هام (٥) اللثيم : الشحيح النفس (٦) أى لم يعطل المقدرة على فعل
 الخير وكسب الثناء (٧) مع لزوم الحجة : أى مع قيام الحجة عليه في بخله وعجزه
 عن الزيادة عن نفسه (٨) سقوط الهمة : العجز عن جلائل الأعمال
 (٩) المرة : خلط من أخلاط البدن ، والمزاج الأسود : هو المزاج المضطرب
 الكثير المخاوف والوساوس
 (١٠) وتسليطها : يعنى أنه بمخاوفه ووساوسه يستهدف للذم ، وتمكن هذه المرة
 من نفسه فتغص عليه عيشه وتعصف بسروره

قَلَمَ يَأْمُرُنَا إِلَّا بِمَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَزُجُرْنَا إِلَّا عَمَّا لَمْ يَرْضَهُ لِنَفْسِهِ : وَقَدْ
 قَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ : إِنَّ اللَّهَ أَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ ، وَأَجْدُ الْأَجْدِينَ ؛ كَمَا قَالُوا : أَرْحَمُ
 الرَّاحِمِينَ ، وَأَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . وَقَالُوا فِي التَّأْدِيبِ لِسَائِلِهِمْ ، وَالتَّعْلِيمِ لِأَجْوَادِهِمْ :
 لَا تَجَاوِدُوا اللَّهَ ^(١) فَإِنَّ اللَّهَ - بَجَلِّ ذِكْرِهِ - أَجْوَدُ وَأَجْدُ . وَذَكَرَ نَفْسَهُ جَلَّ
 جَلَالُهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ - فَقَالَ : « ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » ، [وَ « ذِرَ الطَّلُورِ » ^(٢) .
 لِإِلَهِ إِلَّا هُوَ » ، وَقَالَ : « ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »



وَذَكَرُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالُوا : لَمْ يَضَعْ دِرْهَمًا عَلَى دِرْهَمٍ ،
 وَلَا لَيْتَةً عَلَى لَيْتَةٍ . وَمَلَكَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ ، فَقَبِضَ الصَّدَقَاتِ ، وَجَبِيَّتْ لَهُ
 الْأَمْوَالُ ، مَا بَيْنَ عُذْرَانَ الْعِرَاقِ إِلَى شَحْرِ عُثْمَانَ ^(٣) إِلَى أَقْصَى تَخْلِيفِ ^(٤) الْبَيْنِ
 ثُمَّ تَوَفَّى وَعَلَيْهِ دَيْنٌ ، وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ . وَلَمْ يُسْأَلْ حَاجَةً قَطُّ فَقَالَ : لَا .
 وَكَانَ إِذَا سُئِلَ أَعْطَى ، وَإِذَا وَعِدَ أَرَأَطَمَعَ ، كَانَ وَعْدُهُ كَالْعِيَانِ ^(٥) ، وَإِطْلَاعُهُ
 كَالْإِنجَازِ . وَمَدَحَتْهُ الشُّعْرَاءُ بِالْجُودِ . وَذَكَرَتْهُ الْخَطَبَاءُ بِالسَّمْحِ . وَلَقَدْ كَانَ
 يَهْبُ لِلرَّجُلِ الْوَاحِدِ الضَّاجِعَةَ مِنَ الشَّاءِ ^(٦) وَالْعَرَجَ مِنَ الْإِبِلِ ^(٧) - وَكَانَ
 أَكْثَرُ مَا يَهْبُ الْمَلِكُ مِنَ الْعَرَبِ مِائَةَ بَعِيرٍ ، فَيَقَالُ : وَهَبْ هُنَيْدَةً ^(٨) . وَإِنَّمَا

(١) أى لا تحاولوا أن تصلوا في الجود إلى مثل جود الله (٢) الطلور :
 الإفضال والإنعام (٣) ساحل البحرين عمان وعدن (٤) الخلف : الكورة
 وهو عند أهل اليمن واحد الخاليف وهي كورما أى المدن والاصطاع
 (٥) العيان : مصدر عاين الشيء : أبصره والمعنى : أن وعده في الوثوق بتحقيقه
 كالشيء المشاهد (٦) الضاجعة : الغنم الكثيرة (٧) العرج من الإبل : ما بين
 السبعين إلى الثمانين وقيل : ما بين الثمانين إلى التسعين ، وقيل : مائة وخمسون وفوق
 ذلك ، وقيل : من خمسمائة إلى الألف (٨) هند وهنيدة : اسم للباة من الإبل خاصة

يقال ذلك ، إذا أريد بالقول غاية المدح ، ولقد وهبَ لرجل ألف بعير .
فلما رآها تزدهمُ في الهوادي^(١) قال : أشهدُ أنك نبي . وما هذا مما تجودُ
به الأنفس .

وأجمعتِ الأممُ كلُّها بخيلها وسخيها ومزوجها ،^(٢) على ذمِّ البخل ، وحميدِ
الجود ، كما أجمعوا على ذمِّ الكذب وحميدِ الصدق .

فمن أراد أن يخالف ما وصف الله - جل ذكره - به نفسه ، وما منح من
ذلك نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، وما فطر على تفضيله العرب قاطبة ،
والأمم كافة ، لم يكن عندنا فيه إلا إكفارُهُ واستسقاطُهُ^(٣)

ولم نزال أبعضت جواداً قط ولا حقّرته ، بل أحبّته وأعظمته ، بل
أحبّت عقبه وأعظمت من أجله رهطه . ولا وجدناهم أبغضوا جواداً ،
لمجاوزته حبه الجود إلى السرف ، ولا حقّرته ، بل وجدناهم يتعلمون
مناقبه ، ويتدارسون محاسنه ، وحتى أضافوا إليه من نوادر الجليل^(٤) ما لم يفعلوه
وتحلّوه^(٥) من غرائب الكرم ما لم يكن ليلغّه ، ولذلك زعموا أن الشفاء في الدنيا
يضعف^(٦) كما تضعف الحسنات في الآخرة . نعم ، وحتى أضافوا إليه

(١) الهادية والهادى : العنق؛ والهادية من كل شيء : أوله وما تقدم منه فيكون
معنى تزدهم في الهوادي : تزدهم بأعتاقها وهذا ما يشاهد في الإبل . أو يكون المعنى :
تزدهم في أوائلها وهذا شاهد أيضاً في كل قطع
(٢) مزوجها : من امتزج فيه السخاء والبخل فكان وسطاً بين الكرم والبخل .
(٣) في اللسان : وأكفرت الرجل : دعوته كافرأ ، واستسقاطه : إسقاطه من
بين العقلاء .

(٤) الفعل الجليل (٥) نحلوه : نسبوا إليه (٦) يضعفه الناس أضعافاً

كثيرة بما يضيفون إليه ويزيدون عليه

كلّ مدحٍ شارد^(١)، وكلّ معروفٍ مجهولٍ الصاحب . ثم وجدنا هؤلاء بأعيانهم للبخيل على ضدّ هذه الصفة ، وعلى خلاف هذا المذهب : وجدناهم يُغضونه مرّةً ، ويُحَقِّرونه مرّةً ، ويُغضون بفضل بغضه ولده ، ويحتقرون بفضل احتقارهم له رَهْطَه ، ويُضيفون إليه من نوادر اللّوم ما لم يبلِّغه ، ومن غرائب البخل ما لم يفعله ، وحتى ضاعفوا عليه من سوء الثناء بقدر ما ضاعفوا للجواد من حُسن الثناء .

وعلى أنّنا لا نجد الجوائح^(٢) إلى أمثال الأسيخاء ، أسرع منها إلى أموال البخلاء ، ولا رأينا عدد من افتقر من البخلاء أقلّ .

والبخيل عند الناس ليس هو الذي يبخل على نفسه فقط ؛ فقد يستحقّ عندهم اسم البخيل ويستوجب الذم ، من لا يدعّ لنفسه هوى إلا ركيه ، ولا حاجة إلا قضاها ، ولا شهوة إلا ركبها وبلغ فيها غايته . وإنما يقع عليه اسم البخيل ، إذا كان زاهداً في كل ما أوجب الشكر ، ونوّه بالذكر ، وأدخر الأجر

وقد يُعاقَّب البخيل^(٣) على نفسه من المؤمن ، ويُلبّزُها من الكُفّ ، ويتخذ من الجوارى والخدم ، ومن الدوابِّ والحشَم^(٤) ، ومن الآنية العجيبة ، ومن البيزة الفاخرة^(٥) . والشارّة الحسنة^(٦) ، ما يُربّي على نفقة السخيّ المُثرى^(٧) ويضعف على جُود الجواد الكريم^(٨) فيذهب ماله وهو مذموم ، ويتغيّر

(١) شارد : نافر ، يريد المدح الغريب الذي لا يخطر عادة بالبال

(٢) الجوائح : جمع جائحة وهي الآفة

(٣) يعلق : يوجب ويكلف (٤) الحشم : الخدم وهي كلمة في معنى الجمع ولا

واجد لها من لفظها (٥) البيزة : الهيئة : يقال : هو حسن البيزة

(٦) الشارّة هنا : الزينة واللباس

(٧) يربّي : يقال : أربى الشيء على كذا : زاد عليه

(٨) ضعف يضعف من باب كرم ، زاد

حاله وهو ملوم . وربما غلب عليه حب القيان ^(١) واستهتر بالخصيان ^(٢) .
 وربما أفرط في حب الصيد ، واستولى عليه حب المراكب ^(٣) ، وربما كان
 إتلافه في العرس والخرس ^(٤) والوليمة ، وإسرافه في الإعذار ^(٥) وفي العقيقة ^(٦)
 والوكيرة ^(٧) ، وربما ذهبت أهواله في الوضائع ^(٨) والودائع . وربما كان
 شديد البخل ، شديد الحب للذكر ^(٩) ويكون بخله أرسج ^(١٠) ولوومه أقيج ،
 فينفق أهواله وي تلف خزائنه ، ولم يخرج كفافا ^(١١) ولم ينج سليما
 كأنك لم تر بخيلا مخدوعا ^(١٢) ، وبخيلا مضعوبا ، وبخيلا مضياعا ، وبخيلا

- (١) القيان : جمع قينة ، بفتح فسكون ، الامة البيضاء مغنية أو غير مغنية
 (٢) استهتر بالشئ : بالبناء للجھول : أولع به : والولوع بالخصيان نوع من السرف
 والترف كان شائعا في أيامهم
 (٣) المراكب : جمع مركب والمراد ما يركب من الخيل ونحوها
 (٤) الخرس بالضم والخراس بالكسر : طعام يصنع ابتهاجا بالولادة
 (٥) الإعذار : وليمة الحتان وطعام البناء « الدخلة »
 (٦) العقيقة : الشاة تذبح في اليوم السابع من ولادة المولود
 (٧) الوكيرة : الطعام يتخذه الرجل ويدعو إليه عند انتهاء ما كان بينه
 (٨) الوضائع : جمع وضيفة وهي ما يرفعه الدائن عن المدين من الدين
 (٩) شديد الحب لأن يذكر بما يتفق من مال في هذه السبل
 (١٠) أى أعلق بنفسه
 (١١) الأصل فى معنى الكفاف : ما يكف عن سؤال الناس ويعنى ، ومعنى لم
 يخرج كفافا هنا : لم يخرج خاليا من الذم وهو فى معنى : ولم ينج سليما
 (١٢) يتخيل كاتب الرسالة أن المخاطب ينكر ما ذهب إليه فهو يتجه إليه
 قائلا : كأنك الخ ، والمضعوف : ضعيف الرأى

نفاقاً^(١) وبخيلاً ذهب ماله في البناء، وبخيلاً ذهب ماله في الكيمياء^(٢) ،
 وبخيلاً أنفق ماله في طمع كاذب ، وعلى أمل خائب ، وفي طلب الولايات ،
 والدخول في القبالات^(٣) ، وكانت فتنته بما يؤمل من الإمرة^(٤) ، فوق
 فتنته بما قد حواه من الذهب والفضة ، وقد رأينا^(٥) يُنفق على مائدته وفاكهته
 ألفَ درهم في كل يوم ، وعنده في كل يوم عُرس^(٦) ، ولأن يطعن طاعن
 في الإسلام ، أهون عليه من أن يطعن طاعن في الرغيف الثاني ، وأشق
 عصا الدين ، أهون عليه من شق رغيف ، لا يعدُّ الثامنة في عرضه ثلثة ،
 ويعدها في ثريدته من أعظم التلم^(٧)

وإنما صارت الآفاتُ إلى أموال البخلاء أسرع والجوائحُ عليهم أكَلَب^(٨) ؛

(١) النفاق : المدعى المتباهى بما ليس له

(٢) الكيمياء في زعمهم : تحويل المعادن الخسيسة - بالصناعة - إلى معادن نفيسة ،
 أقول : وقد رأيت بعيني رأسى رجلاً ثرياً من ذوى قرابتنا كان يضرب به المثل في البخل
 ولكنه في أواخر أيامه أضاع ثروته التي كانت تبلغ ثلثائة فدان من أجود أطيان
 مديرية الغربية في سبيل هذا الكيمياء بعد أن تعرف على رجل مغربي قد اشتهر بهذه
 الصناعة التي كم خربت من بيوت أمثال هؤلاء البخلاء المخبولين

(٣) القبالة - بالفتح - الكفالة ، واسم لما يلتزمه الإنسان من عمل ودين ونحوها ،

والقبيل : الكفيل والضامن

(٤) الإمرة : اسم مصدر ، من أمر علينا : إذا ولى

(٥) يريد بخيلاً من البخلاء

(٦) العرس من معانيه : الوليمة

(٧) الثلثة : الفرجة في الشيء المهودوم أو المكسور

(٨) أكلب : أضرى وأولع وأشد

لأنهم أقلُّ توكلًا ، وأسوأ بالله ظنًا . والجوادُ إما أن يكون متوكلا ، وإما أن يكون أحسن بالله ظنًا ، وهو على كل حال بالمتوكل أشبه ، وإلى ما أشبهه أنزع^(١) ، وكيف أدار أمره ، فليس ممن يتيكل على خزئه ، ويلجأ إلى كيسه^(٢) ويرجع إلى جودته احتياطة وشدة احتراسه

واعتلال البخيل بالحدثان ، وسوء الظن بتقلب الزمان ، إنما هو كناية عن سوء الظن بخالق الحدثان^(٣) ، وبالذي يحدث الأزمان وأهل الزمان . ولا تجرى الاحداث إلا على تقدير المحدث لها ؟ وهل تختلف الأزمنة إلا على تصريف من دبرها ؟ أولسنا وإن جهلنا أسبابها فقد أيقننا بأنها تجرى إلى غاياتها ؟^(٤) والدليل على أنه ليس بهم خوف الفقر ، وأن الجمع والمنع إما أن يكون عادة منهم ، أو طبيعة فيهم ، أنك قد تجد الملك بخيلا ، ومملكته أوسع ، وخزجه أدر ، وعدوه أسكن^(٥) وقد علمنا أن الزئج أقصر الناس مرة^(٦) وروية وأذلهم عن معرفة العاقبة^(٧) : نلو كان سخاؤهم إنما هو لكالل خدم^(٨) ،

(١) الضمير في أشبه يعود الى المتوكل وأنزع : أميل

(٢) كيسه : عقله وفطنته

(٣) حدثان الدهر : نوابه . واعتلال البخيل بالحدثان : أى تلمسه العلل والاعذار بالخوف من نواب الدهر الخ

(٤) القاء من فقد : زائدة ، لأن جملة فقد أيقنا : خبر ليس

(٥) الخرج والخراج : ما يحصل من غلة الأرض ، وأدر : أكثر ، وعدوه أسكن :

أى غير متحفز لقتاله وإذن فالمسال موفور لديه

(٦) المزة : العقل والإحكام

(٧) أى وهم مع ذلك أسخياء

(٨) كلال الحد : أصله فى السيف والسكين ونحوهما والمراد هنا الغباء وقلة

الذكاء والفطنة

وَتَقْصِرْ عَتَمَورِهِمْ ، وَقَلَّةَ مَعْرِقَتِهِمْ ، لَكَانَ يَنْبَغِي لِفَارَسٍ أَنْ تَكُونَ أَبْخَلَّ
 مِنَ الرُّومِ وَتَكُونَ الرُّومُ أَبْخَلَّ مِنَ الصَّقَالِبَةِ (١) ؛ وَكَانَ يَنْبَغِي فِي الرِّجَالِ ، فِي
 الْجَمَلَةِ ، أَنْ يَكُونُوا أَبْخَلَّ مِنَ النِّسَاءِ ، فِي الْجَمَلَةِ ، وَكَانَ يَنْبَغِي لِلصِّيَّانِ أَنْ يَكُونُوا
 أَسْحَى مِنَ النِّسَاءِ ، وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَقْلُ الْبِخْلَاءِ عَقْلًا ، أَعْقَلَّ مِنْ أَشَدِّ
 الْأَجْوَادِ عَقْلًا ؛ وَكَانَ يَنْبَغِي لِلْكَلبِ - وَهُوَ الْمَضْرُوبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي اللَّوْمِ - أَنْ
 يَكُونَ أَعْرَفَ بِالْأُمُورِ مِنَ الدِّيَكِ ، الْمَضْرُوبِ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْجُودِ (٢)

وَنَحْنُ لَا نَجِدُ الْجَوَادَ يَفْرُّ مِنْ اسْمِ السَّرْفِ إِلَى الْجُودِ ، كَمَا نَجِدُ الْبِخِيلَ
 يَفْرُّ مِنْ اسْمِ الْبُخْلِ إِلَى الْاِقْتِصَادِ (٣) . وَنَجِدُ الشُّجَاعَ يَفْرُّ مِنْ اسْمِ الْمُنْهَزِمِ ،
 وَالْمُسْتَحْيَ يَفْرُّ مِنْ اسْمِ الْحِجْلِ . وَلَوْ قِيلَ لِحَطِيبِ ثَابِتِ الْجِنَانِ : وَقَاحٌ (٤) لَجُرِعَ
 - فَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ فَضِيلَةِ الْجُودِ إِلَّا أَنْ جَمِيعَ الْمُتَجَاوِزِينَ لِحُدُودِ أَصْنَافِ
 الْخَيْرِ يَكْرَهُونَ اسْمَ تِلْكَ الْفَضِيلَةِ (٥) - إِلَّا الْجَوَادُ (٦) ، لَقَدْ كَانَ فِي ذَلِكَ مَا يُبَيِّنُ
 قَدْرَهُ ، وَيُظْهِرُ فَضْلَهُ .

وَلَوْ كَانُوا لِأَوْلَادِهِمْ يَجْمَعُونَ ، وَلَهُمْ يَكْثُرُونَ ، وَمَنْ أَجْلِهِمْ يَحْرِصُونَ ،
 لَجَعَلُوا لَهُمْ كَثِيرًا مِمَّا يَطْلُبُونَ ، وَلَسَّرُوا مَحَاسِبَتَهُمْ فِي كَثِيرٍ مِمَّا يَشْتَهَوْنَ .

(١) الصقالبة : جيل تناخم بلادهم بلاد الخزر - في روسيا - وبحر الخزر هو

بحر قزوين

(٢) وصف الديك بالجوود لأن من عادته أن يدعو الدجاج ويشير لها الحب

(٣) ونحن الخ ، وذلك لأن الجواد لا يخاف من اسم السرف خوف البخيل من

اسم البخل لأن السرف في رأى الجواد يكاد يلحق بالجود

(٤) الوقاح : القليل الحياء

(٥) الفضلة هنا : تتجاوز الحد في الفضيلة

(٦) إلا الجواد ، أى فإنه لا يكره أن يلقب بالسرف

وهذا بعض ما بقص بعض المورثين إلى الوارثين ، وزهد الاخلاف^(١) في طول عمر الاسلاف ...

ولو كانوا لا وادهم يمهدون ، ولهم يجمعون ، لما جمع الحنصيان
الاول ، ولما كثر الرهبان الكنوز ، ولا استراح العاقر من ذل الرغبة^(٢)
ولسليم العقيم من كد الحرص . وكيف ؟ ونحن نجد بعد أن يموت ابنه
الذي كان يعتل به^(٣) ، والذي من أجله كان يجمع ، على حاله^(٤) في الطلب
والحرص ، وعلى مثل ما كان عليه من الجمع والمنع

والعامة لم تقصر في الطلب والحسرة^(٥) ، والبخل لم يحدوا شيئا من جهدهم^(٦)
ولا أعفوا بعد قدرتهم^(٧) ، ولا قصروا في شيء من الحرص والحصص^(٨) ،
لأنهم في دار قلعة ، بعرض نقلة^(٩) . حتى لو كانوا بالخلود ، ووقين ،
لا غفلوا تلك الفصول^(١٠)

(١) الاخلاف : جمع خلف وهم أبناء الانسان الذين يخلفونه بعد موته

(٢) ذل الطمع والحرص (٣) يعتل به : يتخذه علة وسببا للجمع والمنع

(٤) على حاله : متعلق الجار والمجرور مفعول ثان لتجد (٥) والعامة الخ كأنه

الحق العامة بالبخل ، لصفات البخل فيهم ، والحسرة هنا : الجمع والإمسك

(٦) أى لم يحبسوا جهودهم في سبيل جمع الأموال (٧) اعنى : أنفق العفو من

ماله وهو ما يفضل عن النفقة وبعد قدرتهم : أى بعد اقتدارهم وإيسارهم

(٨) الحصر : البخل

(٩) يقال : الدنيا دار قلعة : أى اتقلاع وارتحال ، وقوله : وبعرض نقلة : أى أن

الدنيا دار يعرض فيها انتقال فلا تدوم على حال (١٠) حتى لو كانوا الخ هذا من

الترقي في الدليل يقول : لو كتب لهم الخلود ، لوجب أن يغفلوا طلب ما يزيد على عيشتهم

وحالتهم ولجادوا به لو حصل في أيديهم ولكنهم لا يعقلون بسبب ماركب فيهم من

الحرص والجشع

فالبخيلُ مجتهدٌ ، والعاميُّ غيرُ مقصِّرٍ .^(١) فمن لم يستعِنْ على ما وصفنا بطبيعة قوية ، وبشهوةٍ شديدة ، وبنظرٍ شافٍ ، كان إما عامياً ، وإما بخيلاً شقيماً^(٢) - ففيم اعتلاهم بأولادهم ، واحتجاجهم بخوف التلوثِ من أزمتهُم^(٣) ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إوافد كذبَ عنده كذبةٌ ، وكان جواداً : لولا نخلةٌ ومِلكَ الله عليها ، لشردتُ بك من وافرِ قومٍ^(٤) ... وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم : هل لك في بيض النساءِ وأدم الإبلِ^(٥) ، قال : ومن هم ؟ قال : بنو مدلج^(٦) . قال : يمتنعني من ذاك قرأهم الضيف ، وصلتهم الرِّحَم . وقال لهم أيضاً : إذا نحرُوا نَجُوا^(٧) ، وإذا لبوا عَجُوا^(٨) . وقال الأنصار : مَنْ سيِّدكم ؟ قالوا : الحُرُّ بنُ قيس ، على أنه يُزنُّ^(٩) . فينا يبخل ، فقال : وأيُّ داءٍ أدوأ من البخل ؟ جعله من أدول الداء .

(١) معنى اجتهاد البخيل هنا أنه يفعل ما يفعل عن احتجاج واقتناع بصواب ما يفعل . أما العامي فليس له من العقل ما به يقيم الحججة على حكرته وإنما هو مسوق إلى ذلك بطبيعته فهو ملحق بالبخلاء .

(٢) فمن لم يستعن الخ ، على ما وصفنا : على ما بينا من تمكن البخل والجشع من النفوس . والطبيعة القوية : السائمة من العلل النفسية ، أما الشهوة الشديدة : فهو يريد بها الميل الشديد للتخلص من هذا الضعف ، وقوله وبنظر شافٍ : يقصد به التفكير الصحيح المؤسس على البرهان القويم لا السفسطة

(٣) تلوث الأزيمة : تغلبها وتنكرها (٤) ومقه يمقه ، كوثق يثق : أحبه . وشردت بك : أبعدتك وطردتك ، وقوله من وافر قوم : هو بيان للكاف في « بك » ، (٥) الأدم : جمع آدم وأدماء ، والأدم في الإبل : لون مشرب سواداً أو يابضاً أو هو اليابض الواضح والتقدير : هل لك في قوم الخ أي هل لك في غزو قوم الخ كما يفهم من المقام (٦) بنو مدلج قبيلة من كنانة (٧) وقال لهم : أي قال في حقهم ، ونجوا : أسالوا دماء الذبائح في الحج (٨) التلية في الحج قول : ليك اللهم ليك الخ وعج يعج « بالكسر والفتح » صاح ورفع صوته (٩) يزنُّ : يتهم

وقال الأنصار : أنا والله ، ما علمتكم إلا لتكثروا عند الفرع وتقلون عند الطمع ^(١) ، وقال : كفى بالمرء حرصاً رُكوبه البحر ^(٢) . - وقال : لو أن لابن آدمَ وإديينَ من مالٍ لا يتقى ثالثاً ، ولا يُشبعُ ابنَ آدمَ إلا الترابُ ويتوبُ الله على من تاب ^(٣) . وقال : السخاء من الحياء ، والحياء من الإيمان وقال : إن الله جوادٌ يُحب الجود . وقال : أنفق يا بلال ، ولا تخش من ذى العرش إقلاقاً ^(٤) .

هذا ما رأينا اختياره من هذه الرسالة الجاحظية البارعة الجامعة . ونعود إلى سائر عقرياتهم في الجود والإحسان

كلمة علوية لسيدنا رسول الله

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال : إني أخاف عليكم بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ... قال : فقال رجل : أو يأتي الخير بالشر يا رسول الله ؟ قال : فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأينا أنه ينزل عليه ^(٥) ، فأفاق يمسح عنه الرخصاء ^(٦) وقال : أين هذا السائل - وكأنه حمده - فقال : إنه لا يأتي

- (١) لتكثرون الخ : أى لتجتهدون بجهودكم للنجدة والذود ، وقتلهم عند الطمع : لسماحتهم وكرمهم وقلة حرصهم ، والمراد : الطمع فى مغم حرب أو نحوه
- (٢) كفى بالمرء الخ يذم صلى الله عليه وسلم الجشع والحرص على جمع المال ولا سيما عند توقع الخطر كركوب البحر فى تلك الأيام وليس المراد ذم السعى على الرزق الحلال من أى وجه كان ، كما هو ظاهر
- (٣) وإديين : نهرين (٤) أنفق الخ ، بلال : هو بلال بن حمارة الحبشى مؤذن سيدنا رسول الله
- (٥) ينزل عليه : يوحى إليه (٦) الرخصاء : العرق الكثير وكثيرا ما يستعمل

الخير بالبشر، وإنَّ ما يُنبتُ الربيعُ ما يَقْتُلُ حَبَطاً أو يُيْلِمُ^(١)، إلا آكَلَةَ
الْحَضِرِ^(٢)، فإنها أَكَلَتْ حتى إذا امتلأت خَاصِرَتَاها استقبلت عينَ الشمسِ
فثَلَطَتْ^(٣) وبالتُّم رعت. وإن هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلوةٌ، ونِعْمَ صاحبُ
المسلم هو، إن أعطى المسكينَ واليتيمَ وابنَ السبيلِ. أو كما قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم.

قال الإمام اللغوي أبو منصور الأزهري^(٤): في هذا الحديث: تَمْلَان، ضرب
أحدهما للمُفْرَط في جَمْع الدنيا مع مَنَع ما جمع من حقه، والآخر ضربه للمقتصد
في جمع المالِ وبذله في حقه، فأما قوله صلى الله عليه وسلم: وإنَّ ما ينبت
الربيع ما يقتل حبطاً، فهو مَثَلُ الحريص المفرط في الجمع والمنع، وذلك أن الربيع
ينبت أحرار العشب^(٥) التي تحلّولها المشاة فتستكثر منها حتى تنتفخ بطونها
وتَهْلِك، كذلك الذي يجمع الدنيا ويحرص عليها ويشح على ما جمع حتى يمنع ذا
الحق حقه منها، يهلك في الآخرة بدخول النار واستيجاب العذاب - أقول:
ويهلك في الدنيا كذلك، وهل لا يعد هلاكاً لمن هذه حاله ما يلاقيه من إزراء
الناس به وازورارهم عنه وانطوائهم له على البغض والحقد والحسد وصنوف
الأذى وعدّهم إياه خنزيراً من خنازير البشر أو مجنوناً من صرعى الأثرة
والإنانية وحب الذات، وبالْحَرِيِّ لا خير فيه لأحد ولا لنفسه وإنما هو لا يعدو

في عرق الحمى والمرض (١) الحبط - كما سيمر بك - أن تأكل المشاة فتكثر حتى
تنتفخ بطونها ولا يخرج عنها ما فيها فتهلك، ويلىم: يقرب ويدنو من الهلاك
(٢) الحضر بفتح فسكس جمع خضرة: ضرب من الجنية أى عروق العشب الغامضة
في الأرض كما سيأتي (٣) ثلطت: تغوطت وأكثر ما يقال للإبل والبقرة والبقرة
(٤) هو محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، الإمام المشهور في اللغة، صاحب التهذيب
ولد سنة ٢٨٢ وتوفي سنة ٣٧٠ بمدينة هراة إحدى مدن خراسان، فالأزهري نسبة
جده أزهري (٥) أحرار العشب: الرقيق الرطب منه

أن يكون صيرفاً أو حارس مال ليس غير :

يَجْنِي الْعَنَى لِلثَّامِ لَوْ عَقَلُوا مَا لَيْسَ يَجْنِي عَلَيْهِمُ الْعَدَمُ
هُمْ لِأَمْوَالِهِمْ وَلَسْنَ لَهُمْ وَالْعَارُ يَبْقَى وَالْجُرْحُ يَلْتَسِمُ

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَمْسَكْتَهُ فَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَاَلْمَالُ لَكَ

هذا إذا أضاف الشَّحَّ على نفسه إلى الشح على ذوى الحقوق

أما إذا آثر نفسه بالتمتع بلذات الدنيا فأى هلاك بعد الذى يصيبه من
الأسقام والأوجاع وسائر أدواء الدرف والسرف واجتواء المحرومين إياه
وحنقهم عليه وما عساه يتولد من ذلك كله من الفوائل الاجتماعية التى نرى
أفَاعِيلَهَا اليوم - قال الأزهرى : وأما مثل المقتصد المحمود فقولته صلى الله
عليه وسلم : **إِلَّا آكَلَةَ الْخَضِرَ فَإِنَّهَا أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَلَأَتْ خَاصَرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ**
عَيْنَ الشَّمْسِ فَتَلَطَّتْ وَبَالَتْ ثُمَّ رَتَعَتْ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْخَضِرَ لَيْسَ مِنْ أَحْرَارِ
الْبَقُولِ الَّتِي تَسْتَكْتَرُ مِنْهَا الْمَاشِيَةُ فَتَهْلِكُهَا أَكْلًا وَلَكِنَّهُ مِنَ الْجَنَّةِ (١) الَّتِي
تَرَاهَا بَعْدَ هَيْجِ الشَّبِّ وَيُبْسِيهِ ، وَالْمَاشِيَةُ تَرْتَعُ مِنْهَا شَيْئًا شَيْئًا وَلَا تَسْتَكْتَرُ
مِنْهَا فَلَا تَحْبِطُ بِطَوْنِهَا عَنْهُ . فَضْرَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آكَلَةَ
الْخَضِرِ مَثَلًا لِمَنْ يَقْتَصِدُ فِي أَخْذِ الدُّنْيَا وَجَمَعَهَا وَلَا يَسْرِفُ فِي الْحِرْصِ عَلَيْهَا
وَأَنَّهُ يَنْجُو مِنْ وَبَالِهَا كَمَا نَجَتْ آكَلَةُ الْخَضِرِ ، أَلَا تَرَاهُ قَالَ : فَإِنَّهَا إِذَا أَصَابَتْ
مِنَ الْخَضِرِ اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ فَتَلَطَّتْ وَبَالَتْ ، وَإِذَا تَلَطَّتْ فَقَدْ ذَهَبَ

(١) أسلفنا أن الجنة هي الكلا الذى له عروق في الأرض، قال أبو حنيفة الدينورى:
الجنة ما كان في نبتة بين البقل والشجر فيكون فوق البقل ودون الشجر مثل الحماط
عما يبقى أصله في الشتاء ويبيد فرعه ، وسمى جنة لأنها كما قال الأزهرى صغرت عن
الشجر الكبار وارتفعت عن التي لأرومة لها في الأرض

حبطها، وإنما تحبب الماشية إذا لم تثلط ولم تبل، ثم حث صلوات الله عليه على إعطاء المسكين واليتيم من هذا المال، مع حلاوته ورغبة الناس فيه، ليقبه الله تبارك وتعالى وبال نعمتها في دنياه وآخرته.

هيات أن أبيت مبطانا وحولى بطون غرثى

ومن كلمة لسيدنا على رضى الله عنه في كتاب له إلى عثمان بن حنيف الأنصارى عامه على البصرة: ولو شئت لأهتديت الطريق إلى مصقى هذا العسل، ولباب هذا القمع، ونسأج هذا القز، ولكن هيات أن يغلبنى هواى، ويقودنى جشعى إلى تخير الأظعمة، ولعل بالحجاز وباليمامة من لا طمع له فى القرص، ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطانا وحولى بطون غرثى،^(١) وأكبأد حرى، أو أكون كما قال القائل:

وَحَسْبُكَ عَارًا أَنْ تَبَيْتُ بِيْطَنَةَ وَحَوْلَكَ أَكْبَادُ تَحِينُ إِلَى الْقَدِّ^(٢)
أَقْتَعُ مِنْ نَفْسِي بَأْنَ يُقَالُ : هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا إِشَارَةَ لَهُمْ فِي مَكَارِهِ
الدَّهْرِ، أَوْ أكون أسوة لهم فى جشوبة العيش^(٣) أفا خلقت لي شغلى أكل الطيبات،
كالبهيمة المربوطة فمها علفها، أو المرسلة شغلها تقمها، تكثرش من
أعلافها، وتلهو عما يراد بها ...

(١) الميطان: الذى لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل، وغرثى: جاعة
(٢) البيطنة: الكظة، وذلك أن يمتلئ الإنسان من الطعام امتلاء شديدا، والقَد: سيور قد - تقطع - من جلد غير مدبوغ. وهذا البيت من أبيات لحاتم الطائي المشهور بالجود (٣) جشوبة العيش: خشونته وغلظه

وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم - وكان من قبلهم مؤدبهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - يرون - ونعمًا رأوا - أن السياسة الرشيدة ، وأن الطريق إلى الإحسان - ولا طريق غيرها - إنما تتحقق بالرغبة عن شهوات الحياة الدنيا ، وتنكّب السرف والترف ، وكانوا يريدون عمّالهم على هذه السياسة التي لاسياسة غيرها .

كان الخلفاء الراشدون مثلًا عليا في الرغبة عن شهوات الحياة الدنيا

قال الربيع بن زياد الحارثي : كنت عاملا لأبي موسى الأشعري على البحرين ، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمره بالقدوم عليه هو وعماله ، وأن يستخلفوا جميعا . قال : فلما قدمنا أتيت يرفأ « مولى عمر » فقلت : يا يرفأ مُسْتَرْشِدٌ وابن سبيل . . . أى الهيئات أحبُّ إلى أمير المؤمنين أن يرمى فيها عماله ، فأوما إلى بالحشونة . فاتخذت حُفَيْنِ مُطَارِقَيْنِ ^(١) وابستُ جُبَّةً صوف ولثتُ عمامتي على رأسي ^(٢) . فدخلنا على عمر ، فصصقنا بين يديه ، فصعد فينا وصوب ^(٣) فلم تأخذ عينه أحداً غيري ، فدعاني فقل : من أنت ؟ قلت : الربيع ابن زياد الحارثي ، قال : وما تتولى من أعمالنا ؟ قلت : البحرين ، قال : كم ترتق؟ ^(٤) قلت : ألفاً ، قال : كثيرٌ . . . فما تصنع به ؟ قلت : أتقوت منه شيئا وأعود به على أقارب لي ، فما فضل عنهم فعلى فقراء المسلمين ، قال : فلا بأس ، ارجع إلى موضعك ، فرجعت إلى موضعي من الصف ، فصعد فينا وصوب فلم تقع

(١) طراق النعل : ما أطبقت عليه نقرزت به ، فمعنى مطارقين : خصفت إحداهما فوق الأخرى (٢) أى أدت بعضها على بعض على غير استواء
(٣) صعد فينا : رفع رأسه فنظر الأعلى ، وصوب : خفض رأسه فنظر الأسفل
(٤) أى كم مرتبك

عينه إلا على فدانى فقال : كم سنك ؟ قلت : خمس وأربعون سنة ، قال :
الآن حين استحكمت .^(١) ثم دعا بالطعام وأصحابى حديث عهدهم بلدين العيش ،
وقد تجوّعت له ، فأنيّ بخبزٍ وأكسارٍ بعير^(٢) فجعل أصحابى يعافون ذلك
وجعلت أكل فأجيد ، فجعلت أنظر إليه يا حظنى من بينهم ، ثم سبقت هنى كلمة
تمنيت أنى سبحت فى الأرض^(٣) فقالت : يا أمير المؤمنين ، إن الناس يحتاجون
إلى صلاحك ، فلو عمدت إلى طعام ألين من هذا ! فزجرنى ، ثم قال :
كيف قلت ! فقلت : أقول - يا أمير المؤمنين - : أن تنظر إلى قوتك من
الطحين فيخبز لك قبل إرادتك إياه يوم ويُطبخ لك اللحم كذلك ، فتؤتى
بالخبز لينا واللحم غريضا^(٤) ... فسكن من غربه^(٥) وقال : أههنا غرت ؟^(٦)
قلت : نعم ، فقال : ياربيع ، إننا لو نشاء ملأنا هذه الرحاب من صلاتق
وسبائك وصناب^(٧) ، ولكنى رأيت الله عز وجل نعى على قومه شهواتهم

(١) استحكمت : تهايت عما يضرك فى دينك وديناك

(٢) أكسار : جمع كسر ، والكسر : عظم ليس عليه كثير لحم

(٣) ساخ فى الأرض : غاص فيها ودخل

(٤) غريضا : طريا (٥) يريد حديثه (٦) غرت : أى ذهبت يقال : غار

الرجل : إذا أتى الغور وناحيته مما انخفض من الأرض ، وأنجد : إذا أتى نجداً أو ناحيته

عما ارتفع من الأرض (٧) صلاتق جمع صليقة وهى القطعة المشوية من اللحم

والسبائك : ما يسبك أى ينخل من الدقيق فيؤخذ خالصه وهو ما يسمى الحوارى أى

ما يتقى من لباب البر . والصناب : صباغ يتخذ من الخردل والزبيب

(٨) نعى على قوم شهواتهم : عابها ووبخهم عليها . أما الآية التى ذكرها الفاروق

بعد فهى : وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَذَّيْبُكُمْ طيباتكم فى حياتكم

الدنيا وأسئمتهم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون

فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون

فقال : أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا... ثم أمر أبا موسى بإقرارِي
وَأَنْ يَسْتَبَدِّلَ بِأَصْحَابِي... وهذا من الفاروق هو - فضلا عن أنه الأليق بكل
من وُلِّيَ أمر الناس - غاية في السداد والسياسة لرشيده الحازمة كما قلنا

عظيمة الفاروق

في زهده وتقواه

هذا والله المُلْكُ الهنيء

وعما يصح لإيراده هنا ما يأتي : لما أتى بالهَرْمُزَانِ صاحبِ نُسْتَرٍ، إلى عمر
ابن الخطاب - وكان هذا الهَرْمُزَانِ من أعظم آوادِ الفُرسِ ، وكان على مِئْتَةِ
جيشِ رُسُومٍ وزيرِ ملكِ فارسِ يَزْدَجِرْدَ بنِ شَهْرِيَارِ بنِ اِبْرِيْزِ في حربِ
القَادِسيَةِ سنة ١٤ من الهجرة ، فلما قتل رستم وانتصر المسلمون قرَّ الهَرْمُزَانِ
بمن بقي من جُنْدِهِ ، وما زال المسلمون يتابعونه الغارة بعد الغارة حتى لجأ
إلى مدينة نُسْتَرِ^(١) ، وتحصَّنَ بها ، فحاصروه أشدَّ حِصَارٍ ، ثم أنزلوه على حُكْمِ
الفاروق ، فأسلبه قائد جيش المسلمين أَبُو سَبْرَةَ بنِ أَبِي رُهْمٍ إلى وفدِ فيهم
أَنَسُ بنِ مالِكٍ والأحنف بن قيس ، فَأَتَوَاهُ إلى الفاروق - وكان الفاروق
يلتف في كِسَائِهِ ويتام في ناحية المسجد ، فجعلوا يسألون عنه فيقال : مَرَّ هُنَا
آنفاً اِتِّصَغُرُ في قلبِ الهَرْمُزَانِ ، إذ رآه كَبَعِضِ السُّوقِ^(٢)... حتى انتهوا
به إلى عمر وهو نائم في ناحية المسجد... فقال الهَرْمُزَانِ : هذا والله المُلْكُ
الهنيء...^(٣) فلما جلس عمر امتلأ قلبُ العِلْجِ^(٤) منه هيبة ، لما رأى عنده

(١) نُسْتَرُ : مدينة عظيمة جعلها عمر بن الخطاب من أرض البصرة لقرها منها

(٢) السوق : جمع سوقة كفرقة وغرف ، وهم الرعية (٣) إذ لا يحتاج إلى أحراس

ولا عدد (٤) العِلْجُ في الأصل : الحمار الوحشي : وقد أطلقه المسلمون على الرجل

من كفار العجم ومن يشبه العجم

من الجِدِّ والاجتهاد، وألَيْسَ من هَيْبَةِ التقوى... ثم نظر عمر إليه وقال :
 آلْهُرْمُزَانُ ! قال : نعم ، فقال عمر : الحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا وأشباهه ،
 وأمر بنزع ما عليه من الديباج المذْهَبِ ، والتاج المكلل بالياقوت ، وأمر له
 بثوب صفيق^(١) ، وهم بقتله ، فطلب الهُرْمُزَانُ ماءً ، وقال : أخاف أن أُقتلَ
 وأنا أشرب ! فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشربَ ، فأراقهُ ، فقال عمر :
 والله لا أنخدعُ حتى تُسَلِمَ ، فأَسَلِمَ ، وقَرَضَ له فى العطاء ألفينِ ، وأقام
 بالمدينة .

تعود إلى عبقرياتهم فى الجود من بابات شتى... ولقد أسلفنا أن الأوائل
 لم يَتَرُكُوا مَعْنَى الإِطْرَاقِ : * وهل غادرَ الشعراءُ من مُتَرَدِّمٍ *^(٢)
 وهو معلوم أن الخمر تُحَدِّثُ فى شاربها إذا انتشى هِزَّةً وطرباً وأريحيةً
 وقد تُحْمِلُ البخيلَ كرمياً ، فإذا قالوا فى ذلك ؟ قالوا : - والقائلُ البُحْثُرِيُّ - :
 تَسَكَّرْتِ مِنْ قَبْلِ الكُؤِيسِ عَلَيْهِمَ - فما أَسْطَعْنَ أَنْ يُحَدِّثَنَّ فَيْكَ تَسَكَّرُ مَا
 وقال أبو نُوَاسٍ :
 قَتَى لَا تُنْدِيبُ الخمرُ شَحْمَةَ مَالِهِ وَلَكِنْ أَيْادِ عُوذٍ وَبَوَادِي^(٣)
 وقال المتنبي :

(١) صفيق : جيد النسيج (٢) صدر بيت لعنترة وتامه :

* أم هل عَرَفْتَ الدار بعد توهم *

وهذا البيت مطلع معلقته ، يقول لعنترة : إن الشعراء قد سبقونا إلى القول ، فلم يدعوا
 مجالاً لقاتل ، والمتردم فى الأصل : الموضع الذى يرقع ويستصلح
 (٣) شحمة ماله : أطيه ، وقوله : ولكن أباد عوذ وبوادي ، يقول : ولكنه يعطى
 عطاياها قبل الخمر وبعد الخمر ودائماً ، فعطاياها تبتدأ وتعاد

لا تَجِدُ الخِرُّ في مَكَرِهِ إِذَا انْتَشَى - خَلَّةٌ تَلَا فَاهَا ^(١)

والأصل في هذا قول عنبرة في معلقته:

وَإِذَا صَحَّوتُ فَمَا أَقْصِرُ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَمَلَيْتِ شِمَائِلِي وَتَكَرُّمِي

وقال زهير:

أخو رِثَّةَ لَا تُهْلِكُ الخِرُّ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُمْلِكُ المَالَ نَائِلُهُ

وقد غَضُوا من قول عمرو بن كلثوم:

✽ إِذَا مَا المَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا ^(٢) ✽

ومعنى ذلك كله أنهم لا يعدون جود السكران جوداً، وإنما الجود عندهم ما كان من كرم نظري لا تبيته خمر وما يشبه الخمر، وإذا هم وصفوا الخمر بأنها تورث شاربها شيئاً يشبه الكرم، فذاك من باب استقصائهم لمعاني الخمر وما تحديته في شاربها، كما قد سيمر بك في بابه...

ولقد سميت مكارم الأخلاق بكثير من ذوى الأريحية إلى أنهم لا يقطعون نواهم عنم يعضبون عليهم ويبيس السرى بينهم، وقد روى في ذلك أن

(١) الخلة: الخصلة والثلة، وتلافاها - بحذف إحدى التامين: تلافاها، أى

تتداركها

(٢) عجز: بيت من معلقته وصدوره:

✽ مُشَعَّشَةً كَأَنَّ الخِصَّ فِيهَا ✽

يصف الخمر يقول: اسقنى الخمر مشعشة، أى بمزوجة بالماء، فإنها من شدة حررتها كأنما ألتى فيها الخص وهو الورس - نبات أحمر يشبه الزعفران - وإذا شربناها وسكرنا جردنا بعقائل أموالنا وسممنا بذخائر أعلاقنا، فسرخينا: فعل من سخى يسخى سخاء - وهذه لغة - ولغة فيها وهى سخا يسخو سخاوة، وثالثة وهى سخو يسخو - ويجوز أن تكون سخينا صفة ومعناها الحار فيكون المعنى: كأنها حال امتزاجها بالماء وكون الماء حاراً تور هذا الثبت، وإذن فلا مطعن عليه

بعض النبلاء كان يُجرى على رجلٍ شيئاً ، ثم غَضِبَ عليه ، وحدث أن كتب
أبْنُه إطلاقاتٍ ، ورفعت إليه الإطلاقاتُ ، وترك اسمَ المغضوبِ عليه ، فقال له
أبوه : فأين ذِكْرُ رِزْقِ فلانٍ ؟ فقال : إنَّكَ قد كنتَ غَضِبتَ عليه ، فقال :
يا بُنَيَّ ، غَضِبي لا يُسْقِطُ هِيبَتِي ... إنَّ أباك لا يَغْضَبُ في النِّوَالِ ...

وحثَّ المحتاجينَ المغضوبِ عليهم كانت أنفسهم كريمةً أئيبَةً ، فقد رُوِيَ
أنَّ بعضهم كان يُجرى على رجلٍ شيئاً ، فغَضِبَ عليه ، فقطَّعه ، ثم رَضِيَ عنه
فردَّه ، فأبى الرجل أن يَقْبَلَه وقال : إنِّي كنتُ أُظنُّ أن عطاءه مكرمةٌ ؛ فأما
وقد صار غضبه يقطعه ، فلا حاجة لي فيه ... وكذلك بآغت بهم مكارمُ
الأخلاق أن يُعطوا المُعْتَفِينَ ، أكانوا فقراء أم أغنياء ، فلا يَحْضُون ،
وقد رُوِيَ في الخبر : أعطوا السائل ولو جاء على فرس ، وروى أيضاً :
كلُّ معروفٍ صدقة ، لغني أو فقير ؛ ويُشبهون من هذا حاله بالغيث ، قال
ابن المعتز :

ويُصيب بالجدود الفقيرَ وذا الغني كالغيثِ يسقى مُجديبا ومرِيعا
وقال المتنبي :

ويَدُّ لها كرمُ الغمامِ لانه يسقى العمارَةَ والمكانَ البلقما

وكذلك تساموا وبلغوا من عبقرية الروح أن صاروا يُعدون الانخداع
عن المال والتبأله في ابتذاله كرمًا ، وقالوا : إنَّ السكريم إذا ما خادَعته
انخدعا ... وفي ذلك يقول البحترى :

وإذا خادَعته عن ماله عرف المسلك فيه فانخدع

ويقول :

وقد يتغابى المرء عن عظم ماله ومن تحت رُذِيَةِ الْمُغْيِرَةِ أَوْ عَمْرُو
 « المغيرة : هو المغيرة بن شعبة ، وعمرو : هو عمرو بن العاص وكانا من
 الدهاة ، ... وقيل لبعضهم : ما الشرف ؟ فقال : الانخداع عن المال ، ولا تجد
 أحداً يتخافل عن ماله إلا وجدت له في قلبه فضيلة لا تقدر على دفعها ،
 وقد أدبنا نبينا صلى الله عليه وسلم بقوله : رحم الله سهلَ البيع سهلَ الشراء ،
 وهذا خلاف قول الناس : المَغْبُون غير محمود ولا مأجور ، وقد قال صلى
 الله عليه وسلم : أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ ؟ قالوا : بلى يا رسول
 الله ، قال : التَّخَابُنُ لِلضَّعِيفِ ... ومما يروى في هذا الباب ما أورده ابن
 خلكان في ترجمة الوزير الخطير أبي الحسن علي بن الفرات وزير المقتدر بالله
 ابن المعتض بالله العباسي - وكانت وفاته سنة ٣٢٧ هـ - وهو : أن رجلا اتصلت
 عُظْلَتُهُ ، وانقطعت مادته ، فزور كتابا من أبي الحسن بن الفرات إلى أبي
 زُنْبُورِ المارداني عامل مصر ، يتضمن الوصاة به والتأكيد في الإقبال عليه
 والإحسان إليه ، وخرج إلى مصر ، فلقينه به ، فارتاب أبو زُنْبُورِ في أمره
 لتغير الخطاب على ماجرت به العادة ، وكون الدعاء أكثر مما يقتضيه محله
 فراعاه مراعاةً قريبةً ووصله بصلةً قليلةً ، واحتبسَه عنده على وعدٍ وعدَه به
 وكتب إلى أبي الحسن بن الفرات يذكر الكتاب الوارد عليه ، وأنفذه بعينه
 إليه ، واستثبته فيه ، فوقف ابنُ الفرات على الكتاب المزور ، فوجد فيه
 ذكرَ الرجل وأنه من ذوى الحُرُمات والحقوق الواجبة عليه ، وعرضه على
 كتابه وعرفهم الصورة فيه وسمح إليهم منها ومما أهدم عليه الرجل ، وقال
 لهم : ما الرأي في أمر هذا الرجل عنكم ؟ فقال بعضهم : تأديبه أو حبسه ،
 وقال آخر : قطع إهابه لئلا يعاود مثل هذا ، ولئلا يقتدى به غيره فيما هو

أكثر من هذا، وقال أجمعهم محضراً : يُكشَفُ لأبي زُنْبُورِ قصتهُ، ويُرْسَمُ له طَرْدُهُ وِحْرمانه، فقال ابن الفرات : ما أبعَدَكم من الحرية والخيرية : وأنقرَ طباغكم عنها ! رجل تَوَسَّلَ بنا وتحَمَّلَ المشقةَ إلى مصر في تأميل الصلاح بجاهنا، واستمداد صنْعِ الله عز وجل بالانقسام إلينا، ويكون أحسنُ أحواله عند أحسنكم محضراً تكذيب ظنِّه وتخيب سَعْيِهِ ! والله لا كان هذا أبداً، ثم إنه أخذ القلم من دواته ووقع على الكتاب المزور : هذا كتابي، ولست أعلم لم أنكرت أمره واعترضتكَ شبهة فيه ! وليس كلُّ من خَدَمنا وأوجب حقاً علينا تعرفه ! وهذا رجل خَدَمني في أيام نكبتني، وما أعتقده في قضاء حقه أكثر مما كَفَّفْتُكَ في أمره من القيام به، فأحسن تفقُّده ووفَّرَ رِفْدَهُ وصَرَّفَهُ فيما يعود عليه نفعه ... ورَدَّهُ إلى أبي زُنْبُورِ من يومه ؛ فلما مضت على ذلك مدة طويلة دخل على أبي الحسن بن الفرات رجل ذو هيئة مقبولة ويزة جميلة، وأقبل يدعو له ويثني عليه ويكي ويُقَبِّلُ الأرض، فقال له ابن الفرات : من أنت بارك الله فيك ! - وكانت هذه كلمته - فقال : صاحب الكتاب المزور إلى أبي زنبور، الذي صحَّحه كرمُ الوزير وتفَضُّله، فعل الله به وصنع، فضحك ابن الفرات، وقال : كم وصل إليك منه ؟ قال : وصل إلي من ماله ومما قسَّطه على عماله وعميلٍ صرفتني فيه، عشرون ألف دينار، فقال ابن الفرات : الحمد لله، الزمنا، فإننا نعرِّضك لما يزدادُ به صلاحُ حالِكِ، ثم اختبره فوجده كاتباً أميناً، فاستخدمه وأكسبه مالا جزيلاً ...

قِرَى الأضياف

وهناك لون من ألوان الجود، لقد أكثروا فيه القول وافتتوا، وأطالوا في التفاخر به والإشادة بمحاسنه، وجعلوه عنوان الكرم والتجدة والمروءة ووضعوا له آداباً ودرساتير. ذلك هو قِرَى الأضياف، ونحن فإننا نختار ذرواً من عقرياتهم في هذا المعنى. وفيما يتأشب إليه ويتشعب منه والله المستعان ...

معنى قِرَى الضيف: قال علماء اللغة: يقال: قِرَى الضيف قِرَى وقراء: أضافه وأحسن إليه، واستقراني واقتراني وأقراني: طلب منى القِرَى، وإنه لَقِرَى للضيف، والآثى قِرَى، وكذلك: إنه لَمِقِرَى للضيف ومِقراء، والآثى مِقراءة ومِقراء ...

«وأما بعد، فقد قلنا في البخل إنه جِسْلَةٌ وإنه الأصلُ وإن الناس لقد حُلِقُوا بخلاء، إلى آخر ما قلنا صدرَ هذا الباب، وهذا الذي قلنا يقال في قِرَى الأضياف، وأن الأصل هو البُخْلُ بالقِرَى؛ فلنورد عليك شيئاً مما قالوا في البخل بالقِرَى ثم تردفه بالقول على الجود بالقِرَى وحثهم عليه، والكلام يدخل بعضه في بعض .

طَرَفٌ مِنْ مَلِحِهِمْ فِي ذَلِكَ: قال بعض البخلاء لغلامه: هاتِ الطعام، وَأَغْلِقِ الباب، فقال الغلام: يا مولاي، ليس هذا بحزم وإنما أَغْلِقُ الباب، وَأَقْدِمِ الطعام، فقال له: أَنْتِ حُرٌّ لَوْجِهَ اللَّهِ... وطبخ بعض البخلاء قِدْرًا، وجلس يأكلُ مع زوجته فقال: ما أَطْيَبَ هذا الطعام لولا كثرة الزَّحَامِ! فقالت: وأى زحام وما تَمَّ إلا أنا وأنتِ! قال: أَحِبُّ أَنْ

أكون أنا والقدر ... وعزم بعض إخوان أشعب عليه لياكل عنده ، فقال :
 اتى أخاف من ثقيل يأكل معنا فينقص لذتنا ، فقال : ليس عندي إلا ما يحب ،
 فضى معه ، فبينما هما يأكلان ، إذا بالباب قد طرق ، فقال أشعب : ما أرانا إلا
 قد صرنا لما نكره ، فقال صاحب المنزل : إنه صديق لى : وفيه عشر خصال
 إن كرهت منها واحدة لم آذن له ، قال أشعب : هات ، قال : أولها أنه
 لا يأكل ولا يشرب ، فقال : التسع لك ودعه يدخل ، فقد أمنا منه ما يخافه ...
 وأكل رجل مع بعض البخلاء ، وكان على مائدته أرغفة هنا وهناك ، فلما
 فرغ من رغيفه قال : يا غلام ، قيسى ، فقال الداعى البخيل : وما تصنع به ؟
 قال : أركبه إلى ذلك الرغيف ... وحدث أبو نواس قال : قلت لرجل من
 أهل خراسان : لم تأكل وحدثك ؟ قال : ليس على فى هذا الموضع سؤال ،
 إنما السؤال على من أكل مع الجماعة ، لأن ذلك تكلف ، وأكل وحيدى هو
 الأكل الأصلى ... وأضاف رجلاً أعرايياً ، فلم يأت به بشيء يأكله حتى غشى
 عليه من الجوع ، فأخذ يقرأ عليه القرآن ، فقال :

لَحَبِزُ يَا أُنْحَى عَلَيْهِ لَحْمٌ أَحَبُّ إِلَىَّ مِنْ حَسَنِ الْقُرْآنِ

تَظَلُّ تُذْهِدُهُ الْقُرْآنَ حَوْلِي كَأَنِّي مِنْ عَفَارِيَتِ الزَّمَانِ

وقيل للجماز : من يحضر مائدة فلان ؟ فقال : أكرم تخلق الله : الكراه
 الكاتبون ... واصطحب رجلان فقال أحدهما للآخر : تعال حتى تأكل
 معاً ، فقال : معى خبز ومعدك خبز ، فلولا أنك تريد الشر لا أكلت وحدك ...
 وقيل لآخر : ألا تأكل معنا ؟ فقال : الجماعة بجماعة ... ودخل على
 ابن لرجل من الاشراف داخل وبين يديه فراريج ، فغطى الطبق بمنديله
 وأدخل رأسه فى جيبه وقال للداخل عليه : كن فى الحجرة الأخرى حتى

أَفْرَغَ مِنْ بَحْورِي ... وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ يَوْمًا وَالْمَائِدَةُ مَوْضُوعَةٌ
وَالْقَوْمُ يَأْكُلُونَ وَقَدْ رَفَعَ بَعْضُهُمْ يَدَهُ ، فَسَدَّ يَدَهُ لِيَأْكُلَ ، فَقَالَ : أَجْهَزُ عَلَى
الْجِرْحِي ، وَلَا تَتَعَرَّضُ لِلْأَصْحَاءِ ... « يريد : كُلُّ مَا كَسِرَ وَنِيلَ مِنْهُ وَلَا
تَعْرِضْ إِلَى الصَّحِيحِ ، وَرَأَى رَجُلٌ الْخَطِيئَةَ - الشَّاعِرُ الْمَخْضَرُمُ الْعَبْقَرِيُّ اللَّثِيمُ -
وَيَدُهُ عَصًا فَقَالَ : مَا هَذِهِ ؟ قَالَ : عَجْرَاءٌ مِنْ سَلَمٍ ^(١) ، قَالَ : إِنِّي ضَيْفٌ ، قَالَ :
لِلضَّيْفَانِ أَعْدَدْتُهَا ... وَوَصَفَ أَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : أَلْعَوَا مِنَ الصَّلَاةِ الْآذَانَ ،
خِيفَةَ أَنْ تَسْمَعَهُ الْآذَانَ ، فَيُهْلَ عَلَيْهِ الضَّيْفَانُ ... وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ شَاعِرٌ :
تَرَاهُمْ خَشِيَةَ الْأَضْيَافِ حُرْسًا يقيمون الصلاة بلا أذانٍ

* * *

وَكَانُوا يَعُدُّونَ أَنْ يَبِيَّتَ الرَّجُلُ شَبْعَانَ وَجَارَهُ جَوْعَانُ ، عَارًا وَشَتَارًا
وَلَوْ مَا وَنَذَالَةً ، وَيَتَهَاجُونَ بِذَلِكَ ، وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هَذَا قَوْلُ الْأَعشى -
مِيمُونَ بْنِ قَيْسٍ - فِي عِلْقَمَةَ بْنِ عَلَاتَةَ :

تَبِيْتُونَ فِي الْمَشْتَى مِلَاءَ بُطُونِكُمْ وَجَارَاتِكُمْ غَرْتِي يَبِينَنَّ خَمَائِصًا ^(٢)
وَقَوْلُ بِيْشَارِ بْنِ بُرْدٍ :
وَضَيْفٌ عَمِرُوا وَعَمِرُوا يَسْهَرَانِ مَعًا عَمِرُوا لِبِطْنَتِهِ وَالضَّيْفُ لِلْجُوعِ
وَقَالَ شَاعِرٌ :

وَجِيرَةٌ لَا تَرَى فِي النَّاسِ مِثْلَهُمْ إِذَا يَسْكُونُ لَهُمْ عِيدٌ وَإِفْطَارُ
إِنْ يُوقِدُوا يُوسِعُونَ مِنْ دُخَانِهِمْ وَلَيْسَ يَبْلُغُنَا مَا تُنْضِجُ النَّارُ

* * *

وَمِنْ مَاجِهِمْ فِيمَنْ لَا يُظْفَرُ بِحُبْرِهِ . قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ :

(١) الْعَجْرَاءُ : الْعَصَا الَّتِي فِيهَا أُرْبُ - عَقْدٌ - ، وَالسَّلْمُ : شَجَرٌ
(٢) رَوَوْا أَنَّ عِلْقَمَةَ لَمَّا سَمِعَتْ هَذَا الْبَيْتَ قَالَ : فَضَحِنِي وَأَنْتَ ، اللَّهُمَّ أَخْزِهِ إِنْ لَمْ
يَكُنْ صَادِقًا ، وَغَرْتِي : جَانِعَاتٌ ، وَمِثْلُهُ خَمَائِصُ

وما حُبِّبَهُ إِلَّا كَعَنْقَاءِ مُغْرَبٍ ^(١) مُصَوَّرٌ فِي بُسْطِ الْمَلُوكِ وَفِي الْمَثَلِ
وقال الآخر :

قَدْ فَرَّ مِنْ مَنزِلِهِ فَأُرَهُ وَعَادَ بِالْجِيرَانِ مَرْتَقَا
وهذا من قول امرأة لزوجها : والله ما يقيم القار في دارك إلا لحب
الوطن ، وقد تقدم أنفا ... وقيل لبخيل : إنك تُتَكْرِمُ خَبْرَكَ وَهَيْنُ
لِإِكْرَامِهِ نَفْسِكَ ا فَقَالَ : كَيْفَ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ وَالْحَبِزُ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ آدَمَ
وَحَوَاءَ وَإِبْلِيسَ وَالطَّائِفُ مِنَ الْجَنَّةِ ... وَتَغْدَى الْجَزَاءُ عِنْدَ هَاشِمِيٍّ ، فَمَرَّ الْغَلَامُ
بِصَحْفَةٍ يَقَطُرُ مِنْهَا قَطْرَةٌ عَلَى ثَوْبِ الْجَمَّازِ ، فَقَالَ الْهَاشِمِيُّ : آتَيْتَهُ بِطُسْتٍ يَغْسِلُهَا ،
فَقَالَ الْجَمَّازُ : دَعَهُ ، فَرَقَّتْكُمْ لَا تُغَيِّرُ الثِّيَابَ ... « يريد : لادسَمَ فيها »

تفاخرهم بالإحسان إلى الضيف والجار : ولأنهم يعدون شجع المرء
وجارهُ جائع ، عارا - كما تقدم - تراهم يتفاخرون يا كرام الضيف والجار ،
ومن أحسن ما قيل في ذلك قول عروة بن الورد :
وَإِنِّي أَمْرٌ عَافٍ إِنَائِي شِرْكَةٌ وَأَنْتَ أَمْرٌ عَافٍ إِنَائِكَ وَاحِدٌ

(١) عنقاء مغرب وعنقاء مغرب . وعنقاء مغربة : طائر معروف الاسم مجهول
الجسم ، قال ابن الكلبي : كان لأهل الرس نبي يقال له حنظلة بن صفوان ، وكان
بأرضهم جبل يقال له دحج مصعده في السماء ميل ، فكان ينتابه طائفة كأعظم ما يكون
لها عنق طويل ، من أحسن الطير ، فيها من كل لون ، وكانت تقع منقضة فكانت
تنقض على الطير فتأكلها فجاءت وانقضت على صبي فذهبت به فسميت عنقاء مغربا
لأنها تغرب - تبعد - بكل ما أخذته ، ثم انقضت على جارية ترعرت وضمتهما إلى
جناحين لها صغيرين سوى جناحيها الكبيرين ، ثم طارت بها فشكوا ذلك إلى نبيهم ،
فدعا عليها فسلط الله عليها آفة فهلكت ، فضربت بها العرب مثلا في أشعارها ويقال :
ألوت به العنقاء المغرب ، وطارت به العنقاء ...

أَقْسَمُ جِسْمِي فِي جَسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قَرَّاحَ الْمَاءِ وَالْمَاءَ بَارِدُ
 « العاقى : طالب المعروف ، يريد بالبيت الأول : أنه ليس من شرار
 الناس يأكل وحده ، وقوله : والماء بارد : كنى بذلك عن تحمله ضرر نفسه
 وعبارة بعض الشراح : يقول عروة : إن قوته الذى هو قوام رَمَقِهِ وَمُقِيمِ
 جِسْمِهِ ، يطعمه ويؤثر به على نفسه ، وأنه عند الجهد وشدة الزمان يحسُو
 الماء وَيَسْقَى اللبَنَ ، فإنما رَغْبَةُ الجِوَادِ فِي المَالِ لِيَهَبَهُ ، وَطَلْبُهُ لَهُ لِيُنْهَبَهُ . »
 وفي هذا المعنى يقول مسكين الدارمي - وهو شاعر شجاع من أهل العراق
 كان في زمن معاوية بن أبي سفيان - :

إِن أَدَعُ مِسْكِينًا فَمَا قَصَّرْتُ قَدْرِي بِيُوتِ الحَيِّ وَالْجُدْرُ (١)
 مَامَسَ رَحْلِي العَنَكِبُوتُ وَلَا جَدْيَاتُهُ مِنْ وَضَعِهِ عُيْرُ (٢)
 لَاأَخَذُ الصَّيَّانَ أَلْتَمُّهُمْ وَالْأَمْرُ قَدْ يُغْزَى بِهِ الْأَمْرُ (٣)
 وَلَرَبِّ أَمْرٍ قَدْ تَرَكْتُ وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَ لِقَائِهِ سِئْرُ
 لَا يَزْهَبُ الجِيرَانُ عَدْرَتَنَا حَتَّى يُوَارِيَ ذِكْرَنَا القَبْرِ

(١) قوله فما قصرت قدرى الخ : فيبوت فاعل قصرت ، يقول : إن قدرى بارزة
 لاتحجبها السوار والخيطان ، يصف نفسه بأنه مضياف جواد محسن إلى جيرانه
 (٢) قوله مامس رحلي العنكبوت الخ : كناية مليحة عن مواصلته السير لأن
 العنكبوت إنما ينسج على مالا تناله الأيدي ولا يكثر استعماله ، والجديات جمع جدية
 يسكون الدال وهي باطن دقة الرحل ، يقول : إن جديات رحله ليست غبراء
 لكثرة ترحاله

(٣) يقول : لأقبل الصبي وأنا أريد التعرض لأمه ، وما أحلى قوله : والإمر قد
 يغزى به الأمر . ويغزى : يقصد ، ومثل هذا قول عقيل بن علفة :

وَلَا أَلْفِي لِذِي الوَدَعَاتِ سَوَاطِي أَلْعَبُّهُ وَزَلَّتْهُ أَرِيدُ
 وزلته يروى وغزته يروى ورببته ، والأعبه يروى لآلهيه . وللشعراء في هذا المعنى
 كثير ، وهو معنى يدل على أن العرب غاية في الفطنة ودقة الملاحظة وأنهم لا يتخذهم

كُنَّا كَأَفْوَامٍ إِذَا كَلَّحَتْ إِحْدَى السَّنِينَ جَارُهُمْ تَمْرٌ^(١)
 مَوْلَاهُمْ لَحْمٌ عَلَى وَضْمٍ^(٢) تَلْتَابُهُ الْعِيقَابُ وَاللَّسْرُ
 نَارِي وَنَارُ الْجَارِ وَاحِدَةٌ وَإِلَيْهِ قَبْلِي تُنْزَلُ الْقِدْرُ^(٣)
 مَا ضَرَّ جَارِي إِذْ أَجَاوَرُهُ أَنْ لَا يَكُونُ لَبِيئَتِهِ سِتْرُ
 أَعْشَى إِذَا مَا جَارَتِي حَخَّرَجَتْ حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي الْحِدْرُ^(٤)
 وَيَصْمُ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا سَمِعِي وَمَا بِي غَيْرُهُ وَقُرُ^(٥)

ظواهر الأمور عما تخفى وراءها . وغواة الناس إلى يومنا هذا قد استغلوا هذا المعنى استغلالا مكشوفاً بجهنم الله .

(١) جَارُهُمْ تَمْرٌ : أى يستحلى الغدر به كما يستحلى التمر
 (٢) الوضْمُ : خشبة الجزار التي يقطع عليها اللحم، وتركهم للحما على وضْمٍ : أى أذلم
 (٣) يروى أنه كان لمسكين هذا امرأة تماضه - تلاحيه وتنازعه - فلما قال : ناري
 ونار الجار واحدة قالت له : أجل ، إنما ناره ونارك واحدة لأنه أوقد ولم توقد، والقدر
 تنزل إليه قبلك ، لأنه طبخ ولم تطبخ وأنت تستطعمه، ولما قال أن لا يكون لبيته ستر
 قالت له : أجل ، إن كان له ستر هتكته
 (٤) من دقائق هذه اللغة ما قاله صاحب الكشاف في تفسير قوله تعالى : ومن يعش
 عن ذكر الرحمن ، قال : بضم الشين وفتحها ، والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة في
 بصره قيل عَشَى - أى والمضارع يعشى ، وإذا نظر نظر العشى ولا آفة به قيل عشا -
 والمضارع يعشو - ونظيره عرج لمن به آفة وعرج لمن مشى مشية العرجان من غير
 عرج قال الحطيئة :

مَتَى تَأْتِيهِ تَعَشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرٌ مَوْقِدٍ

أى تنظر إليها نظر العشى لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء، فمعنى
 الفتح : ومن يعم عن ذكر الرحمن وهو القرآن، وأما القراءة بالضم فمعناها ومن يتعام
 عن ذكره ، أى يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغابي . (٥) القر : الثقل فى الأذن

وصية بخيل لابنه

وهالك وصية بخيل لابنه أراد بها أن ينصَح ابنه بالتقليل من الطعام، شحاً وكزازة، ولكنه أودعها على الرغم منه نصائح قيمة يجمل أن تتخذ دستوراً في الطعام لمن أراد أن يصح ويُعافى، فهي حق أريد بها باطل، ومن ثم اخترناها، وهي وصية جاحظية أوردها الجاحظ في كتابه البخلاء ونسبها إلى رجل يسمى أبا عبد الرحمن الثوري كان يحب الرؤس - رؤس الضأن وغير الضأن - قال الثوري لابنه - :

إياك ونَهَمَ الصَّيَّانِ^(١)، وَشَرَّةَ الزَّرَّاعِ^(٢)، وَأَخْلَاقَ النُّوَامِحِ^(٣) وَدَخَ عَنكَ خَبْطَ الْمَلَّاحِينَ وَالْفَعْلَةَ^(٤) وَنَهَشَ الْأَعْرَابِ وَالْمَهْنَةَ^(٥). وَكُلْ مَا يَبِينُ بِدَيْكَ؛ فَإِنَّمَا هُوَ حَقُّكَ الَّذِي وَقَعَ لَكَ، وَصَارَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ؛ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي الطَّعَامِ شَيْءٌ طَرِيفٌ، وَلُقْمَةٌ كَرِيمَةٌ، وَهُضْمَةٌ شَهِيَّةٌ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ لِلشَّيْخِ الْمُعْظَمِ، وَالصَّبِيِّ الْمُدَلَّلِ. وَلَسْتَ وَاحِداً مِنْهُمَا. فَأَنْتَ قَدْ تَأَنَّى الدَّعَوَاتِ

(١) النهم: إفراط الشهوة في الطعام (٢) الشره: غلبة الحرص على الطعام. وإنما خص شره الزراع لأنهم أهل كد ونصب وحركة فيشربون إلى الطعام لفرط ما يذولون من قوam البدنية (٣) النوامح جمع نائمة: اسم يقع على النساء يجتمعن في مناحة، ولعله يريد أن النوامح ينحن ما ينحن فإذا حضر الطعام أقبلن عليه شرهات ونسبن ما كن فيه من بكاء وعويل (٤) الملاح: نوق السفينة، والخبط: السير على غير هدى، والفعله: عملة الطين ونحوه. يقول: لا تذهب في الطعام على غير هدى. كالملاحين، ولا تكن عنيفاً في أكلك كما تفعل الفعلة (٥) يقول: لا تنهش اللحم كما ينهشه الأعراب الجفأة وكما ينهش المهنة: جمع ما هن، وهو العبد الخادم

والولائم، وتَدْخُلُ منازلَ الإخوانِ، وعهدُكُ بِاللَّحْمِ قَرِيبٌ. وإخوانُكُ أَشَدُّ قَرَمًا إِلَيْهِ مِنْكَ، وإنما هو رأس واحد، فلا عليك أن تتجافى عن بعض وتُصِيبَ بعضاً. وأنا - بعدُ - أكره لك الموالاةَ بين اللحم، فإن الله يُبْغِضُ أَهْلَ البيتِ اللَّحْمِيِّينَ^(١) وكان يقول: إياكم وهذه المجازيرُ فإن لها ضراوةَ كضراوةِ الخمرِ^(٢) وكان يقول: مُدْمِنُ اللحمِ كمدْمِنِ الخمرِ. وقال الشيخ - ورأى رجلاً يأكلُ اللحمَ، فقال: لحمٌ يأكلُ لحمًا... أفٍ لهذا عملاً!

وقال الأولُ: أَهْلَكَ الرَّجَالُ الْأَخْمَرَانِ: اللحمُ والخمرُ، وأهلك النساءُ الأحمرانِ الذهبُ والزعفرانُ^(٣)... أى بُنى، عَوْدَ نَفْسِكَ الْآثَرَةَ^(٤)، ومجاهدةَ الهوى والشهوة. ^(٥) ولا تنهش نهش الأفاعي، ولا تخضم تخضم البراذين^(٦)، ولا تُدِيمِ الأكلَ لإدامةِ النعاجِ، ولا تَلْتَمِمْ لِقَمَ الجبالِ، إن

(١) هذا حديث أورده ابن الأثير في النهاية هكذا: إن الله ليُبغض أهل البيت اللحمين، قيل هم الذين يكثرون أكل لحوم الناس بالغبية: وقيل: هم الذين يكثرون أكل اللحم ويدمنونه، وهو أشبه...

(٢) في اللسان: وفي حديث عمر: اتقوا هذه المجازير فإن لها ضراوة كضراوة الخمر، أراد مواضع الجزارين التي تنجر فيها الإبل وتذبح البقر والشاة ويبيع لحمها وإنما نهام عنها لأنه كره لهم إدمان أكل اللحم، وجعل لها ضراوة كضراوة الخمر، أى عادة كعادتها، لأن من اعتاد أكل اللحم أسرف في النفقة فجعل العادة في أكل اللحم كالعادة في شرب الخمر، لما في الدوام عليها من السرف في النفقة والفساد

(٣) فالذهب للحلية والزعفران للتطيب

(٤) الآثرة: اسم مصدر من أثر يؤثر إثارة، أى عود نفسك أن تؤثر غيرك على نفسك (٥) ومجاهدة الخ: إقما أنه يريد المعنى العام وإما يريد: لا تطلق لنفسك العنان فيما تشتهيه وتهواه من ألوان الطعام (٦) الخضم: الأكل بجميع القم والبراذين: جمع برذون كفرعون وهو من الخيل العظيم الخائفة الجافها الغليظ الأعضاء

اللَّهُ قَدْ فَضَّلَكَ ، لِحُجْعِكَ إِنْسَانًا ؛ فَلَا تَجْعَلْ نَفْسَكَ بِهَيْمَةً وَلَا سَبْعًا ، وَأَحْذَرُ
سُرْعَةَ الْكِبْطَةِ ^(١) ، وَسَرَفَ الْبِطْنَةِ ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحِكَمَاءِ : إِذَا كُنْتَ يَاطِينًا
فَعَدَّ نَفْسَكَ فِي الزَّمَنِ ^(٢) . وَقَالَ الْأَعْمَشِيُّ :

• وَالْبِطْنَةُ مِمَّا تُسْفَهُ الْأَحْلَامَ ^(٣) •

وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّيْخَ دَاعِيَةَ الْبِشْمِ ^(٤) ، وَأَنَّ الْبِشْمَ دَاعِيَةُ السَّقَمِ ، وَأَنَّ السَّقَمَ
دَاعِيَةُ الْمَوْتِ . وَمَنْ مَاتَ هَذِهِ الْمِيْتَةَ فَقَدْ مَاتَ مِيْتَةَ لَيْثِمَةٍ . وَهُوَ قَاتِلُ نَفْسِهِ ،
وَقَاتِلُ نَفْسِهِ أَلْوَمٌ مِنْ قَاتِلِ غَيْرِهِ ^(٥) أَيْ بُنَى ، إِنَّ الْقَاتِلَ وَالْمَقْتُولَ فِي النَّارِ ^(٦)
وَلَوْ سَأَلْتَ حُدَاقَ الْأَطْبَاءِ لِأَخْبِرُوكَ أَنَّ عَامَّةَ أَهْلِ الْقُبُورِ إِنَّمَا مَاتُوا بِالْتَّخْمِ
وَأَعْرِفْ خَطَأً مَنْ قَالَ : أَلْكَلْتُ وَمَوْتُهُ أَوْخَذَ بِقَوْلٍ مِنْ قَالَ : رَبِّ أَلْكَلَةٍ تَمْنَعُ
أَكْلَاتٍ ^(٧) . وَقَدْ قَالَ الْحَسَنُ - الْبَصْرِيُّ - : يَا ابْنَ آدَمَ كُلْ فِي ثَلَاثِ بَطْنِكَ ، وَاشْرَبْ فِي
ثَلَاثِ بَطْنِكَ ، وَدَعْ الثُّلُثَ لِلتَّفَكُّرِ وَالتَّنْفِيسِ . وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيِّ ^(٨) :
مَا وَجَدْتُ طَعْمَ الْعَيْشِ حَتَّى اسْتَبَدَلْتُ الْخُمُصَ بِالْكِبْطَةِ ^(٩) ، وَحَتَّى لَمْ أَلْبَسْ مِنْ

(١) الكبظة : الامتلاء من الطعام ، وسرعة الكبظة أن يسرع إليه الامتلاء وهو لا يزال
يتناول الطعام فيتفاقم عليه الأمر

(٢) البطين : عظيم البطن من كثرة ما يأكل . والزمنى : ذؤوب المعامات الذين يدوم
مرضهم زمناً طويلاً (٣) الأحلام : العقول وتسفه الأحلام : تطيشها والبيت :

يأبى المنذر بن عبدان والبطن سنة مما تسفه الأحلاما

(٤) البشم : التخمة من كثرة الأكل (٥) ألوم من قاتل غيره : أحق منه
بأن يلام (٦) يقول : إن من مات بالتخمة فقد قتل نفسه فهو قاتل ومقتول في
وقت معاً فهو في النار على رأيه

(٧) أى لما ينشأ عنها من الأمراض (٨) كان من أفاضل التابعين صالحاً
تقياً قال الجاحظ : وكانوا إذا ذكروا البصرة قالوا : شيخنا الحسن وقتاها بكر ...

مات سنة ١٠٨ هـ (٩) الخمص : الجوع أى حتى اتخذت الجوع بدل الكبظة

ثيابي ما يستخدمني^(١)، وحتى لم أكل إلا ما لا أغسل يدي منه يا بُنَيَّ، والله ما أدى حقَّ الرُّكوع، ولا وظيفة السجود، ذر كِظَّة، ولا خَشَعَ اللهُ ذو بطنته^(٢)، والصوم مَصْحَةٌ^(٣)، والوَجَبَاتُ عيش الصالحين^(٤)، ثم قال: لا مَرِيَّ مَا^(٥)، طالت أعمارُ الهند^(٦)، ونَحَّتْ أبدانُ الأعراب. اللهُ دَرُّ الحارث بن كَلْدَةَ^(٧)، حين زعم أن الدواء هو الأزم^(٨)، وأن الداء هو إدخال الطعام في أثر الطعام! أي بُنَيَّ لِمَ صَفَّتْ أذهان العرب؟ ولم صدقت أحساسُ الأعراب^(٩)، ولم صَحَّتْ أبدان الرُّهبان، مع طول الإقامة في الصوامع؟ وحتى لم تَعْرِفِ النَّقْرَسَ، ولا وجع المفاصل، ولا الأورام؛ إلا لقلة الرُّزءِ^(١٠) من الطعام، وخِيفَةَ الرَّأْدِ، والتبُّلُّغَ باليسير^(١١)

أي بُنَيَّ، إن نسيم الدنيا وروح الحياة^(١٢) أفضل من أن تبيتَ كظيظا،

- (١) يستخدمني: أي يجعاني خادما له أي بالمحافظة عليه، لأنه ثمين
 (٢) يقول: إن المعنى طعاما لا يمكن أن يركع في الصلاة تمام الركوع ولا أن يسجد تمام السجود، والخشوع وتفريغ القلب لله تعالى لا يكون مع التخمّة والعناء منها
 (٣) مصحّة: يصح عليه (٤) الوجبات جمع وجبة وهي الأكلة الواحدة في اليوم والليلة
 (٥) لا مري ما: أي لا مَرٍ عظيم (٦) أي أعمار أهاها (٧) طيب العرب سافر إلى فارس وتعلم هناك الطب واشتهر فيه ونال به مالا وأدرك الإسلام
 (٨) أزم، من باب ضرب: أمسك عن الطعام والمشرب روى أن عمر بن الخطاب سأل الجرث بن كلدّة عن الطب، فقال: هو الأزم، يعني: الحمية
 (٩) الأحساس جمع حس وهو الشعور بالشيء (١٠) الرزء هنا: ما يصيبه الإنسان من طعام (١١) التبُّلُّغ باليسير: الاكتفاء به (١٢) روح الحياة: راحتها وما يستروح إليه

وأن تكون لِقِصْرِ العُمُر حليفاً . وكيف لا ترغب في تدبيرٍ يجمعُ لكِ صحَّةَ
البدن ، وذكاءَ الذَّهْن ، وصلاحَ المِيعَى ، وكثرةَ المال ، والقُرْبَ من عيش
الملائكة^(١) ؟ أى بنى ، لم صار الضُّبُّ أطولَ شَيْءٍ عُمرًا ؛ إلا لأنه إنما يعيش
بالنَّسِيم^(٢) ؟ ولم قال الرسولُ صلى الله عليه وسلم إن الصومَ وِجَاءٌ^(٣) ، إلا ليُجْعَلَ
الجوعَ حِجَازًا دونَ الشَّهوات . أى بنى . قد بلغتُ تسعينَ عامًا مانعُصَ لى^(٤)
بِسِنِّ ، ولا تحركَ لى عَظْمٌ^(٥) ، ولا انتشرَ بى عَصَبٌ^(٦) ، ولا عرفتُ ذنين
أنفٍ^(٧) ، ولا سيلانَ عينٍ^(٨) ، ولا سلسَ بُولٍ^(٩) ، مالمالكِ عِلَّةٌ إلا التَّخْفِيفُ
من الزَّاد . فإن كنتِ تُحِبُّ الحَيَاةَ فهذه سبيلُ الحَيَاةِ ، وإن كنتِ تُحِبُّ
الموتَ ، فلا يُبْعِدُ اللهُ إلا مَنْ ظَلَمَ .



بخيل يبيع القرى

ونزل جريته - الشاعر الإسلامى الأشهر - بقوم من بنى العنبر بن عمرو
ابن تميم فلم يَقْرُوهُ ، حتى اشترى منهم القَرَى ، فانصرف وهو يتمول :

(١) إذم : لا يأكلون ولا يشربون (٢) كون الضب لا يعيش إلا بالنسيم ولا
يأكل ألبنة غير صحيح ولكن الثورى نقل خرافة قديمة (٣) وِجَاء : مانع
من الشهوات

(٤) نعص : اضطرب وتحرك ويروى نقص (٥) لعله يريد بالتحرك
الاتواء كاحديداب الظهر (٦) الانتشار : الانتفاخ في العصب للإتعاب
(٧) الذنين : المخاط الرقيق الذى يسيل من الأنف ويروى ذنين أذن والذنين صوت
الذباب ونحوه من هينة الكلام الذى لا يفهم والمراد ما يشبه هذا الصوت فى الأذن
من الكبر (٨) هو ما يحدث فى الكبر من ضعف العينين فتسيل منها دموع وسوائل
أخرى (٩) سلس البول : استرساله وعدم استمساكه لحدوث مرض بصاحبه

يَا مَالِكُ ابْنَ طَرِيفٍ إِنَّ بَيْعَكُمْ رِفْدَةَ الْقَرَى مُفْسِدٌ لِلدِّينِ وَالْحَسْبِ
 قَالُوا تَبِيعُكُمْ بَيْعًا فَقُلْتُ لَهُمْ بِيَعُوا الْمَوَالِيَ وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْعَرَبِ
 لَوْلَا كِرَامُ طَرِيفٍ مَا غَفَرْتُ لَكُمْ بَيْعِي قِرَايَ وَلَا أَنْسَأْتُكُمْ غَضَبِي
 هَلْ أَنْتُمْ غَيْرُ أَوْشَابٍ زَعَانِفَةٍ رِيَشِ الذَّنَابِيِّ وَلَيْسَ الرَّأْسُ كَالذَّنَبِ
 «قوله : بيعوا الموالى واستحيوا من العرب ، قال المبرد : تزعم الرواة : أن
 جِلَّةَ الموالى - عظماءهم - أُنْفُوا من هذا البيت ، لأنه حَطَّهم وَوَضَعهم ورأى
 أن الإساءة إليهم غيرُ محسوبة عيياً ... وقوله : ولا أنسأتكم غضبي ، يقول :
 لم أؤخِّره عنكم ، وقوله : هل أنتم غير أوشاب زعانفة ، فالأشابة الجماعة تدخل
 في قوم وليست منهم وقد تطلق الأوشاب على أخلاط الناس تجتمع من كل
 أوب ، مأخوذ من أشب الشيء كضرب . خلطه ، وأما الزعانف فأصلها
 أجنحة السمك ، سُمِّي بذلك الأديعاء لأنهم انصقوا بالصميم كما انصقت تلك
 الأجنحة بمظام السمك ،

عبقرياتهم في قرى الأضياف

قال الله جلّ شأنه في مدح قوم : وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا
 وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ... وقال سيدنا رسول الله : أَيُّمَا رَجُلٍ ضَافٍ قَوْمًا فَأَصْبَحَ
 الضَّيْفُ مُحْرُومًا ، فَإِنَّ نَصْرَهُ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ حَتَّى يَأْخُذَ بِقَرَى لَيْلَتِهِ مِنْ
 زَرْعِهِ وَمَالِهِ (١) ...

(١) قال الإمام العلقمي : قال شيخنا : هذا الحديث وما هو بسبيل منه كان في أول
 الأمر حين كانت الضيافة واجبة ، وقد نسخ وجوبها . أقول : وعلى أنه نسخ وجوبها
 فلا تزال معدودة في باب الفضائل الإنسانية المرغوب فيها والمثاب عليها والدالة على
 التحيزة البارزة الكريمة

وفي الحديث أيضا: الخَيْرُ أَسْرَعُ إِلَى مُطْعِمِ الطَّعَامِ مِنَ الشَّفْرَةِ فِي سَنَامِ
 البعير « الشَّفْرَةُ: السكين العظيمة العريضة » وقال صلوات الله عليه: ليس
 منا من بات شعبانَ وَضَيْفُهُ بَطْنُهُ طَاوٍ . وقال تعالى في مدح القائم بخدمة
 ضيفه: هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين؟ قيل وصفهم بذلك لأنه
 قام بخدمتهم بنفسه... ونزل ضيف على جعفر بن أبي طالب، فتخفف هو
 وغلبانة عند نزوله وعاونوه في حلولة، فلما أراد الارتحال عنهم لم يُعِنِّه
 غلبانُه، فشكاهم فقال: إن غلباننا لا يعينون على الارتحال... وقالوا: أمدح
 بيت قالته العرب قولُ حسان بن ثابت:

يُغَشُونَ حَتَّى مَا تَهْرُ كَلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ

« يقول: قد أنست كلابهم بالزوار فهي لا تتبجهم، وهم من شجاعتهم
 لا يسألون عن جيش يقبل نحوهم لقله أكثراتهم ولثقتهم ببسالة أنفسهم
 وشدتهم على أعدائهم، ومثل هذا قول أبي تمام:

إِذَا اسْتَنْجِدُوا لَمْ يَسْأَلُوا مِنْ دَعَاهِمِ لِأَيَّةِ حَرْبٍ أَوْ لِأَيِّ مَكَانٍ
 أَوْ تَقُولُ: لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ، أَى أَنَّهُمْ فِي سَعَةِ لَأَيُّوهُمْ الْجَمْعُ
 الْكَثِيرُ، لِسَعَتِهِمْ وَسَخَاتِهِمْ»

وقال إبراهيم بن هرمة من أبيات في ابتهاج الكلب بالضيف:

يَكَادُ إِذَا مَا أَبْصَرَ الضَّيْفَ مُقْبِلًا يُكَلِّمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ أَعْجَمُ

وقال حاتم الطائي وهو سيد الأجواد بالطعام:

أُضَاحِكُ ضَيْفِي قَبْلَ إِزَالِ رَحْلِهِ وَيُخْصِبُ عِنْدِي وَالْمَحَلُّ جَدِيدٌ
 وَمَا الْخِصْبُ لِالضَّيَافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقَرَى

ولكننا وَجَّهُ الْكَرِيمِ خِصْبٌ

ومن قولهم في الحث على ترك التكلف وتعجيل الحاضر : سُئِلَ أَقْرَى
أهل اليمامة للضيف : كيف ضسببتم القرى ؟ قال : بأن لا تتكلف ما ليس
عندنا ... وقال بعضهم : الضيفُ إلى القليل العاجل أحوج منه إلى الكثير
الآجل ، أما سمعت قول الله تعالى : فَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ^(١) وقال
تعالى : إلى طعامٍ غيرِ ناظرينِ إِنْهَاءُهُ ... « أي غير منتظرين نُضِجَهُ وإدراكه
ويلوغه ، يقال : أنى يأنى : إذا نُضِجَ ،

ومن قولهم فيمن آثر على نفسه : قولُ صوفيٍّ لآخر : كيف يعمل
فقرؤكم ؟ قال : إذا وجدوا أكلوا ، وإذا عَدِموا صَبَرُوا ، فقال : هذا فِعْلُ
الكلاب ، إن الفقير منا إذا عَدِمَ صَبَرَ ، وإذا وَجَدَ طعاماً آثر به غيره ...
وقالوا في وصف الرجل الكريم يُسوء خلقه مع أهله خوف التقصير :
والقائل زنب بنت الطَّيْرِيَّة تَرى أَخَاهَا يَزِيدُ :

إِذَا نَزَلَ الْأَضْيَافُ كَانَ عَدْوَرًا عَلَى الْأَهْلِ حَتَّى تَسْتَقِيلَ مَرَاجِلُهُ
يُعِينُكَ مَظْلُومًا وَيُنْجِيكَ ظَالِمًا وَكُلُّ الَّذِي حُمِّلْتَهُ فَهُوَ حَامِلُهُ
« العَدْوَرُ : السيِّءُ الخلاق القليل الصبر فيما يريد به ، وإنما جعلته
عَدْوَرًا لشدَّة تهممه بأمر الأضياف وحريصه على تعجيل قِراهم حتى تستقل
المراجل على الأثافي ^(٢) ، والمراجل : القُدور واحدٌ مَرَجَلٌ . وقوله :
ويُنْجِيكَ ظَالِمًا ، أي إِنْ ظَلَمْتَ فَطَوْلَبْتَ بِظُلْمِكَ حَمَاكَ وَمَنَعَ مِنْكَ ،

(١) حنذ الشاة : شواها وجعل فوقها حجارة حجارة لحماية لتضجها نهى حنيد.

(٢) الأثافي : جمع أثفية : وهي الحجر توضع عليه القدر وثلاثة الأثافي : القطعة
من الجبل يجعل القدر عليها وعلى حجرين أمامها ويقال : رماه بثلاثة الأثافي : أي
بالشركة

هذا؛ ومن السنة - كما ورد في الحديث - أن يمشي الرجل مع ضيفه إلى باب الدار .

وقد كان الأضياف يُعطون النُدلَ وَيَرْضَخُونَ لهم بالمسال^(١) فقد روى بعضهم قال : رأيت ابن عباس في وليمة فأكل وألقى للخباز درهما .

محادثة الضيف

وكانوا يُجاه محادثة الضيف على الطعام فربقن ، ففريق يَسْتَجِبُهُ ويستحسنه ، ومن صاحب الدعوة أَحْسَنُ ، وقالوا في ذلك : محادثة الإخوان - تزيد في لذة الطعام . وقال شاعرهم :

وأكثر ما ألدُّ به وألهو محادثة الضيف على الطعام

وأما الفريق الآخر فيكره الحديث على المائدة وقالوا في ذلك : من أكثر الكلام على طعامه غش بطنه وتقل على إخوانه . وقال الجاحظ في كتابه « التاج » : ولشئ ما كانت ملوك آل ساسان - إذا قدمت موائدهم - زمزموا عليها^(٢) ، فلم ينطقوا ناطق بحرف حتى تُرفع ، فإن اضطروا إلى كلام ، كان مكانه إشارة أو إيماء يدل على الغرض الذي أرادوا والمعنى الذي قصدوا . . . وكانوا يقولون إن هذه الأطعمة بها حياة هذا العالم ، فينبغي للإنسان أن يجعل ذهنه في مطعمه ويشغل روعه ويجوارحه فيه ، حتى تأخذ كل جارحة بقسطها من الطعام ، فيغتذى بها البدن والروح الحيوانية التي في القلب والطبيعة التي في الكبد ، اغتذاء تاماً ، وتقبله الطبيعة قبولاً جامعاً . قال الجاحظ : وفي ترك الكلام على الطعام فضائل كثيرة هي في آيئهم^(٣) . . .

(١) الندل : خدم الضيافة : ويقال : رضخ له من ماله رخصة : أعطاه قليلاً من كثير

(٢) الزمزمة : تراطن الملوج على أكلهم وهم صموت (٣) آيئهم : قانومهم ودستورهم

وقال المسعودى فى مروج الذهب: ذكروا أن كيرمرث هو أول من أمر بالسكوت عند الطعام، لتأخذ الطبيعة بقسطها، فيصلح البدن بما يرد إليه من الغذاء، وتسكن النفس عند ذلك، فتدبر لكل عضو من الأعضاء تدييرا يؤدى إلى ما فيه صلاح الجسم من أخذ صفو الطعام، فيكون الذى يرد إلى الكبد وغيره من الأعضاء القابلة للغذاء ما يناسبها وما فيه صلاحها، وإن الإنسان متى شغل عن طعامه بضرب من الضروب، انصرف قسطن من التديير وجزء من التغذى إلى حيث انصباب الهمة ووقوع الاشتراك، فأضر ذلك بالنفس الحيوانية والقوى الإنسانية، وإذا كان ذلك دائما أدى ذلك إلى مفارقة النفس الناطقة المميزة الفكرية لهذا الجسد المرثى، وفى ذلك ترك للحكمة وخروج عن الصواب... أقول: وقد أبدت التجارب الحديثة هذا المذهب، إذ تحققت أن الكلام على الطعام مدرجة لسوء الهضم... وإني بحمد الله لعلى هذا المذهب منذ نشأتى، أى أنى بفطرتى لا أتحدث على الطعام، حتى عدت ذلك أهلى ومن يخالطونى معمرًا فى يشف عما وراءه، مما يشبه التهم وليس به يعلم الله وإنما هى الفطرة التى فطرنى الله عليها، ومن خلقتى أنى أعد الكلام على الطعام ضربا من التكلف الذى لا أستسيغه... على أن الأكل مهمة حيوانية سخيصة يجمل أن لا يمتثل بها هذا الاحتفال الكيمروى الذى نراه هذه الأيام، ورحم الله جمال الدين الأفغانى إذ يقول: وددت لو أنى خلقت مضمنا! (١) وقبله قال الخليل بن أحمد: أثقل ساعات الساعة التى آكل فيها، أو كما قال:

أما محادثة الأضياف على غير الطعام: فمن المجمع على استحسانه، وفى

(١) المصنعت: الذى لاجوف له

ذلك يقول مسكين الدارمي أو عتبة بن بجير :

لِحَافِي لِحَافِ الضَّيْفِ وَالْبَيْتِ بَيْتُهُ وَلَمْ يُلْهِنِي عَنْهُ الْغَزَالُ الْمُقْتَنَعُ
أُحَدِّثُهُ إِنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْقِرَى وَتَعَلَّمُ نَفْسِي أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ

« الغزال المقنع : زوجته ، ويهجع : ينام ، يريد أنه يحدثه ويُقْرِيه بهذا

الحديث حتى ينام »

وكانوا لكرهم يُفضلون الاجتماع على الأكل ويستقبحون التفرد :
شكارجل إلى سيدنا رسول الله قلة البركة في طعامهم ، فقال : لعلمكم تنفرون
على طعامكم ! قال : نعم ، قال : اجتمعوا عليه واذكروا اسم الله لديه ...
وفي الحديث أيضا : أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ ؟ : من أكل وحده ، وضرب
عَبْدَهُ ، ومنع رِفْدَهُ « الرغد : العطاء » ... وقال قيس بن عاصم المِنْقَرِي:
إِذَا مَا ضَنَعَتِ الزَّادَ فَاتَمَّسِي لَهُ أَكِيَلًا فَإِنِّي لَسْتُ أَكِلُهُ وَتُحْدِي (١)

(١) بعده :

قَصِيًّا كَرِيمًا أَوْ قَرِيْبًا فَإِنِّي أَخَافُ، ذَمَّاتِ الْأَحَادِيثِ مِنْ بَعْدِي
وَكَيْفَ يُسْبِغُ الْمَرْءُ زَادًا وَجَارُهُ خَفِيفُ الْعَمَى بِأَدَى الْخِصَاصَةِ وَالْجَهْدِ
وَلَلْعَوْتُ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَاخِلٍ يُبْلَا حِظُّ أَطْرَافِ الْأَكِيلِ عَلَى تَحْمِدِ
وَإِنِّي لَتَعْبُدُ الضَّيْفَ مَا دَامَ نَازِلًا وَمَا فِي إِلَّا تِلْكَ مِنْ شِيْمَةِ الْعَبْدِ

وقوله قصيا كريما أو قريبا : قال المبرد : هذا من طريف المعاني وذلك أنه لم يحتج
إلى أن يشترط في نسبه الكرم لأنه ضمن ذلك واشترط في القصي أن يكون كريما
لأنه كره أن يكون مؤاكلة غير كريم . ورواية الأغانى :

✽ أَخَا طَارِقًا أَوْ جَارِ بَيْتِ فَإِنِّي ✽

وروا أن قيسا لما قال فاتمسي له أكيفا : أرسلت زوجته جارية فأتته بأكيل وقالت :
أبي المرء قيس أن يذوق طعامه بغير أكيفل إنه لكريم

وقال عبد الله بن المعتز في اجتماع الأيدي على الطعام:
 كَانَ أَكْمَ الْقَوْمِ فِي جَمَعَاتِهِ قَطَّالْمُ يُتَفَرَّهُ عَنِ الْمَاءِ عَصَارُخُ^(١)
 وكانت العرب تعد التفرد بالأكل احتقَابَ وَزِرٍ^(٢) حتى أنزل الله عز
 و تَقَدَّسَ: ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً^(٣)...

السؤال

وعبقرياتهم فيه ، من جميع نواحيه

ذَمَّ السُّؤال : لما احتضر قيس بن عاصم المنقري^(٤) سيد أدل البرّ، قال

(١) الجفنتان : جمع جفنة : القصة الكبيرة

(٢) يقال : احتقَب فلان الإثم والوزر : احتمله ، كأنه جمعه واحتمبه من خلفه .
 أي جعله في حتمية ، والحتمية الوعاء الذي يجعل الرجل فيه زاده وكانوا يجعلونها خلفهم
 على الراحة (٣) قال البيضاوي : نزلت هذه الآية في بني ليث بن عمرو من كنانة ،
 كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده ؛ أو في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف
 لا يأكلون إلا معه ؛ أو في قوم تخرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطبائع في
 الغذارة والنهم

(٤) تقدم له ذكر فيما أسلفنا وهذا قيس هو الذي يقول فيه عبدة بن الطيب يرثيه
 - وعبدة شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم وكان في جيش النعمان بن مقرن الذين
 حاربوا معه الفرس بالمدائن - :

وما كانَ قَيْسُ هُلَسَكُهُ هُلَكٌ وَاحِدٌ وَلَكِنَّهُ بُنْيَانٌ قَوْمٌ تَهْدَمًا
 وعبدة هذا هو صاحب الأبيات التي روي أن عبد الملك بن مروان قال يوما لجلسائه : أي
 المناديل أفضل ؟ فقال قائل منهم : مناديل مصر كأنها غرقى البيض ، وقال آخرون
 مناديل اليمن ، كأنها تور الربيع ، فقال عبد الملك : بل مناديل أخى بني تميم : عبدة بن
 الطيب حيث يقول :

لبنيه : يا بَنِيَّ ، احفظوا عَنِّي ثَلَاثًا ، فَلَا أَحَدَ أَنْصَحُ لَكُمْ مِنِّي ، إِذَا أَنَا مِتُّ
 فَسَوِّدُوا كِبَارَكُمْ وَلَا تُسَوِّدُوا صِغَارَكُمْ ، فَيُحَقِّقَرَ النَّاسُ كِبَارَكُمْ وَتَهْوُونَ
 عَلَيْهِمْ ، وَعَلَيْكُمْ بِحِفْظِ الْمَالِ ، فَإِنَّهُ مَنبَهَةٌ لِلْكَرِيمِ وَيُسْتَعْتَقُ بِهِ عَنِ اللَّئِيمِ ،
 وَإِيَّاكُمْ وَالْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهَا آخِرُ كَسْبِ الرَّجُلِ ... «سَوِّدُوا كِبَارَكُمْ : فالسيد هنا
 الرئيس أى أسندوا رياستكم إلى كباركم، ومنبهة للكريم : أى مُشْعِرٌ بِقُدْرِهِ
 وَمُعَلِّلٌ لَهُ ، وَقَوْلُهُ : فَإِنَّهَا آخِرُ كَسْبِ الرَّجُلِ فَأَحْرُ بِقَصْرِ الْمِعْزَةِ : أى أذنى
 وَأرذل ، وَإِذَا مَدَّ فَمَعْنَاهُ : أَنْ السُّؤَالَ آخِرُ مَا يَكْتَسِبُ بِهِ الْمَرْءُ عِنْدَ الْعِجْزِ عَنِ
 الْكَسْبِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ إِيَّاكُمْ وَالْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهَا آخِرُ كَسْبِ الرَّجُلِ ،
 فَلَعَلَّ قَيْسًا أَخَذَهَا مِنْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ، لِأَنَّ قَيْسًا مِنْ أَسْلَمَ وَنَزَلَ الْبَصْرَةَ
 وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا : مَنْ سَأَلَ وَهُوَ غَنِيٌّ جَاءَتْ مَسْأَلَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَدُوشًا
 أَوْ خُوشًا أَوْ كُدُوحًا فِي وَجْهِهِ «الكدوح : الخدوش ، وكل أثرٍ من خدش
 أَوْ دَخَسَ فَهُوَ كَدَحٌ ، وَقَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : إِنْ أَحَدَكُمْ يَخْرُجُ بِمَسْأَلَتِهِ مِنْ
 عِنْدِي مَتَأَبْطًا ، وَمَا هِيَ إِلَّا النَّارُ ، فَقَالَ عَمْرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وَلِمَ تُعْطِيهِ
 وَهِيَ نَارٌ؟ فَقَالَ : يَا بَنُونَ إِلَّا أَنْ يَسْأَلُوا وَيَأْتِيَ اللَّهُ لِي الْبُخْلَ ... وَقَالُوا :
 إِيَّاكَ وَطَلَبَ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ فَإِنَّهُ فَقَرٌّ حَاضِرٌ ، وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ : السَّخَاءُ
 سَخَاءَانٌ : سَخَاؤُكَ بِمَا فِي يَدِكَ ، وَسَخَاؤُكَ نِيْمًا فِي أَيْدِي النَّاسِ ، وَهُوَ أَمْحَضٌ فِي

لَمَّا نَزَلْنَا ضَرَبْنَا ظِلَّ أُخْيِيَّةٍ وَفَارَ لِلْقَوْمِ بِاللَّحْمِ الْمَرَاجِيلُ
 وَرَدَّ وَأَشَقَرُ مَا يُؤْنِيهِ طَابِخُهُ مَاغِيرَ الْعَلَى مِنْهُ فَهَوَّ مَا كَوَّلُ
 نُمَّتَ قُنَا إِلَى جُرْدٍ مُسَوِّتَةٍ أَعْرَافُهُنَّ لَا يَدِينَا مَنَادِيلُ

« يعنى بالمراجيل : المراحل فزاد فيها الياء ضرورة ، وما يؤنيه : ما ينضجه ، والجرد

المسومة : الخيل

الكرم، وأبعدُ من الدّئس، ومن بجمّهما فقد استكمل الفضل... وقال شاعرٌ:
 لَا تَحْسَبَنَّ الْمَوْتَ مَوْتَ الْبَيْلَى وَإِنَّمَا الْمَوْتُ سُؤَالُ الرَّجَالِ
 كِلَاهُمَا مَوْتُ وَلَكِنَّ ذَا أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ
 وقد كانوا يتحملون المكارةً تفادياً من السؤال: روى الأصمعي قال: مررت
 بكنّاسٍ بالبصرة يَكْنُسُ كَنيفاً وَيُعْتَى:

أضاعوني وأىّ قبيّ أضاعوا ليوم كريمةٍ وسدادٍ تُغْرِ (١)
 فقلت له: أما سدادُ الكنيفِ فأنت ملىّ به (٢)، فلا عِلمَ لي بك كيف
 أنت فيه! وكنتُ حديثُ السنِّ فأردت العَبَثَ به - فأعرض عني مَلِيّاً ثم أقبل
 عليّ وأنشد مُتمثلاً:

وَأَكْرِمُ نَفْسِي لِمَنِي إِنْ أَهَنْتُهَا وَحَقَّقَكَ لَمْ تَسْكُرْ عَلَيَّ أَحَدٌ بَعْدِي
 قال الأصمعي: فقلتُ له: والله، ما يكون من الهوانِ شيءٌ أَكْثَرَ مِمَّا بَدَلْتَهُ،
 فبأيّ شيءٍ أَكْرَمْتَهَا؟ فقال: بيلي، والله، إن من الهوانِ لشرّاً بما أنا فيه، فقلت: وما هو؟
 فقال: الحاجةُ إليك وإلى أمثالك من الناس، فأنصرفتُ عنه أَخْزَى النَّاسِ... ومثله
 ما روى أن أبا عمرو بن العلاء قال: اجتزت بكنّاسٍ يُنْشِدُ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْرِفْ لِنَفْسِكَ قَدْرَهَا هَوَانًا لَهَا كَانَتْ عَلَيَّ النَّاسُ أَهْوَانًا
 فقلت: سبحان الله، أَتُنْشِدُ مثل هذا وتتعاطى مثل هذا الفعل؟ فقال:
 إن إنشادي لثله أصرّني إلى هذا، فرارا من دُلِّ السُّؤَالِ...

(١) سيمر بك حديث طريف عن هذا البيت في موضع آخر من هذا الكتاب

(٢) ملىّ به: مضطلع به

ذم الإلحاح والحث على الإجمال في الطلب :

في الحديث : إن الله يُبَخِّضُ من عباده السائل المُلْحِفَ ، وقال حكيم :
لا يُكْثِرَنَّ الرَّجُلُ على أخيه المسألة ، فإن العَجَلَّ إذا أفرط في مَصِّ أمه
فَطَحَّتْهُ وَنَحَّتْهُ ، وقال بشار بن برد : * وَلَيْسَ لِلْمُلْحِفِ مِثْلُ الرَّدِّ *
ووقع بعض الكبار في قصة مُلِحِّ مَكْبَرٍ للسؤال : دَخَّ هذا الضَّرْعُ
يَدِرَّ لغيرك كما دَرَك . وقالوا : اطلبوا الحاجات بعِزَّة النفس فإنَّ يَدَ الله
قضاءها ... وقال ابن الرومي في الإحسان يُتَوَصَّلُ إليه بهوان :

إذا أنا نالته فواضِلُ مُفْضِلٍ فَأَهْلًا بها مالم تَكُنْ بهَوَانِ
فأما إذا كان الهوانُ قرينها فُبَعْدًا لها ما يَنْقُضِي لأوانِ
ومن ذا الذي يَلْتَدُّ شَهْدًا بِمَلَقَمِ أبتُ هَوَاتِي ذاكَ والشفتانِ
يَدُ مَكَانًا من كريمٍ يَصُونُنِي وإلا فلي رزق بكل مكانِ

* * *

دقة موقف السائل : ومن عبقرياتهم في صعوبة موقف من يسأل لنفسه
شيئا ولا سيما إذا كان ممن يُكْرَمون أنفسهم :

قال سعيد بن العاص : موطنان لا أَعْتَدِرُ مِنَ الغِيِّ فيهما : إذا سألتُ
حاجةً لنفسي ، وإذا كَلَّمْتُ جاهلا ... وسار الفضلُ بن الربيع - الوزير كان - إلى
أبي عباد في نكبتيه يسأله حاجة ، فأرْتَجَّ عليه ، فقال له أبو عباد : بهذا
اللسان خَدَمْتَ خليفَتين ! فقال الفضل : إنا تَعَوَّذنا أن نُسألَ لأن
نُسألَ ... وكَلَّمَ أعرابيُّ خالد بن عبد الله ، وتَلَجَّلَجَ في كلامه ، فقال :
لا تَلْبُنِي على الاختلاطِ ، فإنَّ مَعِيَ ذُلُّ الحاجةِ ومعك عِزُّ الاستِغناء ...

* * *

عقرياتهم في آداب السؤال واستنجاح الحوائج

ولهم في السؤال وآدابه واستنجاح الحوائج ودستوره، نحاسن رأينا أن نُنيلَ بها، إتماماً لهذا الباب، فَرِنَ ذلك حَثُّهم على سُؤال الشبان دُون الشيوخ، والصباح دون القِباح، والكريم الفقير دون الغنى الثيم. وهذا أعمرى من حَذق الأوائِل وتفظنهم إلى طبائع النفوس ...

قال حكيم: طَلِبُ الحوائج عند الشبان أسهلُ منها عند الشيوخ، ألا ترى أن يعقوبَ عليه السلام لما سأله بنوه أن يستغفر لهم قال: سوف أستغفر لكم ربي، وقال يوسف عليه السلام: لا تريبَ عليكم اليوم... وفي الأثر: اطلبوا الحوائج إلى حسان الوجوه^(١)... وسئل ابن عائشة عن هذا الحديث فقال: معناه: اطلبوها من الوجوه التي يحسنُ بالمرء أن يطلبها منها... وقال البهترى:

مَنْ حَسَنَ اللهُ وَجْهَهُ وَسَجَا يَأُهُ وَأَعْطَاهُ كُفَّ الكَلْفَا

وقال السرى الرفاء:

صَرَفْتُ عن الكثير الوفرِ طَرَفِي وَها أنا للقليل الوفرِ راجِر^(٢)

وكم من نُظْفَةٍ عَدُذِبَتْ وَكانَتْ أَحَبَّ إلىَّ مِنْ بَحْرِ أَجاجِ^(٣)

وقالت امرأة من ولد حسان بن ثابت:

(١) في الجامع الصغير: اطلبوا الخير إلى حسان الوجوه

(٢) الوفر: المال الكثير (٣) النطفة: الماء القليل الصافي يبقى في الدلو

أو القربة ونحوهما، وأجاج: ملح مُر

سَلِ الْخَيْرَ أَهْلَ الْخَيْرِ قَدَمًا وَلَا تَسَلْ

فَتَى ذَاقَ طَعْمَ الْعَيْشِ مُنْذُ قَرِيبٍ

وقال مسلم بن قتيبة: لا تَطْلُبْ بِنِ حَاجَتِكَ إِلَى كَذَابٍ، فَإِنَّهُ يُقَرَّبُهَا وَهِيَ بَعِيدٌ، وَيُبْعَدُهَا وَهِيَ قَرِيبٌ^(١)، وَلَا إِلَى أَحَقِّ فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيُضْرِبُكَ وَلَا إِلَى رَجُلٍ لَهُ عِنْدَ مَنْ تَسْأَلُهُ الْحَاجَةَ حَاجَةٌ، فَإِنَّهُ لَا يُؤَثِّرُكَ عَلَى نَفْسِهِ. وقال شاعر:

لَا تَطْلُبْ بِنِ إِلَى لَيْتِيْمٍ حَاجَةً وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ قَائِمًا كَالْقَاعِ عِدِ

يَا خَادِعَ الْبُخْلَاءِ عَنِ أَمْوَالِهِمْ هَيْهَاتَ تَضْرِبُ فِي حَدِيدٍ بَارِدِ

وقال بعض الأدباء: عليك بِنِ الْحَصْرِ الْبَيْكِيِّ^(٢)، وَبِنِ الْحَيْمِ الرِّضِيِّ^(٣)

فَإِنَّ مَثَقَالَ مِنْ شِدَّةِ الْحَيَاءِ وَالْعِيَّ، أَنْفَعُ فِي الْحَاجَةِ مِنْ قَنْطَارٍ مِنْ لِسَانِ سَلِينِ
وَعَقْلٍ ذَكِيٍّ، وَعَلَيْكَ بِالشَّهْمِ النَّدْبِ^(٤) الَّذِي إِنْ عَجَزَ أَيَّاسُكَ، وَإِنْ تَوَلَّى
أَطْمَعَكَ... وقال الفاروق رضى الله عنه: لَا تَسْتَعِنْ عَلَى حَاجَتِكَ إِلَّا بِ...
يُحِبُّ نَجَاحَهَا لَكَ... وقال ابن عباس: لَا تَسْأَلُنْ حَاجَةً بِاللَّيْلِ، وَلَا تَسْأَلُنْ
أَعْمَى، فَإِنَّ الْحَيَاءَ فِي الْعَيْنَيْنِ.

ومن آداب السؤال عندهم أن لا يُتجاوزَ الحدُّ فيه: قالوا: من سأل

(١) بعيد وقريب: يوصف بهما المذكر والمؤنث والمفرد والجمع ومنه قوله تعالى
«إِنْ رَحِمَ اللَّهُ قَرِيبَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ»

(٢) الحصر: ضرب من العي، والبكى: القليل الكلام

(٣) الحيم: الخلق والطبيعة والسجية والاصل، قال:

وَمَنْ يَبْتَدِعُ مَا لَيْسَ مِنْ حَيْمِ نَفْسِهِ يَدْعُهُ وَيَغْلِبُهُ عَلَى النَّفْسِ حَيْمُهَا
(٤) الشهم: الذكي الفواد، المتوقد نجد النافذ في الأمور، والندب: الخفيف
في الحاجة

فوق قدره ، فقد استوجب الردّ ، ومن لم يرجُ إلا ما هو مُستحقُّ له ، قال
الرفد ... وقال الشاعر :

إنك إن كلفتنى مالم أطق ساءك ما سرك منى من خلُق

وكانوا لا يرون بأسا بسؤال الملوك وسؤال الابن أباه : فقالوا : مسألة
الرجل السلطان ، ومسألة الابن أباه ، لا تنقصه ولا تشينه :

وإذا ابتليت ببدل وجهك سائلا فابذله للمتكرّم المفضل

وقال أبو جعفر المنصور لرجل أحمد منه أمرا : سل حاجتك فقال :
يبيحك الله يا أمير المؤمنين ، قال : سل ، فليس يمكنك ذلك في كل وقت ؛
فقال : ولم يا أمير المؤمنين ؟ فوالله ، لا أستصر عنرك ولا أرهب بخلك
ولا أغتم مالك ، وإن سؤالك لزين وإن عطاءك لشرف ، وما على أحد
بذل وجهه إليك نقص ولا شين ، فأمر حتى ملئ فوه درأ ... وقال العتّاب :
إن طلبت حاجة إلى ذى سلطان ، فأجمل في الطلب إليه ، وإياك والإلحاح
عليه ، فإن إلحاحك يكلم عريضك ، ويريق ماء وجهك ، فلا تأخذ منه
عوضا لما يأخذ منك ، ولعل الإلحاح يجمع عليك إخلاق ماء الوجه وحرمان
النجاح فإنه ربما ملّ المطلوب إليه حتى يستخفّ الطالب .

ومن قولهم في الحث على الخدق والاطافة في المسألة : قال رجل لآخر :
لو أنانيت ما كنت تفعل ؟ قال : كنت أكفئك وأدفئك ، قال : فاكسني
الساعة بما تكفنتني به ، وإذا ميت فادفني عريانا ... وقال شاعر :

أحلب كبونك إنباسا وتمرية لا يقطع الدر إلا عنف محلبه

• اللبون : الناقة أو الشاة ذات اللبن ، والإنباس : أن يسمح بضرع الناقة
يسكنها لتدر ، ومثله التمرية ، والدر : اللبن ، ... وسأل أعرابي عبدا للملك بن مروان -

وكان بخيلاً وكانوا يطلقون عليه : رَشَحَ الحجر - فقال له : سل الله ، فقال : سألتُه فأحالي عليك ، فضحك منه وأعطاه .. وأتى رجل بعضَ الولاية ، وكان صديقَه ، فتشاغل عنه ، فترأى له يوماً ، فقال : أعذرنى فإني مشغول ، فقال لولا الشُّغْلُ ما أتيتك ، لا بلغتُ الله يوم فراغك . وفي هذا المعنى يقول أبو علي البصير :

لَا تُصَيِّرْ شُغْلَكَ الْيَوْمَ اعْتِذَارًا لِمَطَالِكَ
إِنَّمَا يُحْمَدُ أَنْ تَقْرُخَ فِي وَقْتِ اشْتِغَالِكَ
لَوْ تَقَرَّرْتَ مِنَ الشُّغْلِ آتُونَا فِي الْمَسَالِكِ

وقال بعض الأدباء للصاحب بن عباد : إن جرذان داري ^(١) يمشين بالعصا هزلاً ، فقال : بشرهن بمجيء الخنطة ... وقسم بعضهم مالا بين بنيه فقال له عبد صغير : فأعطني أولاً ، فقال له : ولمه ؟ قال : لأن الله تعالى يقول : المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، فبدأ بالمال ، وأناماك ، فأعطاه وقدمه ... ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم ، فقال له : إني أتيتك في حاجة ، فإن شئت قضيتها وكنا جميعا كريمين ، وإن شئت منعتها وكنا جميعا لثيمين . قال ابن عبد ربه صاحب العقد : أراد : إن قضيتها كنت أنت كريما بقضائها ، وكنت أنا كريما بسؤالك إياها لأنني وضعتُ طلبتي في موضعها ، فإن لم تقضها كنت أنت لثيما بمنحك ، وكنت أنا لثيما بسوء اختياري لك ، وسرق حبيب - أبو تمام - هذا المعنى فقال :

عِيشُ إِنْكَ لِلثَّيْمِ وَإِنِّي مُذْصِرْتِ مَوْضِعَ مَطْلَبِي لِلثَّيْمِ

ومن أمح المكدين ووصاياهم : قيل لرجل مُسَكِدٍ : متى تعلمت الكدية والسؤال ؟ قال : يوم ولدتُ ، مُتِعْتُ الثُّدَى فصحت ، وبكيت فأعطيت

(١) الجرذان جمع جرذ : الفأر

الثدى، فسكت... وقال رجل لآخر: قد وضع منك سؤالك؟ فقال: لقد سألت موسى والخضر عليهما السلام أهل قرية، فأبوا أن يضيفوهما، فوالله ما وضع هذا من نبي الله وعالمه؛ فكيف يضع مني! وقال بعض المكسدين: مكتوبٌ على باب الجنة: مَنْ صَبَرَ عَبْرَ ١٠٠٠ وقال آخر: كلُّ طائف، خيرٌ من أسدٍ رابض، وقالوا: الهيمة خيبة، وقال سلم الخاسر: من راقب الناس مات غمًّا وفاز باللذة الجسورُ وقال أشجع السلي:

ليس للحاجات إلا من له وجهٌ وقَاح

وقال أبو تمام:

وخذهم بالرقى إن المهاري يهيجها على السير الحداء

وقال ابن الرومي:

وإن الأئم لم تُرضع صبيًّا مع الإشفاق لو سكت الغلام

ومن قولهم في الحث على معاودة السؤال: قولُ عمر رضى الله عنه: إذا سألتونا حاجةً فمادونا فيها، فإنما سميت القلوب قلوباً لتقلبها... وقال عبد الملك بن مروان في خطبة له: لا يمتنعن رجلاً سألت اليوم شيئاً فتمتعته، أن يسأل غداً؛ فإن الأمور بيد الله لا يدي. وقال شاعر:

لا يؤيسنك من كريم نبوة يلبو الفتي وهو الجواد الخضر^(١)
فإذا نبأ فاستبقه وتأنه حتى يجيء بها الطبايع الأكرم^(٢)

- (١) النبوة: الجورة والتباعد ويقال: نباعته بصره ينبو: تجافى ولم ينظر إليه كأنه حقره. والخضرم بالكسر: الجواد الكثير العطاء أو السيد الحرول
- (٢) يقال: تأينتك حتى لأناة بي، أى تنظرتك حتى لا انتظاري، والطبايع كالغرار واحد طبايع الإنسان أى الخليقة والسجية التى طبع عليها قال الزجاجى الطبايع واحد

وقالوا : إذا سألتَ كريماً حاجة فدعه وسؤمَ نفسه ^(١) فإنه لا يفكر إلا في خير ، وإذا سألتَ لئيماً حاجة فعاقصه ^(٢) ولا تدعه يتفكر فيتعير ، وقال بعضهم في ضد ذلك : إذا سألتَ لئيماً حاجة فأجمله حتى يروض نفسه ... « أى يعالج نفسه الكزة اللثيمة »

ولهم في الاعتذار عن سؤال اللئيم وأخذهم منه : قال أبو تمام :

مُحَدِّثٌ مَا أَتَاكَ مِنَ اللَّئِيمِ إِذَا نَأَى أَهْلُ الْكَرَمِ
فَلَا تُسَدُّ تَفَتُّرِيسَ السِّكِّيلِ بَ إِذَا تَعَدَّرَتِ الْغَنَمُ

وقال المتنبي :

غَيْرَ اخْتِيَارٍ قَبِلْتُ بِرِكَ بِنِ الْجَوْعِ يُرِضِي الْأُسُودَ بِالْجَيْفِ
وقال المهلبى الوزير :

مَا كُنْتُ إِلَّا كَلِّمَ مَيْتٍ دَعَا إِلَى أَكْلِهِ اضْطِرَارُ

ولأبي على البصير :

لَعَمْرُؤُ أَيُّكَ مَا نُسِبَ الْمَعْلَى إِلَى كَرَمٍ وَفِي الدُّنْيَا كَرِيمُ
وَلَكِنَّ الْبِلَادَ إِذَا اقْشَعَرَّتْ وَصَوَّحَ نَبْتُهَا رُعْيَ الْمَشِيمِ

واقشعرت : قال الأزهري : يقال : اقشعرت الأرض من المَحَل - الجذب -

وفي الحديث : إن الأرض إذا لم ينزل عليها المطر اربدت واقشعرت : أى تقبضت وتجمعت ، وصَوَّحَ نبتها : يبس «

ومن قولهم في التعريض بالسؤال : قال أمية بن أبى الصلت :

أَذْكَرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ إِنَّ شَيْمَتَكَ الْحَيَاءُ

مذكر كالنجار - الاصل - (١) أى وما يريد ويتجه اليه

(٢) فعاقصه : فاسلك معه مسلكاً ملتويّاً بعزّة

إذا أثنى عليك المرء يوماً كَفَاهُ مِنْ تَعْرِضِهِ الثَّنَاءُ
وقال ابن الرومي :

يَأْمَنُ إِذَا التَّعْرِيزُ صَافَحَ نَفْسَهُ أَغْنَى الْعُقَاةَ بِهِ عَنِ التَّصْرِيحِ
وقال المتنبي :

أَقْلَ سَلَامِي جُبِّ مَاخَفَ عَنْكُمْ وَأَسْكُتُ كَيْمَا لَا يَكُونُ جَوَابُ
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتُ وَفِيكَ قَطَانَةٌ سُكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ
وقال أبو بكر الخوارزمي :

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَى كَرِيمٍ حَاجَةً فُلِقَاؤُهُ يَكْفِيكَ وَالتَّسْلِيمُ
فَإِذَا رَأَىكَ مُسْتَلْبًا عَرَفَ الَّذِي حَمَلَتْهُ فَكَأَنَّهُ مَلْزُومُ

المسئول يُجَاهِ السائل

قال شُريح^(١) : مَنْ سَأَلَ حَاجَةً فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ عَلَى الرَّقِّ ، فَإِنْ قَضَاهَا

(١) هو القاضي شريح بن الحارث ، استمضاه عمر بن الخطاب على الكوفة فأقام قاضياً خمساً وسبعين سنة ، وكان أعلم الناس بالفضاء ، ذا فطنة وذكاء ومعرفة وعقل وإصابة ، وكان شاعراً محسناً وكان مزاحاً ، دخل عليه عدى بن أرطاة فقال له : أين أنت أصلحك الله فقال : بينك وبين الحائط ، قال : استمع مني ، قال : قل أسمع ، قال : إنني رجل من الشام ، قال : من مكان سحيق ، قال : تزوجت عندكم ، قال : بالرفاء والبنين قال : وأردت أن أرحلها ، قال : الرجل أحق بأهله ، قال : وشرطت لها دارها قال : الشرط أملك قال : فاحكم الآن بيننا ، قال : قد فعلت ، قال : فعلى من حكمت ؟ قال : على ابن أملك ، قال : بشهادة من ؟ قال : بشهادة ابن أخت خالتك ... ويُروى أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه دخل مع خصم له ذبي إلى القاضي شريح هذا فقام له ، فقال علي : هذا أول جورك ، ثم أسند ظهره إلى الجدار وقال : أما لو أنّ خصمي كان مسلماً جلست بجانبه ... وتزوج شريح امرأة من بني تميم تسمى زنبب فهنقم عليها شيئاً فضر بها ثم ندم وقال :

المسؤولُ استعبده بها ، وإن رَدَّه ، رجع حُرًّا ، وهما ذليلان ، هذا بِذَلِّ الأَومِ
وهذا بِذَلِّ السَّوَالِ . وقال أبو تمام :

ماماءُ كَمَّكَ - إن جادَتْ وإن بَحَلَّتْ من ماءٍ وَجْهِي إذا أفنَيْتَهُ - عِوَضُ

وقالوا : العَجَبُ لمن يشتري العبيدَ بالأموال ولا يشتري الأحرارَ بالنوال ...
وسئل خالدُ بن يزيدَ : ما الجود ؟ قال : أن تُعطيَ مَن سَأَلَكَ ، فقال ابنه :
يا أَبَتِ ، هذا هو السُّكْدُ ، إنما الجودُ أن تُعطيَ من سَأَلَكَ ومن لم يَسأَلْكَ ...
وقالوا : أذنأُ المعروفُ أعجَلُهُ . وقال بعضُ الناس : إذا أوليتني نعمةً فَعَجَّلْها ،
فإن النفسَ موعلةٌ بحُبِّ العاجلِ ، وإن الله تعالى قد أخبر عما في نفوسنا فقال :
كلا ، بل تُحِبُّونَ العاجلةَ ... ولزِمَ بعضُ الحكماءِ بابَ بعضِ ملوكِ العجمِ دَهْرًا
فلم يصلِ إليه ، فتناظفَ للحاجِبِ في إيصالِ رُقعةٍ ، ففعل ، وكان فيها أربعة أسطرٍ
السطر الأول : « الأمل والضرورة أنذمانى عليك »

والسطر الثاني : « والعُدْمُ لا يكون معه صَبْرٌ على المطالبة »

والسطر الثالث : « الانصرافُ بلا فائدة شمانية للأعداء »

والسطر الرابع : « فإما تَعَمُّ مُشِيرَةٌ ، وإما لا مُرِيحَةٌ »

فلما قرأها وَقَعَ في كل سطرٍ : زِهْ ؛ فأعطِيَ سِتَّةَ عَشَرَ ألفَ مِثقالِ فِضَّةٍ -
« زِهْ في لغة الفرس معناها : أحسنت ؛ ... ووقفتُ عجوزٌ على قيس بن سعد فقالت :

رَأَيْتُ رِجالاً يَضْرِبُونَ نِساءَهُمْ فَسَلَّتُ يَمِينِي يَوْمَ أَضْرِبُ زَيْنِبا

أَأَضْرِبُهَا مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ أَتَعِبُ بِهِ فَالْعَدْلُ مَنِّي ضَرْبٌ مَن لَيْسَ مُتَذَبِّبا

فزينبُ شمسُ والنساءُ كواكبٌ إذا طالمتُ لم تُبْقِ مَنهنَّ كوكبا

توفي شريح سنة ٨٧ هـ وهو ابن مائة سنة .

أشكو إليك فلة الجزّان ، قال : ما أحسن هذه الكناية ؟ ائتمنوا بيّتها خبزاً ولحماً
وسمناً وتمرّاً . وقد تقدم مثلها .

الاعتذار عن المستول إن لم يعط

قال أبو نواس :

فإن تورّيتني منك الجليل فأهله وإلا فإني عاذر وشكور

وقال ابن الرومي :

وإن عاق القضاء نذاك عني فليست أراك في منعي ملها^(١)

وما عيئت إذا يجتاز أرضاً إلى أخرى بمعتد لئها

وكتب أبو العيناء إلى ابن أبي دؤاد : مسنا وأهلنا أضرب ، وبضاعتنا المودّة
والشكر ، فإن تمطينا فانت أهل لذلك ، وإن لم تمطينا فلسنا بمن يلهزك في
الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذ هم يستخطون^(٢) وهناك
من لا يعذر ، رَوَوْا أن الحجلاج لما دخل مكة قال لأهلها : أتيناكم وقد غاض
الماء لكثرة الزواجب ، فاعذرونا ، فقال رجل : لا عذر الله من عذرك ، وأنت
أمير المصريين وابن عظيم القرينين^(٣) فقال : صدقت ، واستقرض مالا من
التجار ففرقة فيهم ، وقال أبو تمام :

فلو حارَدت شول عذرت لِقاحها

ولسكن حُرمتُ الدو والضرع حافل^(٤)

(١) ملها : فاعلا ما يلام عليه (٢) اللز : العيب والرِقوع في الناس . يشير الى

الآية الكريمة (٣) القرينان : مكة والطائف

(٤) حارَدت الافة : قل لبها ، والشول جمع شائلة والنائلة من الإبل التي أتى عليها
من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبها ، واللحاح : جمع لفة : الحامل والمراد : عذرتها

طلب الكثير والرضا بالقليل

قال أعرابيٌّ لخالد بن عبد الله من أبيات :

أخالدُ بين الحمد والأجر حاجتي فأيهما تأتي فأنت عماد

فقال له خالد : سل ما بدالك ، فقال : مائة ألف درهم ، قال : أسرفت ، قال :

ألف درهم ، قال خالد : ما أدري أين إسراؤك أتعجب أم من حطك ، فقال :

إني سألتك على قدرك ، فلما أبيت سألتُ على قدرى ، فقال : إذن والله لا تغليتي

على معروفى ...

من يسأل حاجة يزعمها صغيرة

قال رجل لعمارة بن حمزة : أتيتك في حويجة ، فقال : اطلب لها رُجِيلاً ...

وقال آخر مثل هذا فقال : دَعها حتى تكبر ... وقال رجل لعبد الله بن عباس

رضى الله عنه : أتيتك في حاجة صغيرة ، فقال : هايتها ، فالحرُّ لا يصغر عن

كبير أخيه ولا يكبرُ عن صغيره ...

الحث على الصبر والآنأة في طلب الحاجات

قال الشاعر :

إن الأمورَ إذا اتسدتْ مسالكُها فالصبرُ يفتحُ منها كلَّ ما ارتبجاً^(١)

أخلقُ بذي الصبرِ أن يحظى بحاجته ومُدمنِ القرعِ الأبوابُ أن يُلجأ

لأنَّ أيسن وإن طالَتْ مُطالبته إذا استعنت بصبرٍ أن ترى فرجاً

وقال أبو نواس :

هذه الشول والدر: اللبن ، وحافل : ملان (١) كل ما ارتج : كل ما غاق

ولا يُدْرِكُ الْحَاجَاتِ مِنْ حَيْثُ تُبْتَغَى
 من الناس إلا المصبحون على رجلٍ ^(١)
 تَأَنَّ مَوَاعِيدَ الْكِرَامِ فُرُبَمَا
 أَصَبْتَ مِنَ الْإِلْحَاحِ سَمَّحًا عَلَى مُبْغِلٍ

وقال القَطَائِمِيُّ :

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْدُ حَاجَتَهُ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعِجِلِ الزَّلَلُ
 والعرب تقول : رُبَّ عَجَلَةٍ تَهْبُ رَيْثًا ؛ يريدون أن الرجلَ قد يَحْرَقُ
 وَيَحْمُقُ قِيَمَتَهُ فِي حَاجَتِهِ فَتَأَخَّرَ أَوْ تَبَطَّلَ بِذَلِكَ .

العطية لا تجدى في غير وقتها

قال البحرى :

وَأَعْلَمُ بَأَنَّ الْغَيْثَ لَيْسَ بِنَافِعٍ لِلسَّرِّ مَا لَمْ يَأْتِ فِي إِبَانِهِ
 وقال : * يُرْجَى الطَّيِّبُ لِسَاعَةِ الْأَوْصَابِ *

المسئول أهل لأن يُسأل

قال عَمَلَمَةُ بن عَبْدَةَ الْفَحْلُ من قصيدة يخاطب الحارث بن أبي شمر
 الغساني - وكان أسر أخاه شأساً فرحل إليه يطلبه منه - :

وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبِطَتْ بِنِعْمَةٍ فُحِقَّ لِشَاسٍ مِنْ نَدَاكَ ذُنُوبٌ ^(٢)
 وقال أحمد بن أبي طاهر - :

أَتَيْتَكَ لَمْ أَطْمَعْ إِلَى غَيْرِ نَظْمٍ كَرِيمٍ وَلَمْ أَفْرَحْ إِلَى غَيْرِ مَفْرَعٍ ^(٣)

(١) يقول : إنما يقضيها المشمرون القيام لا المترملون النيام

(٢) خبطه بخير : أعطاه من غير معرفة بينهما ، شبه بخابط الليل . والذنوب :

الحظ والنصيب (٣) فزع إليه : لجأ إليه

التأسف على الحرمان

قال البحرى من أبيات يمدح بها الفتح بن خاقان ويعاتبه :
 سحابٌ خَطَّافِي جَوْدِهِ وَهُوَ مُسْبِلٌ وَبَحْرٌ عَدَّانِي فَيْضُهُ وَهُوَ مُفْعَمٌ (١)
 وَبَدْرٌ أَضَاءَ الْأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
 وَمَوْضِعُ رَحْلِي مِنْهُ أَسْوَدٌ مُظْلِمٌ (٢)
 أَأَشْكُو نَدَاهُ بَعْدَ أَنْ وَسَّعَ الْوَرَى
 وَمَا إِنَّ يَدْمَ الْغَيْثِ إِلَّا مُدَّمٌ

تعريضهم بمن خيبهم

وَقَفَّ أَعْرَابِيٌّ عَلَى دَارٍ سَائِلًا : فَقَالَ لَهُ صَبِيٌّ مِنَ الدَّارِ : بورك فيك ، فقال
 له : قَبَّحَ اللَّهُ هَذَا النَّمِ ، فَقَدْ تَعَلَّمَ الشَّرَّ صَغِيرًا ... وَوَقَفَّ سَائِلٌ عَلَى قَوْمِ
 فَقَالَ أَحَدُهُمْ : صَنَاعَتُنَا وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ السَّائِلُ : فَأَنَا قَوَادِمُ فَهَلْ أَتَمَّ قَوَادِمُونَ ؟

يرون الهدايا والرشي مدرجة للنجاح

كانت العرب تقول : بمن صانع لم يتخشم من طلب الحاجة «صانع : هادى» ...
 وقال على بن أبي طالب رضى الله عنه : نِعَمَ الشَّيْءُ : الْهَدِيَّةُ أَمَامَ الْحَاجَةِ ... وَكَانَ
 سَفِيانُ الثَّوْرِيِّ يَقُولُ : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْزِجَ فَأَهْدِ إِلَى الْأُمِّ ... وَمَنْ أَمثالهم :
 مَنْ يَخْطُبُ الْحَسَنَاءَ يُعْطِي مَهْرًا ... « يريدون من طلب حاجة مهمة بذل
 فيها ، وقال شاعرهم :

(١) الجود : المطر الغزير ، ومسبل : هاطل (٢) الرحل : المنزل ، ومفعم : مالى

ما مِنْ صَدِيقٍ وَإِنْ تَمَّتْ صَدَائِقُهُ

يَوْمًا بِأَيِّحٍ فِي الْحَاجَاتِ مِنْ طَبِيقِ

إِذَا تَقَنَّعَ بِالْمُنْدِيلِ مُنْطَلِقًا لَمْ يَخْشَ نَبْوَةَ بَوَابٍ وَلَا عَلَقِي

لَا تُكْذِبَنَّ فَإِنَّ النَّاسَ مُذْخَلِقُونَ لِرَغْبَةِ يُكْرِمُونَ النَّاسَ أَوْ فَرَقِ

« نبوة : جفوة ، و فرق : خوف » وقال رؤبة بن العجاج :

لَمَّا رَأَيْتُ الشُّفَعَاءَ بَلَدُوا وَسَأَلُوا أَمِيرَهُمْ فَأَنْكَدُوا

نَامَسْتُهُمْ بِرِشْوَةٍ فَأَقْرَدُوا وَسَهَّلَ اللَّهُ بِهَا مَا شَدَّدُوا

« بَلَدُوا : يقال : بَلَدَ الرَّجُلُ : إِذَا لَمْ يَتَّجِهْ لَشَيْءٍ ، وَبَلَدَ : إِذَا تَنَكَّسَ فِي

الْعَمَلِ وَضَعَفَ حَتَّى فِي الْجُرَى . وَقَوْلُهُ : فَأَنْكَدُوا : أَي وَجَدُوهُ عَمِيراً

مُقَلَّلاً إِذْ لَمْ يَجِدُوا عِنْدَهُ إِلَّا نِزْراً قَلِيلاً ، وَقَوْلُهُ : نَامَسْتُهُمْ بِرِشْوَةٍ : يَقُولُ :

أَفْهَمْتُهُمْ أَنْ يَلْجَأُوا إِلَى رِشْوَةِ الْأَمِيرِ وَيَحْتَالُوا بِذَلِكَ ، قَالَ فِي اللِّسَانِ : نَامَسَ

الرَّجُلُ صَاحِبَهُ : سَارَهُ ، وَمِنْهُ النَّامُوسُ ، وَهُوَ صَاحِبُ سِرِّ الرَّجُلِ - وَيُقَالُ لَهُ

الْيَوْمَ السَّكْرَتِيرُ الْخَاصُّ - وَقَوْلُهُ : فَأَقْرَدُوا : أَي تَخَضَعُوا ، وَفِي الْحَدِيثِ : إِيَّاكُمْ

وَالْإِقْرَادَ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا الْإِقْرَادُ ؟ قَالَ : الرَّجُلُ يَكُونُ مِنْكُمْ أَمِيرًا

أَوْ عَائِلاً فَيَأْتِيهِ الْمَسْكِينُ وَالْأَرْمَلَةُ فَيَقُولُ لَهُمْ : مَكَاتِكُمْ ، وَيَأْتِيهِ الشَّرِيفُ

وَالغنيُّ فَيُدْنِيهِ وَيَقُولُ : عَجَّلُوا قِضَاءَ حَاجَتِهِ وَيُتْرَكُ الْآخَرُونَ مَقْرَدِينَ

« أَي سَاكِنِينَ ذُلًّا »

قطع العادة

ومن أحسن ما قيل في قطع العادة قول أعرابي - وقد سأل قوما ، فرّق له :

بِرَجُلٍ مِنْهُمْ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ وَأَجْرَى لَهُ رِزْقًا أَيَا مَا تَمَّ قَطْعَ عَنَّهُ - فقال الأعرابي :

تَسْرَى فَلِمَا حَاسِبَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ رَأَى أَنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ لَهُ السَّرْوُ
 « تَسْرَى : أى تكلف السَّرْو ، والسَّرْو : السخاء » وقال شاعر - قيل هو
 أبو الاسود الدؤلى ، وقيل أنس بن أبى أنس الليثى - :

لَيْتَ شِعْرِي عَنْ أَمِيرِي مَا الَّذِي غَالَهُ فِي الْوُدِّ حَتَّى وَدَّعَهُ
 لَا تُهَيِّئِي بَعْدَهُ إِذْ أَكْرَمْتَنِي وَشَدِيدُ عَادَةِ مُنْتَزَعُهُ
 لَا يَكُنْ بَرُّكَ بَرًّا قُلُوبًا إِنْ خَيْرَ الْبَرِّ مَا الْغَيْثُ مَعَهُ

« البرق الخلب : الذى لا مطر معه » وفى الحديث : الخير عادة والشر لجاجة . يقال :
 لَجَّ فِي الْأَمْرِ يَأْجُجُ وَيَلْجُجُ لَجَاجَةً وَلَجَجًا وَلَجَجًا : إذا تَمَادَى عَلَيْهِ وَأَبَى أَنْ يَنْصَرِفَ
 عَنْهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ وَأَنْ غَيْرَهُ خَيْرٌ مِنْهُ ، وتقول العرب فيمن اصطنع معروفًا ثم
 أفسده بالمن أو قطعته حين كاد يبيته : شَوَى أَخْرَكَ حَتَّى إِذَا أَنْضَجَ رَمَدًا
 « رَمَدًا : ألقى الشيء فى الرماد »

شكوى العاقين

من تفضيل بعضهم على بعض فى العطاء

قَدِمَ عَلَى سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفُؤُّهُ مِنَ الْعَرَبِ ، فَأَعْطَاهُمْ
 وَفَضَّلَ رِجَالًا مِنْهُمْ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : كُلُّ الْقَوْمِ عِيَالٌ عَلَيْهِ .
 وَأَعْطَى سَيِّدِنَا رَسُولُ اللَّهِ يَرْمُ حُتَيْنِ الْمُؤَلَّفَةِ تَلُوبِهِمْ ، وَكَانُوا أَشْرَافًا ،
 يَتَأَلَّفُهُمْ وَيَتَأَلَّفُ بِهِمْ تَوْمَهُمْ ، فَأَعْطَى فِيْمَنْ أَعْطَى ، عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنِ الْفَرَارِيِّ ،
 وَالْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسِ التَّمِيمِيِّ ، أَعْطَى كُلًّا مِنْهُمَا مِائَةَ بَعِيرٍ ، وَأَعْطَى عَبَّاسَ بْنَ
 مِرْدَاسِ أَبَا عَرَّ ، وَكَانَ كَذَلِكَ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ ، وَكَانَ شَاعِرًا ، فَسَخِطَهَا وَقَالَ
 يِعَاتِبُ سَيِّدِنَا رَسُولُ اللَّهِ :

أَتَجِدَ لُ نَهْيٍ وَنَهْبِ الْعَبِيدِ بَيْنَ عُيُنَتَهُ وَالْأَقْرَعِ (١)
 وَمَا كَانَ حِصْنٌ وَلَا حَائِشٌ يَهْوِقَانِ مِرْدَاسٍ فِي بَجْمَحٍ (٢)
 وَمَا كُنْتُ دُونَ أَمْرِي مِنْهُمَا وَمَنْ تَضَعُ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعُ
 وَقَدْ كُنْتُ فِي الْحَرْبِ إِذَا تَدْرَأُ فَلَمْ أُعْطَ شَيْئًا وَلَمْ أَمْنَعُ (٣)
 إِلَّا أَفَائِلَ أُعْطِيَتْهَا عَدِيدَ قَوَائِمِهِ الْأَرْبَعِ (٤)

فلما أنشدما بين يدي رسول الله قال لعلي بن أبي طالب : يا علي ، اقطع
 عني لساني ، فقبض على يده وخرج به فقال : أقطع أنت لساني يا أبا الحسن ؟
 فقال : إني لم أئس فيك ما أمرت ، ثم مضى به إلى إبل الصدقة فقال خذ
 ما أحببت ...

بلاغة المكدين

سأل أعرابي فقال في مسأله : لقد جُعتُ حتى أكلتُ النَّوَى الْمُحْرَقَ ،
 ولقد مَشَيْتُ حَتَّى اتَّعَلْتُ الدَّمَ ، وحتى سقط من رجلي بخص لحمي ، وحتى تمنيت
 أن وجهي حذاء لقدمي ، فهل من أخ يرثنا ؟ « البخص : لحم يخرطه بياض
 من فساد يحل به » ... ووقف أعرابي على حلقة الحسن البصري فقال : رحم
 الله أمراء أعطى من سعة وواتى من كفاف وآثر من قوت . فقال الحسن :

(١) النهب : الغنمة ، والعبيد بالتصغير اسم فرس العباس ، وكان يدعى فارس العبيد .
 (٢) مرداس مصروف ولكنه هنا ممنوع من الصرف للضرورة ، انظر كتب النحاة .
 (٣) تدرأ : من الدرء وهو الدفع قال في الصحاح : وقولهم : السلطان ذو تدرأ ،
 أي ذو عدة وقوة على دفع أعدائه عن نفسه ، وهذا اسم موضع للدفع ، وقوله : فلم
 أعط شيئا الخ أي لم أعط شيئا طائلا أو لم أعط شيئا أستحقه وهو المسائة : ولم أمنع
 من الإعطاء لأنني أعطيت بعضا

(٤) الأفائل : جمع أفيل بالفاء كالفصيل وزنا ومعنى

ما ترك أحداً منكم حتى سأله... وقال المازني : وقف علينا أعرابي فقال :
 رحم الله امرءاً لم يمتجج أذناه كلامي ، وقدم لنفسه معاذاً من سوء مقامي ،
 فإن البلاد مُجْدِبَةٌ والحال مُصْعَبَةٌ (١) والحياء زاجرٌ يمنع من كلامكم ، والعُدْمُ
 عاذرٌ يدعو إلى إخباركم ، والدعاء أحد الصدقتين ، فرحم الله امرءاً أمر بمخير
 ودعا بخير . فقال له رجل من القوم : بمن الرجل ؟ فقال : اللهم عَقْرًا بمن
 لا تُضْرِكُ جَهْلَتَهُ ، ولا تَفْعُكُ معرفته ، ذُلُّ الاكتساب ، يمنع من
 عز الاتساب .

حسن الخلق

وعقرياتهم فيه وفيما يتأشب إليه

وهذا هو أحد لَوْنِي الإحسان إلى الناس ، وإن شئت قلت هو اللَّوْنُ
 الثالث من ألوان البرِّ ، أعني حُسْنَ الخلق

تحضيضهم على حسن الخلق

قال الله عز وجل : وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .
 وقال : خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . « خذ العفو :
 فالعفو : السهل الميسر ، يقول سبحانه : احْتَمِلْ أَخْلَاقَ النَّاسِ وَأَقْبَلْ مَا سَهَّلَ
 منها وتيسر ، ولا تَسْتَقْصِ عليهم فيستقصى الله عليك ، دع ما فيه من العداوة
 والبغضاء قال شريح :

خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَعْضَبُ

(١) يقال صعب الأمر وأصعب : صار صعباً

فإني رأيتُ الحُبَّ في الصَّدرِ والأذى

إذا اجتمعما لم يلبثِ الحُبُّ يذهبُ

وقوله سبحانه وتعالى : وأعرض عن الجاهلين : فالجهل هنا ما قابل العقل والجاهلون : الحمقى الأشرار السيئوا الأخلاق ، أمر الله نبيه بأن لا يماريَ الجاهلين ولا يكافئهم بمثل أفعالهم «

وقال سيدنا رسول الله : إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فتعوهم بأخلاقكم . ومن ذا قول حكيم وقد قيل له : هل من جودٍ يتناولُ به الخلقُ ؟ فقال : نعم ، أن تحسِّنَ الخلقَ وتنبوي الخير لكل أحد ... وقال صلوات الله عليه : ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة ! أحاسنكم أخلاقا المؤمنون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون ، ألا أخبركم بأبغضكم إلي وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة ! الثرثارون المتفيهقون ... « قوله : أحاسنكم أخلاقا يريد : الأحاسن منكم على إرادة التفضيل لا الوصف ، وذلك أن العرب تقول في الوصف : رجلٌ حسنٌ ولم تقل رجلاً أحسن ، مع قولهم امرأة حسناء . ونظيره في عكسه : غلامٌ أمرؤٌ ولم يقولوا جاريةً مرءاء . وقوله : المؤمنون أكنافا : يريد دماثة الخلق ولين الجانب وأن ناحيته يتمكن فيها صاحبه غير مؤذى ولا نابي به موضعه . وأصل التوطئة : التذليل والتهيب يقال : فرائش وطيء إذا كان وثيراً - أي ليناً - والثرثارون : الذين يكثرون الكلام تكلفاً وتجاوزاً وخروجاً عن الحق ، وأصل هذه اللفظة من العين الواسعة من عيون المساء يقال : عينٌ كثرثرة وثرثرة : إذا كانت كثيرة المساء ... والمتفيهقون : بسبيل من « الثرثارون » وهو تأسيس له ، واشتقاقه من قولهم : فهِقَ الغدير يفهِقُ : إذا امتلأ ماء فلم يكن فيه موضع مزيد : يصفهم

بأنهم يوسعون أشداقهم ويملاونها بالكلام . قال أبو العباس المبرد بعد ما أورد ما أوردناه من تفسير هذا الحديث : وتصديق ما فسرناه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يُريد الصدق في المنطق والقصد وترك ما لا يحتاج إليه : قوله لجرير بن عبد الله البجلي : يا جرير : إذا قلت فأوجز وإذا بلغت حاجتك فلا تتكأف ، وقال الله جل شأنه في الحث على لسان الكلام : وقولوا للناس حسناً . وقال : فقولا له قولاً لينا ، وقال : وقل لها قولاً كريماً . وقال : فقل لهم قولاً ميسوراً ... وقالوا : من لانت كلمته وجبت محبته . وقالت جدة سفيان بن عيينة له :

بُنِي لِمَنْ الرِّشْيَةُ هَيْنُ الْمَفْرَشِ اللَّيْنُ وَالطَّعْمُ

وَ مَنطِقٌ إِذَا نَطَقْتَ لَيْنٌ *

« قولها هَيْنُ : فالعرب تقول : رَجُلٌ هَيْنٌ لَيْنٌ وَهَيْنٌ لَيْنٌ ، وفي الحديث : الْمُؤْمِنُونَ هَيْنُونَ لَيْنُونَ كَالجِلِّ الْأَنْفِ إِنْ قُدَّتْهُ انْقَادًا وَإِنْ انْحَنَّتْ عَلَى صَخْرَةٍ اسْتِنَاخٌ » **جمل أنف** : أى مانوف ، أى يشتكى أنفه من خشاش أو بُرَّة^(١) أو خزيمة فى أنفه فلا يمتنع على قائده فى شىء للوجع ، فهو ذلول مُنقاد ، ومعنى المؤمنون كالجل الأنف : أنهم لا يريمون التشكى ، أى يُدِيمون التشكى بما بهم إلى الله وحده لا إلى سواه . أقول : وأحسن من هذا التفسير قول بعضهم : **الجل الأنف** : الذليل المُؤاتى الذى يأنف من الزجر ومن الضرب ويُعطى ما عنده من السير عفواً سهلاً ، كذلك المؤمن ، لا يحتاج إلى زجر ولا

(١) الخشاش : عويد من خشب يُدْتخَلُ فى عظم أنف البعير يشد به الزمام لىكون أسرع لا تقياهه . والبرة : ما يوضع فى لحم أنف البعير ويكون من صفر نحاس أبيض - أما الخزيمة فهى من شعر

عتاب ، وما لَزِيْته من حَقِّ صَبْرٍ عليه وقام به ، وهذا تفسير جميل ، وهو أليق
 بكلام سيدنا رسول الله . . . وسُئِلت عائِشة رضى الله عنها عن خُلقِ النبي صلى
 الله عليه وسلم فقالت : أو ما تقرؤون القرآن : وإنك لعلى خُلقٍ عظيم ... وقالوا :
 صفاء الأخلاق من نقاء الأعراق . «الأعراق جمع عرق وهو الأصل يقال رجل
 مُعْرِقٌ فى الحسب والكرم قالت قتيبة بنت النضر بن الحارث أو أخته :

أحمدٌ وآنتِ ضنءٌ نُجيبية فى قومها والفعلُ فُحلٌ مُعْرِقٌ

أى عريق النسب أصيل ، ويستعمل فى اللؤم أيضا تقول : إن فلانا لمُعْرِقٌ فى
 الكرم ، ومعرق فى اللؤم . والضمناء : الولد والأصل والمعدن ، وقال البحترى :

سلامٌ على تلك الخلائق إنما مُسَلِّمةٌ من كلِّ عارٍ ومأثمٍ

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص : ثلاثة من قرئش أحسنها أخلاقا وأصبها
 وجوها وأشدّها حياءً ، إن حدّثوك لم يكذبوك ، وإن حدّثتهم بحقٍ أو باطل
 لم يكذبوك : أبو بكر الصّدّيق ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعثمان بن عفان
 رضى الله عنهم ...

وفى الأثر أيضا : أن حُسنَ الخلقِ وحُسنَ الجوار يُعمران الديار ويّزيدان
 فى الأعمار . وفى كتاب للهند : من تزوّد خمسا بلغته وآتته : كَفُ الأذى ،
 وحسن الخلق ، ومُجانبة الرّيب ، والنُّبُلُ فى العمل ، وحسن الأدب

نهيهم عن سوء الخلق

وقالوا : سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الصبرُ العسل « الصبر هو هذا
 الدواء المرّ ولا يسكن إلا فى ضرورة الشعر » وفى الحديث : من ساء
 خُلقه عَذب نفسه ، وقال العتّابى :

وَكُنْتُ أَمْرًا لَوْ شِئْتُ أَنْ تَبَاغِ الْمَنَى بَلَغْتَ بِأَذْنِي غَايَةَ تَسْتَدِيمِهَا
 وَلَكِنْ فَطَامُ النَّفْسِ أَثْقَلُ تَحْمِيلًا مِنْ الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ حِينَ تَرُومُهَا
 وَقَالَ عِقَالُ بْنُ شَبَّهَةَ : كُنْتُ رَدِيفَ أَبِي ، فَلَقِيَهُ جَرِيرٌ عَلَى بَعْلِ ، فَنِيَّاهُ
 أَبِي وَالظَّفْعُ ، فَلَمَّا مَضَى قُلْتُ : أَلْبَعْدَ مَا قَالَ لَنَا مَا قَالَ ! قَالَ : يَا بُنَيَّ ، أَمَا رَسَّحُ
 جُرْحِي ! . وَقَالَ ابْنُ الْحَنْفِيَّةِ : قَدْ يُدْفَعُ بِاحْتِمَالٍ مَكْرُوهٍ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ ...
 وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ : إِنْ لَمْ نَسْكَشِرْ فِي وَجْهِهِ قَوْمٌ وَإِنْ قَلُوبَنَا لَتَقْلِبُهُمْ (١)
 وَقَالُوا : لِأُمْدَارَةِ لِلْخَلْقِ السَّيِّئِ التَّسْبِيحِ ، كَالشَّجَرَةِ الْمُرَّةِ لَوْ طَلَيْتَ بِالْعَسَلِ
 لَمْ تُثْمِرْ إِلَّا مُرًّا ، وَكَذَنَّبِ الْكَلْبِ لَوْ أَدْخَلْتَهُ الْفَالِقَبَ سَنِينَ لَعَادَ إِلَى أَعْوِجَاجِهِ .
 وَمِنْ طَرَفِهِمْ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ بَعْضِهِمْ لِأَحْمَدَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ : لَقَدْ أُعْطِيتَ مَا لَمْ
 يُعْطَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : إِنْ لَمْ تَخْرُجْ مِنْ ذَلِكَ لِأَضْرِبَكَ ،
 فَقَالَ الرَّجُلُ : إِنْ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ : رَلَوْ كُنْتَ فَمَا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفْضُوا
 مِنْ حَوْلِكَ وَأَنْتَ فَظٌّ وَنَحْنُ لَا تَنْفُضُ مِنْ حَوْلِكَ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : حَطَّيْتُ
 امْرَأَةً ، فَأَجَابَتْنِي فَقَالَتْ : إِنْ بِيئَ الْحَاقُ ؛ فَقَالَتْ : أَسْوَأُ خُلُقًا مِنْكَ مِنْ يُلْجِئُكَ
 إِلَى سُوءِ الْحَاقِ ... وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِرَجُلٍ بِيئَ الْحَاقُ : إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَغْيِرَ
 خُلُقَكَ وَإِلَّا فَلْيَسْعُكَ مِنْ أَخْلَاقِنَا مَا ضَاقَ بِهِ ذَرْعُكَ ...

صعوبة تغيير الطباع والمتخلق يرجع إلى شيمته

قَالُوا فِي ذَلِكَ : تَأْبَى الطَّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ ؛ وَ: الْعَادَةُ طَبِيعَةٌ ثَانِيَةٌ ، وَ:
 ظَلَمْتُ امْرَأَةً كَلَّفْتَهُ غَيْرَ خُلُقِهِ وَهَلْ كَانَتْ الْأَخْلَاقُ إِلَّا غَرَائِزًا
 وَ: كُلُّ إِنَاءٍ بِمَا فِيهِ يَرَشَحُ

(١) نكشر في وجوه قوم: أي نبسم في وجوههم وأصل الكشر: بدو الإنسان
 يكون ذلك في الضحك وغيره؛ وتقلبه: نبغضهم

و : * إِنَّ الْخَلْقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخُلُقُ *

وقال ذو الإصْبَعِ العَدَوَانِي :

وَمَنْ يَبْتَدِغُ مَا لَيْسَ مِنْ خِيَمِ نَفْسِهِ يَدْعُهُ وَيَغْلِبُهُ عَلَى النَّفْسِ خِيَمُهَا

« الخيم : السجية والطبيعة والأصل » وقال زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُئْسَى :

وَمَهْمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَتَخَفَى دَلَى النَّاسِ تُعَلِّمُ
وقال أبو تمام :

وَالسِّيفُ مَالِمٌ يُلْفَ فِيهِ صَقِيلٌ مِنْ سِنَخِهِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِصِقَالِ

« السنخ : الأصل ، والصقال : الجلاء » وقال المتنبي :

وَكُلُّ يَرَى طُرُقَ الشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى وَلَكِنْ طَبَعَ النَّفْسِ لِلنَّفْسِ قَائِدٌ
وقال :

وَلِلنَّفْسِ أَخْلَاقٌ تَدُلُّ عَلَى الْفَتَى أَكَانَ سَخَاءً مَا أُنَى أَمْ تَسَاخِيَا

مداراة الناس

قال النّظام^(١) : مَا يَسْرِفُ تَرْكُ الْمُدَارَاةِ وَبِئْسَ حُرْمُ النِّعَمِ ، فَقِيلَ لَهُ : وَبِمَ ؟

قال : لِأَنَّ الْأَمْرَ إِذَا غَشِيَتْكَ فَشَخَّصَتْ لَهُ أَرْدَاكَ ، وَإِذَا طَاطَأَتْ لَهُ

تَحَطَّأَكَ ... وقال شاعر :

وَأَنْزَلَنِي طُولُ النَّوَى دَارَ غُرْبَةٍ إِذَا شِئْتُ لَا قَيْتُ امْرَأَةً لِأَشَاكِهِ

خَامَتُهُ حَتَّى يَقَالَ سَجِيَّةٌ وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلٍ لَكُنْتُ أَعَاقِلُهُ

وقال بشار بن برد :

وَمَا أَنَا إِلَّا كَالزَّمَانِ إِذَا صَحَّأَ صَحَوْتُ وَإِنْ مَاتَ الزَّمَانُ أَمُوتُ

« ما يموت بوقا وموقا وووقا واستمات ، كل أولئك : سَمَقٌ فِي »

(١) هو إبراهيم بن سيار شيخ الجاحظ وأحد كبار المعتزلة .

غباوة، ويقال: فلان أحق مائق: والعرب تقول: أنت تائق وأنا متق، أي أنت ممتلئ غضبا وأنا سبي الخلق، فلا تنفق، وقال معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه: لو كان بيني وبين الناس شجرة ما انقطعت، لأنهم إذا جذبوها أرسلتها، وإذا أرسلوها جذبتوها، وهكذا كان معاوية نبي الحليم والآناة والكياسة والرياسة والسياسة.

من حسن خلقه وخلقه ومن اختلف خلقه وخلقه

قال ابن الرومي:

كل الخلال التي فيكم محاسنكم تشابهت فيكم الاخلاق والخلق
 كأنكم شجر الأترج طاب معاً خملاً ونوراً وطاب العود والورق
 « الأترج والشترنج: ثمر من فصيلة الليمون ويسميه أهل الشام الكبّاد،
 والحل بفتح الحاء - والكسر لغة - ثمر الشجرة؛ ومن دقّ ثقت هذه اللغة الكريمة
 أنها تفرق بين الحمل الذي يحمل على ظهر أو رأس، وبين الحمل الذي يحمل
 في البطن من الأولاد في جميع الحيوانات، فالأول يكسرون حاءه، والآخر
 يفتحون حاءه، قائلين: ما كان لازماً للشيء فهو حمل وما كان بائناً فهو حمل
 وأما حمل الشجرة فلما كان شديداً بحمل المرأة لا اتصاله فتحوا حاءه ولم كان
 يُشبهه حمل الشيء على الرأس لبروزه من جهة ولأنه ليس مستبطناً كحمل المرأة
 من جهة أخرى كسروا حاءه؛ والنور بفتح النون: الزهر، وفي الأثر:
 ما أحسن الله سخاقاً أحد وخلقه فأطعمه النار... ووصف بعضهم رجلاً فقال:
 يقرى العين جمالا والأذن بياناً^(١)... وقال قتادة: ^(٢) ما بعث الله نبياً إلا حسن

(١) يقرى يريد: يطعم، ولك أن تضع مكان يقرى: يغترق، من قولهم في الحسناء إنما تغترق العين أي لا تدعها تنظر إلى غيرها جمالا (٢) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة

الخُذِّقْ حَسَنَ الْوَجْهِ ... وقال الفلاسفة: قَلَّ صَوْرَةُ حَسَنَةٍ تَتَّبِعُهَا نَفْسٌ رَدِيئَةٌ.
 وقال جالينوس: ينبغي للرجل أن يَنْظُرَ إِلَى وَجْهِهِ فِي الْمِرْآةِ، فَإِنْ كَانَ
 حَسَنَ الْوَجْهِ جَعَلَ عِنَايَتَهُ أَنْ يَضُمَّ إِلَى جَمَالِ وَجْهِهِ كَمَا لَخُلُقِهِ وَكَمَا لِنَفْسِهِ،
 وَإِنْ رَأَى صَوْرَةَ سَمِيحَةٍ تَحَرَّزَ مِنْ أَنْ يَكُونَ ذَمِيمَ الْخُلُقِ ...
 ونظر فيلسوف إلى غلام حَسَنِ الْوَجْهِ يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ فَقَالَ: أَحْسَنْتَ، إِذْ قَرَأْتَ
 بِحُسْنِ خُلُقِكَ حُسْنَ خُلُقِكَ ... ونظر فيلسوف إلى رجل حسن الوجه خيبت
 النَّفْسَ فَقَالَ: بَيْتٌ حَسَنٌ فِيهِ سَاكِنٌ نَذْلٌ ... ورأى آخرُ شاباً جميلاً فقال:
 سَلَبَتْ حَمَائِينَ وَجْهَكَ فَمَضَايَلُ نَفْسِكَ ... وقالوا:

فَلَا تَجْمَلِ الْحُسْنَ الدَّلِيلَ عَلَى الْفَقْرِ فَكُلُّ مُصْقُولٍ الْحَدِيدِ يَمَانِ
 وَ: أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَاءَ يَخْلُفُ طَعْمَهُ

وإن كان لَوْنُ الْمَاءِ فِي الْعَيْنِ صَافِيًا (١)

واستعرض المأمون الجُندَ فَرَّ بِهِ رَجُلٌ دَمِيمٌ، فَاسْتَنْطَقَهُ، فَرَأَاهُ أَلْسَكَنَ،
 فَأَمَرَ بِاسْقَاتِهِ وَقَالَ: إِنَّ الرُّوحَ إِذَا كَانَتْ ظَاهِرَةً كَانَتْ وَسَامَةً، وَإِذَا كَانَتْ بَاطِنَةً
 كَانَتْ فَمَاحَةً، وَأَرَاهُ لَا ظَاهَرَ لَهُ وَلَا بَاطِنَ ...

«وبعد» فسيمرُّ بك كثير من عبقرياتهم فيما يتصل بهذه المعاني ويمتُّ إليها بسبب
 واصل، في باب الطبائع ... وباب الصداقة والصديق ... وباب عبقرياتهم
 في معاني شتى ...

التقوى

وهالك اللون الأخير من ألوان البرِّ، ولقد أسمعتك فيما أسلفنا أن التقوى

(١) الألكه كان من كبار علماء التابعين ولد سنة ٦٠ وتوفي سنة ١١٨ هـ

(١) خلف الماء واللبن والطعام من باب دخل: إذا تغير طعمه أو ريحه

هي عماد البر وقوامه، على جميع ألوانه، أي أنه مادام هناك تقوى بمعناها الصحيح كان هناك صلة الرحيم، وكان هناك الإحسان، وكان هناك مكارم الأخلاق، وكان هناك الخير كله والبر في جميع ما يشتمل عليه وينتظمه، ولنورد عليك بادئ ذي بدء قولهم في التقوى والمراد بها، ثم نردف ذلك بعقوباتهم في التقوى وما يتأشب إليها... ويجرى منها على عرق...

معنى التقوى

التقوى في اللغة من الاتقاء، بمعنى اتخاذ الوقاية، وفي اصطلاحهم: صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك، وقال أبو البقاء في كلياته: التقوى - على ما قاله علي رضي الله عنه - ترك المعصية وترك الاغترار بالطاعة، وهي التي يحصل بها الوقاية من النار والقوز بدار الفرار، وغاية النقي البراءة من كل شيء سوى الله، ومبدؤها اتقاء الشرك، وأوسطها اتقاء الحرام، وغايتها منتهى الطاعات، قال: وقد تسمى التقوى خوفاً وخشية... أقول:

فإن لا يَكُنْها أو تَكُنْه فإنه أخوها غَدَتْه أمه بلبانها^(١)

وقد عقّد الإمام أبو حامد الغزالي للخوف كتاباً في كتابه الإحياء جاء فيه: إن التقوى والورع أسامٍ اشتقت من معانٍ شَرُّها الخوف، فإن خات من الخوف لم تُسمَ بهذه الأسامي... أقول: ومن أروع ما قيل في الخوف قوله تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء... أقول: وإذن يكون: كلما ازداد المرء علماً بالله سبحانه ازداد منه خوفاً، كما جاء في الأثر: أعدكم بالله أشدكم له.

(١) لابي الأسود الدؤلي في نبيذ التمر، واللبن بكسر اللام، يقال: هو أخوه بلبان أمه ولا يقال بلبن أمه، إنما اللبن: الذي يشرب من ناقة أو شاة أو غيرهما من البهائم.

خشية... ومن كان من العلماء لا يخشى الله ولا يُراقبه في سائر أحواله ، فليس من العلم بالله في كثيرٍ ولا قليل... وما أجمل ما يقول عبد الله بن همام السلولي^(١) في وصف هذا الصنف من العلماء :

إِذَا نَصَبُوا لِلْقَوْلِ قَالُوا فَأُحْسِنُوا وَلَكِنْ حُسْنَ الْقَوْلِ خَالَفَهُ الْفِعْلُ
وَذَهُوَالنَّاسِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضَعُونَهَا أَفَاوِيقَ حَتَّى مَا يَدِيرُ لَهَا تُعَلُّ
« قوله : إذا نصبوا الخ يريد : إذا نصبوا أنفسهم للقول وأعدوها له ، والأصل في النصب : أن يقوم رافعاً رأسه ؛ ورضع يرضع كضرب يضرب في لغة قيس ، وكسميع يسمع في لغة أهل الحجاز ، فقوله : يرضعونها : تقرأ

(١) من التابعين ، وعداده في أهل الكوفة ، وبيتاه المذكوران من أبيات له قالها للنعمان بن بشير الأنصاري عامل معاوية على الكوفة ، وكان معاوية أمر لاهل الكوفة بزيادة عشرة دنانير في أعطياتهم فأبى النعمان أن ينفذها لهم فقال عبد الله :

زِيَادَتَنَا نِعْمَانُ لَا تَحْمَرُّمَنْنَا خَفِيَ اللَّهُ فِينَا وَالْكِتَابَ الَّذِي تَتْلُو
فِيَا نِكَ قَدْ حُمِلَتْ مِنَّا أَمَانَةٌ بِمَا عَجَزَتْ عَنْهُ الصَّلَاحَةُ الْبُزْلُ
وَإِنْ يَكُ بَابُ الشَّعْرِ يُحْسِنُ فَتَنْجَهُ فَلَا يَكُ بَابُ الْخَيْرِ مِنْكَ لَهُ قُفْلُ
فَقَدْ زَلَّتْ سُلْطَانًا عَظِيمًا فَلَا يَكُنْ لِغَيْرِكَ جَمَاتُ النَّدَى وَلَكَ الْبُخْلُ
وَأَنْتَ أَمْرٌ حَلَوُ اللِّسَانِ بَلِيغُهُ فَا بَالُهُ عِنْدَ الزِّيَادَةِ لَا يَجْلُو
وَقَبْلَكَ قَدْ كَانُوا عَلَيْنَا أَيْمَةً يَهْمُهُمْ تَقْوِيمُنَا وَهُمْ عُصْلُ

والصلاخمة : الصلاب الممانعة وفي الحديث : عرضت الأمانة على الجبال الصم الصلاخم وأصل الصلخم : البعير الجسم الشديد الماضي ، والبزل : جمع بازل ، ويقال رجل بازل على التشبيه بالبعير ، يعنون بذلك كمال عقله وتجربته والتكامل قوته . وجمات : كثيرات ، وقوله : كانوا علينا أئمة فأئمة فاعل كانوا وهذا على لغة أكلوني البراغيث وإذا أرجعت الضمير في كانوا إلى المذكورين في البيت الثاني فتكون أئمة خبر كانوا ، وعصل : فالعصل الاعوجاج وكل معوج فيه صلابة : أعصل .

بكسر الضاد وفتحها؛ وأفاريق جمع أفواق جمع فيقه بكسر الفاء ، وهو اسم للّبن الذي يجتمع بين الحلبتين ، يريد : أنهم يرضعونها ثم يتركونها مقسدار ما يجتمع اللبن فيرضعونها، وهكذا ، والشعل بضم الشاء وفتحها : خِلف زائد صغير من أخلاف الناقة وصرع الشاة لا يدُرُّ من اللبن شيئا ، يَصْفُهُم بأنهم أحرص الناس على طلب المال يستزفونه من خزائنه حتى لم يبق منه شيء ، وإنما ذكر النعل للبالغة في الارتضاع ، والشعل لا يدُرُّ ، وهي مبالغة حسنة في معنى الاستئصال والتفاد ،

ومما جاء في الخوف أيضا قوله سبحانه : وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ، وقوله جل شأنه : وخافون إن كنتم مؤمنين ، وقوله : وهدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ، وقوله تعالى : إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ؛ وقال عز وتقدس : واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه... قال سفيان بن عيينة : لولم يُنزل الله تعالى علينا إلا هذه الآية لكان قد أعذر « أعذر : بلغ أقصى الغاية في العذر ، أى صار معذورا عندك إذ حذرك أن لا تحذره وهو يعلم ما في أنفسنا ؛ ومن هذا المثل : من أنذر فقد أعذر ،

ومما يؤثر في باب الخوف قوله صلى الله عليه وسلم : رأس الحكمة مخافة الله -

الحكمة

وهذا الحديث الشريف - على وضوحه وجماله وإشراقه وإنارته، وعلى أنه مما كنا نستظهره إبانَ الحداثة، إذ يلتفتوننا إياه أوائل التعاليم في المكاتب لا بدَّ من التبسط في القول عليه . قال صاحب القاموس : الحكمة تأتي بمعنى العدل ^(١) والعلم ^(٢) والحلم ^(٣) والثبوت ^(٤) والقرآن والإنجيل ^(٥) ووضع الشيء في موضعه وصواب الأمر وسداده ، وقال أبو البقاء في كليته - بعد أن أورد مقال صاحب القاموس - : والحكمة في عرف العلماء : استكمال النفس الإنسانية ، باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة قدرَ طاقتها ، قال : وقال بعضهم : الحكمة هي : معرفة الحقائق على ما هي عليه بقدر الاستطاعة ، وهي العلم النافع المُعَبَّرُ عنه بمعرفة مالها وما عليها ، المُشار إليه بقوله تعالى : ومن يُؤت الحكمة فقد أُوتى خيرا كثيرا . وإفراطها التجرُّبَة ^(٥) وهي استعمال الفكر فيما لا ينبغي كالمُتشابهات ^(٦) ، وعلى وجه لا ينبغي كمنخالفة

(١) ضد الجور ، فلا يميل بصاحبه الهوى حتى يجور في الحكم

(٢) أى العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاها

(٣) هو ضبط النفس عندهميجان الغضب (٤) فالحكمة في قوله تعالى : ويعلمه الكتاب والحكمة وقوله : وآتاه الله الملك والحكمة وقوله : وآتيناها الحكمة : بمعنى النبوة والرسالة ، كما أنها تأتي بمعنى القرآن والإنجيل ، لتضمن كل منهما الحكمة في لونها - العلية والعملية .

(٥) يقال في اللغة : رجل مُجرَّب : خب خداع خبيث منكر والظاهر أن الجرِّبَة والجرِّب والقرَّب من معربات (٦) قال صاحب اللسان - بعد أن أورد كلاما كثيرا في معنى المتشابه من القرآن وفي الحديث - في صفة القرآن : آمنوا بمتشابهه واعملوا بحكمه :

الشرائع؛ وتفرطها: الغباوة التي هي: تعطيل القوة الفكرية والوقوف عن اكتساب العلم... انتهى .

« وبعد » إن المُسْتَقْصِيَّ لكل ما أوردوه من معاني هذه الكلمة - الحكمة - يرجع إلى إحكام الشيء ، أي إتيانه ، كيلا يتسرب إليه خللٌ أو فسادٌ ، وكى يباغ ذُرُوةَ الكمالِ جُهدَ الاستطاعة ، حتى قيل لكل من يُحسن دقائق الصناعات ويُثَقِّنُها : حكيم ، ومن ثم يقال للعالم العامل بعلمه : حكيم ، وللرجل العاقل المُهذَّبِ المُوفِّقِ : حكيم ، وللقاضى العادل فى أحكامه : حكيم ، وللرجل المجرب الذى حنكته التجاريب ووثقتته حتى لا يصدر عنه إلا كلُّ ما هو سَدَادٌ : حكيم ، ويقال للمواعظ والأمثال التى ينتفع الناس بها : حكمة ، ولكل كلام نافع يمنع من الجهل والسَّفَهَ : حكمة ، ومن ذا تسميةُ القرآن والإنجيل وسائر الكتب المنزلة ، وكلُّ ما يحذرو على حذوها ، مما يتضمن مواعظ وآدابا وأخلاقا فاضلة : حكمة ، إذ كل أولئك يرتدُّ إلى معنى الإتيان والتوثيق والإصابة والسَّدَاد ... وإذن يسكون معنى قوله صلى الله عليه وسلم : رأس الحكمة مخافة الله : أس الحكمة وقواها : الخرف منه سبحانه ، لأن الحكمة من شأنها أن تمنع النفس عن كل ما نهيها عنه ، ولا يحذر المرء على العمل بها إلا الخوف منه ، عز وتقدس ، ومتى كان هذا الخوف شعاره حاسب نفسه على كل خطرة ونظرة ولذة ؛ وبذلك تكون مخافة الله آكد أسباب النجاة ولا تسمُّ الحكمة إلا بها ...



المتشابه : ما لم يتلق معناه من لفظه ، وهو على ضربين : أحدهما إذا رتد إلى المحكم عرف معناه والآخر ، مالا سبيل إلى معرفة حقيقته ، فالمتبع له متبع للعتة لانه لا يكاد ينتهى إلى شىء تسكن نفسه اليه وراجع اللسان مادة شبه ،

هذا، ويُعجبني من الشعر في باب الخوف من الله قول محمود الوراق^(١) :
 يَانَاظِرًا يَرْنُو بَعِيْنِي رَاقِدٍ وَمُشَاهِدًا الْأَمْرَ غَيْرَ مُشَاهِدٍ^(٢)
 مَتَيْتَ نَفْسَكَ ضَلَّةً وَأَبْحَثْتَهَا طُرُقَ الرَّجَاءِ وَهَنَّ غَيْرُ قَوَاصِدٍ^(٣)
 تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي دَرَكَ الْجِنَانِ بِهَا وَفُورَ الْعَابِدِ^(٤)
 وَنَسِيْتَ أَنْ اللَّهَ أَخْرَجَ آدَمًا مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدٍ

وقال الحسن البصري: إن خوفك حتى تلتق الأمن، خير من أمنك حتى تلتق الخوف... وقال: يذبحني أن يكون الخوف أغلب على الرجاء، فإن الرجاء إذا غلب الخوف فسد القلب... وقال بعضهم: قلت لسفيان: بلغني في قول الله تعالى: (إِلَّا مَنْ أتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) أنه الذي يلقى ربه وليس فيه أحد غيره، فبكي وقال: ما سمعت منذ ثلاثين سنة أحسن من هذا التفسير... وقالوا: من خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء... وقال الفضيل بن عياض: إني لآستحي من الله أن أقول توكلت على الله، ولو توكلت عليه حق التوكل، ما خفت ولا رجوت غيره.

« وأما بعد » فهو معلوم من الدين بالضرورة أن الله سبحانه خلق الإنسان وهو يعلم ما تؤسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد^(٥) ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد^(٦)، وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين

(١) هو محمود بن الحسن الوراق البغدادي مولى بني زهرة يكنى أباحسن، شاعر كثير الشعر جيدة، وبلغته في الحكم والمواعظ والزهد؛ ترجم له صاحب فوات الوفيات.
 (٢) يرنو: ينظر (٣) غير قواصد، يريد: وهي حائرة غير مستقيمة
 (٤) درك: اسم من الإدراك
 (٥) حبل الوريد: عرق في العنق (٦) عتيد: حاضر

يعلمون ما تفعلون^(١) :

إِنْ مَنْ يَرْكَبُ الْقَوَاحِشَ سِرًّا حِينَ يَخْلُو بِسِرِّهِ غَيْرُ خَالٍ
كَيْفَ يَخْلُو وَعِنْدَهُ كَاتِبَاهُ شَاهِدَاهُ، وَرَبُّهُ ذُو الْجَلَالِ^(٢)

وكذلك هو معلوم أن الناس قواري الله في أرضه^(٣)، أي أن الناس ولا سيما الصالحون منهم - شهود الله في أرضه - لأنهم يتتبع بعضهم أحوال بعض، فإذا شهدوا لإنسان بخير أو بشر فقد أوجب^(٤) ... وبعبارة أخرى : إن على كل إنسان رقباء فهم له بالمِرْصاد، يُرْتَوْنَ عَلَيْهِ^(٥)، ويجمعون بأهم إليه، ولا تكاد تخفى عليهم خليقة لئدبه :

وهما يكن عند امرئ من خايقة وإن خالها تخفى على الناس، تعلم
أليس في نفس كل إنسان قبس من نور الله الذي هو نور السموات والأرض ؟ والناس بهذا النور - ولا سيما الصالحون منهم، أولئك الذين يبدو فيهم هذا النور خالصاً غير مشوب برين وطبع وعجم - يرون بعضهم من بعض ما قد يتوهم الجاهلون أنه لا يرى، فكان الناس لذلك شهود الله في

(١) كل هذه آيات كريمة مقتبسة من القرآن الكريم (٢) هذان البيتان لتابعة بني شيان واسمه عبد الله بن المخارق بن سليمان، شاعر بدوي كان يفد إلى ملوك بني أمية بالشام وأكثر من مدح منهم الوليد بن يزيد (٣) حديث شريف، وقواري : أخذه من أن الناس يقسرون الناس، أي يتبعونهم فينظرون إلى أعمالهم، وقال الزمخشري : المسلمون قواري الله في الأرض، أي أمناؤه وشهداؤه الميامين، شهبوا بالقواري من الظير وهي الخضرة التي يتيمنون بها

(٤) يقال : أوجب الرجل : إذا عمل عملاً يوجب له الجنة أو النار، والموجبة : الكلمة أو الفعلة توجب لقائلها الجنة أو النار

(٥) زناً عليه : إذا ضيق عليه، وعامة المصريين يستعملون اليوم هذا الحرف

بمعناه الصحيح

الأرض ، فإذا شهدوا لإنسان بخير أو بشر ، فلكل نفس ما كتبت وعليها ما كتبت ، وكلُّ تجزئٍ بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وهذا كله حتى لا سبيل إلى الإلحاد فيه ... وشيء آخر ، وهو أن من كان شعاره خوف الله في السرِّ والعلانِ وحسنت سريرته ، رشده وحسنت سيرته ، ومن عراه الله من هذا الشعار وساعت سريرته ، غيَّ وساعت سيرته . وجملة القول : أن خوف الله وما يستتبعه من قلة الأثرات لما سواه من الخلق في سبيل الحق ، مما يورث صاحبه ما يلقون عليه اليوم « الشجاعة الأدبية » ، فضلاً عن الجرأة والإقدام وسائر الخلال الكريمة النبيلة . فخوف الله كما ترى أس من أسس الأخلاق ، وهذا مصداق الحديث الشريف ، رأس الحكمة مخافة الله ، ...

هذا ، وقد يظن ظان أن مخافة الله تغزها الخوف من عقابه والطمع في ثوابه ، فن عمل صالحاً فكى يُثاب ويُجزى الجزاء الأرفى ، ومن أتلف فكى ينجو من عذاب النار ، وهذا لعمري ، وإن عُدَّ خوفاً ، بيد أنه أذنى درجات الخوف ، وهو خوف العامة وأشبه العامة . قال بعض الحكماء : إني لأستحي من ربي أن أعبيده زجاء الجنة فأكون كاللاجير ، أو خوف النار فأكون كعبد السوء ، إن خاف بحمل وإن لم يخف لم يعمل ، لكن يستخرج من حب ربي ما لا يستخرجه غيره .. وقال بعضهم : من عبد الله بعوض فهو لثيم . وقال بعض الصوفية : لو لم يكن لله ثواب يُرجى ولا عقاب يُخشى لكان أهلاً أن لا يعصى ، ويُذكر فلا يُنسى ، بلا رغب في ثواب ولا رهب من عقاب ، لكن لُحبه ، وهو أعلى الدرجات ، أما تسمع قول موسى عليه السلام : وعجلتُ إليك رب لترضى ، أقول : . إذن فأفضل الأعمال ، ما كان

للحقِّ والخير والجمال والمثل الأعلى في ذات الله العليِّ الأقدس الذي له
الاسماء الحسنى (١).

وَلْتَفْعَلِ النَّفْسُ الْجَمِيلَ لِأَنَّهُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ لِأَجْلِ ثَوَابِهَا (٢)
أما الثواب والعقاب فالله سبحانه وما يُعِدُّ لعبده من ذلك، وحقيق بالعباد أن
يُحسن ظنه بربه ويرجو لديه رحمة التي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وليسكن كما قال محمد بن
وهيب :

وإني لأرجو اللهَ حتى كأنني أرى بمجميل الظنِّ ما الله صانع
وسيمرُّ عليك قريبا طرفٌ من قولهم في الرجاء .

عقربياتهم في التقوى

ولناخذ الآن في عقربياتهم في التقوى : قال الله سبحانه : « إن أكرمكم عند
الله أتقاكم » قال الإمام البيضاوي في تفسيره : فإن التقوى بها تكمل النفوس
وتفاضل الأشخاص ، فمن أراد شرفا نليتيمسه فيها ، كما قال عليه الصلاة والسلام :
« مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَامٌ فَلْيَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْهُ
بِمَا فِي يَدَيْهِ ... » أقول : هذا كلامٌ عُلوِيٌّ مُعَرَّقٌ له في الصدق والحق والجمال
والمثل الأعلى .

(١) الحسنى : تأنيث الاحسن يقال : الاسم الاحسن والاسماء الحسنى . والاسماء
الحسنى معروفة وهي ٩٩ اسما ، النظر نهاية الأرب ج ٥ ص ٣٢٦ ، ومرادنا بقولنا
« والله الاسماء الحسنى : الصفات ، وهي الوحدانية والقدرة الى آخر مسميات هذه الاسماء
الحسنى ... » وقد جاء في القرآن الكريم : « والله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذنوب
يلحدون في اسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » سورة الاعراف ،
(٢) للمعري ، وقد تقدم هذا البيت صدر باب البر والتقوى .

كَلِمَةٌ فِي التَّوَكُّلِ

« وبعد » فللمناسبة ذكر التوكل واقتراينه بالتقوى فيما أوردنا عليك من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وإشادة الإسلام به، والحث على أن يكون شعار المؤمن في كل أسبابه، رأينا أن نُسَلِّمَ به وبحقيقته إماما . فنقول : التوكل : كلمة يراد بها أمران ، لا يُعَدُّ التوكل توكلا على الحقيقة إلا إذا تحققا معا . فأما أول الأمرين فهو : الاعتقاد بأن الله عزَّ وتقدَّس هو وحده الذي بيده كلُّ شيء ، وأنه لا سواه الذي له مقاليد السموات والأرض ، وأن جميع الخلق فقراء كلُّ الفقر إلى عونه سبحانه ، وأنه :

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنُ اللَّهِ لِلْفَتَى فَأُولَ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ
وكل هذا مما لا يخفاء بأنه مما تقتضيه عقيدة التوحيد التي قام عليها الإسلام ؛
وأما الأمر الآخر فهو : أن لا يكون المرءُ وُكَلَّةً ، فلا يعتمد بعد الله إلا على نفسه ،
وهذا الأمر الثاني يكاد يكون ضَرْبَ قولهم اليوم « الاعتماد على النفس » أو
قول الطغرائي :

وَإِنَّمَا رَجُلٌ الدُّنْيَا وَوَأَحَدُهَا . مَنْ لَا يُعْوَلُ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَجُلٍ
والشرط الأول ، يقتضى الاعتقادَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، والشرط الآخر
يقتضى السعىَ والاحتياطَ لأمرِهِ ، ولا تَنَافُرَ بينهما أَلْبَتَّةَ ، وإنما هما ، لدى إنعام
النظر ، شيء واحد يُعْبَرُ عنه بالتوكل ...

جاء رجل إلى سيدنا رسول الله فقال له : إني أرسلُ ناصي وأتوكل ؛ فقال صلوات
الله عليه : بل اعْمَلْها وتوكل ... ومرَّ الشَّعْبِيُّ بِإِبِلٍ قَدْ نَشَا فِيهَا الْجَرَبَ ، فقال لصاحبها :
أَمَا تُدَاوِي إِبِلَكَ ؟ فقال : إن لنا عَجُوزاً تَتَّكِلُ عَلَى دَعَائِهَا ! فقال : اجْعَلْ مَعَ دَعَائِهَا

شيئا من القَطْران ... وقال أبو عبيدة بن الجراح لعمر رضى الله عنه حين كره طواعين الشام ورجع إلى المدينة : أتفرُّ من قدر الله ؟ قال : نعم ، إلى قسر الله ... فقال له أينفع الحدَرُ من القَدَرِ ؟ فقال : لسنا بما هناك في شيء « تأمل » إنَّ الله لا يأمر بما لا ينفع ولا ينهى عما لا يضرُّ « ألقى بالك » وقد قال تعالى : ولا تُلقُوا بأيديكم إلى التهلكة ، وقال تعالى : خذوا حذرکم ... وفي كتاب كفاية : لا يمنعُ العاقلَ يقينه بالقدر من تروِّي الخوفِ ، بل ليجمع تصديقا بالقدر وأخذاً بالحزم ، وقال شاعر :

والمراءُ تلقاهُ مضياعاً لفرصته حتى إذا فات أمرُ تائبِ القَدرا
وقال آخر :

إذا عُيروا قالوا مقاديرُ قدَّرت وما العارُ إلا ما تجرُّ المقاديرُ
وقال آخر :

وأولُّ عجزِ انقومِ عما ينوبهم تَدأفُهم عنه وطولُ التواكلِ
وقالوا في المثل : من العجزِ الإحالة على المقادير ...

وإليك ما قاله الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرحه على صحيح البخاري المسمى فتح الباري ^(١) تأييداً لهذا الذي قلنا في التوكل : والمراد بالتوكل : اعتقادُ ما دلَّت عليه الآية : وما من دابةٍ في الأرض إلا على الله رزقها ، وليس المراد به تركُ التَّسبُّبِ ، والاعتمادُ على ما يأتي من المخلوقين ، لأن ذلك قد يجرُّ إلى ضدِّ ما يُراد من التوكل ، وقد سُئِلَ أحمد - بن حنبل - عن رجلٍ جلس في بيته أو في المسجد وقال : لا أعملُ شيئاً حتى يأتي رزقي ، فقال : هذا رجلٌ جهلِ العلمِ « تأمل » فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله جعل رزقي تحت ظلِّ رُحْمِي ،

(١) ج ١١ ص ٢٥٦ طبعة عبد الرحمن محمد

وقال: لو توكلتم على الله حقَّ توكُّله لرزقكم كما ترزق الطير تغدو خصاصاً وتروح
بطاناً^(١)، فذكر أنها تغدو وتروح في طلب الرزق؛ قال: وكان الصحابة
يتجرون ويعملون في نخبيلهم، والقُدوة بهم... انتهى. ووبعد، فإن التوكل كما
ترى وعلى ضوء هذا الذي قلنا: أُس من أُسس الأخلاق، إذ أنه يَكْسِبُ
صاحبه الجُرأة والإقدام والشجاعة الأدبية، وأن لا يخشى في الحقِّ لومة لائم،
ويُنْفِي عنه الجُبْنَ والتخاذل والخوف من الموت والجزع لدى نزول المصائب
وما يجرى هذا المجرى؛ وَيَكْسِبُ صاحبه كذلك حُكْمَ الاعتماد على النفس
وأن لا يتسكىل بعد الله إلا على نفسه. ومصدّق هذا كله قوله صلى الله عليه
وسلم: من سرّه أن يكون أعزّ الناس فليكن بما في يدِ الله أوثق منه بما
في يده، ومن سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله.

عود إلى عبقرياتهم في التقوى

وقال سبحانه: ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب،
ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء
قدراً «مخرجاً»: مخلصاً من مضائق الدهر، وقوله سبحانه: من حيث لا يحتسب،
أى من وجه لا يخطر بباله ولا يقع في حسابه، وبالغ أمره: يبلغ ما يريد ولا
يفوته مراد ولا يُعجزه مطلوب، وجعل لكل شيء قدراً: أى تقديراً وتوقيتاً،
وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه، لأنه إذا علم أن كل
شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيته لم يبق إلا التسليم للقدر
والتوكل، ولا معنى للسخط وعدم الرضا «وعنه صلى الله عليه وسلم: إنى لأعلم

(١) أى تغدو بكرة وهى جياح وتروح عشاء وهى عمتلة الأجواف.

آيةً لو أخذ الناس بها لكفّتهم : ومن يتق الله... الآية . وقال سبحانه : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون . « حق تقاته أى حق تقواه ، ودو استفراغ الوُشع في القيام بما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه ؛ ومثله : فاتقوا الله ما استطعتم ، يريد : بالنعوا في التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع شيئاً ، وعن عبد الله بن مسعود : هو أن يُطاعَ فلا يُعصى ويُشكرَ فلا يُكفر ويُذكرَ فلا يُنسى ، وقيل : هو أن تُنزهَ الطاعاتُ عن الالتفات إليها ، وعن تَوْعُّعِ المجازاة عليها ، وقيل : هو أن لا تأخذَه في الله لونه لا نهي وأن يقوم بالقِسْط - العدل - ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه » وقال سبحانه : إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون « محسنون : أى في أعمالهم ، من أحسن الشيء : أتقنه » ... وقال بزُرْجُمِهْر : من قَوِيَ فليَقْوِ على طاعةِ الله ، ومن ضَعُفَ فليضعف عن معصية الله ... قال ابن المقفع : ليحْرِصِ البلغاءُ أن يزيدوا على هذه الكلمة - كلمة بزُرْجُمِهْر - حرفاً ، « يريد : أنها كلمة جامعة ، وقال عبد الملك بن مروان لبنيه في مَرَضِهِ : أوصيكم بتقوى الله ، فإنها أزينُ حُلَّةٍ وأحصنُ كَهْفٍ ، فقال مسلمة بن عبد الملك - وكان حاضراً - وأترِبُ إلى الصواب ، وأنفع في المآب : فقال عبد الملك : هاتان لا إلا وليان ... » الحُلَّةُ : كل ثوبٍ جديد ، ولا يقال له حُلَّةٌ إلا إذا اجتمع معه ثوب آخر وعمامة ، والكهف : الملجأ ، وأصله كالبيت المنقور في الجبل » وقال الخطيب :

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ يَجْمَعُ مَالٍ وَلَكِنْ التَّقَى هُوَ السَّمِيدُ
وتقوى الله خيرُ الزَّادِ دُخْرًا وعند الله للأنبيِّ مزيدُ
وما لا بُدَّ أن يَأْتِيَ : قَرِيبٌ وَلَكِنَّ الَّذِي يَمْنَعُ بَعِيدٌ

وقال الأعشى في أبياته التي مدح بها سيدنا رسول الله :

أَجِدُّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ نَبِيَّ الْإِلَهِ حَيْثُ أَوْصَى وَأَشْهَدَا
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرُحِلْ بَزَادٍ مِنَ التُّقَى وَلَا قَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ قَدِ تَزُودَا
نَدَيْتَ عَلَيَّ أَنْ لَا تَكُونَ مَكَاتَهُ فَمُتْرُصِدَ لِلْبُوتِ الَّذِي كَانَ أَرُصِدَا

« قوله : أجدك قال سيديويه : هو مصدر كأنه قل . أجداً منك ، ولكنه لا يستعمل إلا مضافاً ، وقال الأصمعي : أجدك ، معناه : أجدد هذا منك ونصبتها بطرح الباء ، وقال الليث : من قال : أجدك بكسر الجيم فإنه يستحلفه بجدّه وحقيقته ، وإذا فتح الجيم استحلفه بجدّه ، وهو بختمه تقول : أجدك لا تفعل كذا ، وأجدك لا تفعل كذا . وأرصد : أعدّ ، وقال لييد :

إِنَّ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرٌ نَفَلٌ وَيَاذَنْ اللَّهُ رَبِّي وَعَجَلٌ
أَحْمَدُ اللَّهِ فَلَا زِنْدَ لَهُ بِيَدَيْهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَتَلٌ
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلُّ

« النزل : الغنيمة والجمع أنزال ، ثم قال لييد : ويأذن الله وتسميله ربّي ، أي بطلّي ، وعجل : أي سرعني ، فحذف ياء الإضافة للوزن : يقول ، إن الحركة والسكون بيد الله ، ولا ندّ له : لا مثل له ، ويديه الخير : أي بقدرته التي هي كالألة في أفعاله تعالى ، كاليدين في أفعالنا ، وثنية اليد للبالغة في التشبيه ، وما شاء فعل : أي ما أراه فعله وبين ذلك بالبيت الثالث ،... وقال أبو نواس :

أَخِي مَا بَالُ قَلْبِكَ لَيْسَ يَنْتَقِي كَأَنَّكَ لَا تَنْظُرُ الْمَوْتَ حَقًّا
أَلَا يَا بَنَ الَّذِينَ فَنُؤُوا وَبَادُوا أَمَا وَاللَّهِ مَا ذَهَبُوا لَتَبَقِي
وَمَا أَحَدٌ بَزَادِكَ مِنْكَ أَحْظَى وَمَا أَحَدٌ بَزَادِكَ مِنْكَ أَشْقَى
وَلَا لَكَ غَيْرَ تَقْوَى اللَّهِ زَادٌ إِذَا جَعَلْتَ إِلَى اللَّهِ هَوَاتٍ تَرْتَقِي

« جعلت : يريد النفس أو الروح وإن لم يتقدم لذلك ذكر، واللهرات جمع لهاة وهي : لحمة حمراء في الخنك معلقة على عكدة اللسان ، وقال أبو التماهية :

أَطِعَ اللهُ بِجُهِدِكَ عَامِدًا أَوْ دُونَ جُهِدِكَ
أَعْطَى مَوْلَاكَ كَمَا تَطَلَّبُ مِنْ طَاعَةِ عِبْدِكَ

وقال بعض المتصوفة : من كان مع الله فقد هلك ، وإنما نجاح من كان الله معه ، وقال رجل للشبلي : متى يقرب العبد من ربه ؟ فزعم ثم أنشد :

مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْوَصَالِ أَهْلًا فَكُلُّ إِحْسَانِهِ ذُنُوبٌ

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى ابنه عبد الله فى غيبة غابها : أما بعد ، فإنه من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكره زاده ، ومن أقرضه جزاه ، فاجعل التقوى جلاء بصرك ، وعماد ظهرك ، فإنه لا عمل لمن لا يئنه له ، ولا أجر لمن لا حسنة له ، ولا جديد لمن لا خلق له ... « قوله : ومن شكره زاده : فسيمر عليك قريبا معنى الشكر ، وقوله : ومن أقرضه جزاه ، فالقرض فى الأصل : ما يعطيه الرجل أو يفعله ليجازى عليه ، ولما كان الله سبحانه لا يستقرض من عوز فقد قالوا فى مثل قوله تعالى : وأقرضوا الله قرضا حسنا ، و : من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له : إن القرض معناه الفعل الحسن من اتباع أمر الله وطاعته ، والعرب تقول لكل من فعل إليه خيرا : قد أحسنت قرضى وقد أقرضتني قرضا حسنا ، وفى الحديث : أقرض من عرّضك ليوم فقرك ... يقول صلوات الله عليه : إذا نال عرّضك رجل فلا تجازه ، ولكن استبق أجره موقرا لك قرضا فى ذمته لتأخذه منه يوم حاجتك إليه ، ... وقال عمر بن عبد العزيز : ليست التقوى قيام الليل ولا صيام النهار والتخليط فيما بين ذلك ، ولكن التقوى ترك

عاحرم الله وأداء ما افترض الله، فمن رُزق خيراً بعد ذلك فهو خيرٌ... وقال رجل لحكيم: أَرْضِنِي. فقال: إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تُسِيءَ إِلَى مَنْ يُحِبُّ فافعل، فقال: وهل يُسِيءُ المرءُ إِلَى مَنْ يُحِبُّ؟ قال: نعم؛ نَفْسِكَ إِنْ عَصَيْتَ اللَّهَ.

التقوى مع الجهل

قال الحسن البصري: أدركتُ قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: مَنْ سَمِعَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُهُ... وقال أيضاً: قَصَمَ ظَهْرِي عَالِمٌ لَا زُهْدَ مَعَهُ، وَزَاهِدٌ لَا عِلْمَ مَعَهُ، هَذَا يَدْعُو إِلَى جَهْلِهِ بِزُهْدِهِ، وَهَذَا يُنْقَرُ عَنْ عَلَيْهِ بِجُرْصِهِ. وقيل لأنوشروان: أى الناس أولاهم بالسعادة؟ فقال: أقلهم ذنوباً، قيل: ومن أقلهم ذنوباً؟ قال: أكملهم عقلاً... وسيد الكلام في هذا المعنى قوله تعالى: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ؛ وقد تقدم آنفاً. وفي الأثر: يكون في آخر الزمان قراء فسقةٌ وعبادٌ جهلةٌ، وركعةٌ من عالمٍ أفضلٌ من سبعين ركعةً من عابدٍ لا يعلمُ معه.

التماوت والإفراط في الخشوع

والأصل في هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم لرجلٍ جَدَّ في العبادة حتى غارت عيناه: إن هذا الدينَ متينٌ، فأوغل فيه برفق، ولا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ رَبِّكَ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لِأَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْتَى، وَلَنْ يُشَادَّ بِهَذَا الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ... «متين: أى شديد، من متن متانة: أشدُّ وقوى، قال تعالى: وَأَمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مُتِينٌ، وقوله: فأوغل فيه برفق: أى ادخل، وأصل الإفراط: الإفراط في السير والإبعاد فيه يقول: سيرٌ في الدين برفق ولا تحميل

على نفسك فتكلفها ما لا تطيق فتعجز وتترك العمل ، والمنبت : الذى أتعب
 دَابَّتُهُ حَتَّى عَطِبَ ظَهْرُهُ فَبَقِيَ مُنْقَطِعاً بِهِ ، من الانبتات وهو الانقطاع ...
 ورأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلاً مطأطأ رأسه ، فقال له : ارفع
 رأسك ، فإن الإسلام ليس بمريض ... ونظر يوماً إلى رجلٍ مظهرِ التُّسكِ
 مُتَمَاوِتٍ ^(١) خَفَقَهُ بِالدَّرَّةِ وَقَالَ : لَا تُمِثْ عَلَيْنَا دِينَنَا أَمَا تَكُ اللَّهُ ... ونظرت
 السيدة عائشة رضى الله عنها إلى رجلٍ كاد يموت تخافاً ^(٢) فقالت : ما لهذا ؟
 فقالوا : أحد القراء ، فقالت : قد كان عمر بن الخطاب سيّد القراء ، فكان إذا
 قال أسمع ، وإذ أُمِّى أَسْرَع ، وإذ أُضْرِبَ أَوْجَع ... وقال صلى الله عليه وسلم :
 إِنْ اللَّهُ بَعَثَنِي بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ وَلَمْ يَبْعَثْنِي بِالرَّهْبَانِيَّةِ ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي
 فَلَيْسَ مِنِّي ...

قلة اليقين فى الناس

قال الشعبي : لم يقسم الله بين الناس أقلّ من اليقين ... وقال ابن الرومى من
 همزته البارعة التى يعاتب فيها أبا القاسم الشطرنجى - ونذكر من أبياتها المختارة
 ما يصح أن يذكر هنا ، كما يصح أن يذكر فى باب القناعة قال :

مرحياً بالكفّافِ يأتى هنيئاً وعلى المتعباتِ ذيلُ العفّاء ^(٣)
 ضلّةً لامرئٍ يُشمّرُ فى الجَمْعِ لِعَيْشٍ مُشْمَرٍ لِلْفَنَاءِ ^(٤)

(١) المتماوت : الذى يظهر من نفسه الضعف من العبادة والزهد والصوم

(٢) التخافت : تكلم الخفوت ، وهو : الضعف والسكون

(٣) الكفّاف من الرزق : القوت وما كف عن الناس أى أغنى عنهم ، والمتعبات :

الأمور التى تتعب صاحبها فى تحصيلها ، والعفّاء : الدروس واحياء الأثر

(٤) ضل من يسكد فى جمع المال لعيش يسرع فى الزوال

دائِباً يَكُنْزُ القَنَاطِيرِ لِلْوَا رِثِ وَالْعُمُرُ دَائِبٌ فِي انْقِضَاءِ (١)
حَبِذَا كَثُرَةُ القَنَاطِيرِ لَوْكََا نَتِ لِرَبِّ الكَنُوزِ كَنْزٌ بَقَاءِ
إلى أن قال :

حَسْبُ ذِي إِرْبَةٍ وَرَأْيِي جَلِيَّ نَظَرْتُ عَيْنُهُ بِلَا غُلُوءِ (٢)
صِحَّةُ الدِّينِ وَالجَوَارِحِ وَالعِرِّ ضِ وَإِحْرَازُ مُسَكَّةِ الحَوْبَاءِ (٣)
تِلْكَ خَيْرٌ لِعَارِفِ الخَيْرِ مِمَّا يَجْمَعُ النَّاسُ مِنْ فُضُولِ الثَّرَاءِ
وَلَهَا مِنْ ذُرِّي الأَصَالَةِ عُشَا قُ وَأَلْبَسُوا بِتَابِعِي الأَدْوَاءِ
لَيْسَ لِلْمُسْكِرِ المُتَغَصِّصِ عَيْشُ إِنَّمَا عَيْشُ عَائِشٍ بِالْهِنَاءِ
إلى أن قال :

ظَلِمْتُ حَاجَتِي فَلَاذَتْ بِحَمَّةٍ وَ يَكُ فَاسَلَتْهَا السَّكْفُ القَضَاءِ (٤)
وَقَضَاءُ الإِلَهِ أَحْرَطٌ لِلنَّاسِ يَسُ مِنَ الأَمَّهَاتِ وَالآبَاءِ (٥)
غَيْرَ أَنْ اليَقِينِ أَضْحَى مَرِيضًا مَرَضًا بِاطْنًا شَدِيدَ الخَفَاءِ
مَا رَجَدْتُ أَمْرًا يُرَى أَنَّهُ يُؤْ يَنْ إِلا وَفِيهِ شَرِبُ أَمْرَاءِ (٦)
لَوْ يَصِحُّ اليَقِينُ مَا رَغَبَ الرَّأ غِبُ إِلا إِلَى مَلِيكَ السَّمَاءِ
وَعَسِيرٌ بُلُوغُ هَاتِيكَ جَدَا تِلْكَ عَلِيمًا مَرَاتِبِ الأَنْبِيَاءِ

(١) دائباً من دأب في عمله : مضى فيه بجد وتعب ، ويكنز من باب ضرب وأضر : يحرز الأموال ، والقناطير : يعني من الذهب والفضة وما إليهما
(٢) الإربة : الدهاء ، والغلواء : الغلو (٣) أي والحصول على ما يمسك الأبدان من الغذاء والشراب ، والخرباء : النفس (٤) لاذت : لجأت واحتضنت ، والحقو بفتح الحاء وكسرهما : الإزار أو معقده يقول : فتعلقت بأهدائك أي التجأت إليك فسلبتها وتركتها للقضاء (٥) أحوط : أعظم حفظاً وصيانة (٦) يقول : لم أجد أحداً يظن أن عنده يقينا بالله إلا وفي نفسه شوب من الشك

وقال حكيم : من الدلالة على قلة اليقين ، أنك تَحَيَّرُ يوماً عن خير الدنيا بالتسيئة : طمعاً في الرِّيح ، طفيف رِيح مع مافيه من الخطر، وتَأْتِي أن تُقْرِضَ اللهَ درهماً بثمانمائة ، مع زَعْمِكَ وقولك إن مُسْتَقْرِضَهُ مَلِيءٌ وَفِي هَكَذَا وَرَدَتْ هذه الكلمة في محاضرات الأدباء ، ويظهر أنها إما مُحَرَّفَةٌ وإما أنها مُعَاظَلَةٌ^(١) وهى على الرغم من ذلك تكاد تكون مفهومة ، فالظاهر أن قائلها يريد أن يقول : إنَّما يدلُّ على قلة اليقين أنك لو خَيْرْت بين ربح كثير آجل نسيئةً عند الله ، بأن تُقْرِضَهُ مثلاً درهماً بثمانمائة ، وبين ربح طفيف عاجل في الدنيا قد حُقِّفَ بالخطر ، لاخترت الثانى على الأول ، مع زَعْمِكَ بأن من تقرضه - وهو الله عز وجل - مُضْطَلَعٌ بمضاعفة القرض وتوفيتك حَقِّكَ وإعطائك إياه وإفياً ...»

إصلاح الضمير

دخل مُحَمَّدُ الطويل على سليمان بن على وإلى البصرة فقال له : عِظْنِي ، فقال حميد : لئن كنت حين عَصَيْتَ رَبَّكَ ظَنَنْتَ أَنَّهُ يَرَاكَ فَقَدْ اجْتَرَأْتَ عَلَى اللَّهِ ، وَلَئِنْ كُنْتَ ظَنَنْتَ أَنَّهُ لَا يَرَاكَ فَقَدْ كَفَرْتَ ... وقالوا : إذا فسدت النية وقعت البلية ، وقال رجل لسيدنا رسول الله : لقد سمعتك يا رسول الله تقول : شَيْبَتْنِي هُودٌ^(٢) ، فما الذى شَيْبَكَ منها ؟ قال : قوله تعالى : فاستقيم كما أمرت ... وَرَوَوْا أَنَّ السَّيِّدَ الْمَسِيحَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ قَالَ : يَا رَبِّ ، مَنْ أَشْرَفُ النَّاسِ ؟ قَالَ : مَنْ إِذَا تَحَلَّى عِلْمًا أَنَّى ثَانِيهِ فَأَجَلَ قَدْرِي عَنْ أَنْ يُظْهِرَنِي عَلَى مَعَاصِيهِ ... وَمَرَّ

(١) معاظلة : أى عاظها قائلها : أى عقدها عجزاً عن الإفصاح أو قصداً

(٢) هود : أى سورة هود وفيها يقول الله جل شأنه لسيدنا رسول الله : فاستقيم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ، ولما كان العمل بمضمون هذه الآية الكريمة في غاية العسر قال سيدنا رسول الله : شيبتنى هود

عمر رضي الله عنه بمملوك يرعى غنما، فقال: أتبيعني منها شاة؟ قال: ليست لي، قال: فأين العليل؟ قال: فأين الله: فاشتراه عمر وأعتقه، فقال المملوك: اللهم قد رزقتني العتق الأصغر فارزقني العتق الأكبر، أعوذ بك من قلب غائب عنك... وقال السري السقطي^(١): بتصحيح الضمائر أختفر الكبائر؛ وفي الأثر: تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة «أى تعرّف إليه في الرخاء بالشكر وذكّر الآلاء يعرفك في الشدة بالعصمة...» وقال بعض المتصوفة: إن الله لا يشغله عنك شيء فإن استطعت أن لا يشغلك عنه شيء فافعل...»

احتمال المكاره في العاجل رجاء المسار في الآجل

ومن جوامع الكلم في ذلك قول سيدنا رسول الله: حُفَّتِ الجنة بالمكارة وحُفَّتِ النار بالشهوات «حُفَّتْ: أحيطت، والمكارة جمع مكردة وهي: ما يكرهه المرء ويشق عليه، والشهوات: كل ما يوافق النفس وتصبو إليه. قال الإمام القرطبي: أصل الحفّ: الدائر بالشيء المحيط به الذي لا يتوصل إليه إلا بعد أن يُتخطى، فنل المصطفى المكارة والشهوات بذلك، فالجنة لا تنال إلا بقطع مفاوز المكارة والصبر عليها، والنار لا يُتجى منها إلا بفطم النفس عن مطالباتها، وقال ابن حجر: هذا من جوامع كلم المصطفى وبديع بلاغته في ذم الشهوات وإن مالت إليها النفوس، والحك على الطاعات وإن كرهتها وشقت عليها» ولما تاب بعض الصوفية كان لا يتنهأ بطعام ولا شراب فقالت له أمه: آرفق بنفسك، فقال: الرقيق أطلب لها... وهذا كقول الربيع بن خثيم وقد صلى طول ليلته حتى أصبح وقال له رجل: أتعبت نفسك فقال: راحتها أطلب...»

(١) أحد رجال الطريقة وخال أبي القاسم الجنب، ترجم له ابن خلكان

ومثل هذا - وإن كان من بآية أخرى - قول العباس بن الأحنف :
 سأطلبُ بعدَ الدارِ عنكم لتقربوا وتَسْكُبُ عَيْنَايَ الذُّمُوعَ لِتَجْمُدَا^(١)
 وقول الآخر :

تقولُ سُلَيْمَى لو أَقْتِ بِأَرْضِنَا ولم تَدْرِ أَنِي لِلْمَقَامِ أَطَوْفُ

مراعاة الدين والدنيا معاً

قال تعالى : ولا تَدَسَّ نصيبك من الدنيا ... وقال سيدنا رسول الله : ليس
 بخيركم من ترك دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ ، ولا آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ ، حتى يُصِيبَ منهما جميعاً ، فإن
 الدنيا بلاغ إلى الآخرة ، ولا تكونوا كَلَّاءً على الناس ... « كَلَّاءٌ : عيالاً وثِقَلَاءُ »
 وكان محمد بن علي بن عبد الله بن عباس يقول : اللهم أعِنِّي على الدنيا بِالْغِنَى ،
 وعلى الآخرة بِالتَّقْوَى . وقال مروان بن أبي حفصة لعمارة بن حمزة^(٢) : أَنشدتُ
 للمأمون قولي :

أضْحَى إمامُ الهدى المأمونُ مُشتغِلاً بالدين والناسِ بالدنيا متشاعِلاً
 فلم يَهْتَمَّ لذلكِ إقالةِ عمارة : ما زِدْتَ علي أن صيرتَه عَجُوزاً مُعتكفةً في محرابها ،

(١) كنى بالجمود عن السرور ... وللقاد في هذه الكناية كلام حسن انظره إذا
 شئت في شرحنا على التلخيص

(٢) شخصية ضخمة ، كان أديباً وكان كاتباً وكان جواداً كريماً وكان من سروات
 الناس وكان تياها معجباً معتداً بنفسه وكان في زمن السفاح والمنصور وبقى الى زمن
 المأمون وتولى الولايات العظيمة في أيامهم وكان من شدة اعتداده بنفسه اذا أخطأ
 يمضى على خطائه ويأنف من الرجوع ويقول : نقض أبرام في ساعة واحدة الخطأ
 أهون من ذلك ، انظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت وهي زاخرة بكل ما يطرب
 ويعجب من سيرة هذا عمارة بن حمزة .

فَهَنَ لأمور المسلمين اهلاً قلت كما قال جرير:

فَسَلا هو في الدنيا مُضِيعٌ نَصِيبُهُ

ولا عَرَضُ الدنيا عن الدين شَاغِلُهُ |

والمشهور في هذا المعنى قول الفاروق رضى الله عنه: اَعْمَلْ لَدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ

بِأَبْدَانٍ وَأَعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا... وقال الشاعر:

وَاللَّهُ يَمُنُّ جَانِبٌ لِأَضِيعُهُ وَلِلَّهِوَمِنِي وَالخَّلَاعَةُ جَانِبٌ

وسيمر بك كثير من عبقرياتهم في هذا المعنى، في مواضع أخرى من

هذا الكتاب .

الرجاء والجمع بينه وبين الخوف من الله

قال تعالى: في صفة المؤمنين: يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ، وقال حكيم:

أَرْجُ إِذَا خِفْتُ وَخَفْتُ إِذَا رَجَوْتُ، وكن كالمرأة الحامل ليس رجاؤها أن تلد

ولداً ذكرها بأكثر من خوفها أن تلد أنثى. وقريب من هذا قول رجل لابنه:

خَفِ اللهُ خَوْفًا لَا يَمْنَعُكَ مِنَ الرَّجَاءِ، وَأَرْجُهُ رَجَاءً لَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْخَوْفِ، فالتؤمن

بإله قلبان: يرجوه أحدهما ويخافه الآخر وقال:

أنا بين الرجاء والخوف منه واقفٌ بين وعده والوَعِيدِ

وقال أبو نؤاس:

لَا تَحْظُرُ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ أَمْرًا، أَحْرَجًا فَإِنَّ حَظْرَكَ بِالْدِينِ إِذْرَاءُ

وقال أيضا:

يا كثير الذنب عفو الله من ذنبك أكثر

وقال:

تَبَسَّطْنَا عَلَى الْآثَامِ لَمَّا رَأَيْنَا الْعَفْوَ مِنْ مُرَمَّرِ الذَّنُوبِ

وقال :

تَكْتَبِرُ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْخَطَايَا فَإِنَّكَ بِالْإِسْخِ رُبًّا غَفُورًا
سَتُبْصِرُ إِنْ وَرَدَتْ عَلَيْهِ عَفْوًا وَتَلْقَى سَيِّدًا مَلِيكًا كَبِيرًا
تَعْضُ نَدَامَةً كَفَيْكَ بِمَا تَرَكْتَ مَخَافَةَ النَّارِ السُّرُورًا

وفي الأثر : مَا أَحْبُّ أَنْ لِيَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا بِهَذِهِ الْآيَةِ : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ
أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ
هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ... وقال ابن عباس لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما :
أَيُّ آيَةٍ أُرْجَى ؟ قال : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ
يَشَاءُ ، فقال : إِنْ هَذِهِ لِمَرْجُوءَةٌ ، وَأُرْجَى مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنْ اللَّهُ لَذُوْ مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ
عَلَى ظُلْمِهِمْ ... وقال أعرابي لابن عباس : مَنْ يَحْسَبُ الْخَلْقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قال :
يَحْسَبُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ : نَجُونَا وَرَبُّ السَّكْبَةِ ، فقال : كَيْفَ ! قال : إِنْ
الْكَرِيمُ إِذَا قَدَرَ غَفَرَ ... وسمع أعرابيُّ عبدَ الله بن عباس يقرأ قول الله
تعالى : وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، فقال : وَاللَّهِ مَا أَنْقَذَنَا مِنْهَا
وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يُلْقِيَنَا فِيهَا ! فقال ابن عباس : خذوه من غير فقيه ...

العبادة لا طلبا للثواب ولا خوفا من العقاب

وقد تقدم لنا آفا قول في ذلك وتزيد فؤور دطرانا من عبقرياتهم في هذا
المعنى : قال الشُّبلي : مَنْ عَبَدَهُ رَجَاءَ الْجَنَّةِ فَهُوَ عَبْدُهَا ، أَوْ خَوْفَ النَّارِ ، فَهُوَ
عَبْدُهَا ، لِأَنَّ مَنْ خَافَ شَيْئًا أَوْ رَجَاهُ فَهُوَ مَعْبُودُهُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَنْ عَبَدَ

الله يعوض فهو لثيم ، وقال آخر : اللهم إن كنت تعلم أنى أعبدك خوفاً من نارك فأحرقنى ، أو طمعا فى جنتك فأحرق منيها ، وإن كنت تعلم أنى أعبدك حُباً لك وشوقاً إلى لقائك فأبجنيبه ... وقيل لرايعة العدوية : مالك لاتسألين الله الجنة فى دعائك ؟ فقالت : الجار ثم الدار ... « تعنى بالجار : ذا الجلال والإكرام » وقد أوردنا بيت المعرى :

ولتفعل النفسُ الجميلَ لأنه خَيْرٌ وأحسنُ للأجلِ ثوابها

غير مرة فيما أسلفنا ، وقال بعضهم فى قوله صلى الله عليه وسلم : أكثرُ أهلِ الجنة البُلهُ ، قال : لأنهم فى سُغُلٍ فأكهون ، شغلهم التعميم عن المنعم ، وعن رضى بالجنة عن الله فهو أبله . أقول : حديث : أكثر أهل الجنة البُلهُ : حديث ضعيف « انظر شرح الجامع الصغير للناوى » وعلى أنه ضعيف فقد أولوه تأويلاً حسناً : فقال الأزهرى : الأبله : الذى طبع على الخير ، فهو غافلٌ عن الشرِّ لا يعرفه - أقول : أو يعرفه ولكن يتجنبه - وقال النَّضر بن شميل : الأبله : الميتُ الداء ، أى أن شره ميت لا يئب له . والمرأة باهاء ، قال الشاعر :

ولقد هَوَتْ بِطَمْلَةٍ مَيَّالَةٍ بِلَهَاءٍ تُطْلَعُنِي عَلَى أَسْرَارِهَا

أراد : أنها غير لادهاء لها فهى تخبرنى بأسرارها ولا تفتنُ لما فى ذلك عليها . وقال الزبيرقان بن بدر : خيرُ أولادنا الأبلهُ العقول ، يعنى : أنه لشدقة حياته كالأبله وهو عقول «مبالغة من العقل» وقال الزنخشرى فى صفة الصلحاء : هيئون كيتون ، غير أن لاهراة فى الحق ولا دهانة ، بئله ، غوصهم على الحقائق يُعمر الألباب والأذهان ، وذلك لأنهم أغملوا أئمر دنياهم فجهلوا حذق التصرف فيها فأقبلوا على آخرتهم فوشغلوا بها فاستحقر أن يكونوا أكثر أهلها ،

الرياء

الرياء : ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه : ومن عبقرياتهم فيه : قال سيدنا رسول الله : **إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافَ عَلَى أُمَّتِي الرِّيَاءُ الظَّاهِرَ وَالشَّهْوَةَ الخَفِيَّةَ .** وقالوا : **أَعْظَمُ الرِّيَاءِ حُبُّ المَحْمَدَةِ .** وقالوا **إِذَا عَمِلَ الرَّجُلُ العَمَلَ وَكَتَمَهُ وَأَحَبَّ إِعْلَامَ النَّاسِ أَنَّهُ كَتَمَهُ ، فَبَلَّكَ أَقْبَحُ الرِّيَاءِ ،** وقال أبو نواس :

وإِذَا تَزَعَّتْ عَنِ العَوَايَةِ فَلْيَكُنْ اللهُ ذَاكَ السَّنْزُخَ لِلنَّاسِ
وقال لقمانُ لابنه : **آتَقِ اللهَ وَلَا تُرِي النَّاسَ أَنَّكَ تَحْشَاهُ لِيُكْرِمُوكَ ...**
وقال بعضهم : **كَانَ النَّاسُ يَرَاؤُنَ بِمَا يَفْعَلُونَ فَمَارُوا يَرَاؤُنَ بِمَا لَا يَفْعَلُونَ .**
وقالوا : **مَا الدِّخَانُ بِأَدَلَّ عَلَى النَّارِ مِنْ ظَاهِرِ أَمْرِ الرَّجُلِ عَلَى بَاطِنِهِ ...** وقالوا
في وصف المرأى : **لَهُ سَمْتُ أَبِي ذَرٍّ عَلَى قَلْبِ أَبِي جَهْلٍ (٢)** وقال صلى الله
عليه وسلم **فِي مَنْ تَنَسَّكَ طَمَعًا فِي عَرَضِ الدُّنْيَا : أَكْثَرُ مُتَارِفِي هَذِهِ الأُمَّةِ**
قَرَأُوهَا قال ابن الأثير : **أَيُّ أَنَّهُمْ يَحْفَظُونَ القُرْآنَ نَهْمًا لِلتَّهْمَةِ عَنِ أَنْفُسِهِمْ**
وَهُمْ مُعْتَقِدُونَ تَضْيِيقَهُ (٣) ، وكان المنافقون في عصر النبي بهذه الصفة . وقال

(١) إذا أردت التوسع في القول على الرياء وحقيقته وأنواعه وعلاجه فعليك بإحياء علوم الدين للغزالي

(٢) أبو ذر الغفاري هو الصحابي الجليل الزاهد الورع الصادق للهجة الذي قال فيه سيدنا رسول الله : **مَا أَقَلَّتْ الغُرَامَ وَلَا أَظَلَّتْ الخُمْرَاءُ أَصْدَقَ لِحِجَّةٍ مِنْ أَبِي ذَرٍّ** قال فيه سيدنا علي : **أَبُو ذَرٍّ عَامٍ مَلِيٍّ عِلْمًا ثُمَّ أَوْكَى عَلَيْهِ دَأْوَى عَلَيْهِ أَيْ شَدَّ بِالوَكَا .** وهو الخيط يشد به قم القربة ، توفي سنة ٣١ هـ أما أبو جهل فهو عمرو بن هشام أعدى أعداء سيدنا رسول الله قتل في غزوة بدر (٣) أي مضمرون عدم العمل به

الزخشمى : أراد بالنفاق الرياء ، لأن كلا منهما إرادة مافى الظاهر خلاف مافى الباطن . وقال الغزالي : أَحَذَرَ من خِصال القراء الأربعة : الأمل والعَجَلَة والكِبَر والحَسَد ، قال : وهى عِللٌ تُعْتَرى سائرَ الناسِ عموماً والقراءَ خصوصاً ، ترى القارئُ يُطوِّلُ الأملَ فيُورِقِعُهُ فى الكسلِ ، و تراه يَسْتَعْجِلُ الخَيْرَ فيُقْطِعُ عنه ، و تراه يَحْسُدُ نُظْرَاءَهُ على ما آتاهم اللهُ من فضله فرمياً يبالغُ بِحِمْلِهِ على فضائحٍ وقبايحٍ لا يُقدِّمُ عليها فاسقٌ ولا فاجرٌ . وكان الفضيل بن عياض لا يَبْنُو : اشترُوا داراً بعيدةً عن القراء ، مالى والقوم ! إن ظَهَرَتْ مِنِّي زَلَّةٌ تَتَلَوْنِي ، وإن ظَهَرَتْ علىَّ حَسَدَةٌ حَسَدُونِي ، ولذلك ترى الواحد منهم يتكبر على الناس ويستخفُّ بهم مُعْتَبِساً وجهه كأنما يُمْنُ على الناس بما يُصَلِّيُ زيادة ركعتين ، أو كأنما جاءه من الله منشوراً بالجنة والبراءة من النار ، أو كأنه استيقن السعادة لنفسه والشقاوة لسائر الناس ، ثم دو مع ذلك يلبس لباس المتواضعين ويتأوت ، وهذا لا يليق بالكبر والترفع ولا يلائمه لكن الأعمى لا يُبْصِرُ ... أقول : كل ما قالوه فى القراء مما يصحُّ أن يقال فى علماء الدين وفى المُتَمَسِّكين ، لأنه يقال تقرأ فلان أى تَنقَّه ، ويقال : تقرأ : أى تَلَسَّك ، قال زيد بن رُكَيْبٍ الرُّبَيْدِيُّ ، وقال القراء : أَنشَدَنِي أَبُو صَدَقَةَ الدَّيْرِيُّ :

ولقد عَجِبْتُ لِكَاعِبِ مَوْدُونَةٍ أطرافها بالحنى والحناء

بيضاء تصطاد القوى وتَنبِي بالحسن قلب المسلم القراء

« مَوْدُونَةٌ : مُلَيَّنَةٌ وأطرافها نائب فاعل ، مودونة ، ورووا أن بلال بن أبى بردة وفنَّ على عمر بن عبد العزيز فجعل يديمُ الصلاة فقال عمر : ذلك التَصْنَعُ ، فقال له العلاء : أنا آتيتك بخبره ، فجاءه وهو يصلى فقال له : مالى عندك إن بعثتُ أمير المؤمنين على توليتك العراق ؟ قال عمه التى سنة أى وظيفتى ومُرَّتْ بِي . وكان مبلغه عشرين

ألف درهم ، فقال : اكتبْ به خَصَّكَ ، فمكَّتْ إليه ، فجاء الدلاءُ إلى عمرَ فأخبرَه ، فقال : أَرَادَ أَنْ يَغُرَّنَا بِاللَّهِ ... ودخلَ على أبي جعفر المنصور رجلٌ بينَ عيديه كركبة البعير - وذلك يكون من أثر السجود - يريد القضاء ، فقال المنصور : إِنْ كُنْتَ أَبْرَرْتَ اللَّهَ بِهَذَا فَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَشْغَلَكَ عَنْهُ ، وَإِنْ كُنْتَ أَرَدْتَ خِدَاعَنَا فَمَا يَنْبَغِي أَنْ نَنْخَدِعَ لَكَ . وقال شاعر :

لا تَصْحَبْ - بَيْنَ صِحَابَةٍ حَلَقُوا الشَّوَارِبَ لِلطَّمَعِ
يَيْكِي وَجُلُّ بُكَائِهِ مَا لِلْفَرِيصَةِ لَا تَقَعُ

وقال آخر :

عَمَّرُوا، وَوَضِعَ التَّصْنِيعِ مِنْهُمْ وَمَكَانُ الصَّلَاحِ مِنْهُمْ خِرَابٌ
وَيُرَوَى هَذَا الْبَيْتَ عَلَى رُجْحِ آخِرٍ ...

ورَوَوْا أَنْ بَعْضَ النَّاسِ كَانَ يَدْعُ زَكَاتَهُ مِنَ الْفَقِيرِ وَيَسْتَرْجِعُهَا مِنْهُ بِدِرْهَمٍ أَوْ دَرَاهِمِينَ . وَيُرَوَى أَعْرَبُ مِنْ ذَلِكَ وَأَقْعَدُ فِي بَابِ الْحَيْلِ الشَّرْعِيَّةِ الْمُحَرَّمَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَ مَشِيخَتِنَا الَّذِينَ تَوَلَّوْا مَشِيخَةَ الْإِسْلَامِ وَالْإِفْتَاءَ فِي الْجَيْلِ الْغَابِرِ بِمِصْرَ - كَانَ غَنِيًّا مَثْرِيًّا - كَانَ يَحْتَالُ فِي زَكَاةِ الْمَالِ بِأَنْ يَضَعُ قِيَمَةَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُزَكِّيَهُ - عَنْ مَالِهِ فِي الْعِيَابِ « الزَّكَاةِ » الْمَلُوءَةِ قِحَاثِمٍ يُفْهَمُ الْفُقَرَاءَ أَنَّ هَذِهِ هِيَ زَكَاةُكُمْ ثُمَّ يَشْتَرِيهَا مِنْهُمْ بِشَمْنٍ دَغِيرٍ ، وَبِذَلِكَ يظُنُّ أَنَّهُ قَدْ قَامَ بِفَرِيضَةِ الزَّكَاةِ وَيَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ،

التوبة

التوبة : الرجوع عن الذنب ، يقال : تاب إلى الله يتوبُ توبةً وتوبًا وتابًا .
أتاب ورجع عن المعصية إلى الطاعة ، وتاب الله عليه : وفقه إلى التوبة أو

عاد عليه بالمغفرة ، وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه : التوبة على أربعة دعائم : استغفار باللسان ونية بالقلب وترك بالجوارح وإضمار أن لا يعود .
 وفي الحديث : من تاب قبل موته بفواق ناقة حرم الله وجهه على النار .
 « الفواق : أن يُحَاب الناقة ثم تُترك لحظة يَرَضُهَا الفصيل لتدري ثم تحلب »
 وقال عز وجل : يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا . التوبة النصوح : الخالصة التي لا يُعاوَد بعدها الذنب ، وقال تعالى : إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليهما حكيما ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموتُ قال إني مُتبت الآن . يقول سبحانه : إنما قبول التوبة كالمحترق على الله لمن أذنب بجهالة وسفه . فإن ارتكاب الذنب سفه وتجاهل ، ومن ثم قيل : من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالة . ثم يتوبون قبل الموت قال عليه السلام : إن الله يقبل توبة عبده ما لم يُغرغر ، قال المفسرون : وسماه قريبا لأن أمد الحياة قريب ، أو قبل أن يُشرب في قلوبهم حبه فيتعذر عليهم الرجوع ،

المبادرة إلى التوبة

وقد حثوا مع ذلك على المبادرة بالتوبة والإفلاع عن المعاصي فرووا أنه قيل لرجل : أويس ، فقال : أحذرُكم سوف ، وقال شاعر :
 والمرءُ مرثَمٌ بسوفٍ وأيمتى . وهلاكه في سوفيه والليت
 وقال آخر :
 أسوفُ توتبي خمسين عاما وظنى أن مثلى لا يتوبُ

وقال بعضهم : محن لا يزيد أن نموت حتى نتوب ولا تتوب حتى نموت...
وقال بعضهم لرجل : عَظَى ، فقال : قد قَطَعْتَ عَادَةَ سَفَرِكَ ، فإن استطعت
ألا تَضِلَّ في آخره فافعل... وقال مُصَعَّب بن الزبير : ادفع سَطْوَةَ اللَّهِ
بسرعة السُّزُوع ، وحسن الرجوع ، فيوشك أن المنايا تَسِيْقُ الوصايا ، وقالوا في
قوله تعالى : بل يريد الإنسان ليفجر أمامه : يُكْثِرُ الذنوب ويؤخر التوبة
أو يُسَوِّف بالتوبة ويقدم الأعمال السيئة ، وقال مُورِج السدوسي^(١) : بجزر :
إذا ركب رأسه فمضى غير مُكْتَثِرٍ ، وقوله : لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ : لِيَمِضُ أَمَامَهُ رَاكِبًا
رَأْسَهُ... وقال سيدنا رسول الله لرجل وهو يَعْظَاهُ : اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ :
حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَفَرَاعَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَشَبَابَكَ
قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَرِغْنَكَ قَبْلَ فَقْرِكَ . « اغتنم حياتك قبل موتك : اغتنم ماتأقي
نقته ، وثوابه بعد موتك . وصحتك قبل سقمك : اغتنم العمل حال الصحة
فقد يمنع مانع كالمرض فتُقَدِّمُ بغير زاد . وفراغك قبل شغلك : اغتنم فراغك
في هذه الدار قبل شغلك بأهوال ما بعد الموت ، أى اغتنم فرصة الإمكان
لعلك تَسَلِّمَ من الهوان . وشبابك قبل هرمك : اغتنم الطاعة وفعل الخير حال
قورتك قبل هجوم عجز الكبر عليك فتندم على ما فرطت في جنب الله .
ورغناك قبل فقرك : اغتنم الإحسان والتصدق بفضول مالك قبل أن تنزل
جائحة تُفْقِرَكَ . ولك أن تقول : إن هذه الوصية الكريمة مغزاها عامٌّ شامل
يراد بها المبادرة إلى العمل وانتهاز الفرص قبل فواتها ، وقال الشاعر .
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَزْرَعْ وَأَبْصَرْتَ حَاصِدًا نَدَيْتَ عَلَى التَّفْرِيطِ فِي زَمَنِ الْبَدْرِ
وقال أبو العتاهية :

فواعجباً كيف يُعْصَى المَلِيكَ أَمْ كَيْفَ يَجْجَحِدُهُ الجَاهِدُ

(١) نحوى بصرى ، أخذ عن الخليل ؛ توفي هو وأبو نواس في يوم واحد سنة ١٩٥

ولله في كل تجريبك وتسكينه في الوزي شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد
وقال الآخر:

ترجو الناجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليابس
وجاء حبيب بن الحارث إلى سيدنا رسول الله فقال: إني مُقارِفٌ للذنوب،
فقال: تُب، فقال: إني أتوب ثم أعود، فقال: كلما أذنبت ذنبا فُتِب، فَعَفُو
الله أكبر من ذنوبك. وفي الحديث: إن الرجل لِيُذْنِبُ الذنْبَ فَيَدْخُلُ به الجنة،
فَقِيل: وكيف يارسول الله؟ قال: يكونُ نُصِبَ عينه خائفا منه حتى يدخل
الجنة... واجتمع ثلاثة من الحكماء عند كسرى فتذاكروا في شر الأشياء فقال
أحدهم: الهمُّ يقترنُ بالعُدم - الفقر - وقال الثاني: سُقْمُ البدن ودوامُ الحزن،
وقال الثالث: دُنُوُّ أَجَلٍ وسوءُ عمل... كَفَكُم لهذا... ودعا بعض الصالحين
فقال: أعودُ بالله من وقوعِ المنيّةِ ولما أبلغ الأُمْنِيّةِ... وقال حكيم:
الأيامُ صحائفُ آجالِكُمْ فأوردعوها أجمل أفعالِكُمْ... وقال عليُّ بن الحسين رضي الله
عنهما: عَجِبْتُ لمن يَحْتَمِي عن الطعامِ لِمَضَرَّتِهِ ولا يَحْتَمِي عن الذنْبِ لِمَعْرَتِهِ!
وقال بعضهم حضرتُ مجلسَ الشُّبلي^(١) فقام إليه رجل من أصحابه وقال له:
أَوْصِنِي، فقال له: لقد أوصاك الشاعر بقوله:

قالوا تَوَقَّ رِيبَ الحَيِّ إنْ لَهم عَيْنًا عَلَيْكَ إِذَا مَا نَمَّتْ لَمْ تَمَّ -

(١) الشبلي - وقد تكرر ذكره في هذا الكتاب - هو أبو بكر دلف بن جحدر، والشبلي:
نسبة إلى شبلة، بلدة من بلاد ماوراء النهر - سمرقند وبخارى وما إليها - كان في مبدأ
أمره واليا لإحدى الولايات ثم تاب وتصوف وبلغ المبالغ في ذلك، كان جليل القدر
مالكي المذهب وصحب الشيخ أبا القاسم الجنيد ومن في عصره من الصالحين توفي سنة
٣٣٤ هـ ببغداد وعمره سبع وثمانون سنة

وقال يحيى بن معاذ : اجتناب السيئات أشد من اكتساب الحسنات ...
وسمع الحسن البصري رجلا يقول : اللهم اجنلنا منك على حذر ، فقال : إنه فعل
ذلك ، أليس قد ستر عنك أجلك ، فليست من حياة ساعة على يقين !

الاستغفار

قال علي بن أبي طالب : العَجَبُ لِمَنْ يَنْتَظِرُ ومعه النجاة : الاستغفار ... وقالوا
لاصغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار . وقال حكيم : أيها السلاطين ،
لا بد لكم من المعاصي الكبار فافعلوا بإزائها طاعات عظيمة ، أيها الأوساط ،
يُمَكِّنْكُمْ الطاعات العظيمة ، كالمصالح التي لا يقدر عليها إلا السلاطين ، فلا تركبوا
المعاصي الكبيرة ... وقال بعضهم : سمعني راجب أقول : أستغفر الله ، فقال :
يا فتى ، سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين ... ويدل على ما قاله قوله صلى
الله عليه وسلم : المستغفر باللسان المُصِرُّ على الذنب كالمُسْتَهْزِئِ بربه . وقال
الربيع بن خثيم : لا يقولنَّ أحدكم : أستغفر الله وأتوب إليه فيكون ذنباً
جديداً إذا لم يفعل ، ولسكن ليقل : اللهم ، تَبَّ عَلَيَّ وَاغْفِرْ لِي ، فقيل : ولم ؟
فقال : أنته عما ينهاك عنه فإنه يغفر لك ... وقال عمر رضي الله عنه : لم أرَ
أشدَّ طلباً وأسرعَ دَرَكاً من حسنةٍ حديثةٍ لذنبي قديم . « دركا بسكون الراء
وتجها : لحافا وإدراكا » ... وسئل بعض المجان : كيف أنت في دينك؟ قال : آخرته
بالمعاصي وأرتفعه بالاستغفار ...

« وأما بعد ، فلو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا مترك على ظهورها
من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجلٍ مُسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان
بعباده بصيرا^(١) .

(١) آية كريمة والآية : ولو يؤاخذ الله الناس... الآية

يَأْمَنُ يَرَى مَدَّ الْبُعُوضِ جَنَاحَهَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الْأَلِيلِ
وَيَرَى عُرُوقَ نِيَابِطِهَا فِي نَحْرِهَا وَالْمُخَّ فِي تَمَلُّكِ الْعِظَامِ النَّحْلِ
أَغْفَرَ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ قَرَطَاتِهِ مَا كَانَ مِنْهُ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ (١)

عبقریات شتی

فی الخوف والتقوى

ورد في الحديث الصحيح: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، ولما ساء لكم الطعام ولا الشراب لضحكتم قليلا: أي لم تضحكوا ألبتة إذ القليل ههنا بمعنى التدم «... وجاء في خطبة لسيدنا رسول الله: أيها الناس، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، فإن العبد بين مخافتين: أجل قد مضى لا يدري ما الله فاعل فيه، وأجل باق لا يدري ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبينة قبل السكر ومن الحياة قبل الممات، فوالذي نفس محمد بيده، ما بعد الموت من مستعجب، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة والنار... معالم جمع مععلم، وهو ما جعل علامة للطرق والحدود، ضربه مثلا لأحكام الله وحدوده

(١) هذه الآيات لجار الله الرخشري أنشدها في الكشاف عند تفسير قوله تعالى: إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها، ونسبها إلى بعضهم، وكان قد أوصى أن تكتب على لوح قبره، يقول: يا الله، يا مبصر الخفيات حتى مد البعوض جناحها في ظلمة الليل، اغفر لي الخ والبهم: المظلم، لانهم الاشياء فيه، والاليل أقل تفضيل من الليل وإن كان جامدا، للبالغ في الظلمة، والنياط: عرق غليظ منوط بالقلب تتصل به عروق دقيقة. والنحر: أسفل العنق، والمخ: ما في وسط العظام، والنحل: جمع ناحل أي دقيق، والفرطات: ذنوبه التي قرطت منه، وما كان: مفعول اغفر، الزمان الاول: زمن الشباب. وقد تمثل المؤلف بهذه الآيات كما تمثل الرخشري

« ومن يتعدَّ حدودَ الله فقد ظلم نفسه ، ومستعيب : مصدره يمي معناه طلب الرضا ، تقول : استعيتبت فلانا : إذا طلبت منه العتي ، وهي الرضا ، يريد : ليس بعد الموت من استرضاه ، لأن الأعمال بطلت وانقضت زمانها ، وما بعد الموت دارٌ جزاء لدار عمل »

وقال أبو العتاهية :

يا عجباً للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها فإنما الدنيا لهم مغبيرٌ
الخيرُ مما ليس يخفى هو المعروف والشرُّ هو المنكرُ
والوعدُ الموتُ وما بعده الحشرُ فذاك الموعدُ الأكبرُ
لا تفخرُ إلا فخرُ أهلِ التُّقى غداً إذا ضمهم المحشرُ
ليعلمنَّ الناسُ أن التُّقى والبرَّ كانا خيرَ ما يُذخرُ
عجبتُ للإنسانِ في غيره وهو غداً في قبره يُقبرُ
ما بالُ من أوله نُظفئةٌ وجيفةٌ آخره يفخرُ
أصبحَ لا يملكُ تقديمَ ما يرجو ولا تأخيرَ ما يحدُرُ
وأصبحَ الأمرُ إلى غيره في كلِّ ما يُقضى وما يُقدَّرُ

وأما قوله : يا عجباً للناس لو فكروا... أبيت ، فأخوذ من قولهم : الفكرة مرآة تريك حسنك من قبيحك ؛ ومن قول لقمان لابنه : يا بني ، لا ينبغي لعاقل أن يُخلى نفسه من أربعة أوقات ، فرقتُ منها يناجي فيه ربه ، ووقتٌ يحاسبُ فيه نفسه ، ووقتٌ يكسبُ فيه لمعايشه ، ووقتٌ يُخلى فيه بين نفسه وبين لذتها ليدستعين بذلك على سائر الأوقات . وقوله : وعبروا الدنيا إلى غيرها... أبيت - مأخوذ من قول الحسن البصري : أجعل الدنيا كالقنطرة تجوزُ عليها ولا تعمرُها -

وقوله: الخير مما ليس يخفى... ألبيت، مأخوذ من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عبد الله، كيف بك إذا بقيت في حثالة من الناس^(١) مَرَجْتَ عُهُودَهُمْ وَأَمَانَاتِهِمْ^(٢) وصارَ النَّاسُ هَكَذَا، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ؟ فَقُلْتُ: مُرْتَى، يَارَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: خُذْ مَا عَرَفْتَ وَدَعْ مَا أَنْكَرْتَ وَعَلَيْكَ بِخَوْضِ نَفْسِكَ وَإِيَّاكَ وَعَوَامَهَا^(٣)... وقوله: لِيَعْلَمَنَّ النَّاسُ... ألبيت، مأخوذ من حديث أبي هريرة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا حَشِرَ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ نَادَى مُنَادٍ مِنْ قِبَلِ الْعَرْشِ: لِيَعْلَمَنَّ أَهْلُ الْمَوْقِفِ مَنْ أَهْلُ الْكِرَامِ الْيَوْمَ؟ لِيَقِمَ الْمُتَّقُونَ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ: إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقَاكُمْ، وَقَدْ تَقَدَّمَ صَدْرَ بَابِ الْبِرِّ أَنْ الْأَخْطَلَ سَبَقَ أَبَا الْعَتَاهِيَةَ فِي هَذَا بِقَوْلِهِ:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخرا يكون كصالح الأعمال
وقوله: ما بال من أوله نطفة... ألبيت، مأخوذ من قول علي رضي الله عنه: وما ابن آدم والفخر وإنما أوله نطفة وآخره جيفة، لا يرزق نفسه، ولا يدفع حثفه، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه يقول: أيها الناس إنما خلقتم الأبد، ولكنكم تنقون من دار إلى دار... وقال مالك بن دينار^(٤):

- (١) أصل الحثالة: ما يبقى في الإناء من ردى الطعام، وحثالة التمر: أردؤه وما لا خير فيه، ضربه رسول الله لردال الناس وشرارهم
(٢) مَرَجْتَ عُهُودَهُمْ: اختلطت وذهبت بهم كل مذهب، ومرج: كطرب، أما مرج الماء بمعنى سال فلم يكن له مانع، فإياه نصر.
(٣) خويصة: تصغير خاصة، يأمره صلى الله عليه وسلم بمجاهدة نفسه ويحذره مشاركة العامة في أعمالها (٤) كان عالما زاهدا لا يأكل إلا من عمل يده مات سنة إحدى وثلاثين بالبصرة.

جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم... وقال علي رضي الله عنه : مَنْ سَرَهُ
الغنى بلا مالٍ ، والعزُّ بلا سلطان ، والكثرة بلا عشيرة ، فليخرج من دُلِّ
بمعصية الله إلى عز طاعته ، فإنه واجدٌ ذلك كله ... وقال يزيد بن الصقيل العميلي -
وكان يسرق الإبل في عهد بني أمية ثم تاب وقيل في سبيل الله - :

أَلَا قُلِّ لِأَرْبَابِ الْمُخَائِضِ أَهْمِلُوا فَقَدْ تَابَ مِمَّا تَعْلَمُونَ يَزِيدُ
وإنَّ امْرَأَةً يَنْجُو مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا تَزَوَّدَ مِنْ أَعْمَالِهَا لَسَعِيدُ

د المخائض جمع مخاض - ومخاض واحدٌ تخلفه - الناقة استبان حملها - فخائض
جمع الجمع ، ومخاضٌ ؛ جمع على غير واحد ، كما تقول : امرأة ونساء ، وقوله : أهملوا :
أى أسرحوا إبلكم - « وفي هذا الشعر :

إذا ماللتنا يا أخطأً نك وصادفت حميمك فاعلم أنها ستعود

وفي معنى هذا البيت ما يروى عن محمد بن الحنفية - ابن الإمام علي - أنه
كان يقول - إذا مات له جارٌّ أو حميم - : أولى لي ، كذتُ والله أكونُ
السَّوَادَ الْمُخْتَرَمَ ... « أولى لي ، مثله : أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى ، وهي
كلمة تهديد ووعيد ، معناها : قاربك ماتكراه ، أو الشرُّ أقرب إليك ، والسوادُ :
شخص الإنسان وكلُّ شيء من متاع وغيره ، وفي الحديث : إذا رأى أحدكم سواداً
بليس فلا يكن أجبن السوادين ، فإنه يخافُك كما تخافُه ، والمخترم - من اخترمته
المنية : أخذته من بين أصحابه ... »

وقال أبو نواس :

ولقد هزرتُ مع الغواة بدلوهم وأستمتُّ سرح اللهب حيث أساموا
وبلغتُ ما بلغ امرؤُ بشبابه فإذا عصارة كلِّ ذاك أقام

« أثنام كسلام : عقاب الإثم وجزاؤه ، ونهزت بدلوهم يقال : نهزت بالدلو في البئر : إذا حركتها لتملئ ... وهو هنا على المثل ... يقول أبو نواس : لقد عَوَيْتُ زماناً مع الغَوَاةِ وَلَهَوْتُ كما لَهَوُوا وخلصتُ عِذارِي كما خَلَعُوا عِذارَهُمْ وبلغتُ شبَابِي المِبارِغِ ، من اللهو والبغى والفساد ، وأَنْلُتُهُ أَقْصَى ما يَشْتَهَى من شهوات الحياة الدنيا ، فوجدتُ كلَّ ذلك ضلالاً في ضلالٍ وَعَيْباً في عَيْبٍ وظلماتٍ بعضها فوق بعض ، وما جَنَيْتُ من ورائه إِلا المُرَّ والخِئْزَل ، من الأدواء والأسقام والبُعد عن ملكوت الله وقُدْسِيته ، وكلَّ ما تُورِثُه المعاصي من الدَّسِّ والطَّبَعِ والرَّيْنِ ، وإنَّ في ذلك لِعِبْرَةً لمن اَعْتَبَرَ »

وقال هشامُ بنُ عبد الملك - وهو من الآيات المنفردة القائمة بنفسها - :

إذا أنتَ لم تَعِصِ الهَوَى قَادَكَ الهَوَى

إلى بعض ما فيه عليك مقال

وهذا بكلام الملوك أشبه ، ومن كلبة للسيدة عائشة رضي الله عنها : مَنْ أَرْضَى الله يَسْخِطِ الناس ، كَفَاهُ اللهُ ما بينه وبين الناس ، وَمَنْ أَرْضَى الناس يَسْخِطِ اللهُ ، وَكَلَهُ اللهُ إلى الناس ، وَمَنْ أَصْلَحَ سِرِّيَّتَهُ ، أَصْلَحَ اللهُ عِلَانِيَتَهُ . وفي حديث الدعاء : لا تِكَلْنِي إلى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ فَأَهْلِكَ ... تَوْلانا اللهُ بِرِعايَتِهِ الصَّمَدانِيَّةِ إِنَّهُ سَمِيعُ الدَّعَاءِ ...

الباب الثاني

في الشكر والحمد والثناء

وهذا بابُ الشكر بابٌ له مكانته فيما خلّفوه لنا من آدابٍ وذخائرٍ، وإنَّ بينه وبين البر على جميع ألوانه لرحماً ماسّةً وقرابةً قريّةً، ومن ثم جعلناه ردِّفاله، وأفردنا له هذا الباب.

معنى الشكر

والشكر: مُقابلةُ النعمة بالقول والفعل والنية، فيُثني المُنعمُ عليه على المنعمِ بلسانِهِ، ويُذِيبُ نفسه في طاعته، ويُعتقِدُ أنه مُوالياها؛ وهو من شكّرت الإبل تَشكُرُ: إذا أصابت مرعىً فسَمِنَتْ عليه. وإذن يكونُ معنى شكر العبدِ لربه: أن يَحْهَدَ العبدُ جُهدَهُ في طاعةِ الله، ويؤدّي ما وَظَّفَ اللهُ عليه من عبادته، ويُعتقِدُ أنه هو وحده وليُّ نِعْمَتِهِ، وأن يُكثِرَ من الثناء عليه عزّ وتقدّس... وقد جاء الشكورُ وصفاً لله عزّ وجل، ومعناه أنه يتركو عنده القليل من أعمالِ العباد فيضاعفُ لهم الجزاء، وقد يكونُ معناه: المغفرة... هذا؛ وإن فرقا بين الشكر والحمد، فالشكر لا يكون إلا عن يَدٍ، والحمد عن يَدٍ وعن غير يَدٍ وأنشدوا
لابي نُخَيْلَةَ (١):

(١) شاعر إسلامي، وكان أسود، والرجز أغلب عليه من الشعر، وسمى أبا نخيلة لأن أمه ولدتها تحت نخلة فهو اسمه، ويمدح بهذا الشعر مسلمة بن عبد الملك يقول في أولها:
أَمْسَلَمَ إني يا ابنَ كلِّ خليفَةٍ ويا فارسَ الهيجا ويا قمرَ الأرض
وقوله: فنبت من ذكرى وما كان خاملاً: أخذه أبو تمام فكشف معناه وحسنه بالصناعة

شَكَرْتُكَ إِنَّ الشُّكْرَ حَبْلٌ مِنَ الثَّقَى وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً يَقْضِي
فَسَبَّهَتْ مِنْ ذِكْرِي وَمَا كَانَ خَائِلًا وَلَكِنَّ بَعْضَ الذِّكْرِ أَنْبَهُ مِنْ بَعْضِ
قَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشُّكْرَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ يَدٍ ، أَلَا
تَرَاهُ يَقُولُ : وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً يَقْضِي ؟ أَي لَيْسَ كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً
يَشْكُرُكَ عَلَيْهَا ... وَيُقَالُ : شَكَرَهُ وَشَكَرَ لَهُ ، وَبِاللَّامِ أَفْصَحُ ، وَتَقُولُ : شَكَرْتُ
نِعْمَةَ اللَّهِ ، وَنِعْمَتِهِ ، وَتَشَكَرَ لَهُ بِلَاغَةٍ ، كَشَكَرَهُ ، وَتَشَكَرَ لَهُ مِثْلُ شَكَرَ لَهُ ،
هَذَا خِلَاصَةٌ مِمَّا قَالَهُ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ . وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ فِيمَا قَالَ ، إِذْ أَطَالَ : الشُّكْرُ :
عِرْفَانُ الْإِحْسَانِ ، وَمِنْ اللَّهِ الْمَجَازَاةُ ، وَأَصْلُ الشُّكْرِ : تَصَوُّرُ النِّعْمَةِ وَإِظْهَارُهَا
وَحَقِيقَتُهُ : الْعَجْزُ عَنِ الشُّكْرِ ، إِلَى أَنْ قَالَ : وَالشُّكْرُ الْعُرْفِيُّ : صِرْفُ الْعَبْدِ
جَمِيعَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَغَيْرِهَا ، إِلَى مَا خُلِقَ لَهُ
وَأَعْطَاهُ لِأَجْلِهِ ، كَصَرْفِ النَّظَرِ إِلَى مَصْنُوعَاتِهِ ، وَالسَّمْعِ إِلَى تَلْقَى إِنْذَارَاتِهِ ،
وَالذَّمِّ إِلَى فَهْمِ مَعَانِيهَا ، وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ، إِلَى أَنْ قَالَ :
وَتَوْفِيَّةُ شُكْرِ اللَّهِ صَعْبٌ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُشْنِ بِالشُّكْرِ مِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا عَلَى إِبْرَاهِيمَ
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، إِذْ قَالَ سُبْحَانَهُ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ
يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَعَلَى

فقَالَ من آيات يمدح بها محمد بن عبد الملك الزيات :

لَقَدْ زِدْتَ أَوْضَاحِي امْتِدَادًا وَلَمْ أَكُنْ

بِهِمَا وَلَا أَرْضِي مِنَ الْأَرْضِ بِجَهْلًا

وَلَكِنْ أَيْدِي صَادَفْتَنِي جِسْمُهَا أَغْرَّ فَأَوْفَتْ بِي أَغْرَّ مُجْجَلًا

والاوضاح جمع وضع وهو البياض، والبهيم: الأسود، والمجهل: أرض بلا أعلام

وهذا على المثل ،

نُوح عليه السلام إذ قال: إنه كان عبداً شكوراً... ونزيد هذا توكيداً وتبييناً
 بإيراد كلمة الراغب في الذريعة، قال الراغب - مع شيء من التصرف - :
 الشكر تصور المنعم عليه النعمة، وإظهارها، وإيضاده الكفر، وهو - أى الكفر -
 من كفر الشيء : غطاه ، ودابة شكور : أى مظهره بسمها لإسداء صاحبها
 إليها ؛ وقيل : أصله من عين شكرى : أى ممتلئة ، فالشكر هو : الامتلاء من
 ذكر المنعم عليه المنعم ، ومن هذا الوجه قيل : هو أبلغ من الحمد ، لأن الحمد
 ذكر الشيء بصفاته ، والشكر : ذكر الشيء بصفاته وبنعمه ، فالشكر على ثلاثة
 أضرب : شكر بالقلب ، وهو تصور النعمة ، وشكر باللسان ، وهو الثناء على المنعم ،
 وشكر بسائر الجوارح ، وهو مكافأته بقدر استحقاقه ؛ وهو أيضاً باعتبار الشاكر
 والمشكور : ثلاثة أضرب : شكر الإنسان لمن هو فوقه ، وذلك يكون بالخدمة
 والثناء والدعاء ، وشكر لنظيره ، وهو بالمكافأة ، وشكر لمن هو دونه ، وهو
 بالثواب والإفضال . وشكر العبد لله سبحانه هو : معرفة نعمته وحفظ جوارحه
 بمنعها من استعمال ما لا ينبغي . ثم قال : وشكر المنعم في الجملة واجب بالعقل ،
 كما هو بالشرع ، - وهذه مسألة كلامية انظرها في كليات أبي البقاء ، - وأوجبها
 شكر البارئ تعالى ، ثم شكر من جعله سبباً لوصول خير إليك على يده ، ولهذا
 قال عليه الصلاة والسلام : لا يشكر الله من لم يشكر الناس ؛ قال : وقال
 بعضهم : كلُّ نعمة يُمكن شكرها إلا نعمة الله ، فإن شكر نعمته نعمة منه ،
 فيحتاج العبد أن يشكر نعمة الشكر ، كما شكر أصل النعمة ، وهكذا حتى يؤدى
 ذلك إلى ما لا يتناهى ، ومن هذا أخذ الشاعر الذى يقول :

إذا كان شكرى نعمة الله نعمةً على له فى مثلها يجب الشكر
 فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله وإن طالت الأيام وأقصر العمر

ولهذا قيل: غايةُ شكر الله تعالى الاعترافُ بالتعجزِ عنه، بل قد قال الله تعالى: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، وأيضا فكلُّ ما يفعلُ اللهُ بعبيده فهو نعمة منه، وإن كان بعض ذلك يُعَدُّ بليَّةً، ولهذا قال بعض الصالحين: ياتنُّ منعه عطاءً وبلاؤه نعمة (١) ... ولأجل صعوبة شكر الله قال عز وجل: وقليل من عبادي الشكور ...

عقبرياتهم في الشكر

حثُّهم على الشكر

قال حكيم: إذا قُصِرَتْ يَدُكَ عَنِ الْمَكَافَأَةِ فَلَیْطَلُ لِسَانُكَ بِالشُّكْرِ؛ وقالوا: النِّعْمُ إِذَا شُكِرَتْ قَرَّتْ وَإِذَا كُفِرَتْ فَارْتَفَتْ. والأصل في هذا قوله تعالى: وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم وائن كفرتم إن عذابى لشديد ... وقالوا: النِّعْمُ وَحَشِيَّةٌ فَاشْكُرُوا بِالشُّكْرِ، يقال: شكَل الدابة يشكُلها: شدَّ قوائمها بجبل، واسم ذلك الجبل: الشِّكَالُ، وقال ابن المقفع: استوثقوا عُرَى النعم بالشكر. «العُرَى جمع عُرْوَة، والعُرْوَة في الأصل تقال لعُرْوَة الدَّلْوِ والكوز ونحوه، أى مقبضه. ولعُرْوَة المَزَادَة أى أذنها. ولعُرْوَة القَمِيص: مَدْحَل زَرِّه، ولعُرْوَة النَّبَات: ما بقى له خضرة في الشتاء ترعاها الإبل إذا أجذب الناس، ومن

(١) هذا كلام بعيد الغور غاية في النفاسة، وقد بما قرأت كلاما لا أذكر لفظه بيدان. معناه لا يزال عالقا بذهنى، وهو أن الإنسان قد يظن أن حرمانه الجاه أو المال أو ما إليهما، شرونة، ولكنه في الحقيقة نعمة، إذ لو أعطى ما يشتهيه من المال أو الجاه لساءت حاله وكان هذا المال أو الجاه مما يفسده لئما يصلحه ومن ثم حثوا على أن يرضى الإنسان بما أعطى ويعتد ذلك مدرجة إلى صلاحه وحسن حاله وأن ما أعطاه الله إياه مهما كان قليلا هو الخير كل الخير في الواقع ولا خير في غيره ولا صلاح ...

هذا استعاروا العروة لكل ما يلجأ إليه ويُعَوَّل عليه ويوثق به ويُتَمَسَّك؛ فيقال لقادة الجيش: العُرى، والصحابة رضوان الله عليهم: عُرى الإسلام، وقوله تعالى: فقد آستمسك بالعروة الوثقى لانفصام لها؛ شبه ما يعتصم به من الدين بالعروة التي يُتَمَسَّك بها ويلجأ إليها، والوثقى: المُحْكَمَة، فقول ابن المقفع: استوثقوا: أى أحكموها» وقال البحترى:

يزيد تفضلاً وأزيد شُكراً وذلك دأبه أبداً ودأبي
وقال عمرو بن مسعدة: لا تصحب من يكون استمتاعه بمالك وجاهك
أكثر من إمتاعه لك بشكر لسانه وفرائد عمله . وقال يحيى بن أكرم: كنت
عند المأمون فأنى برجل تُرعد فرائضه ، فلما تثل بين يديه قال المأمون:
كفرت نعمتى ولم تشكر معروفى ! فقال: يا أمير المؤمنين ، وأين يقع شُكرى
في جنب ما أنعم الله بك علىّ أقال يحيى: فنظر إلى المأمون وقال مُتمثلاً:
ولو كان يَسْتَعْنَى عن الشُكر ماجدٌ لرفمة نذر أو علو مكان
لما أمر الله العبادَ بِشُكرِهِ فقال: اشكروا لى أيها الثقلان
ثم التفت إلى الرجل وقال: هلا قلت كما قال أصرم بن حُميد:
مَلِكْتِ حَمِيدِي حَتَّى إِنِّي رَجُلٌ كُلِّي بِكُلِّ نِئَاءٍ فِيكَ مُسْتَعْلِلٌ
خَوَّلْتِ شُكْرِي لِمَا خَوَّلْتِ مِنْ نِعَمٍ فُحِرْتُ شُكْرِي لِمَا خَوَّلْتِ نِي خَدَمٌ
وقريب من هذا قول أبي الفتح البستي:

لئن عجزت عن شكر برك فوني وأقوى الوزى عن شكر برك عاجز
إن ثباتى واعتقادي وطاقتى لأفلاك ما أوليتها مراكز
ومن أروع ما قيل في الشكر قول البحترى:

فلو كان للشُكر شخص يبين إذا ماتاً له الناظر

لَبَّيْتُهُ لَكَ حَتَّى تَرَاهُ فَذَنبَلَمْ أَنَّى أَمْرُو شَاكِرٍ
ولكنه ساكنٌ في الضمير يُحْرَكُ الْكَلِمُ السَّاكِرُ

وقال عبدُ الله بنُ الزبيرِ الأَسَدِيُّ في عمرو بنِ عثمان بنِ عفَّان - لما زاره فَنَظَرَ
عمرو فرأى تحت ثيابه ثوباً رثياً ، فدعا وكيله وقال : اقترض لنا مالاً ، فقال : هيات
ما يُعطينا التُّجَّارَ شيئاً ، قال : فأرجمهم ماشوا . فاقترض له عشرة آلاف فوجه
بها إليه مع تحتِ ثياب « التخت : وعاء تصان فيه الثياب » - :

سَأَشْكُرُ عَمْرًا مَا تَرَاخَبَ مَنِيَّتِي أَيْدِيَّ لَمْ تُتَمَنَّ أَنْ وَإِنْ هِيَ تَجَلَّتْ
قَمِي غَيْرُ مُجْجُوبِ الْغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ وَلَا مُظْهِرِ الشُّكُوفِ إِذَا النُّعْلُ زَلَّتْ
رَأَى تَخَلَّتِي مِنْ حَيْثُ يُخْفَى مَكَانُهَا فَكَانَتْ قَدَى عَيْنِيهِ حَتَّى تَجَلَّتْ

« قوله : سأشكر : فالعرب تستعمل السين إذا أرادت تكرار الفعل
وتأكيده ولا تريد التنفيس فيه . ولم تمنن : لم يتبعها من ، وإذا النعل زلت :
يريد : إذا زلت قدمه في مزلق الدهر فلا يجد مركباً يقويه مصرع السوء
ولا متكأ يعتمد عليه في نهضته ، والحلة : الحاجة ، وقوله من حيث يخفى
مكانها : أي من حيث لا يدركها لحاظ غيره ، وفكانت قدى عينيه : أبرع كلمة
في معنى الاهتمام بالحاجة » ...

وقال ابن عَنُقَاءُ الْفَزَارِيُّ فِي عُجَيْلَةِ الْفَزَارِيِّ - وَكَانَ قَدْ وَصَلَهُ بِنَصْفِ مَا !

لَمَا رَأَى مِنْ رِثَائِهِ حَالِهِ ، وَكَانَ عُجَيْلَةً غَلَامًا جَمِيلًا - :

رَأَى عَلَى مَابِي عُجَيْلَةً فَاشْتَكَى إِلَى مَالِهِ حَالِي أَسْرًا كَمَا جَهَرَ
دَعَانِي فَأَسَانِي وَلَوْ ضَنَّ لَمْ أَلْمُ عَلَى حِينٍ لَا بَدُو يُرَجَّى وَلَا حَضَرَ
غُلَامٌ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْخَيْرِ يَا فَعَا لَهُ سَيْمِيَاءُ لَا تُشْقُ عَلَى الْبَصْرِ
كَانَ الثَّرِيًّا عُلِقَتْ فِي جَيْبِيهِ وَفِي حَدِّهِ الشُّعْرَى وَفِي وَجْهِهِ الْقَمَرُ

إذا قِيلَتِ العوراءُ أَغْضَى كَأَنَّهُ ذليلٌ يُبَلِّغُ ذُلَّهٗ لَوْ شَاءَ لَا تَنْصَرُّ
ولمَّا رَأَى المَجْدُ اسْتُعِيرَتِ ثِيَابُهُ تَرَدَّى رِدَاءً وَاسِحَ الذَّيْلُ وَأَنْزَرَ
ففلت له خيراً وَأَثْنَيْتُ فِعْلَهُ وَأَوْفَاكَ مَا أَسَدَيْتَ مَنَ ذَمًّا أَوْ شَكَرَ

« السِمْيَا والسِّمِيَا والسِّمْيَاءُ والسِّمِيَاءُ : العلامة يُعرف بها الخَيْرُ والشرُّ ،
وقوله : لَا تَشُقُّ عَلَى البَصْرِ يريد : لَا تُؤْذِيهِ بِلِ يُسْرُ ثِيَابِهَا ، وَالثُّرَيَّا : مِنَ الكَوَاكِبِ
كثيرة الأَنْجِيمِ مع صغر مرآتها ، والشَّعْرَى يريد بها الشَّعْرَى العَبُورُ ، وهو كوكب
نير خلف الجوزاء يُطلع في صميم الحرِّ . والعوراء : الكَلِمَةُ القَيْحِيَّةُ ،
وَأَغْضَى : أَطْبَقَ أَجْفَانَهُ حَيَاءً وَنَبَلًا ؛ وَاسْتُعِيرَتِ ثِيَابَهُ : كَتَبَ بِذَلِكَ عَنِ
قَلَةِ الأَجَادِ »

العجز عن الشكر

قال بعضهم :

أَيَادِي لَا أُسْطِيعُ كُنَّةَ صِفَاتِهَا وَلَوْ أَنَّ أَعْضَائِي جَمِيعًا تَكَلَّمُ
وقال آخر :

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ مَثْبُتٍ شَعْرَةٌ لِسَانًا يَبْكُ الشُّكْرَ فِيكَ لَقَصَّرَا

وقال بعضهم : شُكْرِي لَا يَقَعُ مِنْ نِعْمَةِ الظَّاهِرَةِ : دَوْعَ النَّقْطَةِ مِنَ الدَّائِرَةِ .

وقال أبو نُوَاسٍ :

قَدْ قَلْتُ لِلْعَبَاسِ مُعْتَمِدِرًا عَنْ ضَعْفِ شُكْرِيهِ وَمُعْتَرِفًا

أَنْتَ امْرُؤٌ جَلَلْتَنِي نِعْمًا أَوْهَتْ قُوَى شُكْرِي فَقَدْ ضَعُفَا

فإِلَيْكَ مِنِّي اليَوْمَ تَقْدِمَةٌ تَلْقَاكَ بِالتَّصْرِيحِ مُنْكَشِفًا

لَا تُسَيِّدِينَ إِلَى عَارِيَّةٍ حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرٍ مَا سَلَفَا

«شكريه : شكرى إياه» وقال المتنبي :

ولم تَمَلَّ تَفْقُودَكَ الْمَوَالِي ولم نَذُمَّ أَيَادِيكَ الْجِسامَا

ولكنَّ الْغُيُوثَ إِذَا تَوَالَتْ بأَرْضِ مُسَافِرٍ كِرَّةَ الْمُقَامَا

«الموالي جمع ولي : العبد، وتروى الموالى : أى الذى يلبى بعضه بعضاً، والآيدى : النعم ، والجسام : العظام ، وقوله ولكن الغيوث ... البيت ، فالغيوث جمع غيث : المطر ، وتوالت : تتابعت ، والمقام : الإقامة؛ يقول : إن المسافر إذا كثر عليه المطر ملّ إقامته واحتباسه ، لأجل المطر ، كذلك نحن ، عطايك تتوالى علينا وأنت قيدتنا يا احسانك وأنا مسافر أريد الارتحال ولولا هذا لم أتمّ نعمتك ، والمطر يسأله كل أحد إلا المسافر...» وقال البُحْتَرى وأبدع :

أُحْجَلْتَنِي بِنَدَى يَدَيْكَ فَسَوَدَتْ ما يَبْنِنَا تِلْكَ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ

وَقَطَعْتَنِي بِالْجُودِ حَتَّى لَأَنَّى مُتَّخِرَفٌ أَنْ لَا يَكُونُ لِقَاءُ

صِلَّةٌ عَدَّتْ فِي النَّاسِ وَهِيَ طَئِيعَةٌ عَجَبٌ، وَيُرِّ رَاحٌ وَهُوَ جَفَاءُ

وقال أيضاً :

إِيهَاءُ بِالْفَضْلِ شُكْرِي مِنْكَ فِي نَصَبٍ أَقْصَرُ فَمَالِي فِي جَدْوَالِكَ مِنْ أَرْبِ

لَا أَقْبَلُ الدَّهْرَ نَيْلًا لَا يَقُومُ بِهِ شُكْرِي وَلَوْ كَانَ مُسَدِّدِهِ إِلَى أَبِي

ومن ألفاظهم فى ذلك : شُكْرُهُ شَأْوٌ بَعِيدٌ لَا تَبْلُغُهُ أَشْوَاطِي ، وَلَا أَتْلَفِي

التفريط فيه يافراطى « الأشواط جمع شوط : الجرى مرّة إلى غاية تقول : عدا

- جَرَى - شوطاً ، أى طَلَقًا » وعندى له تَبَارُّهُ عَجَزَنِي شُكْرُهَا ، كما عَوَزَنِي حَضْرُهَا

« مبار جمع مبرة » وقال بعض الشعراء فى الصاحب بن عباد :

وَفَدَّنَا لِلشُّكْرِ كَافِي الْكُفَاةِ وَتَسْأَلُهُ الْكَفَّ عَنْ بَرِّنا

فقال بعض الحاضرين : قد كُفِّيت ، فإن الصاحب صار لا يعطى شيئاً ...

من لا تخفى أياديته

قال نصيب^(١) :

فعا جوا فأنثوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أننت عايك الحقايب

وقال بعضهم :

وكيف بكفراني صنائيه التي إذا جحدت يوماً أقر بها جلدي

ومثله :

وإذا سكت فإن أنطق من في عي يد المعروف والإحسان

وقالوا في أمثالهم : لسان الحال أفصح من لسان الشكر ... ومن كلمة

للجاءظ : نحن نزخرِف باللسان ، والناس يقضون بالعيان ، وفي أمرنا أثر

ينطق عنا ، ويتكلم إذا سكتنا ...

الشكر بقدر الاستحقاق

وعتبتهم من شكروه ولما يستوجب

قال علي بن أبي طالب : اثناء من غير الاستحقاق مَلَقٌ ، والتقصير عن

(١) هو نصيب بن رباح من أهل ودان وكان عبداً لرجل من كنانة هو وأهل

بيته ، وكان أهل البادية يدعونه «النصيب» تفخياً له وكانت أمه أمة سوداء وكان شاعراً

فجلا نصيحاً مقدماً في النسيب والمدح وكان أثيراً عند الملوك ، وهذا البيت من أبيات له

في سليمان بن عبد الملك وأول الأبيات :

أقول لركب صادرين لقيتهم تفأذات أو شال ومولاك قارب

قفوا خبروني عن سليمان إنني لمعروفه من أهل ودان طالب

فعا جوا البيت

وقفا : أي خلاف والعرب تقول : لقيت فلانا فقا العقبه أو الثانية : أي خلفها ، ومولاك

يخاطب سليمان ويريد بالمولى نفسه ولعله يريد بذات أو شال : موضعاً بعينه ، والقارب

في الأصل : طالب الماء ليلاً ،

الاستحقاق عبي وحسدٌ، وقال رجل لابن الإعرابي: إن نُضيباً — الشاعر
الذي تقدم ذكره — يقول: إنما تُمدح الرجال على قدر ثوابها، فقال: إن
العرب تقول: على قدر رِيحِكُمُ تمطرون... وقال الصاحب بن عباد:

وإذا الصديقُ أدامَ سُكْرِي لِلسَّيِّئِ لَمْ آتِهَا إِلَّا عَلَى التَّقْدِيرِ
أَيَقْنْتُ أَنَّ الْعَتَبَ بِإِطْنِ أَمْرِهِ فَسَكَتُ مُخْتَشِماً عَلَى التَّقْصِيرِ

من لم يردَّ غهْ خوفه عن الشكر

بعثَ أبو جعفر المنصور إلى شيخٍ من بطانةِ هشام بن عبد الملك ،
فاستحضره وسأله عن تدبير هشام وأحواله، فأقبل الشيخ يقول: قتل رحمه
الله، وقال يومَ كذا رحمه الله، فقال المنصور: قُمْ لعنك الله، أَلَطَأُ بِسَاطِي
وتترحمُ على عدوي! فقال الشيخ: إن نعمةَ عدوكَ لِقِلَادَةٌ فِي عُنُقِي لَا يَنْزِعُهَا
إِلَّا غَاسِلِي، فقال المنصور: آرِجِعْ إلى حديثك، فإني أشهدُ أنك غَرَسَ
شريف وابنُ حُرّة... ولما قتل مسلبةُ بن عبد الملك يزيدَ بن المهلب أمر بأن
يحضر الشعراء ليقولوا في ذلك، فلم يألوا أن ذكروه بأقبح ما قدروا عليه،
ما خلا رجلاً من بني دارم فإنه قال: لَا أَذْمُ رَجُلًا لَا أَمْلِكُ رَيْعًا وَلَا مَالًا وَلَا
أَمَانًا إِلَّا مِنْهُ وَلَوْ قَطَّعْتُ إِرْبَابًا إِرْبَابًا^(١)، ولقد رثيته بأحسن ما يرثى به رجلٌ—
وأنشد أبيتاً رائعةً— فجراه مسلبة خيراً وقال: إِذَا اضْطَنَّعَ فَلْيُضْطَنَّعْ مِثْلُ
هذا... أقول: لا أدري: أموقف هؤلاء البررة الأوفياء الشجعان الصرخاء
يُعجَبُ المرءُ، أم بأولئك الملوك الذي يقدرُون هذا الوفاءَ ويَطْرَبُونَ له ولو كان
في جانب أعدائهم! فلهذا دَرُّ أولئك الناس الذين شرفوا الإنسانية بهذه الخلائق
الكريمة النبيلة، بينما غيرهم من أهل النفاق والجبن والنذالة قد كَلَّمُوا^(٢) الإنسانية

(٢) كَلَّمُوا: جرحوا

(١) إرْبَابًا: عضوا عضوا

وهروا بها إلى الحضيض الأوهده...

شكر من همّ بإحسان ولم يفعل

وقالوا : من لم يشكرك على حسن النية ، لم يشكرك على إساءة العطيّة .

وقال شاعر :

لأشكرتّك معروفاً همتَ به إنَّ أهتِماك بالمعروفِ معروفٌ
ولا أدُمك إن لم يُمضِه قدرٌ فالشيءُ بالقدر المحتومِ مصروفٌ

ثقلُ الشكر والحمد

وقال أبو تمام في ثقل الشكر والحمد من أبيات له في الحسن بن وهب :

والحمدُ شهيدٌ لا ترى مُشْتارَه يَجْنِيهِ الْإِأْمِنُ نَقِيعَ الْخَنْظَلِ (١)

عُلٌّ لِحَامِلِهِ وَيَحْسِبُهُ الَّذِي لَمْ يُوْهِ عَاتِقَهُ خَفِيفَ الْمَحْمِلِ (٢)

وقيل لبعض الصالحين : مالك لا تطلب الدنيا ؟ فقال : من خاف السؤال

عن الشكر طابت نفسه عن المال ...

وقال أبو العتاهية :

ما فاتني خيرٌ أمرئٍ وَضَعْتُ عَنِّي يَدَاهُ مَوْوِنَةَ الشُّكْرِ

ترغيبهم في الثناء ووصفهم إياه بالبقاء

وتفضيلهم إياه على المال والعتاء

قال عمر بن الخطاب لابنة هريم بن سنان ممدوح زهير بن أبي سلمى :

(١) المشتار : مستخرج العسل ، والشهد : بفتح الشين وضمها : العسل في شمعها

(٢) الغل : القيد ، والمحمل : الحمل

ما وهب أبوك لزهير؟ فقالت: أموالا فنيته وأثوابا بليت وأشياء انسييت،
 فقال الفاروق: لكن ما أعطاكوه زهير لا يقنى ولا ينسى ... وكتب
 أرسطو إلى الإسكندر المقدوني: إن كل عقيلة^(١) يأتي عليها الدهر، فيخلق
 أثرها ويميت ذكرها، إلا ما رسخ في القلوب، من الذكرك الحسن يتوارثه
 الأقباب. وقالوا: في الشاء الباقي على الدهر، خلف من نفاذ العمر.
 قال الشاعر:

وإني أحب الخلد لو أستطيعه وكالخلد عندي أن أبيت ولم أتم
 وقيل لبزرجمهر حين كان يُقتل: تكلم بكلام نذكركه، فقال: الكلام
 كثير، ولكن إن أمكنك أن تكون حديثا حسنا فافعل.
 ولما رضع الوزير محمد بن عبد الملك الزيات في التنوير قال له خادمه:
 ياسيدي، قد صرت إلى ما صرت وليس لك حامدا قال: وما تنفع البرامكة
 من صنيعهم، قال: ذكرك لهم الساعة، فقال: صدقت ... وقال شاعر:
 لئن طببت نفسا عن ثنائي فأنتي لأطيب نفسا عن تذاك على عسرى
 غلست إلى جدواك أعظم حاجة على شدة الإعمار منك إلى شكري
 وقال أبو تمام:

ومحجب حارلته فوجدته نجما عن الركب العفاة شوعا
 أعدمته - لما عدمت نواله - شكري فرحنا معدمين جميعا

وقال عوف بن محم الشيباني:

قئ يتقي أن يتخدش الدم عرضه ولا يتقي حد السيوف البوار

(١) العقيلة في الاصل: المرأة الكريمة النفيسة ثم استعمل في الكريم من كل شيء
 في الذوات والمعاني. وعقائل الإنسان: كرائم أمواله، وهو المراد هنا

وقال حكيم: من أحبَّ الثناء، فليصبر على بَذلِ العطاء، وليوَظنْ نفسه
على الحقوق المُرَّة، وعلى احتمالِ المؤنة... وقال الشاعر في هذا المعنى:
ما أعلمُ الناسَ أنَّ الجودَ مَكسَبَةٌ للحمْدِ لَكِنَّه يَأْتِي عَلَى النَّسَبِ

تسهيل القول على الشاكرين

بتوافر ما يُشكر عليه وعكس ذلك

قيل للفردق: أحسنَ الكُمَيْتُ في الهاشميات، فقال: وَجَدَ أَجْرًا وَجِصًّا
فَبَنَى... وقال شاعر:

ما لَقِينَا مِنْ جُودِ فَضْلِ بْنِ يَحْيَى تَرَكَ النَّاسَ كُلَّهُمْ سُعْرَاءَ
وقال ابنُ الرومي:

كُرَّمْتُمْ بِجَاشِ الْمُفْتَحِمُونَ لِلدَّحِيمِ إِذَا رَجَزُوا فِيكُمْ أَيُّنْتُمْ فَقَصَدُوا
كَمَا أَزْهَرَتْ جَنَاتُ عَدْنٍ وَأَثْمَرَتْ فَأَضْحَتْ وَعُجِمَ الطَّيْرِ فِيهَا تُغْرَدُ
وعما كتبه بعضهم: فَتَحَتْ شَيْمُهُ عَلَى الْمُدَّاحِ مُسْتَعْلَمَاتِ الْكَلَامِ...
وقال أبو تمام:

مَلِكٌ إِذَا مَا الشَّعْرُ حَارَ يَبْلُدُهُ كَانَ الطَّارِقَ لِطَرْفِهِ الْمُتَحِيرِ
وقال المتنبي:

يَا أَيُّهَا الْمَحْسِنُ الْمَشْكُورُ مِنْ جِنَّتِي وَالشُّكْرُ مِنْ قَبْلِ الْإِحْسَانِ لَا قَبْلِي
وقال ابن طباطبا^(١) فيمن يُستفاد منه ما يُمدح به:

(١) ابن طباطبا: هو أبو القاسم أحمد الشريف الحسيني المصري نقيب الطالبيين
بمصر، ترجم له ابن خلكان، وطباطبا: لقب جده إبراهيم، وذكره الثعالبي في اليتيمة توفي
سنة ٣٤٥ هـ

لَا تُنْكِرْنَ إِعْدَاءَنَا لَكَ مِنْطِقًا مِنْكَ اسْتَفَدْنَا حُسْنَهُ وَنِظَامَهُ
فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَشْكُرُ فِعْلَ مَنْ يَتَلُو عَلَيْهِ وَحْيَهُ وَكَلَامَهُ
وقال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ^(١) فيمن يليق به مدحه :
وَأَرَى الْمَدِيحَ إِذَا عَدَاكَ نَقِيصَةً فَأَعَافَهُ وَلَوْ أَنَّهُ فِي حَاتِمِ
فَإِذَا امْتَدَحْتَ سُؤَالَكَ قَالَ الشَّعْرَى لَمْ تَرَعِ حَقِّي إِذْ أَبْجَحْتَ بَحَارِي
ووصف أعرابي رجلاً بجماً على مدحه : كَأَنَّ الْأَلْسَانَ وَالْقُلُوبَ رِيضَتْ
لَهُ ، فَمَا تُعَقِّدُ إِلَّا عَلَى وَدِّهِ ، وَلَا تَنْطِقُ إِلَّا بِحَمْدِهِ . وقال البحرى :
وَأَرَى الْخَلْقَ مُجْمَعِينَ عَلَى فَضْلِ * لِكَ مِنْ بَيْنِ سَيِّدٍ وَمَسُودِ
عَرَفَ الْجَاهِلُونَ فَضْلَكَ بِالْعِ * لَمْ وَقَالَ الْجُهَّالُ بِالْتَقْلِيدِ
وقال ابن الرومي :

يَأْمَنُ إِذَا قَاتُ فِيهِ صَالِحَةٌ عِنْدَ عَدُوِّ أَقْرَ وَاعْتَرَفَا

وقال البحرى فى المُسْتَعْنَى عَنِ الْمَدْحِ لِكَثْرَةِ فَضْلِهِ :

جَلَّ عَنِ مَذْهَبِ الْمَدِيحِ قَتَدَ كَادَ يَكُونُ الْمَدِيحُ فِيهِ هِجَاءُ

وقال المتنبى :

تَجَاوَزَ قَدْرَ الْمَدْحِ حَتَّى كَانَهُ بِأَكْثَرِ مَا يُبْنَى عَلَيْهِ يُعَابُ

حَبُّ الْمُنْعَمِ أَنْ مِيرَى أَثْرَ إِعْنَامِهِ

قال سيدنا رسول الله صلوات الله عليه : إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثْرَ

(١) هو القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني الفقيه الأديب الشاعر صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه وصاحب الآيات المشهورة التي أولها : يقولون لى فيك أنقباض وإنما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما توفى سنة ٨٣٦٦

رِعْمَتِهِ عَلَى عِبْدِهِ ... « قَالَ الْإِمَامُ الْمَنَاوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى الْجَامِعِ الصَّغِيرِ :
 قِيلَ مَعْنَى يُرَى : مُزِيدُ الشُّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى ، بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالشَّوَاءِ وَالذِّكْرِ لَهُ بِمَا
 هُوَ أَهْلُهُ ، وَالْعَطْفُ وَالتَّرْحُمُ ، وَالْإِنْفَاقُ مِنْ فَضْلِ مَا عِنْدَهُ ، وَأَحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ
 اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَالْحَلِيقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ ، وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ ، فَيُرَى أَمْرُ
 الْجِدَّةِ عَلَيْهِ زِيَاً وَإِنْفَاقاً وَشُكْرًا ، إِلَى آخِرِ مَا قَالَ ، وَهَكَذَا يُحِبُّ النَّاسُ أَنْ
 يُرَى أَمْرٌ لِنِعْمَتِهِمْ عَلَى مَنْ يُنْعِمُونَ عَلَيْهِمْ ، رَوَى أَبُو هِلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ عَنْ
 الْعُتْبِيِّ مَا يَلِي : أَرَادَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى حَاجَةً كَانَ طَرِيقُهُ إِلَيْهَا عَلَى بَابِ الْأَصْمَعِيِّ
 فَوَدَّعَ إِلَى خَادِمٍ لَهُ كَيْسًا فِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ وَقَالَ : إِنِّي سَأَعْرِجُ فِي رَجْعَتِي عَلَى
 الْأَصْمَعِيِّ ، ثُمَّ سَيُحَدِّثُنِي وَيُضْحِكُنِي ، فَإِذَا ضَحِكْتُ فَضَعِرَ السَّكِّيسُ بَيْنَ يَدَيْهِ ،
 فَلَمَّا رَجَعَ وَدَخَلَ إِلَيْهِ رَأَى حُبًّا مَكْسُورًا^(١) الرَّأْسِ وَجَرَّةً مَكْسُورَةَ الْعُنُقِ ،
 وَقَصْعَةً مُشَمَّبَةً ، وَجَفْنَةً أَعْشَارًا ، وَرَأَى عَلَى مُصَلَّى بَالٍ وَعَلَيْهِ بَرْنُكَانٌ^(٢)
 أَجْرَدٌ ، فَغَمَزَ غَلَامَةً أَنْ لَا يَضَعُ السَّكِّيسُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَلَمْ يَدْعِ الْأَصْمَعِي شَيْئًا
 مِمَّا يُضْحِكُ الشُّكْلَانَ وَالغَضْبَانَ إِلَّا أَوْرَدَهُ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَتَبَسَّمْ ، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ
 لِرَجُلٍ يُسَاطِرُهُ : مَنْ اسْتَرَعَى الذَّنْبَ ظَلَمَ ، وَمَنْ زَرَعَ السَّبِيخَةَ^(٣) حَصَدَ الْفَقْرَ ،
 إِنِّي وَاللَّهِ لَمَّا عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا يَكْتُمُ الْمَعْرُوفَ بِالْفِعْلِ مَا حَفِلْتُ بِبَشْرِهِ
 لَهُ بِاللِّسَانِ ، وَأَيْنَ يَقَعُ مَدِيحُ اللِّسَانِ مِنْ آثَارِ الْعِيَانِ ! إِنْ اللِّسَانُ قَدْ
 يَكْذِبُ ، وَالْحَالُ لَا تَكْذِبُ ، وَاللَّهُ دَرُّ نُصَيْبٍ حَيْثُ يَقُولُ :

فَمَا جُورَ فَأَنْتَوْنَا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكْتُوا أَنْتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

ثم قال : أعلمت أن ناووس أبريز أمدح لابرويز من زهير لآل سنان !

(١) الحب : الخاوية ، فارسي معرب (٢) برنكان على وزن زعفران :

ضرب من الأكسبة . (٣) أرض سبيخة : ذات ملح ونز

وقالت الحكماء : لسان الحال أصدق من لسان الشكر : وقد أجاد ابن الرومي في هذا المعنى فقال :

حالي تبوح بما أوليت من حَسَنِ فِكْلٍ ما ادَّعِيه غَيْرُ مَرْدُودِ
كَلِّي هِجَاءٌ وَقَتْلِي لا يَجِلُّ لَكُمْ فَمَا يُدَاوِيكُمْ مَنِّي سِوَى الْجُودِ
وتالوا : شهاداتُ الأحوالِ أعدلُ من شهاداتِ الرجالِ

لا يمدحون إلا إذا أعطوا

واعتذارهم عن ذلك

قالت بنو تميم لسلامة بن جندل : نجدنا بشعرك ، فقال : افعلوا حتى أثنى ، ونحوه قول عمر بن معد يكرب :

فلو أن قومي أنطقني رماحهم نطقتُ ولكن الرماحَ أجزتِ
وأجزت : قطعت ، يقول : لو قاتل قومي أو أبوا لذكرت ذلك ونفرتُ
به ، ولكن رماحهم أجزتني : أى قطعت لسانى عن الكلام بفرارهم ، أراد
أنهم لم يقاتلوا

وقال بعض الأكاابر لأبى هفان ^(١) : مالك لا تمدحنى ؟ فقال :

لسانُ الشكرِ يُنطقُهُ العَطَايا وَيُخْرِسُ عِنْدَ مُنْقَطِعِ النَّوَالِ
وعاتب يوماً محمد بن عبد الملك الزيات الوزير أبا تمام على مدحه سواه
فاعتذر إليه بأبيات يقول فيها :

أما القوافى فقد حصلت عذرتها فما يُصابُ دمٌ منها ولا سلبُ

(١) أبو هفان : هو عبد الله بن أحمد بن حرب المهزى العبدى ، راوية عالم بالشعر والغريب ، وشعره جيد إلا أنه مقل وهو من شعراء الدولة الهاشمية .

مَتَّعَتِ إِلَّا مِنَ الْأَكْفَاءِ نَاكِحَهَا وَكَانَ مِنْكَ عَلَيْهَا الْعَطْفُ وَالْحَدَبُ
 وَلَوْ عَصَلَتْ عَنِ الْأَكْفَاءِ أَيْمَهَا وَلَمْ يَكُنْ لَكَ فِي أَطْهَارِهَا أَرْبُ
 كَانَتْ بَنَاتٍ نُصِيبُ حِينَ ضَنَّ بِهَا عَلَى الْمَوَالِي وَلَمْ تَحْفَلِ بِهَا الْعَرَبُ

« العذرة : البكارة ، والحذب : الإشفاق ، وعصل الأيتم : فالأيم : التي لا زوج لها يكرها كانت أو ثيبا والجمع : أيايم وأيايم ، وعصل الرجل أيمه يعصلها ويعصلها عضلا : منعها الزواج ظلما قال تعالى : فلا تعصلوهنَّ أن ينكحنَّ أزواجهنَّ ، نزلت في معقل بن يسار المزني - وكان زوج أخته رجلا فطلقها ، فلما انقضت عدتها خطبها ، فآلى أن لا يزوجه إياها ورغبت فيه أخته فنزلت الآية ... وكان نصيب الشاعر الأسود له بنات وكان يرغب عن أن يزوجهنَّ من الموالى ، والعرب لا ترغب فيهنَّ ، فبقين بلا زواج ، قيل له يوما : ما حال بناتك ؟ فقال : صبت عليهن من جلدى فكسدن على ... ، وكتب هذا الوزير الزيات إلى أبي تمام يوما يحتج عليه بأنه يمدح غيره وأنه لواقصر عليه لأغناه وأن كثرة مدحه الناس زهدته فيه :

رَأَيْتُكَ تَسْمَحُ الْبَيْعَ سَهْلًا وَإِنَّمَا يُغْسَالِي إِذَا مَاضَى بِالشَّيْءِ بَائِعُهُ
 هُوَ الْمَاءُ إِنْ أَجْمَمْتَهُ طَابَ وَرُدَّهُ وَيَقْسُدُ مِنْهُ مَا تُبَاحُ شِرَائِعُهُ

فكتب إليه أبو تمام :

أَبَا جَعْفَرٍ إِنْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ شَاعِرًا أَسْأهِلُ فِي بَيْعِي لَهُ مَنْ أَبَا يِعُهُ
 قَدِمْتُ كُنْتُ قَبْلِي شَاعِرًا ذَارِيَةً تُسْأَهُلُ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ بِضَائِعُهُ
 وَصِرْتُ وَزِيرًا وَالْوَزَارَةُ مَشْرَبٌ يَغْصُ بِهِ بَعْدَ اللَّذَائِدِ كَارِعُهُ
 وَكَمْ مِنْ وَزِيرٍ قَدْ رَأَيْتُنَا مُسَاطًا رَأَيْتَاهُ قَدْ سُدَّتْ عَلَيْهِ مَطَالِعُهُ
 وَلِلَّهِ قَوْسٌ لَا تَطِيشُ بِهَا هَامًا وَلِلَّهِ سَيْفٌ لَا تُقْلُّ مَقَامِعُهُ

« يقول : إن سبها الله مصيبة لا تُخطى وسيقه لا يئلم ألبتة ، فهو الذي جعلك وزيراً ولو شاء لأنزلك عن دستك »

حُثِّمَ عَلَى الشُّكْرِ وَلَوْ لِمَنْ لَيْسَ عَلَى دِينِهِمْ

قال رجلٌ لسعيد بن جبير : المجوسى يؤلنى خيراً فأشكره ، ويُسَلِّمُ على فأرد عليه ؟ فقال سعيد : سألت ابن عباس عن نحو هذا ، فقال لى : لو قال لى فرعونُ خيراً لرددت عليه ... وسَلَّمَ نصرانىُّ على الشَّعْبِيِّ ، فقال الشَّعْبِيُّ : وعليك السلام ورحمةُ الله ، فقال له رجلٌ : سبحان الله ، تقول لهذا النصرانى ورحمة الله ! فقال الشَّعْبِيُّ : أليس فى رحمة الله يعيش ؟ قال : بلى ، قال : فما وجه الإنكار على عافاك الله ورحمنا وإياك برحمته ؟

استحياءٌ وهم من المديح

ولا سيما إذا كان مُتَكَلِّفاً أو مُبَالِغاً فيه

سمع سيدنا رسول الله رجلاً يُتَنَى على آخر ، فقال : قَطَعْتَ مَظَاهِ ، لوسمع ما أفلح « المطا : الظهر » وقالوا : استحياءُ الكريم من المدح أكثرُ من استحياء اللئيم من الذم ... وأثنى رجلٌ على هشام بن عبد الملك ، فقال : إنا نكره المدح ، فقال : لستُ أمدحك ولكنى أحمدُ الله فىك ... وكان أبو بكر الصديق رضوان الله عليه يقول إذا مديح : اللهم ، أنت أعلم منى بنفسى منهم ، اللهم ، اجعلنى خيراً مما يحسبون ، واغفرلى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون ... وكان رجلٌ يُكثِرُ الثناء على على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وعَلِمَ من قلبه خلافَ قوله ، فقال له : أنا دون ما تقول ، وفوق ما فى نفسك ؛ وقال الجاحظ : شرُّ الشكر ، ثناءُ المُواجهِ لك المُسْرِفِ فى مدحك ،

وخَيْرُهُ، ثناء الغائب عنك ، المقتصد في وَصْفِكَ . وقالوا : كنْ بمن أفرط في
توكيدتك أَحَدَرَ من أفرط في الزرارة بك . وقالوا : مَنْ مَدَحَ الرجل بما ليس
فيه فقد بالغ في ذمِّه . وقال أبو فراس الحمداني :

ولا تَقْبَلَنَّ القولَ من كلِّ قائلٍ سَأَرْضِيكَ مَرَأَى لست أَرْضِيكَ مَسْمَعًا
وقال الفضيل بن عياض : لو شتمتُم رائحة الذنوب مني ما قرَّبتموني ...
وأُتِيَني على زاهدٍ ، فقال : لو عَرَفْت منِّي ما عَرَفْت من نفسي لَأَبْغَضْتَنِي .
وقال المتنبِّي :

يُحَدِّثُ عن نَفْسِهِ مُكْرَهًا كَأَنَّ له مِنْهُ قَلْبًا حَسُودًا

من يمدح نفسه

خطب معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه خطبة حسنة ، فقال : هل من
خليل ؟ فقال رجل من عرض الناس : خليل الخليل المُنْخَلِ ، فاستدعاه وقال :
ماذا الخليل ؟ قال : إعجابك به ومدحك له ... وقيل الحكيم : ما الذي لا يحسنُ
وإن كان حقاً ؟ قال : مدحُ الرجل نفسه ... وقال معاوية لرجلٍ : مَنْ سَيِّدُ
قومك ؟ فقال : أنا ، فقال له : لو كنتَ كذلك لم تَقُلْهُ ... هُوَ مِنْ طَرَفِهِمْ
في ذلك ما روى عن بعض الشعراء أنه سُئِلَ : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحتُ
والله أظرفَ الناس وأشعرَ الناس وآدبَ الناس ، فقال السائل : آسكت حتى
يقول الناس ذلك ، فقال : أنا منذ ثلاثين سنة أنتظر أن يقول الناس وليسوا
يقولون ... ومدحَ أعرابي نفسه فعوتب في ذلك ، فقال : أأَكِلُهُ إِلَيْكُمْ إِذْنُ وَاللَّهِ
لا تقولوا أبدا ...

عذر من يُضطرّ إلى مدح نفسه

قال ابن الرومي في ذلك :

وعزيرٌ عليّ مدحى لنفسى غير أنّ جُشمتُهُ الدلالةُ

وهو عيبٌ يكاد يسقط فيه كلُّ خيرٍ يريدُ يُظهرُ حاله

ووصف لابن جعفر المنصور بعض الأفاضل ، فأمر بإشخاصه إليه ؛ فلما دخل

قال له : أعالمُ أنت ؟ فقال : أكرهُ أن أقول : نعم ، وفيه مافيه ، أو أقول : لا ،

فأكون جاهلا . فأعجب المنصور بجوابه وألزمه المهدي

نهيهم عن المدح قبل الاختبار

قالوا : لا تعرف قبل أن تعرف «أى لا تمدح قبل التجربة، وأصل الهزف :

الهديان قال الأزهرى : الهزف : شبه الهديان من الإعجاب بالشيء يقال : هو

يهرف بفلانٍ نهاره كله هزفا ، وقالوا : لا تحمدنّ أمةً عامٍ شرايها ، ولا حرّة .

قبل بنائها ، قبل الدخول بها ... وقال رجل لعمر رضى الله عنه : إن فلانا

رجلٌ صدق ، فقال : هل سافرتَ معه ، أو ائتمنته ؟ قال : لا ، فقال :

إذن لا تمدحه ، فلا علم لك به ، لعلك رأيتَه يرفعُ رأسه ويخفضه في المسجد .

ختام الباب

عقريات شتى في الشكر

قال أبو ذرّ : قلتُ للنبيّ صلى الله عليه وسلم : الرجلُ يعملُ العملَ ويُحِبُّه .

الناس ؟ قال : تلك عاجلُ بشرى المؤمن ... وقال صلوات الله عليه :

إذا أردتم أن تعملوا ما للعبد عند الله فانظروا ماذا يتبعه من الشاء ...

وقال شاعر :

عُثْمَانُ يُعَلِّمُ أَنَّ الْحَمْدَ ذُو عَيْنٍ لَكِنَّهُ يَشْتَهِي حَمْدًا بِمَجَانٍ
وَالنَّاسُ أَكْثَرُ مَنْ أَنْ يَحْمَدُوا رَجُلًا

حتى يَرَوْا قَبْلَهُ آتَارَ إِحْسَانِ

وقال معاوية بن أبي سفيان يُعَاتِبُ قُرَيْشًا :

إِذَا أَنَا أُعْطِيتُ القَلِيلَ شَكَوْتُمْ وَإِن أَنَا أُعْطِيتُ الكَثِيرَ فَلَا تُشْكُرُ
وَمَا لُمْتُ نَفْسِي فِي قَضَاءِ حُقُوقِكُمْ وَقَدْ كَانَ لِي فِيهَا اعْتَدَرْتُ بِهِ عُذْرُ
وَأَمْنَحِكُمْ مَالِي وَتَسْكَنُ رِغْمَتِي وَتَشْتِمُ عَرْضِي فِي جَمَالِهَا فَهَرُ (١)
إِذَا العُذْرُ لَمْ يُقْبَلْ وَلَمْ يَنْفَعِ الأَسَى وَضَاقَتْ قُلُوبُهُمْ حَشْوُهَا العِزُّ (٢)
فَكَيْفَ أَدَاوِي دَاءَكُمْ وَدَوَاؤَكُمْ يَزِيدُكُمْ غِيَاً فَقَدْ عَظُمَ الأَمْرُ (٣)
سَاحِرُكُمْ حَتَّى يَذِلَّ صِعَابُكُمْ وَأَبَغُ شَيْءٍ فِي صِلَاحِكُمُ الفَقْرُ (٤)
وقال ابن الرومي :

كَمْ مِنْ يَدٍ بَيْضَاءَ قَدْ أَسَدَتْ يَتَهَا تَنَنِي إِلَيْكَ عِنَانَ كُلِّ وِدَادٍ
شَكَرَ الإِلَهَ صَنَائِمًا أَوْلَيْتَهَا سَلَكَتْ مَعَ الأَرْوَاحِ فِي الأَجْسَادِ
وقال الشريف الرضي :

أَلْبَسْتَنِي رِعْمًا عَلَى رِعْمٍ وَرَفَعْتَ لِي عَلَمًا عَلَى عِلْمٍ
وَعَلَوْتَ بِي حَتَّى تَشَيْتُ عَلَى بُسْطٍ مِنَ الأَعْتَاقِ وَاللِّقَمِ
فَلَا تُشْكُرُنَّ يَدِيكَ مَا شَكَرْتَ حُضْرُ الرِّيَاضِ مَصَانِعِ الدِّيمِ

(١) فهر : هو فهر بن غالب بن النضر بن كنانة ثم سمي به القبيلة وقريش كلهم ينسبون إليه (٢) الأسي: العلاج والدواء والإصلاح والعدل ، والغمر: الحمد (٣) الغي : الضلال (٤) يذل : ينقاد

فالحمدُ يُبقي ذِكْرَ كُلِّ قِيٍّ وَيُبَيِّنُ قَدْرَ وَاقِعِ الْكَرَمِ
وَالشُّكْرُ مَهْرٌ لِلصَّالِحِينَ إِنَّ طُلَيْتَ مُهُورُ عَقَائِلِ النَّعَمِ

« القم جمع قمة : أعلى الرأس وأعلى كل شيء ، والديم جمع ديمة : المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق يدوم ثلث نهار أو ثلث ليل فأكثر ، والصنيفة : ما أسديت من معروف ، والعقائل : كرائم الأموال ، وقال رجل لبعض ذوى السلطان : المواجهَةُ بالشكر ضَرْبٌ من الملق ، منسوبٌ من عُرفٍ به إلى التَّخَاتِي ، وأنت تمنعني من ذلك ، وترفع الحال بيننا عنه ، ولذلك تَرَكْتُ لِقَاءَكَ بِهِ ، غيرَ أني من الإِعْرَافِ بِمَعْرُوفِكَ ، وَتَشْرِيرِ مَا تَطْوِي منه ، والإشادة بذكره عند إخوانك ، والانتساب إلى التخصير مع الإطناب في وصفه ، على ما أرجو أن أكون قد بلغتُ به حالَ المُحْتَمَلِ للصَّنِيفَةِ النَّاهِضِ بِحَقِّ النَّعْمَةِ . وقال أبو يعقوب الخريبي :

زاد معروفك عِنْدِي عِظْمًا أَنَّهُ عِنْدَكَ مَحْمُورٌ صَغِيرٌ
تَنَاسَاهُ كَأَن لَمْ تَأْتِهِ وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورٌ كَبِيرٌ
وقال بعضهم : لا تثنق بِشُكْرِكَ من تُعْطِيهِ حَتَّى تَمْنَعَهُ ، فإن الصابر هو الشاكر ، والجازع هو الكافر ... وقال الشاعر :

إِذَا أَنَا لَمْ أَشْكُرْ عَلَى الْخَيْرِ أَهْلُهُ وَلَمْ أَذُمَّ الْجَبْسَ اللَّيْمَ الْمُدَمَّمَا (١)
فَقِيمَ عَرَفْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ بِاسْمِهِ وَسَقَى لِي اللَّهُ الْمَسَامِحَ وَالْقَمَا
وقال ابن التوميم (٢) : كلُّ من كان ، جوْدُهُ يَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَلَوْلَا رُجُوعُهُ
إِلَيْهِ لَمَا جَادَ بِمِثْلِكَ ، وَلَوْ تَهَيَّأَ لَهُ ذَلِكَ الْمَعْنَى فِي رِوَاكٍ لَمَا قَصَدَ إِلَيْكَ ،
فليس يجبُ له عليك شُكْرٌ ، وإنما يوصف بالجود في الحقيقة ويُشكر على

(١) الجبس : النذل الذم . (٢) هو عقبة بن التوميم من رجال الحديث

النَّفْعَ فِي حُجَّةِ الْعَقْلِ ، الَّذِي إِنْ جَادَ عَلَيْكَ فَلَاكَ جَادٌ ، وَنَفَعَكَ أَرَادَ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ جَوْدُهُ بِشَيْءٍ مِنَ النَّفْعِ عَلَى جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ ، وَهُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَإِنْ شَكَرْنَا النَّاسَ عَلَى بَعْضِ مَا جَرَى لَنَا عَلَى أَيْدِيهِمْ ، فَلِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا التَّعَبُّدُ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَعْظِيمِ الْوَالِدِينَ وَإِنْ كَانَا شَيْطَانَيْنِ ، وَتَعْظِيمِهِمْ مِنْهُ وَأَسْنُ مِنْهَا وَإِنْ كُنَّا أَفْضَلَ مِنْهُ . وَالْآخَرُ : لِأَنَّ النَّفْسَ مَا لَا تُحْصَلُ الْأُمُورَ وَتُمَيِّزُ الْمَعَانِيَ ، فَالسَّابِقُ إِلَيْهَا حُبٌّ مِنْ جَرَى لَهَا عَلَى يَدَيْهِ الْخَيْرُ وَإِنْ كَانَ لَمْ يُرْزَها وَلَمْ يَقْصِدْ إِلَيْهَا . أَلَا تَرَى أَنَّ عَطِيَّةَ الرَّجُلِ صَاحِبَتُهُ لَا تَخْلُو أَنْ تَكُونَ لِلَّهِ أَوْ لِعَبْدٍ لِلَّهِ ، فَإِنْ كَانَتْ لِلَّهِ فَتَوَابَهُ عَلَى اللَّهِ ، وَكَيْفَ يَجِبُ فِي حُجَّةِ الْعَقْلِ شُكْرُهُ وَهُوَ لَوْ صَادَفَ ابْنَ سَبِيلٍ غَيْرِي لَمَا أَعْطَانِي ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ إِيَّايَ لِذَنْكَرٍ ، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَاِنَّمَا جَعَلَنِي سُلْبًا إِلَى حَاجَتِهِ وَسَبِيًّا إِلَى بُغْيَتِهِ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ إِيَّايَ طَلْبًا لِلْمُكَافَأَةِ فَاِنَّمَا ذَلِكَ تِجَارَةٌ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ لِحُورِ يَدِي أَوْ لِسَانِي أَوْ لِجُرَارِ مَعُونَتِي وَنُصْرَتِي ، وَسَبِيلُ هَذَا مَعْرُوفٌ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ لِلرَّحْمَةِ وَالرَّفَقَةِ وَلِمَا يَجِدُ فِي قَوَادِهِ مِنْ انْتِصَرٍ وَالْأَلَمِ ، فَاِنَّمَا دَاوَى بِتِلْكَ الْعَطِيَّةِ مِنْ دَائِهِ ، وَرَفَقَهُ مِنْ خِيَانَتِهِ ... وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

أَثْنِي عَلَيْكَ وَلِي حَالٌ تُكْذِّبُنِي فِيمَا أَقُولُ فَأَسْتَجِيهِ مِنَ النَّاسِ
 قَدَقْتُ إِنْ أَبَاحَ فِصِّ لَا كَرَمٍ مِنْ بَمَشِي نَخَاصِمِي فِي ذَاكَ إِفْلَاسِي
 وَكَانَتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَثِيرًا مَا تَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :
 يَجْزِيكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ وَإِنْ مِنْ أَثْنِي عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى
 وَقَالُوا : خَمْسَةُ أَشْيَاءَ ضَائِعَةٌ : سِرَاجٌ يُوقَدُ فِي شَمْسٍ ، وَمَطَرٌ جَوْدٌ فِي
 سَيْخَةٍ ، وَحَسَنَاءُ تُزْفُّ إِلَى عَيْنٍ ، وَطَعَامٌ اسْتُجِيدَ وَفُتِّمَ إِلَى سَكْرَانَ ،
 وَمَعْرُوفٌ صُنِعَ إِلَى مَنْ لَا شُكْرَ لَهُ ...

الباب الثالث

في الصبر وعبرياتهم فيه ، وفي الدنيا وأكدارها ، وفي هادم اللذات

ماذا يُراد بالصبر في هذا الباب ؟

قال علماء اللغة : الصبرُ : نقيض الجزع ، أو حبسُ النفس عند الجزع ، يقال : صبرَ فلانٌ عند المصيبة يصبرُ صبراً ، وصبرتهُ أنا : حبستهُ ، والتصبرُ : تكلفُ الصبر ، قال عمر رضي الله عنه : أفضلُ الصبرِ : التصبرُ ... وقال الراغب الأصفهاني في الذريعة : الصبرُ ضربانٍ : جسْمِيٌّ ونَفْسِيٌّ ، فالجسْمِيٌّ : هو تحمُّلُ المشاقِّ بقدرِ القوةِ البدنيةِ ، وأكثرُها لذوى الجسومِ الحُسنَةِ ، وليس ذلك لفضيلةِ تامَّةٍ ، وذلك في الفعلِ كالمشي ورَفْعِ الحجرِ ، وفي الانفعالِ كالصبرِ على المرضِ ، والنفسِيٌّ - وبه تُملَأُ الفضيلةُ - ضربانٍ : صبرٌ عن تناولِ مُشْتَهِيٍّ ، ويقالُ له : العِفَّةُ ؛ وصبرٌ على تحملِ مكروهٍ أو مُحْبُوبٍ ، وهذا تختلفُ أسماؤه بحسبِ اختلافِ مواقفه ، فإذا كان في نزولِ مُصِيبَةٍ فإنه إما استَبَدَّ به اسمُ الصبرِ ، وضده الجزعُ والهلعُ والحزنُ ، وإن كان في احتمالِ غَيٍّ فقد سُمِّيَ ضبطُ النفسِ وِبِضَاؤُهُ الدَّقِيعُ والبَطَرُ ، ^(١) وإن كان في محاربةِ سُوءٍ سُمِّيَ شجاعةً وِبِضَاؤُهُ : الجبنُ ، وإن كان في إِمساكِ النفسِ عن قضاءِ وطَرِ الغضبِ سُمِّيَ حِلْباً ، وِبِضَاؤُهُ : التذمُّرُ ^(٢) ، وإن كان في نائبةِ مُضْجِرَةٍ سُمِّيَ سَعَةَ الصدرِ ؛ وِبِضَاؤُهُ ضيقُ الصدرِ والضجرُ والتبرُّمُ ، وإن كان في إِمساكِ كلامِ

(١) الدقع : الرضا بالدون من المعيشة وسوء احتمال الفقر ، والبطر : الطغيان في النعمة

(٢) التذمر : التغضب ومنه : فلان حامى الذمار وهو كل ما يلزمك حفظه وحياطته ،

وحاياته وما يجب على أهله التذمر له والغضب من أن يقال منه

في الضمير سُمِّيَ كتمان سرٍّ ، وِضادُهُ : الإفشاء ، وإن كان في الإمساك عن فضولات العيش سُمِّيَ قناعة وزهداً ، وهذا يصادُهُ : الحرص والشره ...
« وبعد ، فهذا أنت ذا ترى بما أوردنا عليك من كلام الراغب : أن الصبر ألوانٌ ، ومن أخص ألوانه : الصبر على المصائب ، ذلك الذي يصادُهُ الجزع وهذا اللون هو الذي سوف تتصدى له في هذا الباب ، أمَّا سائر الألوان فإن لكل منها باباً لقد عقدناه فيما يلي هذا الباب من الأبواب .

عقرياتهم في الصبر

قال الراغب في فصل عنوانه « مداواة الغم وإزالة الخوف » مع شيء من التصرف : خَلِقُ بِالْإِنْسَانِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الدُّنْيَا جَمَّةٌ الْمَصَائِبُ رَنَقَةُ الْمَشَارِبِ تُشِيرُ لِلْبَرِيَّةِ أضعاف البلية^(١) ، فيها مع كلُّ لُقْمَةٍ عُصَّةٌ^(٢) ، ومع كلِّ جُرْعَةٍ شَرَقَةٌ^(٣) ، فهي عَدْوَةٌ وَمَحْبُوبَةٌ كما قال أبو نواس :
إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَيْبٌ تَكْشَفَتْ لَهُ عَنْ عَدْوٍ فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ
وَمَا رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : مَا مَثَلْنَا مَعَ الدُّنْيَا إِلَّا كَمَا قَالَ كَثِيرٌ :

أَسْبِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لِأَهْلُومَةٍ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتْ^(٤)

- (١) البرية : الخلق ، وأضعاف البلية يريد البلية مضاعفة والبلية : المحنة
(٢) العصاة : الشجى - ما ينشب في الخلق من عظم وغيره
(٣) الجرعة من الماء : حسوة منه ، والشرقة : العصاة ولكنه بالماء والريق ونحوهما
قال عدى بن زيد :

لَوْ بَغَّيْرِ الْمَاءِ حَلِيقِي شَرِيقٌ كُنْتُ كَالْفَصَّانِ بِالْمَاءِ اعْتِصَارِي
(٤) مقليّة : مكروهة ، وتقات بحذف إحدى التامين وتقلب الشيء : تبغض ، خاطب كثيرهم غائب

فأحدٌ فيها إلا وهو في كلِّ حالاته غرضٌ لِسِمَاهَا :

مُتَنَاضِلُهُ الْآفَاتُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَتُخْطِئُهُ يَوْمًا وَيُرْمَا تَصِيبُهُ^(١)

وقال بعض الحكماء : أسباب الحزن فقدُ محبوبٍ أو فوتُ مطلوبٍ ، ولا يَسْكُمُ منهما إنسان ، لأن الثبات والدوام معدومان في عالم الكون والفساد . فمن أحبَّ أن يعيش هو وأهله وأحبابه سالمين فهو غيرُ عاقل ، لأنه يريدُ أن يَمْلِكَ ما لا يَمْلِكُ ، ويوجد له ما لا يوجد ، فتحقيقُ المرء أن لا يُخْلِى قلبه من الاعتبار بما يَرَى ، من ارتجاع لودائمه من أربابها ، وحلول لنوائبها بأصحابها .

ثم من حقه أن يقلل من اقتناء ما يُورِثُه الحزن ، فقد قيل للحكيم : لم لا نغتم ؟ فقال : لأنى لم آقن ما يُغْنِي فقدُه ، أخذَه الشاعر فقال :
فمن سره أن لا يرى مايسوه فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا

وقيل للحكيم : هل الإنسان أن يعيش آمناً ؟ قال : نعم ، إذا احتس من الخطيئة ، وتنبع بحلاله ، ولم يحزن لما هو واقع به لاحالة . واعلم أنَّ الجزع على ما فات لا يلمُّ ما تشعت ولا يُبرمُّ ما انتكت ؛ فأما غمُّه على المستقبل فلا يخلو من ثلاثة أوجه : إما في شيء ممتنع كونه ، أو واجب كونه ، أو ممكن ، فإن كان على ما هو ممتنع كونه فليس ذلك من شأن العقلاء ، وكذلك إذا كان من قبيل الواجب كونه ، كالموت الذي هو حتمٌ في رقاب العباد ، وإن كان ممكناً كونه فإن كان من الممكن الذي لا سبيل إلى دفعه كما كان الموت قبل الهرم فالحزن له جهل ، واستجلابٌ غمٍّ ، وإن كان من الممكن الذي يصحُّ دفعه فالوجه أن يَحْتال إلى دفعه بفعلٍ غير مشوبٍ بحزن ، فإن دفعه وإلا

(١) ناضله متاضلة فضله : باراه في الرى نغلبه

تلقاه بصبرٍ، وليتحقق قوله عز وجل: ما أصاب من مُصيبةٍ في الأرض ولا في أنفسكم، فمن عَلِمَ أنَّ ما جرى في حكمه، وسبق في عليه لاسبيل إلى أن لا يكرن، هانت عليه النوب، واعلم أن الذي يَغُرُّ الناس هو حسن ظنهم باغترارِ الآفات، واغترارهم حالة بعد حالة بصفاء الأوقات، ولو تأملوها لتحققتوا أنها كما قال عليُّ رضي الله تعالى عنه: ما قال الناس لقرم طوبى لكم إلا وقد خبأ الدهرُ لهم يومَ سوءٍ:

إِنَّ اللَّيْلِيَّ لَمْ يُحْسِنْ إِلَى أَحَدٍ إِلَّا أَسَاءَتْ إِلَيْهِ بِمَدَّةِ إِحْسَانٍ

انتهى كلام الراغب، ومن أبدع ما قيل في الصبر والجزع قول ابن الرومي:

أَرَى الصَّبْرَ مَحْمُودًا وَعِنْدَهُ مَذَاهِبٌ فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنْهُ مَذْهَبٌ (١)
هُنَاكَ يَحِقُّ الصَّبْرُ وَالصَّبْرُ وَاجِبٌ وَمَا كَانَ مِنْهُ كَالضَّرُورَةِ أَوْجِبُ (٢)
فَشَدَّ أَمْرُؤُ بِالصَّبْرِ كَكْفًا فَإِنَّهُ لَهُ عِصْمَةٌ أَسْبَابُهَا لَا تَقْصُبُ (٣)
هُوَ الْمَهْرَبُ الْمُنْجِي لِمَنْ أَحْدَقَتْ بِهِ مَكَارِهِ دَهْرِ لَيْسَ مِنْهُنَّ مَهْرَبُ (٤)
أَعُدُّ خِلَالَ فِيهِ لَيْسَ لِعَاقِلٍ

من الناس - إن أنصفن - عنهن مرغب (٥)

لبؤس جمال، الجنة من شماتة شفاء أسى يُثني به ويُثوب (٦)

(٢٠١) يقول: إن صبر الإنسان على ما يناله من مكروه أو عما يريد نيله من محبوب: محمود، ولو أنه يجد طرقاً كثيرة يتخلص بها من المكروه أو يحصل بها على الرغائب، فكيف إذا لم يجد وسيلة إلى إزالة المكروه أو إدراك المرغوب؟ لا شك أن الصبر إذن واجب وما كان منه أشبه بالضرورة أعظم وجوباً

(٤٠٢) فشدد أمرؤ بالصبر ككفا يقول: تخليق بالمرء أن يستظهر بالصبر على تحمل المكروه، إذ أن الصبر عصمة وثيقة لا تنقطع حبالها فنعم الملجأ هو لمن أحاطت به نوائب الدهر التي لا يحيص عنها

(٦٠٥) يقول: إن في الصبر خلالاً لا يليق بعاقل أن يتركها إذا كان هناك إناصاف

فِيَا عَجَبًا لِلشَّيْءِ هَدَى خِلَالَهُ . وَتَارَكَ مَا فِيهِ مِنَ الْحِظِّ أَعَجَبُ
 وَقَدْ يَتَّظَى النَّاسُ أَنْ أَسَاهُمْ وَصَبْرُهُمْ فِيهِمْ يُطْبَاعُ مُرَكَّبٌ (١)
 وَأَنْهُمَا لَيْسَا كَشَيْءٍ مُصْرَفٍ يُصْرَفُهُ ذُو نَكْبَةٍ حِينَ يُنْكَبُ
 فَإِنْ شَاءَ أَنْ يَأْسَى أَطَاعَ لَهُ الْآسَى وَإِنْ شَاءَ صَبْرًا جَاءَهُ الصَّبْرُ يُجْلَبُ
 وَلَكِنْ ضَرُورِيَانِ كَالشَّيْءِ يُبْتَلَى بِهِ الْمَرْءُ مَغْلُوبًا وَكَالشَّيْءِ يَنْهَبُ
 وَأَيْسَا كَمَا ظَنُّوهُمَا ، بَلْ كِلَاهُمَا لِكُلِّ لَبِيبٍ مُسْتَطَاعٌ مُسَبَّبٌ (٢)
 يُصْرَفُهُ الْمُخْتَارُ مِنَّا ، فَتَارَةً يُرَادُ فَيْسَأَى أَوْ يُزَادُ فَيَنْهَبُ (٣)

ومعدلة، وهذه الخلال هي : أن الصبر لبوس جمال ، أى أنه زينة وحلية جميلة ، وأنه جنة من شماتة، أى وقاية من فرح الأعداء بما يصاب به المرء :

وَتَجَلْدِي لِلشَّمَاتِينَ أُرِيهِمْ أَنِي لَرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّضِعُ
 وَأَنَّهُ شِفَاءُ أَسَى ، أَى مَذْهَبِ الْحُزْنِ ، وَأَنَّهُ يَثْبِي بِهِ ، أَى أَنَّهُ مَدْرَجَةٌ لِلْحُصُولِ عَلَى
 الثَّنَاءِ ، وَأَنَّهُ يَثُوبُ ، أَى يُجَازَى عَلَيْهِ

(١) يتظنى أصلها : يتظن ، أى يعملون الظن ، أى يذهبون مع ظنهم ، والآسى :
 الحزن ، وطباع : أى طبع ، يقول : وقد يظن الناس أن الحزن والصبر طبع ، لا حيلة
 لمن طبعه الحزن أن يصبر ، ولا لمن طبعه الصبر أن يحزن ، ثم قال فى البيت التالى : وأن
 كلا الحزن والصبر ليسا من الأشياء التى يمكن تحويلها من حال إلى حال حتى يحولها
 المنكوب المصاب فإذا أراد الحزن أطاعه الحزن وإن أراد الصبر والتجلد جلبا إليه -
 وهذا معنى قوله فإن شاء ... البيت ، ثم قال : ولكن يظن الناس أن كلا من الآسى
 والصبر ضروريان كأن الحزن شئ يملك على الإنسان أمره لا حيلة له فى التخلي عنه
 وكذلك الصبر ترى الإنسان يصبر كما لو ضاع منه شئ لا بد أن يتحمل فقدته أى
 يصبر على ضياعه ثم فند هذا بقوله : وليس كما ظنوهما ... الآيات

(٢) يقول : وليس الحزن والصبر كما يظنهما الناس وإنماهما بما يقدر عليه ومن
 المستطاع التصرف فيهما والتنسب لتحويل كل منهما وتركه إلى الآخر

(٣) المختار : ذو الإرادة ، ويزاد : يدفع ويبعد

- إذا احتجَّ مُخْجَجٌ عَلَى النَّفْسِ لَمْ تَكْذُبْ عَلَى قَدَرٍ يُمْنِي لَهَا تَتَعْتَبُ (١)
 وساعدها الصَّبْرُ الْجَمِيلُ فَأَقْبَلَتْ إِلَيْهَا طَوْعاً جَنَائِبُ تُجْتَنَّبُ (٢)
 وَإِنْ هُوَ مَنَّاها الْبَاطِلَ لَمْ تَزَلْ تُقَارِلُ بِالْعَتَبِ الْقَضَاءُ وَتُغْلَبُ (٣)
 فَتُضْحِي جَزَوْعاً إِنْ أَصَابَتْ مُصِيبَةٌ وَتُغْمِي هَلْوَعاً إِنْ تَعَذَّرَ مَطْلَبُ (٤)
 فَلَا يَعْذِرَنَّ التَّارِكُ الصَّبْرَ نَفْسَهُ بِأَنْ قِيلَ: إِنْ الصَّبْرُ لَا يَتَكَسَّبُ (٥)

وقال الأصمعي: أحسن ما قيل في الصبر مع النرح قول أبي ذؤيب الهذلي:

وَتَجَسَّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمْ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعَّضُ
 حَتَّى كَأَنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرُوءَةٌ بِصَفَا الْمُشَقَّرِ كُلِّ يَوْمٍ تُفْرَعُ

«لا أتضعضع: لا أذل ولا أخضع، وريب الدهر: صرْفُهُ، والمرُوءة واحدة

المرُوءة وهي: حجارة بيض براقه يقدح منها النار: ومرُوءة المسعى التي تذكر مع الصفا في الحج- وهي أحدر أسية اللذين ينتهي السعى إليهما- سميت بذلك، وبصفا

- (١) يعني: يقدر يقول: إذا أقمت للنفس الدليل على أن الصبر اختياري مكتسب ثم ألت بها المصائب فإنها تقنع ولا تعتب على القضاء والقدر
 (٢) الجنائب جمع جنيب وهو الفرس يجنب إلى الفرس حتى إذا فتر المركوب ركب المجنوب، وله متعاقب بجنائب أي جنائب للصبر، يقول: متى اطمأنت النفس إلى الدليل على أن الصبر مكتسب وتركت عتاب القدر ساعدها على تحمل مصائبها صبر جميل يواتها مسعفا

- (٣) يقول: أما إذا تركت النفس تذهب مع الأوهام والباطيل فإنها لا تزال في عتب على القضاء والقدر بما أصابها ولا تزال أعتب عبثا وبلا فائدة حتى تهجر وتغلب
 (٤) الهلوع: الجزوع جزعا شديدا يقول: فيشتد جزعها إذا أصابها مصيبة ويشتد أكثر إذا فاتها مطلب من مطالبها

- (٥) يقول: لا عذر لمن يترك الصبر اغترارا بقول القائل: إن الصبر طبع غير مكتسب إذ ظهر أن هذا القول باطل وأن الحق أن الصبر اكتسابي

المَشَقَّر يروى : بصفا المَشَرَّق ، أما المَشَقَّر فهو : موضع أوحسن بالبحرين قديم بناه كسرى ، والمَشَرَّقُ فهو : جبل يسوق الطائف ، والصفاء : جمع صفاء : صخرة مأساء وبه سمي أحد جبلي المسعى ؛ وهذان البيتان من قصيدة أبي ذؤيب ^(١) التي يترقى بها بنيه الخمسة وقدماتوا في عام واحد ، وأولها :

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَبِّهِ تَوَجَّعُ وَالذَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَن يَجْرَعُ ^(٢)
قَالَتْ أُمَامَةٌ : مَا لِجِسْمِكَ شَاحِبًا مُنْذُ ابْتُلَيْتَ وَمِثْلُ مَالِكَ يَنْفَعُ ^(٣)
أَمْ مَا لِجِسْمِكَ لَا يَلَامُ مَضْجَعًا إِلَّا أَقْضَ عَلَيْكَ ذَاكَ الْمَضْجَعُ ^(٤)

يروى أن عبد الله بن عباس رضى الله عنه استأذن على معاوية في مرض موته ليعودته ، فأدهن واكتحل - أى معاوية - وأمر أن يقعد ويسند وقال : إنذرنوا له ، وليسلم قائما ولينصرف ، فلما سلم عليه وولى ، أنشد معاوية قول أبي ذؤيب : وتجلدى للشامتين ... أليت : فاجابه ابن عباس على الفور :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
ثم ماخرج من داره حتى سمع نعيه ... وقال ضابط بن الحارث البرهمي من أبيات قالها في سجن عثمان بن عفان رضى الله عنه :

وَرُبَّ أُمُورٍ لَا تَضِيرُكَ ضَيْرَةٌ وَلِلْقَلْبِ مِنْ تَحْشَاتِهِنَّ وَجِيبُ
وَلَا خَيْرَ فَنِي مَن لَّا يُؤْطِنُ نَفْسَهُ عَلَي نَائِبَاتِ الذَّهْرِ حِينَ تَنْوُبُ

- (١) أبو ذؤيب الهذلي : شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم
(٢) المنون هنا : الدهر فلذلك ذكره ، ومن أراد به المنية أنه ، معتب : مزيل عتبة ، أى مريض
(٣) ومثل مالك ينفع ، يقول : ما لجسمك شاحبا ومثل مالك لا يكون معه هزال ولا شحوب لأنه واسع مبذول
(٤) إلا أقض عليك ذاك المضجع : أى تجده كأن فيه قضة وهى : الحصى الصغار

« قوله : لا اضيرك ضيرةً ، فالعرب تقول : ضارَهُ يضرُهُ ضيراً و ضيرةً -
المرّة من الضير - ولا ضيرَ عليك ، وضره يضره ولا ضررَ عليه ، والمخشاة :
مصدر خشيه يخشاه خشيةً ومخشاةً ومخشيةً : خافه ، وفي معنى هذا البيت يقول
أبو العتاهية :

وقد يهلك الإنسان من بابٍ أُئنه وَيَنجُو بِإِذْنِ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ يَحْذَرُ
والأصل في هذا قوله عز وجل : وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ
فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ، وقوله : ولا خير فيمن لا يوطن نفسه ... ألبيت : نظيره
قول كثير عزة :

أقول لها : يا عَزُّ ، كُلُّ مُصِيبَةٍ إِذَا وُطِنْتَ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتْ

قال عبد الملك : لو قال كثير هذا البيت في صفة الحرب لكان أشعر الناس ،
وفي الأثر : للمجن أوقاتٌ ولها غايات ، واجتهاد العبد في محنته قبل إزالة الله لها ،
زيادة فيها قال تعالى : إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي
بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ، قل حسيبي الله عليه يتوكل المؤمنون ...
وقلوا : الْمُتَحَنُّنُ كَالْمُخْتَنِقِ كُلَّمَا أَزْدَادَ اضْطَرَّابًا أَزْدَادَ اخْتِنَاقًا ... وحكى عن
بعض الصالحين : أن ابناً له مات فلم يُرَّ به جزع ، فقيل له في ذلك فقال : هذا أمرٌ
كنا نتوقعه ، فلما وقع لم نُنْكِرْه ... وقالوا : مَنْ أَرَادَ طَوْلَ الْبَقَاءِ فَلْيُؤْتِنِ نَفْسَهُ
عَلَى الْمَصَائِبِ ؛ وقالوا : المصيبة للصابر واحدة وللجازع اثنتان ، وقال أكرم بن
صيفي : حيلةٌ هن لاحيلةٌ له : الصبر . وسيد الكلام في الصبر قول المصطفى
صلوات الله عليه : لو كان الصبرُ رجلاً لكان رجلاً كريماً والكريم ضد اللئيم ،

عود إلى أسباب الحزن

وقال الفيلسوف أبو يعقوب الكِنْدِيُّ: أسباب الحزن: فقدُ محبوب، أو كُوتُ مطلوب، ولا يَسْلُمُ منهما إنسانٌ، لأن الثباتَ والدوامَ معدومان في عالم الكونِ والفساد؛ وقال الحسن البصري: الدنيا دارُ غمومٍ، فمن عُوِجِلَ فُجِعَ بنفسه، ومن أُجِلَ فُجِعَ بأحبابه؛ وقال بعض الفلاسفة: من أراد أن لا يُصابَ بِمُصِيبَةٍ، فقد أرادَ مالا يكون، لأن المصائب في عالم الكون والفساد طبع بالطبع؛ فيلغى أن يكون منا على بال: أن جميع الأشياء التي تصل إلينا كانت قَبْلَنا لغيرنا، فانتقلت إلينا على شريطة ما كان لنا قَبْلَنا... وقيل لِسُقْرَاطَ: مالك لا تَجْرُعُ؟ قال: لأنني لأفنتني ما يُحْزِنُنِي فَقَدُهُ... وقال ابن الرومي في هذا المعنى:

وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ لَا يَرَى مَا يُسَوِّؤُهُ فَلَا يَتَّخِذْ شَيْئًا يَخَافُ لَهُ فَقْدًا
أقول: يريدون بذلك: أنه لا بُدَّ في هذه الدنيا من المصائب مادام، هناك قُنْيَةٌ من مال وولد وما إليهما من كل ما هو مُسْتَهْتَفٌ لِسَهَامِ الأَيامِ، ومن أراد أن لا يصابَ فَلَا يَفْتِنِي مَا يَسُوؤُهُ فَقْدُهُ - وَالْقِنْيَةُ لا بُدَّ مِنْهَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَإِذْنَ لا بُدَّ مِنْ تَوْطِينِ النَّفْسِ وَإِعْدَادِهَا لِتَلَقِّيِ الْمَصَائِبِ... وَإِذَا كَانَ هُنَاكَ مَنْ يَتَرَامَى بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ إِلَى الْحِكْمِ عَلَى الزَّهْدِ، فَهَذَا مَرَمَى آخِرٍ، مِنْهُمْ مَنْ يَفْرُغُ إِلَيْهِ لِمِثْلِ هَذَا الْغَرَضِ - تَوَقَّى الْمَصَائِبَ مَا امْكَنَ - وَلَا غَرَضَ أُخْرَى تَرَاهَا بَعْدُ... وَقَالُوا: الْجَزَعُ بِنَقْصَةِ الْحَيَاةِ، وَمَنْ أَعَانَ عَلَى مُنْقِصَانِ حَيَاتِهِ، فَقَدْ عَظُمَتْ خَطِيئَتُهُ... وَقَالُوا: التَّأْسُفُ عَلَى الْفَائِتِ تَضْيِيعُ وَقْتِ ثَانٍ، إِنْ كُنْتَ جَارِعًا لِمَا أَفَلَّتْ مِنْكَ فَاجْزَعْ عَلَى مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ؛ وَقَالَ

على كرم الله وجهه : الصبر مَطِيئَةٌ لا تكبُّو ، والقناةُ سيفٌ لا يذبُّو . وقال
 عمر رضى الله عنه : لو كان الصبرُ والشكرُ بغيرِينِ ما باليتُ أيهما ركبت ؛
 وقيل : الصبرُ يُناضلُ الحدَّانِ ، والجزعُ من أعوانِ الزمانِ ، وما فى الشكوى
 إلا أن تُحزِنَ صديقَكَ وتُشَمِتَ عدوكَ ؛ وقيل : اجعلْ صبرَكَ على النوائبِ
 كِفَاءَةً شُكْرِكَ على المواهبِ ، الصبرُ عند النِّعمِ ، والشكرُ عند النِّعمِ ، وقال
 حكيمٌ : جِيعُ مَسْكَرِهِ الدنيا تنقسمُ قسمينِ ، ضربٌ فيه حيلةٌ ، فالاضطرابُ ^(١)
 دواؤه ، وضربٌ لا حيلةَ فيه ، فالصبرُ شِفَاؤُهُ ، وقالت الفُرُسُ : كلمتانِ
 يقولهما العارِقلُ عند نائبتِهِ : إحداهما : هذه الحالُ خيرٌ مما هو شرٌّ منها ،
 والأخرى : املْ الله أن يحوِّلَ فى هذا المكروهِ خيرا ، وكلمتانِ يقولهما الجاهلُ :
 لعلَّ ما أصابنى يدعو إلى شرٍّ منه ! والأخرى : لو كان بدَلَ كذا كذا من
 المصيبةِ ! وقالوا : الصبرُ على مرارةِ العاجلِ ، يُفِضِى إلى حلاوةِ الآجلِ ،
 إنك لا تَنالُ قليلَ ما تُحِبُّ إلا بالصبرِ على كثيرِ ما تُكْرَهُ ، وقالوا : لكلِّ شيءٍ
 ثَمَرَةٌ ، وثمرَةُ الصبرِ الظَّفَرُ ، والصبرُ كاشِمُهُ ، وعاقبَتُهُ العسلُ . . والصبرُ على
 المصيبةِ مُصِيبَةٌ على الشامتِ . وقال على : إن صبرتَ فأنت مأجورٌ ، وإن جرتَ
 جرى عليك المقذورُ .

حتمهم على تصوّر المصائب

والاستعداد لها كى تخف وطأتها

وقالوا فى ذلك : من كان مُتَوَقِّعا ، لم يُلقَ مُتَوَجِّعا ، وقال بعضهم

(١) الاضطراب : يريد : الحركة والاحتياال فى دفعه

- قيل لابن الرومي، ولم أرها في ديوانه، وإن كانت أشبه بمنه بذهب ابن الرومي - :

ألم تر رُذءَ الدهرِ من قبلِ كونهِ كيفَ إذا فكَرَّتْ في الخَلواتِ
فما لك كالمريِّ في ما آمنَ له ببئيلِ أثنهُ غيرَ مُرتَقباتِ
فإن قلتَ مَكروهٌ أنا في فُجاءةِ فما فوجِدتَ نفسَ معِ العَظراتِ
ولا عوقبتَ نفسَ يبُلوى وقدراتِ عِظاتِ من الأيامِ بَعَدَ عِظاتِ
إذا بُعثتَ أشياءَ قد كانَ مثلُها قديماً فلا تَعَتِّدها بَعثاتِ

وهذه الأيات من الوضوح والإشارة بحيث لا يعوزها شرح ، وقالوا : ما أمتع الدهر إلا ليمتع ، ولا أعطى إلا ليسترِد ، ولولا اغترارُ الجاهل بعوائده ، لحلَّت النفوس من الحسرة على نوائمه ، وقالوا : لا تُخلِ ففكرَكَ من عوارض الفكرِ وخواطِر الذِّكر فيما تعروكَ به الأيامُ ، من ارتجاع ودائمه ، وحلول وقائمه ، - وهذا ما قاله ابن الرومي آنفا ،

الغمَّ يورث السقم والهَرَم

قال المتنبي :

والهَمُّ يَخْتَرِمُ الجِسمَ تَحافَةً وَيُشِيبُ ناصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيَهْرِمُ

« يخرم : يستأصل ويقنطع ، والجسيم : العظيم الجسم ، والنحافة : الهزال ، والناصية : شعر مقدم الرأس ، يقول : إن الحزن إذا استولى على المرء أذهب جسم التظيم الجسد وهزله حتى يأتي عليه من الهزال ، ويشيب الصبي قبل الأوان حتى يصير كالمهرم من الضعف والعجز » ... وسئل عبد الله ابن عباس عن الحزن والغضب فقال : أصلاهما واحد ، وذلك وقوع الأمر

على خلاف المحبة ، فأما قرعاهما فنختلِفان ، فالـمـكـرـوهُ مَن فـورـك يـنتـج حـزنا
وَمَن دُونَكَ يُنتِجُ غـضبا

هـ فـحـزْنُ كُلِّ أَخِي حُزْنُ أَخِي الْغَضِبِ ^(١) *

الحزن يبلى بتقادم العهد

وقالوا في الحزن يبلى بعد انقضاء مدة : الحُزْنُ يَنْضُو عن ابن آدم كما
يَنْضُو الصَّبْغُ عن الثوب ^(٢) ولو بقي لقتله .

وقال المتنبي :

إذا استقبلت نفس الكريم مصابها يخبث ثلت فاستدبرته بطيب
والواجد المكروب من زفراة سكون عزاء أو سكون لغوب
« قوله : إذا استقبلت ... البيت ، فالمصاب مصدر بمعنى الإصابة ، والخبث

هنا : الجزع ، والطيب هنا : الصبر وترك الجزع ، وثنت : صرفه - أى الجزع -
النفس ، يقول : إذا جزع الكريم - ضد اللثيم - فى أول نزول المصيبة ،
وراجع أمره ، عاد إلى الصبر والتسليم ، ومَن لم يُوطن نفسه على المصيبة فى
أول الأمر صعب عليه عند وقوعها . وقوله : وللواجد المكروب ... البيت

(١) للمتنبي فى مرثيته التى يرى بها أخت سيف الدولة وأوله :

جزاك ربك بالأحزان مغفرة فحزن كل أخى حزن أخو الغضب

يقول : غفر الله لك أحزانك إذا الحزن مما يستغفر منه ، لأن الحزن كالغضب مَن هو دونك إذا
أصابك بما تكرهه والحزن مَن هو فوقك ، والإنسان إذا حزن على مصيبة تصيبه فكأنه يغضب
على القدر حيث لم يجر بمراده ، والغضب على المقدر مما يستغفر منه

(٢) يقال : أضنا الحضاب ونضوا : ذهب لونه ونصل

يقول : لا بُدَّ للهِجْرَانِ من سكون ، إما أن يَسْكُنَ عَرَاءً ، أو يَسْكُنَ إعياءً ،
وإذن لخصيق بالعاقل أن يَسْكُنَ تَعْرِيًا ، كما قال محمود الوراق :
إذا أنت لم تَسْلُ اضْطِبَارًا وَحِسْبَةً سَلَوْتَ على الأيامِ مِثْلَ البهائمِ -
وكما قال أبو تمام :

أَنْصِرُ لِلْبَلَوَى عَرَاءً وَحِسْبَةً فَتُوجِرَ أَمْ تَسْلُوا سُلوَ البهائمِ
« الحسبة : طلب الأجر والثواب ،

ومن أحسن ما قيل من الشعر القديم ، في أن الحزن يبلى إذا تقادم عهد .
قول أبي خراش الهمذلي - شاعر مخضرم أسلم وهو شيخ كبير ، يوم حنين - :
على أنها تَعْفُو السُكُومُ ، وإنما تُوكَلُّ بِالْأَذَى وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِي
وقبل هذا البيت :

حَمِدْتُ إلهي بَعْدَ عُرْوَةَ إِذْ نَجَا خِرَاشٌ ، وَبَعْضُ الشَّرَّاهُونَ مِنْ بَعْضِ
فوالله : مَا أَنْتَى قَتِيلًا رُزْنَتُهُ بِجَانِبِ قَوْسِي مَا مَشَيْتُ على الأَرْضِ
على أنها تعفو الكلام ... البيت

ولم أَدْرِ مَنْ أَلْتَقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ على أنه قد سُلَّ عن ماجد مَحْضٍ
وكان من حديث هذا الشعر ، أَنَّ عُرْوَةَ بنَ مَرَّةَ أَخَا أَبِي خِرَاشٍ ، وَخِرَاشُ
ابنَ أَبِي خِرَاشٍ ، اصْطَحَبَا في مُتَصَرِّفٍ لهما : فَأَسْرَمَا بِطَنَانٍ مِنْ
بُيُوتِ بَنِي رَازِمٍ وَبَنِي بِلَالٍ - وَكَانَا مَوْتُورَيْنِ - فَاخْتَلَفَا في الإِبْقَاءِ
عليهما وقتلها ، قال بنو بلال إلى قتلها ، وتفاقم الأمر بينهما في ذلك ، إلى
أن صار يُؤَدَّى إلى المقاتلة ، فتفرَّد أولئك بِعُرْوَةَ فقتلوه ، وتفرَّد دُولَاءُ بِخِرَاشٍ
فقتلوه ، ففردوا به واحدٌ منهم ؛ مُسْتَهْزِئًا لِلْفُرْصَةِ في الإِسْدَاءِ ، فقال له : كيف دليلاك؟
فقال : قِطَاةٌ ، فَأَلْتَقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ وَقَالَ : أُنْجِئْ ، فَرَزَّ لِي طَيْبَتِهِ ، فَلَمَّا انْحَرَفُوا لِلنَّظَرِ

في أمره قال لهم مُمَسِّكُ الإِثْمِ أَفَلَتَ، فطردوه - أى تَبِعُوا خِرَاشًا - فأعيامهم، فلما وصل خِرَاش إلى أبيه وَخَبَّرَهُ بِمَا جَرَى عَلَى عُرْوَةٍ وَبِمَا أَتَّفَقَ مِنْ صَاحِبِهِ فِي بَابِهِ، اقْتَصَّ رِقَصَتَهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ ... وَقَوَّسَى اسْمَ مَكَانٍ، وَقَوْلُهُ : عَلَى أَنَّهَا تَعْفُو الْكَلَامَ ... أَلَيْتَ فَإِنَّ هَذَا يَجْرَى مَجْرَى الْإِعْتِذَارِ مِنْهُ وَالِاسْتِدْرَاكِ عَلَى نَفْسِهِ فِيمَا أَطْلَقَهُ مِنْ قَوْلِهِ : «لَا أُنْسَى قَتِيلًا رُزِئْتَهُ مَا مَشَيْتَ عَلَى الْأَرْضِ» ، أَى مَدَّة حَيَاتِي ؛ وَالضَّمِيرُ فِي أَنَّهَا : لِلْقِصَّةِ ، وَخَبِرَ أَنَّ : الْجُمْلَةَ بَعْدَهَا ؛ وَالْعَفَاءُ : الدُّرُوسُ وَالذَّهَابُ ؛ وَالْكَلُومُ جَمْعُ كَلْمٍ ؛ وَبِعَنِي بِهِ : الْحَزَّ عِنْدَ ابْتِدَاءِ الْفَجِيعَةِ ، وَجَلَّ : عَظُمَ ؛ يَقُولُ : لَا أُنْسَاهُ وَلَوْ طَالَ عَهْدُهُ وَعَفَّتْ آثَارُهُ ؛ وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُوَكَّلُ بِالْجَزَعِ لِلْبَصِيَّةِ الْقَرِيبَةِ الْعَهْدِ ؛ فَأَمَّا الْمُنْتَقِادِمُ مِنَ الْأَرْزَاءِ فَإِنَّ مُضِيَّ الزَّمَنِ يُعْفِيهِ . وَقَوْلُهُ : وَلَمْ أَدْرَ ... أَلَيْتَ ؛ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ وَأَبُو غَيْبَةَ لَا نَعْرِفُ مَنْ مَدَحَ مِنْ لَا يَعْرِفُهُ غَيْرَ أَبِي خِرَاشٍ ،

التأسي بمن مصابه كمصاب المصاب أو يُرْبِي عَلَيْهِ

وقولهم في عكس ذلك

أما قولهم في عكس ذلك فأحسن ما قيل فيه قول ابن الرومي :

ليس تأسو كلوم غيري كلومي مابه مابه وما بي وما بي

«تأسو: تُدَاوِي، وَالْكَلُومُ: الْجُرُوحُ، وَقَبْلَ هَذَا الْبَيْتِ - وَهِيَ آيَاتُ يَنْدُبُ

بِهَا الشَّبَابُ - :

يا شبابي أَيْنَ مَنِّي شَبَابِي؟ أَذَنْتَنِي حِبَالُهُ بِانْقِضَابِ

لُحْفِ نَفْسِي عَلَى نَعِيمِي وَلُحْوِي تَحْتَ أَفْتَانِيهِ اللَّدَانِ الرَّطَابِ

وَمُعَزِّ عَنِ الشَّبَابِ مُؤَسِّ بِمَشْيِبِ اللَّدَاتِ وَالْأَثْرَابِ

قلت - لما انتحى يعدُّ أساهُ من مُصابٍ شبابهُ فمصابٍ :
 ليس تأسوكوم غيرى كلومى أليت
 وأما قولهم فى التأسى بمن مصيبتك كمصاب المصاب أو تُربى عليه فمن ذلك
 قول أفلاطون لرجل رآه مغموماً : لو أحضرت قلبك ما فيه الناس من
 المصاب ، لقلَّ همُّك ... « انظر مقالة الكاتب أديسون آخر هذا الباب » ...
 وقالت الخنساء :

ولولا كثرةُ الباكين حولى على إخوانهم لقتلتُ نفسى
 وما يبسكون مثل أخى ولكن أسبلى النفس عنه بالتأسى
 وقال حُرَيْثُ بنِ سَلَمَةَ بنِ مُرارة بنِ مُحَقِّص ، أحد بنى خزاعى بنِ مازن -
 شاعر جاهلى - :

ولولا الأثسى ما عشتُ فى الناس بعده ولكن إذا ما شئتُ جاؤبى مثلى

« عروة بن الزبير »

« مثل أعلى للصبر والتأسى »

كان عروةُ بنُ الزُّبَيْرِ ، أحدُ الفقهاء السبعة بالمدينة ، وابنُ الزبير بن العوام
 - أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وابنِ صفيةَ عمَّةِ سيدنا رسول الله - وشقيقُ
 عبد الله بن الزبير - الذى ولى الخلافة فى الحجاز حينما من الدهر أزمان بنى أمية
 والذى تولى قتله الحجاج - وأمُّ عروة أسماء بنت أبى بكر الصديق - وهى ذاتُ
 التُّطالِقين ^(١) ، وخالته عائشةُ أمُّ المؤمنين رضى الله عنها ، وكان عالماً صالحاً ،

(١) النطاق : شقة أو ثوب تلبسه المرأة ثم تشد وسطها بجبل ثم ترسل الأعلى على
 الأسفل إلى الركبة عند معاناة الأشغال لئلا تعر في ذيلها ، وكان لأسماء نطاقان تلبس

أقول : كان عروةُ هذا من قوة الإيمان والتسليم والرضا بالقدر خيره وشره ورجحانِ العقل ، بحيث يُعدُّ مثلاً أعلى للصبر والتسلي ، وذلك أنه وقد من المدينة على الوليد بن عبد الملك بِدِمَشْقَ - عاصمة الأمويين - وكان معه ابنه محمد - وكان من أجل الناس ، فيقال : إن الوليد عانته - أصابه بعينه - فدخل محمد دارَ الدواب ، فضربته دابةً فخرَّ مَيِّتاً ، ووقعت في رجلِ عروة الأكلة - داء في العضو يأتكل منه - ولم يدعِ ورده تلك الليلة ، فقال له الوليد : آفطعها وإلا أفسدت عليك جسدك ، فلما دُعِيَ الجزار ليقطعها قال له : نسقيك الخمر حتى لا تجرد لك الماء ، فقال : لأستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية ، قالوا : نسقيك المُرْقَدَ « دواء يُرْقَدُ شاربَه كالآفيون » قال : ما أحبُّ أن أسلبَ عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألمَ ذلك فأحتسبه « أحتسبه : أطلب به الأجر » . ودخل عليه قومٌ أنكروهم فقال : ماؤؤلاء؟ قالوا : يُمسكونك فإن الألمَ رُبَّمَا يعزبُ معه الصبر « يعزب : يبعد » قال : أرجو أن أكفيتكم ذلك من نفسي ، فقُطعت كعبه بالسكين ، حتى إذا بلغ العظمَ وُضع عليها المِشْمار ، فقُطعت وهو يهَللُ ويكَبِّرُ « يهال : يقول : لا إله إلا الله ، ويكبر : يقول : الله أكبر » ثم إنه أُغلي له الزيت في مغارف الحديد ، فحسَمَ به ، فقشَى عليه ، فأفاق وهو يمسحُ العرقَ عن وجهه ، ولما رأى القدمَ بأيديهم دعا بها فقلبها

أحدهما وتحمل في الآخر الزاد إلى سيدنا رسول الله وأبي بكر وهما في الغار ، فلذلك سميت ذات النطاقين ، وروت عائشة : أن النبي صلوات الله عليه لما خرج مع أبي بكر مهاجرين صنعنا لهما سفرة « طعام المسافر » في جراب « وعاء من جلد » فقُطعت أسماء بنت أبي بكر من نطاقها وأركت به الجراب « شدته بالوكاء : الحبل الذي يشد الوعاء » فلذلك كانت تسمى ذات النطاقين

في يده ، ثم قال : أما والذي حَمَلَنِي عَلَيْكَ ، إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنِي مَأْمُوسَةٌ بِكَ إِلَى حَرَامٍ ، وَلَمَّا دَخَلَ ابْنُهُ إِصْطَبِيلَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَقَتَلْتَهُ الدَّابَّةَ كَمَا تَقَدَّمَ لَمْ يُسْمِعْ فِي ذَلِكَ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا قَوْلَهُ « لَقَدْ آقَيْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ، وَلَمَّا قُطِعَتْ رِجْلُهُ قَالَ : اللَّهُمَّ ، إِنَّهُ كَانَ لِي أَطْرَافٌ أَرْبَعَةٌ فَأَخَذْتُ وَاحِدًا وَأَبْقَيْتُ لِي ثَلَاثَةً ، فَإِنَّكَ الْحَمْدُ ، وَأَيُّمُ اللَّهِ ، لَئِن أَخَذْتُ لَقَدْ أَبْقَيْتُ ، وَإِنِ ابْتَلَيْتُ لَقَدْ عَافَيْتُ ... وَلَمَّا مَاتَ ابْنُهُ وَقُطِعَتْ رِجْلُهُ ، وَقَدَّ فِي هَذِهِ الْإِيَّامِ عَلَى الْوَلِيدِ قَوْمٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ فِيهِمْ رَجُلٌ ضَرِيرٌ ، فَسَأَلَهُ الْوَلِيدُ عَنْ عَيْنِيهِ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، بَتُّ لَيْلَةً فِي بَطْنِ وَاِدٍ وَلَا أَعْلَمُ عَبْسِيًّا يَزِيدُ مَالَهُ عَلَى مَالِي ، فَطَرَقْنَا سَيْلٌ فَذَهَبَ بِمَا كَانَ لِي مِنْ أَهْلِ وَوَلَدٍ وَمَالٍ ، غَيْرَ بَعِيرٍ وَصَبِيٍّ مَوْلُودٍ ، وَكَانَ الْبَعِيرُ صَعْبًا ، فَذَنْدٌ ، فَوَضَعْتُ الصَّبِيَّ وَاتَّبَعْتُ الْبَعِيرَ فَلَمْ أَجَاوِزْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى سَمِعْتُ صَيْحَةَ ابْنِي وَرَأْسَهُ فِي فَمِ الذَّنْبِ وَهُوَ يَأْكُلُهُ ، فَلَحَقْتُ الْبَعِيرَ لِأَحْبِسَهُ فَتَفَعَّنِي بِرِجْلِهِ « ضَرْبُهُ بِمَجْدِ حُفَيْهِ » عَلَى وَجْهِهِ ، فَخَطَمَهُ وَذَهَبَ بِعَيْنِي ؛ فَأَصْبَحْتُ لَا مَالَ لِي وَلَا أَهْلًا وَلَا وَلَدًا وَلَا بَصَرَ ؛ فَقَالَ الْوَلِيدُ : انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى عُرْوَةَ لِيَعْلَمَ أَنَّ فِي النَّاسِ مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ بِبَلَاءٍ ...

وَمِنْ عَزَى عُرْوَةَ : اِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ قَالَ لَهُ : وَاللَّهِ مَا بَكَ حَاجَةٌ إِلَى الْمَشْيِ وَلَا أَرَبٌ فِي السَّعْيِ ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَكَ عِضْوٌ مِنْ أَعْضَائِكَ وَابْنٌ مِنْ أَبْنَائِكَ ؛ إِلَى الْجَنَّةِ ؛ وَالْكُلُّ تَبِعُ لِلْبَعْضِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ؛ وَقَدْ أَبْقَى اللَّهُ لِنَامِكَ مَا كُنَّا إِلَيْهِ فَقَرَاءً ؛ وَعَنْهُ غَيْرُ أَغْنِيَاءَ ، مِنْ عَمَلِكَ وَرَأْيِكَ ؛ فَفَعَلَ اللَّهُ وَإِيَّانَا بِهِ وَاللَّهُ وَلِيُّ ثَوَابِكَ ؛ وَالضَّمِينُ بِحَسَابِكَ ...

مطرح الهموم

وهذه كلمة طريفة في معنى ما نحن بصدده، كتبها الكاتب «أديسون» ونقلها المرحوم محمد السباعي إلى مجلة البيان التي كان يقوم بإخراجها مؤلف هذا الكتاب، قال أديسون :

«ما يُؤثرُ عن الحكيم سُقْرَاطَ أنه قال : إذا جُمِعتْ مَصائبُ البشرِ كُلِّها في وعاءٍ ، ثم قُسمتْ على جميع الناس بالسواء لأصبح من كان يحسبُ نفسه أشقى الناس وأخسرهم يُفضّلُ أولى الحالين على الثانية ، وجاء بعد سُقْرَاطَ الشاعرُ الرومانيُّ «هوراس» فعدّل هذا المعنى فقال : إن ما يُكابِدُ أحَدنا من المصائب أخفُّ عليه من مصائبِ أيِّ إنسانٍ آخر إذا وقع بين الرُجَّلين تبادلٌ... فينا أنا ذات يوم متَّكئٌ في خَلوتِ أفكُرٍ في هاتينِ الحِكمَتينِ وقد أخذتني سِنَةٌ من النوم إذ نُحِيلُ إلى أنه بأمرِ إلهِ الآلهة قد نودى في الناس : أن يجعلَ كلُّ امرئٍ مصائبه فيأتواها جميعاً فيطرَّحوها بعضها فوق بعضٍ ، في سهّلِ فسيحٍ ، فوقفت وسَطَ ذلك السهل ، وسرّني أن أرى الناس طُرّاً يأتون واحداً بعد واحدٍ يلقون أفعالهم القديدة ، حتى ارتفع من مجموعها جبل طالت^(١) ذوابته السحاب .

وكان هنالك امرأةٌ نحيلةٌ خفيفةٌ قد شَمَرَتْ عن ساعدِ الجدِّ وسَطَ هذه

(١) سميت فوق السحاب قال :

إنَّ الفرزدقَ صخرةٌ عاديةٌ طالت - فليس تنالها - الأجيالا

فليس تنالها جملة معترضة والأجيالا مفعول طالت والتقدير : طالت الأجيالا

فليس تنالها الأجيال .

الخلاق، تحيل في إحدى يديها مجهرًا، وعليها ثوب فضفاض ههنا ههنا، ساينغ
الذيل موشى بعدد عديد من تصاوير الجان والعاريت، كلما ضربت الريح
الجلباب تلونت وتشكلت تلك النهايل أشكالًا وألوانًا؛ وكان في عينها وآه
وتلهف وحيرة، وكان اسمها «الوهم» وهي التي كانت تسوق كل فرد من
البشر إلى المكان المعين بعد إيعانها إياه على ربط حزمته وحجبتها وإلقائها على
عاتقه، فأذاب قلبه رؤيته لإخوتى وأبناء أمي وأبي ينوون بأحلامهم. ويتنون
تحت أثقالهم؛ وقتت كيدي أن أبيضر ذلك الجبل الباذخ الذي من أحزانهم
تكون، ومن آلامهم تألف، على أنه ألهاني عند ذلك، وسألني هنالك:
عدة من القوم، لغريب أحوالهم وعجيب هيئاتهم؛ فمن بين هؤلاء رجل في
حلة مطرزة أقبل يسعى حتى جاء المكان، فأخرج من تحت حلته الموشاة
المزكشة حملا، فألقاه فحدجت بصرى أتبينه، فإذا هو: الفقير؛ وأقبل
آخر يزرع تحت ثقله، وبعد كثير من التنفس والزفير ألقى حمله؛
ف نظرت؛ فإذا هو؛ زوجته؛ ورأيت عددا عديدا من العشاق على كواهامهم
أثقال عجيبية من سهام وشعليل؛ ولكن أعجب من ذلك أنه برغم ما رأيتُه يكاد
يمزق قلوبهم من غلوائه الوجد وبرحاء الكمد؛ وبرغم زفرة لهم ترقى؛
وعبرة لا ترقا^(١) كانوا لا يستطيعون مطاوعة عقولهم على إلقاء تلك الأثقال
عند ما بلغوا الكثيب؛ ولكنهم بعد قليل من المحاولة - محاولة المتشاكل
المتكبره - هزوا رؤسهم ورجعوا بأثقالهم أشد ثقلا وأفذح
حملا، وأبصرت كثيرا من العجائز يلقين تغاضين وجوههن

(١) أي: لا تغيض ولا نجف وأصل ترقا: ترقا فحفف، وترقى الأولى: ترتفع

وكثيراً من الفتيات يُلقين سُمرَ جلودهنّ . ورأيت كوماً^(١) من أنوفٍ حمراء
 وأسنانٍ قلحاء^(٢) وشفاهٍ فلحاء^(٣) . والعجب العجيب أني رأيت معظم الجبل
 مؤلفاً من غاهاتٍ بديّة . وآفاتٍ جسديّة ، ثمّ لمحتُ من بعيدٍ رجلاً على ظهره
 رجلٌ لم أرَ في سائر الاحمال ما يدانيه عظاماً ، فأنعمتُ النظرَ فإذا هي حدبّة ،
 فألقاها - فرحاً بذلك - بين سائر البلايا الآدمية . ورأيت كذلك عدلاً وأمراضاً
 من كلّ ضربٍ وصنّفٍ ، غير أني رأيت الوهمي من ذلك أكثر من الحقيقي
 وشاهدتُ بين هذه نوعاً قد أُلّف من جميع الأمراض والعلل يجمّله في الأكف
 عددٌ عظيمٌ من ذوى النعمة والرّفاهية ، واسمُ هذا الداء : المَلَلُ ، وأعظمُ
 بحبي وحيزتي أني لم أرَ أحداً قطّ ألقى بين هذه الآفاتِ والمصائبِ شيئاً بما
 ابتليتُ به نفوسُ البشر من الرذائل والحماقات والأضاليل والنقائص والسخافاتِ
 والأباطيل ، فأدهشني ذلك أيّما دهش ، إذ كنتُ قد ظننتُ أنها فرصةٌ لا يدعُها
 أحدٌ حتى يطهرَ نفسه من أدران الأهواءِ والشهوات . ويُخلّصَ طبعه من
 أكدار العيوب والعورات . ورأيت في الجماعة رجلاً فاسقاً لم أشكّ في أنه جاء
 مُثقلًا بأوزاره وآثامه : قلباً أقبلتُ على مارماه أفتشهُ ألفتُ أنه لم يَرَم شيئاً
 من تلك الذنوبِ والآثامِ وإنما رَمَى ذاكرته ، وتبعه رجلٌ ساطعُ جاهلٍ ،
 فنظرته فإذا هو قد نبذَ حياته لا جهله ... ولما قرع الناس من طرّح أفعالهم
 وفرغتِ الجنيّة النحيلّة الخفيفة^(٤) من عملها ، وكانت قد رأت مني رجلاً ينظرُ

(١) جمع كومة ، يقال : كوم كومة بالضم : إذا جمع قطعة من تراب ورفع رأسها
 ونظيره : الصبرة من الطعام

(٢) القلح : صفرة في الأسنان (٣) فلحاء : مشقوقة

(٤) الوهم كما يذكر التماري

ولا يعمل، دنت مني، فلم يرعني إلا رفعها المجهز إزاء عيني، وكنت أعرف في وجهي القصر، فإذا هو قد تنهى قصر أحتي عاد أشع شيء، فسألت منظره، فألقىته كما يلقي القناع. وكنت قبل ذلك ببرهة أبصرت رجلاً رمي بوجهه لفرط طوله، وكان أطول وجه حتى لَدَقْنُه وحدها تطول^(١) وجهي بأكمله، فاستراح من مصيبتة واسترحت، واستراح الخلق طراً؛ وأطلق لكل امرئ أن يستبدل بيلواه محنة غيره.

على أنه لم يبق في الجمع إلا متعجب من هذه المحن كيف عدها أهلها محناً وكيف كان قد غرّبها وتحدث فيها، فحسبها نعماً وفوائداً، وبيننا نحن نتأمل خليط المصائب، ومزيج النوائب، صدر أمر الإله الأكبر أن يستبدل كل امرئ بمصائبه ويرجع إلى مثواه بحظه الجديد، عند ذلك تحركت «الوهم»، وقسمت الكتيب في أخف نشاط وأكمل سرعة، فأعطت كلاً نصيبه، - وكان باليراع يعجز أن ينعت ما حدث إذ ذاك من هرج ومرج^(٢)، ثم كانت أمور كثيرة أذكر الآن بعضها:

رعى شيخ كبير على كتيب المصائب عملة كانت في بطنه، وكان عاقراً، يتمنى ولداً يكون عماداً شيخوخته ووارث ثروته، فمد يده ليتعاض من دائه الذي طرحه فاخطف ولداً فاجراً عاقراً، كان آفة أب له، وكان ذلك الأب قد تبدد في التباؤ^(٣) يريد به بديلاً، وقد أخذ بدله مرض البطن الذي رعى به الرجل الأول. فلم تمض إلا برهة حتى رأيت ذلك الغلام قد ناز بالشيخ الكبير فأخذ بلحيته وناصيته، وهم أن يفلق رأسه. فما هو إلا أن أبصر الأب

(١) تزيد عليه طولاً (٢) اختلاط (٣) المنبذات، أي: الأشياء المنبوذة
يعني بها الآفات التي كان الناس يرمونها تخلصاً منها. ولتفاضوا بدلها

الأصلي، وكان يسعى نحوه ممسكا بحشاه من وجع المعدة حتى صاح به :
يرحمك الله وإيانا، أخذ ولدك بارك الله فيه وأعطى عنتي، ولكن قضى
الأمر، وكان مالا يكون تبديله، ولا يُستطاع تحويله ...

يا ابن بُورَان لا مفرَّ من الله ولا من قضائه المحترم

ورأيت أسيرا مُقيِّداً حُلِّعَ قيده، وقُلِّعَ صفده، فاعتاض منه النِقْرَسَ (١)
ولكن أبدى من التأوه والتأفف والتلوى والتنزي ما دلَّ على أنه لم يكن
في تجارته تلك بالراح الصفقة .

ولقد كان من المُمْتِيع اللَّاذَّ أن تُبَصِّرَ ما وقع إذ ذاك من المبادلات
والمقايضات، من علةٍ بِخَلَّةٍ (٢) وجوعٍ يَفْقِدَانِ شهوةً، وهمٍ وتسويدٍ، بأسرٍ
وتقييدٍ . أما النساءُ فكاننَّ من تبادِلِ الأعضاء - أعضاء الوجه والجسم - في
شُغْلِ شَاغِلٍ، فواحدةٌ تستعِيضُ لِمَّةً شَمَطَاءَ، من جلدةٍ سَمْرَاءَ، وثانيةٌ تأخذ
عنقا قصيرا، وتُعطى أنفاً كبيراً، وثالثةٌ تَرْمِي عِرْضاً مفضوحاً . وتلتقطُ وجهها
مقبوحاً، وما منهنَّ إلا من تُدْرِكُ في الحال أنها اعتاضت من سيئٍ أسوأ،
ومن ردىءٍ أَرْدَأَ، وكذلك حال سائر الجمع في كل بليَّةٍ وآفةٍ، لعلةٍ لأنَّ
ما أصابنا به الله مناسبٌ لمقدار صبرنا واحتمالنا، أو لأنَّ كل مصيبةٍ تدلُّها
العادة ...

فقلت لها : يا عَزُّ، كلُّ مصيبةٍ إذا وُطِنَتْ يوماً لها النفسُ ذلَّتْ
ولقد رَحِمْتُ من صميمٍ مُهْجَتِي ذلك الأحدث الآنف الذَّكْرُ، إذ راح معتدلٌ
القامةِ وَاثِقِ الشَّطَاطِ، لكن يَدَاءُ في كُلاه؛ وعِلةٌ في حَشَاهُ، كما رَحِمْتُ مُعَاقِدَهُ
وَمُبَايَعَهُ الذي راح مُخَدَّو دَبِّ الظَّهْرِ يَطَّاعُ وَسَطِ سِرْبٍ من الفتياتِ كُنَّ قبلَهُ مُوَلَّعاتِ

(١) من مرض بفقر (٢) داء في الرجلين يمنعهما من الحركة .

وفيه هائمات . ولست ناسياً ذكْرَ شأني وشأنِ ذِي الوجهِ الطويلِ ، فإن ذلك الرفيقَ ما كَادَ يأخُذُ وجهي القصيرَ حتى أخشى فيه أُعْجوبةَ الأعاجيبِ ، فاستَلقيتُ ضاحِكا من وجهي حتى أَخجلتُ وجهي ، وأدركَ الرجلُ المسكينُ خطيئتهِ وعَرَفَ غَلطتهِ ، نَجِجِلْ وَأَسْتَحْيِي ، غيرَ أني ما لَبِثْتُ أَنْ رَفَعْتُ (١) إلى نفسي فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ لِي أَنْزَهُي وَأَخْتَالَ وَأَسْخَرَ مِنَ الْغَيْرِ وَأَنَا سُخْرَةٌ ، وَأَضْحَكَ مِنْهُمْ وَأَنَا ضُحْكَةٌ (٢) ، وَإِنْ لِي فِي غَرَابَةِ هَيْئِي لَشُعْلَاءٌ عَنِ اللَّهِ وَبِهَيْئَاتِ النَّاسِ وَمَتَدَوِّحَةٌ ، وَذَلِكَ ، أَيَا الْقَارِي ، أَنِي رَفَعْتُ يَدِي أُرِيدُ جَبْهَتِي فَلَمْ تَقَعْ لِطَوْلِ وَجْهِي إِلَّا عَلَى الشَّقَةِ الْعُلْيَا ، وَكَذَلِكَ بَيْنَا أَنَا أَجِيلُ يَدِي فِي وَجْهِي أُرِيدُ إِحْدَى عَيْنِي صَكَّتْ يَدِي أَنْفِي ، لِبروزِهِ وَضِحَامَتِهِ ، مِرَارًا .

ثمَ نَظَرْتُ نَاحِيَةَ مَنْي فَأَبْصَرْتُ رَجُلَيْنِ فِي مِثْلِ حَالِنَا مِنَ السُّخْرِيَةِ قَدْ أَحْدَثَا تَبَادُلًا فِي زَوْجَيْنِ مِنَ الْأَرْجُلِ ، زَوْجَ غَلِيظِ أَعْوَجِ قَصِيرِ ، وَزَوْجَ طَوِيلِ نَحِيلِ ، فَكَانَ صَاحِبُ الرَّجُلَيْنِ النَّحِيلَتَيْنِ كَأَنَّمَا قَدْ رُفِعَ فِي الْهَوَاءِ عَلَى عَمُودِي بَيْتٍ ، فَهَائِمَةٌ تَدُورُ مَعَ الرَّيْحِ حَيْثُمَا دَارَتْ ، وَأَمَّا صَاحِبُ الرَّجُلَيْنِ الْعَوَجَاوَيْنِ الْقَصِيرَتَيْنِ فَكَلَّمَا حَاوَلَ السَّيْرَ دَارَ فِي مَكَانِهِ لَا يَبْرُحُهُ . وَلَمَّا رَأَيْتَ عَلَى نُحْيَاهِ سِيمَا الْجِلْمِ وَالظَّرْفِ وَالْفِكَاهَةِ أَقْبَلْتُ عَلَيْهِ أَمَّا زَوْجُهُ فَقُلْتُ لَهُ : سَأَجْعَلُ لَكَ كَذَا وَكَذَا إِنْ أَتَيْتَ أَنْ تَبْلُغَ هَذَا ، وَرَسَمْتُ لَهُ خَطًّا عَلَى مَسَاقَةِ ذِرَاعَيْنِ مِنْ مُرْسِي قَدَمِيهِ ، فِي مُدَّةِ نِصْفِ سَاعَةٍ .

وأخيراً تمَّ تَوْزِيْعُ كَثِيْبِ الْمِحْنِ وَالْآفَاتِ عَلَى أَهْلِهَا ، مِنْ ذِكْرِ وَأَثَى .

(١) رجعت (٢) يقال : فلان سخرة كسفرة : يسخر منه ، وسخرة كهزمة :

يسخر من الناس ، وضحكة بسكون الحاء : يضحك منه ويفتحها : كثير الضحك

وأقبلوا جميعاً تحت أثقالها الجديدة رُزحاً حَسْرَى . وُلها حَيْرَى . وقد مأوا
السَّهْلَ والحَزْنَ صَحَّةً وأيننا . وَرَنَّةً وحنينا . ثم أدركتهم رحمة الله ، فأمرهم
بَطْرَحِ أَثْقَالِهِمْ كَرَّةً أُخْرَى ، فَأَلْقَوْهَا فَرِحِينَ بِالنِّقَاتِهَا مَسْرُورِينَ . وَأَمَرَ دَالِوَهُمْ ،
تلك الشيطانة التي غررت بهم وضللتهم ، أن تنصرف ، فانصرفت ، وأرسل
الإلهُ بَدَلَهَا مَلَكًا كَرِيمًا ، جِدَّ مُخَالِفٍ لَهَا هَيْئَةً وَشَكْلًا . مُبَايِنًا لَهَا تَخْلُقًا وَخُلُقًا ،
رُزِينَ الحِرْكَةِ نَابِتَ الجَنَانِ ، قد جَمَعَ فِي هَيْئَتِهِ بَيْنَ الطَّلَاقِ والجِدِّ وَالوَقَارِ والبِشْرِ ،
لَا يَنْفَكُ مِنْ حِينٍ إِلَى آخِرٍ يَرْفَعُ نَحْوَ السَّمَاءِ طَرْفَهُ ، وَيَسْمُو إِلَى عَرْشِ اللَّهِ
بَأَيْلِهِ ؛ وَأَسْمُ هَذَا المَلِكِ . الصَّبْرُ ، وَأَعْجَبُ مَا رَأَيْتُ أَنَّ هَذَا المَلِكَ مَاقَامَ بِجَانِبِ
جَبَلِ الأَلَامِ إِلا وَأَخَذَ الجَبَلَ يَهْبِطُ وَيَضُؤُلُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ رُبْعِهِ ،
ثُمَّ أَعَادَ مَلَكُ الصَّبْرِ إِلَى كُلِّ حَظَّةِ الأَوَّلِ ، وَأَلْهَمَهُ الصَّبْرَ الجَمِيلَ ، وَأَشْعَرَ قَلْبَهُ
قُوَّةَ الجَلْدِ وَنورَ اليَقِينِ ، فَرَاحَ مُغْتَبِطًا سَعِيدًا يَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ مَا عَطَاهُ ، تَائِبًا بِمَا
أَفْتَرَفَهُ مِنَ الجَهْلِ وَجَنَاهُ .

فَمَا أَفَدْتُ مِنْ هَذِهِ العِظَاتِ والعِبَرِ أَنِي لَسْتُ حَقِيقًا أَنْ أَتَبَرَّمَ بِشَيْءٍ مِنْهَا
بُصِيْبِي بِهِ اللَّهُ أَوْ أَنْفَسَ عَلَى امْرِئِي هَيْبَةً أَوْ نِعْمَةً ، إِذْ كَانَ مُسْتَحِيلًا عَلَى امْرِئِي
أَنْ يَعلَمَ حَقِيقَةَ جَارِهِ وَيَعْرِفَ سِرَّ صَاحِبِهِ وَيَقِفَ عَلَى مَبَالِغِ أَحْزَانِهِ وَأَشْجَانِهِ
وَكُرْبِهِ ، وَنُوبِهِ ، وَبَلَايَاهُ ، وَرِزَايَاهُ ، فَكُلُّ لُكُلٍ سِرٌّ غَائِبٌ وَخِزَانَةٌ مُقْفَلَةٌ
وَسِرٌّ مُطَبَّقٌ . وَلَكِنِّي آلَيْتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَخَذَ نَفْسِي بِثَلَاثِ : كِتَابِ العَلَّةِ ،
وَكِتَابِ النِّفَاقِ ، وَكِتَابِ المَصِيبَةِ ، مَعَ الصَّبْرِ عَلَيْهَا جَمِيعًا ، وَأَنْ لَا أُحْسَدَ امْرَأً عَلَى
شَيْءٍ ، وَأَنْ أَكُونَ أَبَدًا حَاضِرَ الصَّفْحِ لِلنَّاسِ ، وَاسِعَ العَفْوِ ، إِذْ كَانَ أَعْمَلُ
النَّاسِ أَعْدَرَهُمُ لِلنَّاسِ ...

عقرياتهم في الدنيا وأنها دار يحن وأكدار

ولأن الدنيا التي أسماها سيدنا رسول الله : أمّ دَفْر - والدَّفْرُ ، النَّتْنُ ، دَقْرًا دافراً لهذه الدنيا - أقول : لما كانت هذه الدنيا دارَ مَصائبَ وِحنٍ - وأكدار ، وحسبُك بهادِمِ الذاتِ - الموتِ - الذي فضح هذه الدنيا وبديها أيما فضيحة والذي هو نهاية كلِّ حيٍّ ، من مصيبةٍ أى مصيبةٍ - لاجل هذا قال الأوائل والأواخر في هذه الدنيا وأبدعوا وافتشوا كلَّ الافتتان؛ ونحن فسوف نورد عليك أطيب ما قالوا في ذلك ، لما بينه وبين الصَّبر من واشجة الرحم ، ولأنه كلامُ خالد ، لأنه حقٌ وصِدقٌ ، لا يليق بعاقِلٍ أن لا يكثر له ، وإنما الواجب أن يجعله دائماً نُصب عينيه ، وأن ينظر إليه نظرة رجل ثاقب الرأى بعيد أفق الفكر . لانظرة رجل أحقُّ مُمتلئ العقل أعمته أباطيل هذه الحياة وألهة التكاثر وبهرجتها عن كُنْهها فارتطم في أوحالها وصار يملأ في لذاتها تملأ ، لاهيا عن المنهاة المؤسسة التي تنظرنا جميعاً ، جالِباً بنفسه على نفسه ما يضاعف آلامها ، لا ما يخفف أحزانها ويهون ما أمكن شدائدها . وأكدارها . ونحن إذ نورد في هذا الكتاب ما قالوا في الدنيا فإننا لاندعو إلى الزهد فيها وفي تعميرها - كما سيمر عليك في هذا الفصل - ولكن مادام كتابنا في عقريات الأوائل والأواخر ، في كلِّ شيء ، كان واجبا علينا أن نورد عقرياتهم في الدنيا ، وفي الموت ، كما نورد عقرياتهم في سائر المعاني التي يعالجها الناس ويتداولونها فيما بينهم ، على أنهم إذ ذموا الدنيا إنما يترامون بذلك أولاً ، إلى أن يصدتوا بالحقيقة وهي أن الدنيا في الواقع دار أحزان وأكدار ، ودثانها ، إلى حث الناس على الإجمال في الإقبال عليها ، والتعقل في

التهافت على شهواتها، والاعتبار بعبثها، والتزود فيها لما بعدها، ومن يُنكر أن ذلك جميل ونافع! ذم رجل الدنيا بحضرة علي بن أبي طالب رضى الله عنه فقال علي: أسكت، فإن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مهبط وحى الله، ومتجر أوليائه... إلى آخر ما قال. ومن كلامه أيضا رضى الله عنه: الناس أبناء الدنيا ولا يُبْلغ المرء على جُب أمه... وسيمر عليك كثير من أمثال هذا...

أسماء الدنيا

الدنيا: اسم لهذه الحياة، وتُكنى الدنيا: أم دفر، أسماها بذلك - كما أسلفنا - سيدنا رسول الله، والدفر - النَّسْنُ، وتُكنى كذلك: أم شملة، أشد ابن الأعرابي:

مِنْ أُمَّ شَمْلَةَ تَرْمِينَا بِذَانِقِهَا غَرَارَةَ زَيْدَتِ مِنْهَا التَّهْاوِيلُ

وكذلك تُكنى: أم شملة، قال أبو عمرو بن العلاء: وإنما سُميت الدنيا والخز بذلك - لأنهم يشتملان على عقل الإنسان فيغيثانه... أقول: ومن يُنكر أن أبناء الدنيا، من شدة تعاقبهم بها وتكالبهم عليها، وضراوتهم بشهواتها، واقتنائهم بزيتها وخوضهم غمراتها، بحيث يُعدون كأنهم مُتَزَفون مُستلبو العقول حتى إذا رماهم هاذم اللذات بسهامه صَحَّوا وأفاقوا... وصدق سيدنا رسول الله إذ يقول صلوات الله عليه: الناس نِيَاءٌ فإذا ماتوا انتهبوا... أما الدهر - وهو اسم لزمان متصل، والزمان اسم لدهر منفصل - فقد سُميَ أبا العجب قال: * وما الدَّعْرُ في فِعْلِهِ إِلَّا أَبُو الْعَجَبِ * والنسبة إلى الدنيا: دناوى، ويقال: دُنَيْبِي ودُنَيْبِي - وجهها دُنَى، وإنما

سميت دنيا: لِدُنُوها، لِأَنَّها دَنَتْ وَقُرُبَتْ، وتأخّرت الآخرة، أما الدهر فالنسبة إليه دُهْرِيٌّ بضم الدال تقول: رجل دُهْرِيٌّ: أى قديم مُسِنٍّ، أما رجل دَهْرِيٌّ بفتح الدال فعناه: ملحد لا يؤمن بالآخرة يقول ببقاء الدهر، وقوله صلى الله عليه وسلم: لا تُسَبِّروا الدهر فإن الله هو الدهر، فعناه: أن العرب كان من شأنها أن تَدُمَّ الدهرَ وتُسَبِّهه عند الحوادث والنوازل تنزل بهم من موتٍ أو هرَمٍ فيقولون: أصابهم توارِخُ الدهرِ وحوادثه وأبادهم الدهرُ، فيجملون الدهر الذى يفعل ذلك فيُدْمُونه، وقد أخبر الله بذلك فى كتابه العزيز ثم كذَّبهم فقال: وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نمت ونحيا وما يُهلِكنا إلا الدهر، ثم قال الله: وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون، وجمع الدهر أدهر ودهور، أما الدهار يرفهى تصاريف الدهر، وقيل جمع للدهر على غير قياس، قال الشاعر القديم (١):

فاستقدِرِ الله خيراً وأَرْضَيْنَ به فبينما العُسرُ إذ دارت مياسيرُ
وبينما المرءُ فى الأحياءِ مُعْتَبِطٌ إذا هو الرُّمُسُ تعفوهُ الأعاصيرُ
يَسْكى عليه غريبٌ ليس يَعْرِفُهُ وذو قرابته فى الحىِّ مَسْرورُ
حتى كأن لم يكن إلا تَذَكُّرُهُ والدهرُ أَيْتَمًا حينَ دَهَاريرُ

« قوله: فاستقدِرِ الله خيراً: أى اطلب منه أن يقدر لك خيراً، وقوله: فبينما العسر؛ فالعسر مبتدأ خبره محذوف تقديره فبينما العسر كائن أو حاضر، إذ دارت مياسير: أى حدثت وحلت، والمياسير جمع ميسور، و، معتبط أى فى غبطة: أى مسرَّة وحُسن حال، والرُمس: القبر، وتعفوه: تدرسه وتمحو أثره، (١) قال أبو عمرو بن العلاء: لرجل من أهل نجد. وقال ابن برتى: لعثير بن لبيد العذرى، قال: وقيل لحريث بن جبلة العذرى

والاعاصير جمع إعصار وهي: الريحُ تهبُّ بشدةٍ، وقوله؛ كأن لم يكن إلا تذكره فيمكن تاءة وإلا تذكره فاعل بها واسم كأن مضمّر تقديره كأنه لم يكن إلا تذكره والهاء في تذكره عائدة على الهاء المقدّرة، والدهر مبتدأ ودهارير خبره وأيتها حال ظرف زمان والعامل فيه ما في دهارير من معنى الشدة، والدهارير قال الزمخشري: تصاريف الدهر ونوابه، مشتق من لفظ الدهر ليس له واحد من لفظه كجبايد

قِلة لبث الإنسان في الدنيا

قال المصطفى صلوات الله عليه: فِيمَ أَنَا مِنَ الدُّنْيَا؟ وَمَالِي وَهَلَا أَوْلِيَا وَمَتَى وَمَتَى كِرَاكِي سَارَ فِي يَوْمِ صَائِفٍ، فُرِفَمَتْ لَهُ شَجَرَةٌ فَقَالَ تَحْتَهَا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا. قَالَ: مِنَ الْقِيَلُولَةِ وَهِيَ الْإِسْتِرَاحَةُ نِصْفَ النَّهَارِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا نَوْمٌ، يُقَالُ: قَالَ يَقِيلُ قِيَلُولَةً فَهُوَ قَائِلٌ،

وقال علي بن أبي طالب: الدُّنْيَا دَارُ بَرٍّ لَا دَارُ مَقَرٍّ وَالنَّاسُ فِيهَا رُجُلَانِ رَجُلٌ بَاعَ نَفْسَهُ فَأَوْبَقَهَا وَرَجُلٌ ابْتَاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا «أَوْبَقَهَا: أَهْلَكَهَا بِسَبَبِ تَهَاوُنِهِ عَلَى الدُّنْيَا وَإِعْرَاضِهِ عَنِ الْآخِرَةِ، وَابْتَاعَ: اشْتَرَى، وَأَعْتَقَهَا أَي مِنَ النَّارِ، بِتَجَنُّبِهِ الْمَعَاصِيَ وَشَهْوَاتِ الدُّنْيَا» وَقِيلَ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُوَ الَّذِي عَاشَ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا -: كَيْفَ وَجَدْتَ الدُّنْيَا؟ قَالَ: كَدَّارٌ لَهَا بَابَانِ دَخَلْتُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَخَرَجْتُ مِنَ الْآخَرِ

قِلة متاع الدنيا

قال الله تعالى: «قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى» «قَلِيلٌ: سَرِيعُ النِّفَاقِ» وَقَالَ سُبْحَانَهُ: إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنْ

السماءِ فَاتَّخَذَتْ بِهِ نَبَاتُ الْاَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْاَنْعَامُ حَتَّىٰ اِذَا اخَذَتِ
الْاَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْيَدَتْ وَظَنَّ اَهْلُهَا اَنَّهُمْ قَادُونَ عَلَيْهَا اَمْرًا لَّيْلًا
اَوْ نَهَارًا فِجَمَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْاِنْسِ،

« قوله سبحانه: إنما مثل الحياة الدنيا، أى فى سرعة تَقْضِيهَا وَذَهَابِ نَعِيمِهَا
بعد إقبالها واعتزاز الناس بها، وزخرفها: حسنها وبهجتها، وقادرون عليها: أى
متمكنون من حصدها، وأتاهأ أمرنا، أى نزل بزرعها ما يحتاجه فجعلها الله
كأنها حُصِدَتْ من أصلها فصار زرعها كأنه لم يكن، وقال أبو جعفر المنصور
حين حَضَرَتهُ الوفاة: يِعْنَا الْآخِرَةَ بِنَوْمَةٍ... وقال شاعر:

أرأها وإن كانت تُحَبُّ فإنها سَحَابَةٌ صَيْفٍ عن قَلِيلٍ تَقْشَعُ
وقال أعرابي: ما كانت الدنيا على بنى فلان إلا طَيْفًا لَمَّا انْتَبَهَوْا وَلَى
عنهم، وقال آخر:

مَرَزْتُ بِدُورِ بَنِي مُصْعَبٍ بِدُورِ السَّرُورِ وَدُورِ الْفَرَحِ
فَشَبَّهْتُ سُرْعَةَ أَيَّامِهِمْ بِسُرْعَةِ قَوْسٍ يُسْمَى فُرُحُ
تَلَوْنَ مُعْتَرِضًا فِي السَّمَاءِ فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهَا نَزَحَ

الماضى والحاضر والمستقبل

قال الحسنُ البَصْرِيُّ: أَمْسَ أَجَلٌ، وَالْيَوْمُ عَمَلٌ، وَغَدَا أَمَلٌ...، وقال
حكيم: بَيْنِي وَبَيْنَ الْمَلُوكِ يَوْمٌ وَاحِدٌ؛ أَمَا أَمْسَ فَلَا يَجِدُونَ لَذَّتَهُ وَلَا أَجْدُ شِدَّتَهُ
وَأَمَا غَدَا فَيَانِي وَإِيَّاهُمْ مِنْهُ عَلَى خَطَرٍ، وَمَاهُو إِلَّا الْيَوْمُ، فَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ!

تحذيرهم من تضييع الأيام

قال حكيم: الليل والنهارُ يعملانِ فيكَ فاعْمَلْ فيهما

وقال الحسن البصري: ما وَعَظَنِي شَيْءٌ مِثْلُ مَا وَعَظَنِي كَلَامُ الْحِجَاكِ
 فِي حُطْبَتِهِ: إِنَّ امْرَأَةً عَلَيْهَا سَاعَةٌ مِنْ عُمْرِهَا لَمْ يَذْكُرْ فِيهَا رَبَّهُ أَوْ
 يَسْتَغْفِرُ مِنْ ذَنْبِهِ أَوْ يُفَكِّرُ فِي مَعَادِهِ، لَجِدِيرٌ أَنْ تَطُولَ حَسْرَتُهُ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ... وكان الحجاج بليغاً ومن مصاقع الخطباء، ومن كلماته التي تشبه كلمات
 الحسن البصري، وهي مما ناله على ذؤابة المنبر: أيها الناس؛ ائذعوا هذه الأنفُسَ،
 فإنها أسألُ شَيْءاً إِذَا أُعْطِيَتْ، وَأَمْنَعُ شَيْءاً إِذَا سُئِلَتْ، فَرَحِمَ اللهُ امْرَأَةً جَعَلَ
 لِنَفْسِهِ خِطَاماً وَزِيَاماً، فَقَادَهَا بِخِطَائِهَا فِي اللهِ، وَعَظَفَهَا بِزِيَامِهَا عَنْ مَعْصِيَةِ
 اللهِ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الصَّبْرَ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ أَيْسَرَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عَذَابِهِ... « ائذعوا؛
 أَي امْتنعوا، والخطام: حبل من ليف أو شعر أو كتان يُشْنَى طَرَفُهُ عَلَى
 مِخْطَمِ البعير ليقاد به، والزمام: حبلٌ دقيقٌ يُجْعَلُ فِي أَنْفِهِ،

الأيام تهدم الحياة

قال حكيم: مَنْ كَانَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَطِيئَةً، سَارَا بِهِ وَإِنْ لَمْ يَسِرْ، أَخَذَهُ
 الشاعِرُ فَقَالَ:

رَأَيْتُ أَخَا الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ خَائِضًا أَخَا سَفَرٍ يُسْرَى بِهِ وَهُوَ لَا يَدْرِي
 « خَائِضًا: يريد مقيماً في خفض ودعة »

وقالوا: أنفاس المرءٍ مُخْطَاهُ إِلَى أَجَلِهِ، وَأَمَلُهُ خَادِعُهُ عَنْ عَمَلِهِ؛

وقال الشاعر:

مَا رُتِدَّ طَرَفُ امْرِئٍ بِلَحْظَتِهِ إِلَّا وَشَيْءٌ يَمُوتُ مِنْ جَسَدِهِ
 وقال أبو العتاهية:

تَظَلُّ تَفْرُحُ بِالْأَيَّامِ تَقْطَعُهَا وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُذَنِّي مِنَ الْأَجَلِ

وقال عمرو بن قبيصة - شاعر قديم في الجاهلية - :

كَأَنِّي وَقَدْ جَاوَزْتُ تِسْعِينَ حِجَّةً خَلَعْتُ بِهَا عَنِّي عِذَارَ لِحَامِي
عَلَى الرَّاحَتَيْنِ مَرَّةً وَعَلَى الْعَصَا أُنُوءُ ثَلَاثًا بَعْدَهُنَّ قِيَامِي
رَمَتْنِي بِنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ حَيْثُ لَا أَرَى فَكَيْفَ بَعْنُ يُرْمَى وَلَيْسَ بِرَامِي
فَلَوْ أَنَّهُ تَبَسَّلُ إِذْنًا لَا تَقِيئُهَا وَاسْكَنَتْنِي أُرْمَى بِغَيْرِ سِهَامِي

« قوله : خلعت بها عنى عذار لجامى : فالعرب تقول : خلع فلان العذار يريد : خلع الحياء ، مثل للشاب المنهمك فى غيبه كما يخلع الفرس العذار فيجمع ويطمح لأن اللجام يمسكه ، والعذار : الذى يضم حبل الحظام إلى رأس البعير والناقة وعلى ذلك يكون معنى قوله : أنه أسام سرح اللهو حيث أسام الغواة فى هذا العمر المديد ، ولعله يريد بذلك عدم التماسك كما بينه فى البيت الثانى ، وقوله : « أنوء ثلاثا يعنى : أنه ينهض ثلاث مرات بانحناء ثم يستقيم ، وبنات الدهر : نوبه »

البقاء فى الدنيا سبب الفناء

قال سيدنا رسول الله : لو لم يكسب ابن آدم إلا الصحة والسلامة لكتفى بهما داء « لأن السلامة تُسلبه إلى الهرم وما يستتبعه من الهم والسقم » وقيل لأعرابي : كيف حالك ؟ فقال : ما حال من يفتنى ببقائه ، ويسقم بإسلامته ، ويؤتى من مآنته ، ! وقال حنيد بن أوز الهلالى - وهو شاعر إسلامى ترجم له أبو الفرج فى الجزء الرابع من أغانيه - :

أَرَى بَصْرَى قَدْ رَابَتْ بَعْدَ صِحَّةٍ وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا
وَلَا يَلْبَثُ الْعَصْرَانُ : يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكََا مَا تَيْمَمَا

وقال أبو حية التَّمِيرِيُّ - من شعراء الدولتين - :

أَلَا حَتَّى مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الْمَغَانِيَا لَيْسَنَ الْبَيْلَى بِمَا لَيْسَنَ الْيَلِيَا
 إِذَا مَا تَقَاضَى الْمَرْءَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لَا يَمَلُّ التَّقَاضِيَا
 وقال بعض شعراء الجاهلية - وقيل : القائل عبد الرحمن بن سُوَيْدِ الْعُرَيْ -
 كَانَتْ قَنَاتِي لَا تَلِينُ لِغَازِمٍ فَأَلَانَهَا الْإِصْبَاحُ وَالْإِمْسَاءُ
 وَدَعَوْتُ رَبِّي فِي السَّلَامَةِ جَاهِدًا لِيُصَحِّحَنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءُ
 « كانت قناتي لا تلين لغازم : من الغمز ، وهو العصر باليد وهو مثل
 يريد : أنه كان صلب العود شديد القوة على من يشتد ويحترئ عليه » وقال
 النَّمِرُ بْنُ تَوَلَّبٍ - شاعر جاهلي إسلامي ، وقد على سيدنا رسول الله وَحَسَنَ
 إسلامه ، ومن قوله : صوم شهر الصبر ، وصوم ثلاثة أيام يُذْهِبَنَّ كَثِيرًا
 من وَحْرِ الصَّدْرِ - قال :

تَذَارَكَ مَا قَبْلَ الشَّبَابِ وَبَعْدَهُ حَوَادِثُ أَيَّامِ تَمَرٍ وَأَغْفِيلُ
 يَسُرُّ الْفَتَى طُولُ السَّلَامَةِ وَالْبَقَا فَكَيْفَ يَرَى طُولَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ
 يَرُدُّ الْفَتَى بَعْدَ اعْتِدَالِ وَصِحَّةِ يَذُرُّ إِذَا رَامَ الْقِيَامَ وَيَحْمَلُ
 « والبقاء مقصوراً لضرورة الشعر وتروى : والغنى ... » وقال الصَّلْتَانُ

العَبْدِيُّ - شاعر إسلامي كان في زمن جرير والفرزدق - :

إِذَا لَيْلَةٌ هَرَمَتْ يَوْمَهَا أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٌ قَتَى
 وهذا البيت من أبيات جميلة للصلتان اختارها أبو تمام في حماسه

يقول فيها :

أَسَابَ الصَّغِيرَ وَأَقَى الْكَبِ يَرَكُّرُ الْغَدَاةَ وَمَرَّ الْعَشَى
 إِذَا لَيْلَةٌ ... الْبَيْتِ

نرُوحُ ونَعُدُّو لحاجَاتِنَا وحاجةُ مَنْ عاش لا تنقضي
تموتُ مع المرءِ حاجاتُهُ وتبقى له حاجةٌ ما تبقى

فرح الدنيا مشوب بالترح

مُعْتَبٍ بِالْهُمُومِ

نَظَرَ كِسْرَى أُو شروان إلى مُلكه يوماً فأعجبته فقال : هذا مُلكٌ إلا أنه
هُلكَ ، ونعيمٌ إلا أنه عَدِيمٌ ، وَغَنَاءٌ لولا أنه عَنَاءٌ ، وَسُرُورٌ لولا أنه سُرُورٌ ،
ويومٌ لو كان يُوثِقُ له بِغَدٍ... وقال المُغيرة بنُ حَبَّاءَ - هو وأخراه صخر ويزيد
كانوا شعراء ، وكان المُغيرة من رجال المهلب بن أبي صفرة توفى سنة ٩١ هـ :
وكذلك الدهرُ ما أتمُّهُ أَقْرَبُ الأشياءِ من عُرسِهِ

الدنيا هموم وغموم

سَمِعَ حَكِيمٌ رجلاً يقولُ لِأَخَرَ : لا أراك اللهُ مَكْرُوها ، فقال : دَعَوْتَ
عليه بالموتِ ، مَنْ عاش لا بُدَّ له من مَكْرُوهٍ ، وقيل للنظام - إبراهيم بن سيار
المتزلي - وفي يَدِهِ قَدْحُ دِواءٍ - : كيف حالك ؟ فقال :

أَصْبَحْتُ فِي دارِ بَلِيَّاتٍ أَدْفَعُ آفَاتِ بَأْفَاتِ

وقال أبو الحسن علي بن محمد السَّهْمِيُّ المتوفى سنة ٤١٦ هـ يصف الدنيا - :
طِبِعَتْ عَلِ كَدْرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفَوْا مِنَ الْأَقْدَامِ وَالْأَكْدَارِ
وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبُ فِي الْمَاءِ جُذُودَ نَارِ
وَإِذَا رَجَّوْتَ الْمُسْتَحِيلَ فَإِنَّمَا تَبْنِي الرِّجَاءَ عَلَي سَفِيرِ هَارِ

« الجذوة : الحجره ، والشفير : ناحية الوادى من أعلاه ، وهار : يقال : هار
الجرف والبناء : انهار وانهدم ،

وقال شاعر :

أُتِرَّ الزَّمانُ لَنَا طَعمَهُ فما إن تَرى ساعَةً عَذَبَهُ

وقال آخر :

أف من الدنيا وأسبابها فإنها للْحُزْنِ مَخْلُوقَةٌ
هُمُّومُها ما تَنْقُضِي ساعَةً عن مَلِكٍ فيها ولا سَوْقَةً

وقال آخر :

تأتى المكارهُ حين تأتى جُملَةٌ وترى الشُّرورَ يَجيءُ في الفَلتاتِ
وقال ابنُ نُباتَةَ السَّعدى :

وما خَيْرُ عَيْشٍ نَصَفَهُ سِنَّةُ الكَرى وَنَصَفَ به نَعْتَلُ أو تَنوَّجِعُ
مع الوَقْتِ يَمِضِي بُؤْسُهُ وَنَعِيمُهُ كانَ لَمْ يَكُنْ وَالوَقْتُ عُمُرُكَ أَجْمَعُ
وقال الشَّريف الرضى :

يا أَمْرَ الأَقْدارِ بادرْ صَرَفَها وَاعْلَمْ بأنَّ الطَّالِبِينَ حِثَّاتُ
حُذِّمْنَ مَرائِكِ ما اسْتَطَعْتَ فَإِنما شُرَكَائِكَ الأَيَّامُ وَالوَرِاثُ
لَمْ يَقْضِ حَقَّ المَاليِ إلا مَعَشَرُ وَجَدوا الزَّمانَ يَغيثُ فيه فَعانُوا
تَحْشُو على عَيْبِ الغَنيِّ يَدُ الغَنيِّ وَالفقرَ عن عَيْبِ الغَنيِّ بِحاثُ
المَاليِّ ما لُ المَرءِ ما بَلَغَتْ به الشَّ هَواتُ أو دَفَعَتْ به الأَحداثُ
ما كانَ مِنْه فاضِلاً عن قُوَّتِهِ فليَعَلِّمَنَّ بأنَّه مِيراتُ
مالي إلى الدنيا الغرورةِ حاجَةٌ فليَخزَ ساجِرُ كَيْدِها النِّفَّاتُ
سَكَناتُها مَحذُورَةٌ وَعَهودُها منقُوضَةٌ وَجِبالُها أَنكاثُ

أُمُّ الْمَصَائِبِ لَا يَزَالُ يَرُوعُنَا مِنْهَا ذُكُورُ نَوَائِبِ وَإِنَّا تُ
 إِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْ رِجَالٍ أَمْسَكُوا بِجَبَائِلِ الدُّنْيَا وَهُنَّ رِثَاثُ
 كَنَزُوا السُّكُوزَ وَأَغْفَلُوا شَهْوَاتِهِمْ فَالْأَرْضُ تَشْبَعُ وَالْبُطُونُ غِرَاثُ
 «صَرَفَهَا : حَدَّثَانَهَا وَنَوَائِبَهَا ، وَحِثَاثُ : سِرَائِعُ ، وَحِثَا التُّرَابُ : صَبَّهُ ، يَقُولُ
 فِي هَذَا الْبَيْتِ : إِنَّ الْغَنَى يَغْطِي عِيُوبَ الْأَغْنِيَاءِ أَمَا الْفَقْرُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى أَنْ
 يَفْتَشُوا عَنْ عِيُوبِ الْفُقَرَاءِ وَيُلْصِقُوا بِهِمُ الْعِيُوبَ لِصَافَأَ . وَنَكَثَ الْحَبْلُ :
 نَقَضَهُ ، وَرِثَاثُ جَمْعُ رِثَ : بَالٍ ، وَغِرَاثُ : جَائِعَاتُ ...»

النقصان بعد التمام

قَالُوا : مَنْ بَلَغَ غَايَةَ مَا يُحِبُّ فَلْيَتَوَقَّعْ غَايَةَ مَا يَكْرَهُ ... وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ :
 وَجَدْتُ لِبَعْضِ الْعَرَبِ بَيْتَيْنِ كَأَنَّهُمَا أَخَذَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : حَتَّى إِذَا فَرِحُوا
 بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بِغَتَّةٍ ، وَهِيَ :
 أَحَدَمَتَ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسُنْتَ وَلَمْ تَخَفْ غَيْبَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
 وَسَأَلْتَنِي اللَّيَالِي فَاعْتَرَزَتْ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ السُّكُودُ
 وَمِنْ دُعَاءِ بَعْضِهِمْ : صَرَفَ اللَّهُ عَنْكَ آفَاتِ التَّمَامِ ...
 وَالْبَيْتُ الْمَشْهُورُ فِي هَذَا الْمَعْنَى :

إِذَا تَمَّ أَمْرٌ بَدَأَ نَقْضَهُ تَوَقَّعْ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمَّ
 وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ : عَرَضَ الدُّنْيَا عَارِيَّةً ، وَمَنْ فِيهَا ضَيْفٌ ،
 وَالْعَارِيَّةُ مُؤَدَّاةٌ ، وَالضَيْفُ مُرْتَحِلٌ «الْعَارِيَّةُ : مَا تَسْتَعِيرُهُ مِنْ قَرِيْبِكَ أَوْ صَدِيقِكَ
 أَوْ جَارِكَ لِتَنْتَفِعَ بِهِ حِينَئِذٍ تَرُدُّهُ إِلَى صَاحِبِهِ ، وَعَرَضَ الدُّنْيَا . مَا زَيْلَ مِنْهَا
 مِنْ مَتَاعِهَا وَحُطَامِهَا ،

وقال حكيم : الدنيا تُطعمُ أولادها ، وتأكلُ أولادها . وقال الشاعر :
وما المالُ والأهلونَ إلا ودائعُ ولا بُدَّ يوماً أن تُرَدَّ الودائعُ
وقال المتنبي :

أبدأ تَسْتَرِدُّ ماتهُبُ الدنيا فياليتَ جودَها كانَ بُخلاً
فكفكتَ كَوْنُ فرحةٍ تُورِثُ النِّعمَ وخِلِّ يُغادرُ الوَجَدَ خِلاً
ويقول المتنبي : شيمة الدنيا أن تستردَّ ماتهُبُ وتعطي ، فليتها بخلت وما
جادت إذ لو بخلت ولم تُعْطِ لكففتنا الفرح بوجود شيء يُعقِبُ لذقده النعم ،
والفرح بوجود خليل يُؤرِّسُ بقرية ثم تخترمه المنية فيغادرُ الممَّ خليلاً للحازن
عليه ، وفي هذه القصيدة يقول المتنبي :

ولذيذِ الحياةِ أنفُسُ في النَّفْسِ س وأشهى من أن يُمَلَّ وأحلى
وإذا الشِخُّ قال أفٍ فإ مَلَّ حياةٍ وإنما الضَّعْفُ مَلَأَ
آلَةُ العَيْشِ حِجَّةً وشبابُ فإذا ولياً عن المرءِ ولي

الدنيا لا يدوم فيها فرح ولا ترح

قال شاعر :

هل الدهرُ إلا ساعةٌ ثم تنقضي بما كان فيها من بلاءٍ ومن خَفِضٍ
فهو نك لا تحفلُ إساءةً عارِضٍ ولا فرحةً تأتي فيكلماتها تمضي
والخَفِضُ : الدَّعةُ ولينُ العيشِ وسَعتهُ ، والهونُ مصدرُ الهينِ في معنى
السكينة والتثبُّت والوقار والرفق قال :

فهو نك لا يرُدُّ الدهرُ ما فاتا لا تهلِكَ أسفا في إثرٍ من ماتا

وقال آخر :

وما اکتأبتُ نفسَ قدامِ اکتأبُها ولا ابتَهجتُ نفسُ قدامِ ابتهاجُها
 ودخل أعرابيٌّ عُمرَ مائةٍ وعشرين سنةً على معاويةَ رضى الله عنه ، فقال له :
 صِفْ لنا الدنيا ، فقال : سُدَيَاتُ بِلَاءٍ وَسُنَيَاتُ رَخَاءٍ ، يولدُ مولودٌ وبِئِكَ هَالِكُ
 ولولا المولودُ بادَ الخائقُ ، ولولا الهالكُ ضاقت الأرضُ .

الدنيا غرارة

قال بعضهم : هذه الدنيا قَحِيحَةٌ يومًا عند عطار ، ويومًا عند بيطار ...
 وقال المتنبي :

فَدَيِ الدارِ أَخُونُ مِنْ مُوسَى وَأَخْدَعُ مِنْ كَفَّةِ الحَايِلِ
 تَفَانِي الرِجَالِ عَلَى حُبِّهَا وَمَا يَحْضُلُونَ عَلَى طَائِلِ

« الحايِلُ : الصائدُ ذو الجبالة ، وهى الشَّرَكُ ، والطائلُ : ما كان له قدر .
 يقول المتنبي : إن هذه الدنيا فاجرة خَوَانَةٌ لبنيها كالوَسِ تَخْلِفُ مَنْ وِثْقِهَا ،
 وهى كذلك أَخْدَعُ مِنْ جِبَالَةِ الصائِدِ تَصْرَعُ مِنْ اطمأن اليها ، ثم قال فى البيت
 الثانى : تفانى الناس على حُبِّها ومع ذلك لم يحضلوا من أمرها على طائل لأنها
 تسترِدُّ ما تعطيه وتهديم ما تبنيه ، وتَمَرُّ بعد حلاوتها وتعوج بعد استقامتها .
 وقالوا : مَثَلُ الدنيا مَثَلُ الحيةِ كَيْنُ مَسَّها وفى جوفِها السُّمُّ الناقعُ ، يَهْوَى اليها
 الصبىُّ الجاهلُ ، ويحذرها الحازمُ العاقلُ . « يهوى إليها : يُسْرِعُ وذلك كما تقول
 رأيت فلانا يهوى نحوك ، معناه : يريدك ، قال تعالى : فاجعل أفتدةً من الناس
 تهوى اليهم : أى تريدهم وتسرع » وقال أبو عمرو بن العلاء : كُنْتُ أَدْرُرُ فى
 ضَيْعَتِي فى شِدَّةِ الحرِّ فسمعتُها تَقا يقول :

وإنَّ امرأَ دُنْيَاهُ أَكْبَرُ هِمِّهِ لَمُسْتَمِسِكُ مِنْهَا بِجَبَلِ غُرُورِ
 (١٧ - ١)

فَنَقَشْتُ ذَلِكَ عَلَى خَاتَمِي . وَقَالَ الشَّاعِرُ :
وَمَنْ عَرَفَ الْآيَامَ لَمْ يَرْخَفْضَهَا نَعِيمًا وَلَمْ يَعُدُّ تَصَرُّفَهَا بَلْوَى

حب الدنيا على الرغم من عيوبها

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه - وقد ذُكِرَ له قَوْمٌ يُحِبُّونَ الدُّنْيَا - :
هُمْ أَبْنَاؤُهَا ، أَفِيلَامُ الرَّجُلِ عَلَى حُبِّ وَالدَّيَةِ ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : مَا أَعْلَمُ لَنَا وَالدُّنْيَا
كَقَوْلِ كَثِيرِ عَزَّةَ :

أَسِيْبِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا لَمَلُومَةٌ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنَّ تَقَلَّتْ
« وقد تقدم » وقال شاعر :

يَذْمُونَ دُنْيَا لَا يُرِيحُونَ دَرَّهَا وَلَمْ أَرَ كَالدُّنْيَا يُدَمُّ وَيُحْلَبُ
« لا يريحون درها فالدر : اللبن يقول : لانهم مع ذمهم لا يابها يُلحون في
الإقبال عليها ويكلبون ويشرهون حتى ما يتركون درها يستريح ، وهذا على
المثل . . . »

وقال أبو العتاهية :

كُنَّا يُكْسِرُ الْمَذْمَةَ لِلدُّنْيَا وَكُلُّ بِحُبِّهَا مَفْتُونُ

الدنيا تضر محبيها

قالوا في ذلك : الدنيا تضرُّ محبيها ، وما كرمت على أحد نفسه إلا هانت
عليه الدنيا ، وقالوا : أوتى الله إلى الدنيا : أَنْ آخِذِي مَنِ اجْفَاكِ وَاسْتَخِذِي
مَنْ يَهْوَاكِ ، وهذا تمثيلٌ جميلٌ وَحَقٌّ ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : الدُّنْيَا
لَا تَضُرُّ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهَا وَلَا تَنْفَعُ إِلَّا مَنْ حَذَرَهَا . وَقَالَ الْفَارُوقُ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ : مَا كَانَتْ الدُّنْيَا بِيَّ أَمْرِي إِلَّا لَزِمَ قَلْبَهُ خِصَالُ أَرْبَعٍ : فَقْرٌ لَا يَدْرِكُ

غِنَاهُ ، وَهَمْ لَا يَنْقِضِي مَدَاهُ ، وَشُغْلُهُ لَا يَنْقُدُ أَوْلَاهُ ، وَأَمَلُهُ لَا يُدْرِكُ مُنْتَاهَهُ .
وقال الشاعر :

أَرَى الدُّنْيَا لِمَنْ هِيَ فِي يَدَيْهِ عَذَابًا كَلِمَا كَثُرَتْ لَدَيْهِ
مُهَيَّنُ الْمُكْرَمِينَ لَهَا بَصْفُهَا وَتُكْرِمُ كُلَّ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ
« الصَّغَرُ : الصَّغَارُ ، أَيْ الذَّلُّ وَالضَّمِيمُ ،

وقال المتنبي :

وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا ؟ وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوِصَالِ

« مَنْ : استهفامية ، يقول المتنبي : مَنْ ذَا الَّذِي لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا مِنْ قَدِيمِ
الدَّهْرِ ؟ كُلُّ أَحَدٍ يَهْوَى الدُّنْيَا وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى دَوَامِ وَصَالِهَا ، أَيْ أَنْ
كَثِيرًا مِنْ عُشَّاقِهَا وَاصِلِهَا وَوَأَصْلَتِهَا وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى دَوَامِ الْوِصَالِ فَإِنَّ
وِصَالَهَا يَعْقِبُهُ الْهَجْرُ وَسُرُورُهَا يَعْقِبُهُ الْحُزْنُ وَأَيَادُهَا تَنْتَهِي بِالْمَوْتِ »

بنو الدنيا أغراض لضروب المحن

قيل للحسن البصرى : كيف أصبحت ؟ فقال : كيف يُصْبِحُ مَنْ هُوَ
غَرَضٌ لِثَلَاثَةِ أَسْهُمٍ : سَهْمُ رِزْيَةٍ ، وَسَهْمُ بَلِيَّةٍ ، وَسَهْمُ مَنِيَّةٍ . وقالوا : مَنْ
أَخْطَأَهُ سَهْمُ الْمَنِيَّةِ لَمْ يُخْطِئْهُ سَهْمُ الرِّزْيَةِ ، وقال ابن المعتز :
الدَّهْرُ يَطْرِفُ بِالْعَنَا وَالنَّاسُ بَيْنَ جُفُونِهِ

« يُقَالُ : طَرَفَ بَصْرَهُ يَطْرِفُهُ طَرْفًا : إِذَا أَطْبَقَ أَحَدٌ جَفْنَيْهِ عَلَى الْآخَرِ ؛
وَالْعَنَا هُوَ الْعَنَاءُ أَيْ النَّصَبُ » وقال أبو العتاهية :

أَفِ لَدُنِّيَا تَلَاعَبَتْ بِي تَلَاعَبَ الْمَوْجِ بِالْغَرِيْقِ

الأيام تمضى فى تراذلهـا

سمِعَ زيَادُ بنِ أبيه امرأةً تقول : اللهم أعزِلْ عَنَّا زيادا ، فقال : زيدي فى دعائكِ : وأبدِلْنَا خيرا منه ، فإنَّ الأخيرَ أبداً شرٌّ ... وقال أبو الدرداء^(١) : معرُوفُ زمانِنَا مُنكَرُ زمانٍ قد فات ، ومُنكَرُهُ معرُوفُ زمانٍ لم يأتِ ،

حمدهم ماضى الزمان وذمهم حاضره

كانت السيدة عائشة رضى الله عنها كثيرا ما تُنشدُ قولَ لبيد :
 ذهبَ الذين يُعاشُ فى أكنافِهِم وبقيتُ فى خَلْفِ كجَلدِ الأجرَبِ
 وتقول : رَحِمَ اللهُ كبيدا ، كيف لو عاشَ إلى زمانِنَا ! وكان عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ يُنشدُ هذا البيتَ ويقول : رَحِمَ اللهُ عائشة ، كيف لو عاشت إلى زمانِنَا ! ومن كلامِ الحسنِ البصرى : كان الناسُ ورَقًا بلا شوكٍ فصاروا شوكًا بلا ورَقٍ ... وقالوا :

رُبَّ يومٍ بكيتُ فيه فلَمَّا صرْتُ فى غيره بكيتُ عليه
 وهناك مَنْ يذهب إلى أن ماضىَ الزمانِ كحاضره ، لا يُفضلُ قديمُ الزمانِ حديثه ، وإنما الأيامُ كلها ، أو الناسُ جميعا ، قداماهم ومُحدثوهم وأولهم وآخرهم سواسيةً فى أنهم خَلْفُ كجلدِ الأجرَبِ ، ومن أحسن ما قيل فى ذلك تلك الكلمة التى كتبها بديعُ الزمانِ الهَمْدَانِيُّ فى رسالة له إلى أستاذه أبى الحسين ابن فارس صاحبِ المجلدِ فى اللغة ، جوابا على رسالة كتبها ابن فارس إلى البديع

(١) هو عويمر بن قيس بن زيد الأنصارى ، الصحابى المشهور ، شهد مع سيدنا رسول الله وقعة أحد وما بعدها وتوفى فى آخر خلافة عثمان بن عفان

في ذمّ الزمان^(١)، قال البديع: نعم أطلّ الله بقاء الشيخ الإمام، إنه الحَمَأُ
المَسُونُ^(٢)، وإن ظننت الظنون، والناس لآدم، وإن كان العهد قد تقدّم،
وارتبتك الأضداد، واختلط الميلاد؛ والشيخ يقول: فَنَسَدَ الزَّمانَ، أَقْلا
يقول: متى كان صالحا؟ أفي الدولة العباسية وقد رأينا آخرها وسَمِعنا أولها؛
أم المدة المرؤانية وفي أخبارها « لا تَكْشَعِ الشَّوْلَ بأخبارها »^(٣)... أم
السنين الحرّبية^(٤):

والسيفُ يُعْمَلُ في الطَّلِيّ والرُّمَحُ يُرَكَّزُ في السُّكْلَى^(٥)

- (١) قيل: ذكر الهذاني في مجلس ابن فارس فقال ما معناه: إن البديع قد نسي حق
تعليمنا إياه، وعمتنا وشمخ بأنفه عنا، فالحمد لله على فساد الزمان، وتغير نوع الإنسان،
فبلغ ذلك البديع، فكتب إلى ابن فارس هذه الرسالة.
(٢) الحما: الطين الأسود. والمسنون: المتغير المنين
(٣) هذا من قول الحارث بن حازة:

لا تَكْشَعِ الشَّوْلَ بأخبارها إنك لا تدري من النتائجِ
واحلبُ لإضيافك ألبانها فإن شرّ اللبّين الوالجِ

والكسع: ترك بقية من اللبن في خلف الناقة يراد بذلك تغزيرها، وهو أشد لها
والشول من النوق: مامضى على حملها أو وضعها سبعة أشهر فقلّ لبنها وخف ضرعها
والأغبار: جمع الغبر وهو بقية اللبن في الضرع، والوالج: الذي يلج في ظهورها من
اللبن المكسوع يقول الحارث: لا تغزري إبلك تطلب بذلك قوة نسلها واحلبها لأضيافك
فلعل عدوا يغير عليها فيكون نتاجها له دونك. ولعل البديع يشير بهذا إلى بخل بني
مروان وقلة الخير في أيامهم

- (٤) الحرّبية: نسبة إلى حرب بن أمية بن عبد شمس، يريد بذلك خلافة معاوية وبين يدايه
(٥) الطلي: الأعتاق واحده طلية بضم الطاء، وركز الرمح. دفنه وأثبتته والسكلى:
جمع كلية وكاوة، والكليتان أو الكلوتان معروفان

وَصَيِّتُ حُجْرٍ فِي الْقَلَا وَالْحَرَّتَانِ وَكَرَّ بَلَا (١)

أم البيعة الهاشمية وعلى يقول : لبت العشرة منكم برأس ، من بني فراس ؛
أم الأيام الأموية (٢) والنفير إلى الحجاز ، والعيون إلى الأعجاز ؛ أم الإمارة
العدوية (٣) وصاحبها يقول : وهل بعد البزول إلا النزول ؛ (٤) أم الخلافة التيمية (٥)
وهو يقول : طوبى لمن مات في نأنة الإسلام (٦) أم على عهد الرسالة
ويوم الفتح قيل : أسكتي يا فلانة ، فقد ذهبت الأمانة ؛ أم في الجاهلية
ولبيد يقول :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفِ كِلْدِ الْأَجْرَبِ

(١) حجر : هو حجر بن عدى الكندى من أهل العراق وقد قتله معاوية بن أبي
سفيان سنة إحدى وخمسين لإظهاره التشيع إلى علي ولعنه معاوية وأصحابه والبراءة
منهم ، وكان يجتمع عليه كل من وافقه في هذا الرأي من أهل المصريين حتى ولى زياد
على العراق فكتب إلى معاوية في أمر حجر وأكثر فأمر معاوية زياداً أن يبعث به
إليه مشدوداً بالحديد ، ففعل ، فلما قدم عليه أمر به معاوية فضربت عنقه ، وكان
حجر من أشرف العراق وخياره ، انظر تاريخ الطبري في حوادث سنة إحدى
وخمسين ، ويشير بقوله والحرتان إلى وقعة الحرة التي كانت بين جنود يزيد بن معاوية
وأهل المدينة سنة ثلاث وستين وكانت هذه الوقعة في حرة واقم وهي شرقي المدينة
وقد قتل فيها من أهل المدينة خلق كثير ، وكر بلاء موضع في طرف البرية عند الكوفة
وهو الذي قتل فيه الحسين بن علي رضي الله عنه في خلافة يزيد بن معاوية

(٢) يزيد خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه لأن أمية رهطه

(٣) يزيد خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، والعدوية نسبة إلى عدى بن كعب

ابن لؤي ، وهم رهط عمر

(٤) البزول : تشقق ناب البعير ، وذلك في السنة التاسعة ، يزيد بهذا : وهل بعد

الوصول إلى الغاية إلا الأخذ في النقصان ؟ (٥) يزيد خلافة أبي بكر رضي الله عنه.

والتيمية : نسبة إلى تيم بن مرة بن كعب بن لؤي ، وهم رهط أبي بكر

(٦) النأنة : أول الإسلام قال الزمخشري : ومعناها : الضعف قبل أن يقوى ويعز

أم قبل ذلك وأخو عاد يقول :

بلاَدُهَا كُنَّا وَكُنَّا نَحِبُّهَا إِذِ النَّاسُ نَاشِ وَالزَّمَانُ زَمَانُ

أم قبل ذلك ويُروى لأدم عليه السلام :

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا فَوَجَّهَ الْأَرْضَ مُعَبَّرًا قَبِيحُ

أم قبل ذلك والملائكة تقول لبارئها : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؛ ^(١) ما فسد الناس ، ولكن أطرده القياس ؛ ولا أظلمت الأيام ، وإنما امتد الإلظام ؛ وهل يفسد الشيء إلا عن صلاح ، ويسمى المرء إلا عن صباح ا

إنكار ذم الدهر

روى الناعن سيدنا رسول الله ﷺ لا نسبوا الدهر فإن الدهر هو الله ، وفي رواية : فإن الله هو الدهر ، يقول صلوات الله عليه : إن ما أصابك من الدهر فأنه فاعله ليس الدهر ، فإذا شتمت الدهر فكأنك أردت به الله : وكان من شأن العرب أن تذم الدهر وتُسبه عند الحوادث والنوازل تنزل بهم من موت أو هزم ويقولون : أبادهم الدهر وأصابتهم قوارع الدهر وحوادثه ، فيجعلون الدهر الذي يفعل ذلك فيذمونه ، وقد ذكروا ذلك في أشعارهم وأخبر الله تعالى عنهم بذلك في كتابه العزيز ثم كذبهم فقال : وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا موت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، قال الله عز وجل : وما لهم

(١) قال الشيخ صلاح الدين الصفدي في شرحه على لامية المعجم للطبراني : استدل بعضهم بهذه الآية الكريمة على أنه كان قبل خلق آدم خلق آخر في الأرض وأنهم أفسدوا فيها وأهلكهم الله تعالى ، لأن الملائكة قالت : أتجعل فيها من يفسد فيها ا

بذلك من علم إن هم إلا يظنون ، والدهر : الزمان الطويل ومدة الحياة الدنيا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تسبوا الدهر ، على تأويل : لا تسبوا الذي يفعل بكم هذه الأشياء فإنكم إذا سببتم فاعلها وإنما يقع السب على الله تعالى لأنه الفاعل لها لا الدهر... « وقد تقدم ذلك »

وقال أبو بكر الخوارزمي تريبا من هذا المعنى الذي نعالجه :

وكم نكني وكم نهجو ألبالي وليس يخصمنا إلا القضاء^(١)

وقال رجل للأصمعي : قسد الزمان ، فقال :

إن الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس^(٢)
والبيت المشهور في هذا هو قول بعضهم :

نعيب زماننا والعيب فينا ولو نطق الزمان بنا هجانا

وقال المتنبي :

ألا لأرى الأحداث حمدا ولا ذما فابطشها جهلا ولا كفها حلما^(٣)

وقال بعض الصالحين لأبي العتاهية : أي خلق الله أصغر عنده ؟ قال :

الدنيا ، لا تسارى عند الله جناح بعوضة ، قال : أصغر منها مجبها ...

المسرة من حيث تخشى المضرة

قال أبو عمرو بن العلاء : طلب الحجاج بن يوسف الثقفي أبي ، فخرج

(١) يقال . كنى عن الأمر بغيره بكنى كناية وهو : أن تتكلم بشيء وتريد غيره

(٢) الجديدان : الليل والنهار وذلك لأنهما لا يلبيان أبدا

(٣) يقول المتنبي ، لأحد الحوادث السارة ولا أذم الضارة فإنها إذا بطشت بنا

أو آذتنا لم يكن ذلك جهلا منها وإذا كفت عن البطش والضرر لم يكن ذلك حلما ،

يعنى : أن الفعل في جميع ذلك ليس لها

منه هاربا إلى اليمن ، فإننا لَدَسِيرِ بَصْحَرَاءِ الْيَمَنِ إِذْ لَحِقْنَا لِأَحَقِّ يُبَشِّدُ :
 رُبَّمَا تَكَرَّرَهُ النَّفُوسُ مِنَ الْأَمْرِ لَهُ فَرَجَةٌ كَحَلِّ الْعِقَالِ
 فقال أبي : ما الخبر ؟ قال : مات الحجاج ، قال أبو عمرو . فانا بقوله :
 له فَرَجَةٌ أَشَدُّ سُورًا مَنِيَّ بِمَوْتِ الْحِجَّاجِ ، قال : فقال أبي : أَصْرِفْ رِكَابَنَا
 إِلَى الْبَصْرَةِ ، قال : وكنت يومئذ قد خَنَقْتُ بَعْضًا وَعِشْرِينَ سَنَةً ... « ربما
 تكره النفوس ... البيت هو لِأَمِيَّةِ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ وقبله :

لَا تَضِيقَنَّ فِي الْأَدْوَارِ فَقَدْ تُكْشَفُ عَمَّاؤُهَا بغيرِ احْتِيَالِ

ومن بدیع هذه اللغة العربية الكريمة أنها تفرق بين فرجة « بفتح الفاء ،
 وبينها بالضم ، فالأولى : التَّفَصَّى من الهمِّ ، والآخرى ، أى الفَرَجَةُ بالضم : كلُّ
 منفرج بين جبلين ونحوهما . والغماء : الكَرْبُ ، وقالوا : خَفِيَ الْمَضَارُّ مِنْ
 تَحَلَّلِ الْمَسَارِ (١) ، وَارْجُ النَّفْعِ مِنْ مَوْضِعِ الْمَنْعِ ، فَأَكْثَرُ مَا يَأْتِي الْأَنْ مِنْ
 مَحَلِّ الْفَرْعِ ؛ وقالوا : أَعْنَاقُ الْأُمُورِ تَنْشَابُهُ ، فُرْبٌ مَحْبُوبٌ فِي مَكْرُوهٍ وَمَكْرُوهٌ
 فِي مَحْبُوبٍ وَمَغْبُوطٌ بِنِعْمَةٍ هِيَ دَاوَاهُ وَمَرْحُومٌ مِنْ دَاءٍ فِيهِ شِفَاؤُهُ ... وقالوا :
 رُبُّ سَلَامَةٍ تَكُونُ لِلتَّلَافِ سَبِيحًا ، وَمَكْرُوهٌ يَكُونُ لِلنَّجَاةِ مِفْتَاحًا :

وَقَدْ يَأْسَفُ الْمَرْءُ مِنْ قُوْتِ مَا لَعَلَّ السَّلَامَةَ فِي قُوْتِهِ

وقال حكيم : اللهُ مَصَالِحٌ فِي مَكَارِهِ عِبَادِهِ ، وقالوا : الْعَاقِلُ لَا يَجْزَعُ
 لِأَوَّلِ نَكْبَةٍ وَلَا يَنْفَرِحُ بِأَوَّلِ نِعْمَةٍ فَرُبَّمَا أَقْلَعُ الْمَحْبُوبُ عَمَّا يَعْضُرُ وَأَسْفَرَ
 الْمَكْرُوهُ عَمَّا يُسْرُ ... وقال سيدنا رسولُ الله « اشْتَدَّى أَرْزَمَةُ تَنْفَرِجِي ،
 « الْأَرْزَمَةُ : الشدة والفتح » ويقال في ذلك : إِنَّ الشَّدَّةَ إِذَا تَتَابَعَتْ أَنْفَرَجَتْ
 وَإِذَا تَوَالَتْ تَوَلَّتْ ... وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ اللَّهِ سَجَلَتْ شَأْنُهُ « فَتَسَى
 أَنْ تَكَرَّهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا »

(١) من خلال المسار : أى من خلالها .

الفرج بعد الشدة

أَتَى يَزِيدُ بِخَارِجِيٍّ ، فَهَمَّ بِقَتْلِهِ فَقَالَ الْخَارِجِيُّ :
 عَسَى فَرَجٌ يَأْتِي بِهِ اللَّهُ إِنَّهُ لَهُ كُلُّ يَوْمٍ فِي خَلِيقَتِهِ أَمْرٌ
 فقال يزيد : والله ، لأضربنَّ عنقك ، أقتلوه ، فدخل الهيثم بن الأسود
 النَّخَعِيُّ ، فقال : أمسكوه قليلا ، فدنا منه فقال : يا أمير المؤمنين ، هبْ
 مُجْرِمَ قَوْمٍ لَوْ أَفْدَيْهِمْ ، فقال : هولاك ، فرج الخارجي وهو يقول : تَأَبَّى عَلَى
 اللَّهِ فَأَبَى إِلَّا أَنْ يُكْذِبَهُ وَغَالِبَهُ فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَغْلِبَهُ ... وَأُحْضِرَ رَجُلٌ
 أَمَامَ بَعْضِ الْمَلُوكِ ، فَدَعَا بِطَعَامٍ فَأَخَذَ يَأْكُلُ وَيَضْحَكُ ، فَقِيلَ لَهُ : تَضْحَكُ
 وَأَنْتَ مَمْتُولٌ ؟ فقال : مِنَ السَّاعَةِ إِلَى السَّاعَةِ فَرَجٌ ، فَسَمِعَتْ صَيْحَةَ فَتِيلٍ :
 مَاتَ الْمَلِكُ ، فُخِّلُوا الرَّجُلَ ... وَشَدَّ بَعْضُ الْعُمَالِ - الْوَلَاةِ - رُجُلًا إِلَى أَسْطُوَانَةٍ
 - عَمُودٍ - يُرِيدُ ضَرْبَهُ ، فَقَالَ حُلَّتِي مِنْ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ ، فَخَلَّه ، فَسَاحَلَهُ إِلَّا وَقَدْ
 عَزَلَ وَشَدَّ إِلَى الْأَسْطُوَانَةِ بِعَيْنِهَا ...

من زال كربه فنسى صنع الله

قالوا : ما صاحب البلاء الذي طال بلاؤه بأحق بالدعاء من المعاقب . وقيل :
 مَنْ سَبَّحَ فِي النَّهْرِ الَّذِي فِيهِ التَّمَسَّاحُ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلهَلَاكِ . وشكا يوسف
 عليه السلام طول الحبس ، فأوحى الله تعالى إليه : أَنْتَ حَبَسْتَ نَفْسَكَ
 حَيْثُ قَلْتَ : السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ . وقال الله عزَّ وتقدس « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ
 الضُّرُّ دَعَا نَجْوَاهُ أَوْ قَابِئًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا
 إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ... وقال سبحانه :
 قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَأَنْجِبَنَّكُمْ

من هذه لتكوتن من الشاكرين ، قُلِ اللهُ يُنجيكم منها ومن كلِّ كُرب ثم
أنتم تُشركون .

لا تعرف النعمة إلا عند فقدها

قالوا : كم من نعمة عرفت بيّلة نزلت ، ونعمة جهلت بسلامة لبّدت .
وقالوا : شيان لا يعرف فضلها إلا من فقدتها : الغنى والعافية ... وقال
الشاعر - :

فالوجهُ مثلُ الصبحِ مُبيضٍ والشعرُ مثلُ الليلِ مُسودُّ
ضدانٍ لما استجمعا حُنا والخذُّ يُظهرُ حُسنةَ الضدِّ

وقال المتنبي :

« ويضدها تَبَيَّنُ الأَشْيَاءُ »

وقال أبو تمام :

وليس يَعْرِفُ طيبَ الوصلِ صاحبهُ حتَّى يُصابَ بِتَأْيٍ أو بهجرانِ

وقال المتنبي :

ولولا أيا دى الدهرِ فى الجع بيننا غفلنا فلم نشعر له بِذُنوبِ
« يقول المتنبي : إن الدهر تارة يُحسِنُ وتارة يسىء فلولم يحسن إلينا
بالجع بيننا لما شعرنا بذنوبه فى تفرقتنا ، فإحسانه عرفنا إساءته »

فضل العافية وسلامة الدين

قال سيدنا رسول الله « مَنْ أصبح آمناً فى سِرْبِهِ مُعافى فى بَدَنِهِ عنده قوتُ
يومه فكأنما حيزت له الدنيا »

« قال ابن بَرى : قال جماعةٌ من أهل اللغة : السَّرْبُ : النفس قال : وأنكر

ابنُ دَرَسْتَوَيْه قولَ من قال في نفسه قال : وإنما المعنى : آينُ في أهله وماله وولده ، ولو آمن على نفسه وحدها دون أهله وماله وولده لم يُقَلَّ هو آينُ في سيربه ، وإنما السَّرْبُ هُنا : ما للرجل من أهلٍ ومالٍ ، ولذلك سمي تطيح البقر والظباء والقطا والنساء سربا ، وكان الأصلُ في ذلك أن يكون الراعي آمناً في سيربه والفعلُ آمناً في سيربه ، ثم استُعْمِلَ في غير الرعاة استعارةً فيما شَبَّه به . وحيزت : جُمِعَتْ وُضِّمَتْ ، وبجذافيرها : بأسرِّها »
وقال ابن الرومي :

إذا ما كساكَ اللهُ سِرْباً لَصِيحَةً ولم تَخْلُ من قوتِ يَحِلُّ وَيَعْدُبُ
فلا تَغِيظَنَّ الْمُتَرَفِينَ فإِنَّهم على حَسَبِ ما يُعْطِيهمُ الدَّهْرُ يَسْأُبُ
«السربال : القميص ، وحلٌّ : من الحلال مقابل الحرام ، والغبطة : أن تمنى مثل حال المغبوط - الحسن الحال - من غير أن تريد زوالها ، وعلى حسب : على قدر وعدد ، وقالوا : من أوتي العافية فظن أن أحداً أوتي أكثر منه فقد قلل كثيراً وكثيراً قليلاً » كثير قليلاً ، لأن ما عدا العافية فهو قليل بالإضافة إليها ، ...

عقريات شتى في الدنيا

قال أبو حازم : وما الدنيا ! أما ما ضى فحلمٌ وأما ما بقي فأمازي . وقال بكر بن عبد الله : المستغنى عن الدنيا بالدنيا كالْمُظْفَى النَّارَ بِالتَّبَنِ . وقال ابن مسعود : الدنيا كُلُّها غموم ، فما كان فيها من سرور فهو رنج . وقال بعض الحكماء : مثلُ الدنيا والآخرة مثلُ رجلٍ له ضرتان إن أرضى إحداهما أَسَخَطَ الأخرى ... وقال سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : تركَ الملوِكُ لِمِ الحِكْمَةِ فآثرُ كوا لهم الدنيا . وقال يحيى بن خالد البرمكي : دَخَلْنَا في الدنيا دُخُولاً

أخرجنا منها . وكان الحسن البصرى كثيرا ما يتمثل كلما جَرَى ذِكْرُ الدنيا - :

اليومَ عِنْدَكَ دَلْهًا وَحَدِيدُهَا وَغَدًا لغيرِكَ كَفْهًا وَالْمِعْصَمُ
وهذا البيت كذلك يقال في غدر المرأة وفلة وفاؤها . وكان إبراهيم بن آدم
العجلى يقول :

نُرَقِّعُ دُنْيَانَا بِتَمْرِيْقِ دِينِنَا فَلَا دِينُنَا يَبْقَى وَلَا مَا نُرَقِّعُ
وقال السيد المسيح : أنا الذى كَفَأْتُ الدنيا على وَجْهها ، فليست لي زوجة
تموتُ وَلَا يَبِيتُ يَخْرَبُ . وقيل لمحمد بن واسع : إنك لترضى بالدون فقال :
لِنِمَّا رَضِيَ بالدون مَنْ رَضِيَ بالدنيا ... وقالت امرأة لزوجها ورأته مهْمُوما :
مِمَّ هُمُّكَ ؟ أبالدنيا فنَدَّ قَرَعَ اللهُ مِنْهَا أُمَّ بِالْآخِرَةِ فزادك اللهُ هَمًّا ؟ وقال السيد
المسيح : حُبُّ الدنيا أَصْلُ كُلِّ خَطِيئَةٍ وَالْمَسْأَلُ فِيهَا دَاءٌ كَثِيرٌ ، قيل : ما دأؤه ؟
قال : لَا يَسْلُمُ صاحبه من الفخر والسُّكْبَرِ ، قيل : وإن سَلِمَ ؟ قال : يَشْغَلُهُ
إِصْلَاحُهُ عَن ذِكْرِ اللهِ . وقال سيدنا رسول الله : مَنْ أَصْبَحَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ
وَسَدَّهٖ ^(١) نَزَعَ اللهُ الْغَنَى مِنْ قَلْبِهِ ، وَصَيَّرَ الْفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا
إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ ؛ وَمَنْ أَصْبَحَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ وَسَدَّمَهُ نَزَعَ اللهُ الْفَقْرَ مِنْ قَلْبِهِ
وَصَيَّرَ الْغَنَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ... وقال سيدنا رسول الله
لِلضَّحَّاكِ بْنِ سُفْيَانَ : مَا طَعَامُكَ ؟ قال : اللَّحْمُ وَاللَّبَنُ قال : ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى
مَاذَا ؟ قال : ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى مَا قَدِ عَلِمْتُ ، قال : فَإِنَّ اللهَ ضَرَبَ مَا يَخْرُجُ مِنْ
ابْنِ آدَمَ مِثْلًا لِلدُّنْيَا ... وَكَانَ بَشَرُ بْنُ كَعْبٍ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ إِذَا قَرَعَ مِنْ
حَدِيثِهِ : انْطَلِقُوا حَتَّى أُرِيَكُمْ الدُّنْيَا ، فَيَجِيءُ فَيَقِفُ بِهِمْ عَلَى السُّوقِ ، وَهِيَ
يَوْمَئِذٍ مَزْبَلَةٌ ، فيقول : انظروا إلى عَسَلِهِمْ وَسَمِّهِمْ وَإِلَى دَجَاجِهِمْ وَبَطْنِهِمْ

(١) السدم : الولوع بالشئ ..

صارَ إلى ماتَرُونَ ...

وقال محمد بن وهيب: (١)

نُراخُ لِذِكْرِ المَوْتِ ساعَةً ذِكرِهِ وَتَعْرِضُ الدنِيا فَنَلهُوَ وَنَلْعَبُ
وَنحْنُ بَنُو الدنِيا حُلِقْنا لِغَيرِها وما كُنْتَ مِنْهُ فَهُوَ شَيْءٌ مُحِبُّ (٢)
يَقينُ كَأَنَّ الشَّكَّ غالِبُ أمرِهِ عَلَيْهِ وَعِرفانُ إلى الجَهِلِ يُنْسَبُ
أقول: لعله ينظر إلى قول جرير:

تُرَوِّعُنا الجِنازُ مُقِيلاتِ فَنَلهُوَ حينَ تَذْهَبُ مُدِيراتِ
كَرْوَعَةٍ ثَلَّةٍ لِمُغارِ ذَنْبِ فلما غابَ عادتِ راتِعاتِ (٣)
قال أبو عمرو بن العلاء: جلستُ إلى جرير وهو يُمدلي:

* وَدَعَّ أَمامَةً حانَ مِنْكَ رَحيلُ *

ثم طلعت جنازة فأمسك وقال: شَيَّبْتَنِي هَذِهِ الجِنازُ، قلتُ: فليمُ كُسابُ
الناسِ! قال: يبدأونني ثم لا أعفُو وأعتدى ولا أبتدى، ثم قال هـذين
البيتين... وقول محمد بن وهيب: يقين كأن الشك أغلب أمره... البيت
فأخوذ من قول الحسن البصري: ما رأيتُ يقيناً لاشكَّ فيه أشبهَ بِشكِّ
لا يقين فيه، إلا الموت... .

(١) شاعر بصرى من أهل بغداد مدح المأمون والمعتصم ويعتد وسطاً في طبقة
دعبل وأبي سعيد الخزومي، وكان يتشيع ويستميج الناس بشعره، انظر ترجمته في
معاهد التنصيص

(٢) يقول: إننا أبناء الدنيا وما دمنا كذلك كانت الدنيا محبوبة لنا.

(٣) الثلثة: بفتح الثاء. جماعة الغنم، أما الثلثة بضم الثاء فالجماعة من الناس، وهذا
من غرائب هذه اللغة الكريمة.

وقال أحد الظرفاء : إن الدنيا قيد استودقت وأتعظ الناس : « استودقت يقال : ودقت الفرس تدق ودقاً واستودقت : إذا طلبت الفحل » وقال حكيم : من أراد الدنيا فليتهيأ للذل . ومن كلمة لعلي بن أبي طالب : أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام . . . ومن كلامه رضى الله عنه - وقد قال له رجل وهو فى حُطبة : يا أمير المؤمنين ، صف لنا الدنيا فقال : ما أصف من دار أو لها عناء وآخرها فناء ، فى حلالها حساب وفى حرامها عقاب ، من صح فيها ما آمن ، ومن مريض ندم ومن استغنى فبتن ، ومن افتقر فيها حزن . وقال أيضاً : إنما المرء فى الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا ، ونهب للبصائب ، ومع كل جرعة شرق ، وفى كل أكلة غصص ، ولا ينال العبد فيها نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله ، فنحن أعوان الختوف ، وأنفسنا تسوقنا إلى الفناء ، فنأين نرجو البقاء وهذا الليل والنهار لم يرفعا من شيء شرقا إلا أسرعا السكرة فى هدم ما بنيا ، وتفريق ما جمعا ، فاطلبوا الخير وأهله ، واعلموا أن خيراً من الخير مُعطيته ، وشرّاً من الشرِّ فاعله . . . « الغرض : الهدف ، والنهب : المال المنهوب غنيمةً والجمع نهب وقد تقدم شرح الجرعة والشرق والغصص ، وقوله : فنحن أعوان الختوف فالختف : الموت ، ومعنى أننا أعوان الموت : أنا نأكل ونشرب ونجمع ونركب الخيل والسفن والطائرات ونحوها ونتصرف فى أسبابنا وحاجتنا وما آرينا ، والموت إنما يكون بأحد هذه الأمور إما من أخلاط تُحدِثها الماءُ كلُّ والمشارب ، أو من سسطة يسقط الإنسان من دابة هو راكبها أو من ضعف يلحقه من الجوع المفرط أو مصادمات واصطكاكات تصيبه عند تصرفه فى مآربه وحركته وسعيه ونحو ذلك ،

فكأننا نحن أعنا الموت على أنفسنا»

وقال علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم : مالك من عيشك إلا لذة تزدلف بك إلى حمامك وتقرُّبك من يومك ، فأية أكلة ليس معها غصص أو شربة ليس معها شرق فتأمل أمرك فكأنك قد صرّت الحبيب المفقود والخيال المحترم ، أهل الدنيا أهل سفر لا يحلون عقد رحا لهم إلا في غيرها قوله : تزدلف بك إلى حمامك : أى تقربك إلى موتك ، والمحترم المستأصل والمقتطع .

وقال حكيم : من ذا الذى يبني على موج البحر داراً لتلكم الدنيا ، فلا تتخذوها قراراً ... وقيل لبعض الرهبان : كيف ترى الدهر ؟ قال : يُخلق الأبدان ، ويُجدد الآمال ، ويُقربُ المنية ، ويُبعد الأُمّية ، قيل : فما حال أهله ؟ قال : من ظفّر به تعب ، ومن فاته أكتاب ، وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

ومن يحمّد الدنيا لِعَيْشِ يَسْرُهُ فسوف لَعَمْرَى عن قليل يَلُومُهَا
إذا أدبرت كانت على المرءِ حَسْرَةً وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

قال حكيم : من عيب الدنيا أنها لا تعطى أحدا ما يستحق ، إما أن تزيد له وإما أن تنقص ... وقال أبو العتاهية :

تعالى الله يا سَلْمُ بنَ عمرو أذلّ الحِرْصُ أعناقَ الرجال
هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوَاً أليس مصيرُ ذاكِ إلى الرِّوَالِ
وما دُنْيَاكَ إلا مِثْلُ قِيءٍ أَظْلَكَ ثمَّ آذَنُ بانْتِقَالِ
ولنجزئى بهذا المقدار فَعَبَقْرِيَاتِهِمْ فى الدنيا لا يكاد يبلغها الإحصاء .

عقبرياتهم في الموت أسماء الموت ووصفه

الموت : ضد الحياة، ويقال : مات يموتُ ويمتُ - لغة طائفة - وقالوا : مِتَّ تموتُ ؛ قال ابن سيده ؛ ولا نظير لها من المعتل ، ورجلٌ مَيَّت ومَيَّت ، وقيل : الميِّت : الذي مات ، والميِّت والمات : الذي لم يمُت بعد ، يقال : هو مَيِّتٌ غدا وماتت ولا يقال : مَيِّتٌ ، قالوا : وهذا خطأ ، وإنما مَيِّتٌ يصلح لما قد مات ولما سيموت ، وقد جمع بين اللغتين عدِي بن الرِّعلاء الغساني - والرِّعلاء أمه - فقال :

ليس من مات فاستراح بميتٍ . إنما الميِّتُ مَيِّتُ الأحياءِ
إنما الميِّتُ من يعيش كثيراً كاسفاً بأله قليل الرجاء
فأناسٌ يُصصون بماداً (١) وأناسٌ حلوقُهُم في الماء

فجعل الميِّتَ كالمتِّ ... ويقال للموت : الهَمِيْعُ ، وقيل : الهَمِيْعُ : الموتُ المعتجلُ . أقول : ولعله سُمي كذلك لأن الروح تهَمعُ : أي تسيل ، من همع الدمعُ والماء : سال . ومن أسماء الموت أيضاً : النَيْطُ ، روى عن علي رضي الله عنه أنه قال : لَوَدَّ مُعَاوِيَةَ أَنَّهُ مَابِقِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ نَافِخُ ضَرْمَةٍ إِلَّا طُعِنَ فِي نَيْطِهِ (٢) ، معناه : لإلامات ، قال ابن الأثير : والقياس : النَوْطُ ، لأنه من ناظ ينوْطُ : إذا عُلقَ ، وقيل : النيط : نياط القلب ، وهو : العرق الذي يتعلق به القلب ... ومن أسماء الموت : الرَّمْدُ قال أبو وجرة السعدي :

صَبَبْتُ عَلَيْكُمْ حَاصِبِي فَتَرَكْتُكُمْ كَأَصْرَامٍ عَادٍ حِينَ جَلَّلَهَا الرَّمْدُ
«الحاصب . العذاب يكون بالريح الشديدة تحمل الحصباء ، والأصرام : الجماعات

(١) الثاد : الماء القليل الذي لامادة له (٢) الضرمة بتحريك الميم : الحجر أو النار نفسها ، ويقال ما بالدار نافخ ضرمة : أي ماها أحد .

من الناس « والرّمادة : الهلاك؛ ومنه قيل : عام الرّمادة ؛ لأنّ النّاس والأموال هلكت فيه كثيرا^(١) ومن أسمائه: أمّ قَشَعَم ، قال أبو عبيد : أمّ قَشَعَم : التّمنية ، ويقال للشيخ الكبير والمسنّ من النّسور والرّخم : قَشَعَم ، إطول عمره . وأمّ قَشَعَم في قول زهير في معلقته :

فَقَسَدَ وَلَمْ يُفْزِعْ يُبُونَا كَثِيرَةً لَدَى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُمُّ قَشَعَمِ

قيل : الحرب ، وقيل : المنية ، وقيل : الضّبع ، وقيل : العنكبوت ، وقيل : الذّيلة ... ومن أسمائه : أمّ اللّهِم . قال الخليل بن أحمد : أمّ اللّهِم : المنية ، لأنها تلتهم كل شيء . ومن أسمائه : شَعُوبُ ، قال ابن السكّيت : شَعُوبُ : اسم المنية ، مؤنثة مَعْرُفَةٌ لاتنصرف وأنشد :

❖ وَمَنْ تَدُوعَ يَوْمًا شَعُوبُ يُجِيبُهَا ❖

قال : وإنما سميت المنية شعوباً لأنها أشعبت — أى تفرقت — يقال : شَعَبَ وأشعبَ وأنشعبَ : هلك . . ومن أسمائه : الفوؤد ، فاد يفوؤد فوؤداً : مات ، قال لبيد بن ربيعة يذكر الحارث بن أبي شمر الغسانيّ ، وكان كل ملك منهم كلما مضت عليه سنة زاد في تاجه خرزة ، يراد بذلك أن يعلم عدد السنين التي ملكها ، فأراد أنه عمر حتى صار في تاجه خرزات كثيرة :

رَعَى خَرَزَاتِ الْمُلْكِ سِتِّينَ حِجَّةً وَعِشْرِينَ حَتَّى فَادَ وَالشَّيْبُ شَامِلٌ
ومن أسمائه : الحمام . يقال نزل به حمامه : أى موته وقدره ، من حُم كذا أى قدر أنشد ابن بَرَى الخُطَابِ بنِ عُرَيِّ :

(١) عام الرّمادة كان سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة من الهجرة أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضی الله عنه

وأرْمِي بِنَفْسِي فِي فُرُوجِ كَثِيرَةٍ وَلَيْسَ لِأَمْرِ سَمِّهِ اللهُ صَارِفٌ
وَمِنْ أَسْمَائِهِ : الْمُنُونُ ، قِيلَ : الْمُنُونُ تَكُونُ وَاحِدًا وَجَمْعًا ، قَالَ أَبُو ذُوَيْبٍ
الْمَدَنِيُّ ...

✽ أَمِنَ الْمُنُونِ وَرَزِيهِ تَتَوَجَّعُ ✽

وَمِنْ جَمْعِهِ قَوْلُ عَدِيِّ بْنِ زَيْدِ الْعَبَادِيِّ :

مَنْ رَأَيْتَ الْمُنُونَ خَلَدَنَّ أُمَّ مَنْ ذَا عَلَيْهِ يَمُنُّ أَنْ يُضَامَ خَفِيرٌ
وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : الْمُنُونُ وَاحِدٌ لِاجْتِمَاعِ لَهُ ، فَأَمَّا قَوْلُ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ فَعَلِي
مَعْنَى الْعَمُومِ وَالكَثْرَةِ فِي الْمَوْتِ ، إِذْ كَانَ أَدَهَى الدَّوَاهِي ؛ وَقَالَ ابْنُ جَنِّي : مَنْ
أَنْتَ الْمُنُونُ ذَهَبَ إِلَى مَعْنَى الْمُنِيَّةِ وَمَنْ ذَكَرَ أَرَادَ الدَّهْرَ ، وَسُمِّيَ الدَّهْرُ مَمُونًا
لِأَنَّهُ يَذْهَبُ بِمُنَّةِ الْإِنْسَانِ : أَيُ قُوَّتِهِ ... وَمِنْ أَسْمَائِهِ : الْمَوْتَانُ وَالْمَوْتَانُ ، قَالَ
صَاحِبُ اللِّسَانِ : الْمَوْتَانُ وَالْمَوْتَانُ وَالْمَوَاتُ كُلُّهُ : الْمَوْتُ ؛ وَفِي الْحَدِيثِ :
يَكُونُ فِي النَّاسِ مَوْتَانٌ كَقُعَاصِ النَّعْمِ ، فَالْمَوْتَانُ : الْمَوْتُ الْكَثِيرُ الْوَقُوعِ .

✽ ✽ ✽

وَمِنْ صِفَاتِ الْمَوْتِ : مَوْتُ زَوَامٍ : أَيُ كَرِيهِ ، وَقِيلَ : عَاجِلٌ ، وَقِيلَ :
سَرِيعٌ مُجْهِزٌ ، وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ هُوَ الْأَصَحُّ ؛ وَمِنْ أَوْصَافِهِ أَيْضًا : مَوْتُ زُعَافٍ
وَزُعَافٍ وَزُوَافٍ وَجُحَافٍ ، جُحَافٌ : شَدِيدٌ يَذْهَبُ بِكُلِّ شَيْءٍ يَقَالُ : سَيْلٌ
جُحَافٌ وَجُرَافٌ : يَذْهَبُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَزُعَافٌ وَزُوَافٌ وَزُعَافٌ : سَرِيعٌ
وَجِيءَ ، وَقِيلَ : شَدِيدٌ ، وَمِنْهَا : مَاتَ قَعَصًا : أَيُ مَوْتًا وَجِيئًا ، وَيُقَالُ لِمَنْ مَاتَ
نُجَاءَةً : فَمَسَ يَفْقَسُ فُقُوسًا ، وَفَطَسَ يَفْطَسُ فَطُوسًا ، وَيُقَالُ لَمَنْ لَبِقَ إِصْبَعَهُ
وَطَنَّ وَتَدَبَّلَ : أَيُ مَاتَ ، وَيُقَالُ أَطْلَى الرَّجُلُ : أَيُ مَالَتْ عُنُقُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ ،
وَيُقَالُ : جَرَضَ بَرِيقَهُ ، وَأَصْلُ الْجَرَضِ : الْغُصَّةُ ، وَالْمُرَادُ : عَانِي غَضَصِ الْمَوْتِ

ومن ذا المثلُ : حالَ الجريضِ دونَ القريضِ ، قاله عبيد بن الأبرص للنذر حين أراد قتله وقال له : أنشدني من قولك ، فقال عند ذلك : حال الجريض دون القريض ، «الجريض : الغصصُ واختلاف الفكّين عند الموت ، والقريض : الجِرّة^(١) - لأنه إذا غصّ لم يقدر على قرضِ جرّته ، والقريض أيضاً : الشعر ، ويقال استأثر الله به ، وانحلت تركيبه ، وهنّى لما خلق له ، وأناه ما كان يجذر ، وأكل الدهرُ عليهم وشرب ، وهذا مقلوب ، وإنما هو : أكلوا على الدهر وشربوا ؛ وصفر وطابه ، ومعناه : أن جسمه خلا من روحه ؛ وأجود وصف للموت قول سيدنا رسول الله : أكثروا من ذكر هاذم اللذات^(٢) ... ولنجتزئ بهذا المقدار^(٣)

تعظيم أمر الموت

قال الحسن البصريّ : إنّ الموتَ قد فضحَ الدنيا ...
وكان كثيراً ما يقول : عند الموت يأتيك الخبر ... وقال له رجل يوماً
إن عشتَ تر مالم تره ، فقال : إن ميتاً تر مالم تره ... وفي الأثر : ما رأيتُ
منظراً فظيماً إلا والموتُ أعظم منه ...

- (١) الجرة : ما يخرج البعير وكل ذي كرش ليضعه ثم يباعه
(٢) تقرأ هادم بالذال المهملة وبالذال المعجمة ومعناها مزيل الشيء من أصله والرواية بالمعجمة .
(٣) إذا أردت التوسع في أوصاف الموت وأسمائه فإلى الجزء السادس من المخصص لابن سيده

حشهم على تصور الموت

كان الحسنُ البصرىُّ إذا خَوَّفَ من الموت يقول للشَّيْخِ : الزرعُ إذا
بانح ما يُصنَعُ به؟ قالوا : يُحصَدُ ، ويقول : للشُّبَّانِ : يامعشرَ الشُّبَّانِ كم
من زرعٍ لم يبلغْ أدركته الآفةُ !

وقال بعضُ الخلفاء لابن السِّمَّكِ (١) : عِظْنِي وَأُرْجِزْ ، فقال : اعْلَمْ أَنَّكَ أَوَّلُ
خَلِيفَةِ تَمْرٍ ؛ وهذا كما سألَ أَرْدَشِيرُ بعضَ الحكماء عن دارِ بناها وقال : هل
ترى فيها عيباً؟ قال الحكيم : نعم ، عيباً لا يمكنك إصلاحه ، فقال وما هو؟
قال : لك منها خُرْجَةٌ لا عودَ بعدها أو دُخْلَةٌ لا خروجَ بعدها ... وقالوا :
من ضاقَ به أمرٌ فليذكر الموت فإنه يتسَّعُ عليه ... ونحوه : مَنْ أَحْسَبَ أَنَّهُ
يَمُوتُ فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَمَّ لِأَمْرٍ صَعْبٍ يَنْزِلُ بِهِ .

وشكا رجلٌ إلى سيدنا رسول الله قساوة قلبه فقال صلوات الله عليه :
أَكْثَرُ مَنْ ذَكَرَ هَازِمَ اللَّذَاتِ ، فَإِنَّهُ مَا ذَكَرَهُ أَحَدٌ فِي ضَيْقٍ إِلَّا وَسَّعَهُ عَلَيْهِ
وَلَا فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهَا عَلَيْهِ ... وقال بعضُ الصالحين : نِعْمَ نَصِيحَةُ الْقَلْبِ
ذِكْرُ الْمَوْتِ ، يَطْرُقُ نُضُولَ الْأَمَلِ ، وَيُكْفِكُفُ غَرَبَ الْمُنَى وَيُورِنُ الْمَصَائِبَ ، وَيَحْمِلُ
بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ الطُّغْيَانِ ... وقال الحسنُ البصرى - وقد قعد عند رأس
مَيِّتٍ : إِنْ أَمْرًا هَذَا آخِرُهُ لِأَهْلٍ أَنْ يُزَهَّدَ فِيهَا قَبْلَهُ ، وَإِنْ أَمْرًا هَذَا أَوَّلُهُ
لِأَهْلٍ أَنْ يُحْتَدَرَ مَا بَعْدَهُ ، وَنَظَرُ الْحَسَنِ إِلَى صَبِيَّةٍ بَيْنَ جِثَاةِ أَبِيهَا تَقُولُ :
يَا أَبَتِ مِثْلَ يَوْمِكَ لَمْ أَرَهُ ، فَضَمَّهَا الْحَسَنُ وَقَالَ : أَيُّ بُلْبُيَّةٍ ، وَأَبوكِ مِثْلَ
هَذَا الْيَوْمِ لَمْ يَرَهُ ؛ فَبَكَى النَّاسُ ... ومرَّ على بن أبي طالب رضى الله عنه بمقابر

(١) هو أبو العباس محمد بن صالح العابد المحدث المتوفى سنة ١٨٣

الكوفة فقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحالّ الملقفرة، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع، أما الأزواج فقد نسكحت، وأما الديار فقد سكنت، وأما الأموال فقد قسمت؛ هذا خبر ما عندنا، فما خبر ما عندكم؟ ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما إنهم لو تكلموا لقالوا: إننا وجدنا خير الزاد التقوى.

استدلال الإنسان

على موته بمن مات من أهله

قال أبو نواس من أبيات قد أوردناها عليك في باب التقوى :

ألا يا ابنَ الذين قُتوا وماتوا أما والله ما ماتوا لتبقى

وقال بعض الصالحين: إن أمراً ما بينه وبين آدم أب إلا ميت لمعرق في

الموت ... وقال لييد:

فإن أنت لم تصدقك نفسك فانتسب لملك تهديك القرون الأوائل

فإن لم تجد من دون عدنان باقيا ودون مَعَدٍ فلتزعك العواذل

وهذان البيتان من قصيدة يرثي بها النعمان بن المنذر ملك الحيرة وأولها:

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل

وفيها يقول:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعم لا تحالة زائل

وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهة تصفر منها الأنامل

وقوله: فإن أنت لم تصدقك ... أليبت يقول: إن لم تصدقك نفسك عن

هذه الأخبار، بل كذبتك، فانتسب: أي قل: أين فلان بن فلان، فإنك

لا ترى أحدا بقي، وملك تهديك القرون وترشدك، وقوله: فإن لم تجد... أليبت

فزعك : تكفئك ، والعواذل هنا : حوادثُ الدهر وزواجره ، وقال
بعض الشراح : العواذل : النساء ، يقول : لم يبق لك أبٌ حتى إلى عدنان
فكُتَّ عن الطمع في الحياة ، ومعنى البيتين : إن غايةَ كلِّ حتى الموت ، فينبغي
للإنسان أن يتعظ : بأن ينسب نفسه إلى عدنان ، فإن لم يجد من بينه وبينه
من الآباء باقياً فليعلم أنه يصير إلى مصيرهم ، فينبغي له أن ينزع عما هو عليه «
ومثله قولُ امرئ القيس :

فبعضُ اللّومِ عاذلتني فإني سيبكفيني التجاربُ وانتسابي
إلى عرقِ الثمريِّ وشجتي عروقي وهذا الموت يسلبني شبابي
« وشجتي : اشتبكت ، وقال أبو تمام في قصيدة له يمدح مالك بن طويق
ويعزیه عن أخيه القاسم :

تأمل رويداً هل تعدن سالماً إلى آدم أم هل تعدن ابن سالم
متى تُرغ هذا الموت عيناً بصيرةً تجد عادلاً منه شبيهاً بظالم
« قوله : متى تُرغ أبيت يقول : متى أنعمت النظر وأفكرت في أمر الموت
وجدت منه عادلاً أشبه بظالم ، وذلك أنه قد يخترم من يكون احترامه أصلح
له لدى العزيز الحكيم الذي يعلم مصالح خلقه وقد يخفق عليك وجه الحكمة
فتظن العدل جوراً ،
وقال البحتريُّ

وما أهل المنازل غير ركب منايام روائح وإبتكار
لنا في الدهر آمال طوال تُرجها وأعمار قصار
والبيت الثاني مثله قول ابن هانئ الأندلسي من أبيات يرثي بها والده
يحيى وجعفر ابني علي صاحب المسيلة بالمغرب ، وهذه هي الأبيات :

صَدَقَ الْفَنَاءُ وَكَذَّبَ الْعُمُرُ وَجَلَّ الْعِظَاتِ وَبَالَغَ النَّذْرُ
 إِنَّا ، وَفِي آمَالِ أَنْفُسِنَا طُولٌ وَفِي أَعْمَارِنَا قِصْرُ
 لَنَرَى بِأَعْيُنِنَا مَصَارِعَنَا لَوْ كَانَتِ الْأَلْبَابُ تَعْتَبِرُ
 مِمَّا دَهَانَا أَنْ حَاضِرَنَا أَجْفَانُنَا ، وَالغَائِبُ الْفَكْرُ
 وَإِذَا تَدَبَّرْنَا جَوَارِحِنَا فَأَكْثَرُ الْعَيْنِ وَالنَّظَرُ
 لَوْ كَانِ لِلْأَلْبَابِ مُتَمَحِّنٌ مَا عَدَّ مِنْهَا السَّمْعُ وَالْبَصْرُ (١)
 أَى الْحَيَاةِ الَّتِي عَيْشَتَهَا مِنْ بَعْدِ عَلِيٍّ أَنِّي بَشْرُ
 خَرِيسَتِ لَعَمْرُ اللَّهِ أَلْسُنَا لَمَّا تَكَلَّمَ فَوْقَنَا الْقَدَرُ

الاعتبار بمن مات من الكبار

قال عدي بن زيد العبادي :

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعَيَّرُ بِالذَّهْرِ رَأَيْتِ الْمُسَبَّرَ الْمَوْفُورُ (٢)
 أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَائِقُ مِنَ الْأَيَّامِ بِمِ بَلْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَقْرُورُ
 مَنْ رَأَيْتِ الْمَنُونِ خَلْدُنَ أُمِّ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ (٣)
 ابْنَ كِسْرَى كِسْرَى الْمَلُوكِ أَنْوَشْرُ وَإِنْ أُمُّ ابْنِ قَبْلَهُ سَابُورُ (٤)
 وَبَنُو الْأَضْفَرِ الْكِرَامِ مَلُوكِ الرُّومِ بِمِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكُورُ

(١) أي ما عد من המתحكات : السمع والبصر ، لأن السمع يسمع المواظ فلا يتعظ والبصر يبصر العبر فلا ينزجر

(٢) الموفور : يريد الذي لم تصبه نوائب الدهر

(٣) المنون : المنية أو الدهر كما تقدم

(٤) هناك سابور الجنود وهو ابن أردشير، وسابور ذو الاكتاف وهو سابور

ابن هرمز وكلاهما من ملوك العجم قبل كسرى أنوشروان

وأخو الحضِرِ إذْ بناه وإذْ دَجَّ . لهُ مُتَجَبِّ إِلَيْهِ وَالخَابُورُ (١)
شَادَهُ مَرَمَرًا وَجَلَّاهُ كِأَنَّ سَاءَ فَلَاطِيرٍ فِي ذُرَاهُ وَكُورُ (٢)
لَمْ يَهْبَهُ رَبُّ الْمَذُونِ فَبَادَ الـ مُلْكُ عَنْهُ فَبَابُهُ مَهْجُورُ
وَتَذَكَّرَ رَبَّ الْخُورَتِ إِذْ أَصْدَحَ بِحَ بَوْمَا وَلِلْهَدَى تَفْكِيرُ (٣)
سَرَّهُ سَحَالُهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمْتَدُّ لَكَ وَالْبَحْرُ مُعْرِضًا وَالسَّدِيرُ (٤)
فَارَعَوَى قَلْبُهُ فَقَالَ : وَمَا غَبُّ طُهُ حَتَّى إِلَى الْمَمَاتِ . يَصِيرُ
ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالنَّعَةِ مَسَّةٍ وَارْتَهُمُ هُنَاكَ الْقُبُورُ
ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جَدَّ . فَأَلَوْتُ بِهِ الصَّبَا وَالِدَبُورُ (٥)

وبما كان يصح أن يذكر في هذا الباب مرثية الوزير الشاعر الأندلسي عبد المجيد ابن عبدون التي يرثي بها بني الأفطس - من ملوك الطوائف بالأندلس - وذكر فيها عدة من مشاهير الملوك والخلفاء والأكابر ممن أبادهم الدهر بحوادثه ونكباته، ووثب عليهم الزمن فما وجدوا جنة تفقيهم من وثباته، ودبت عليهم الأيام بصروفها، وسنةتهم

(١) الحضير : قصر كان بجبال تكريت بين دجلة والفرات ، وأخو الحضير كان صاحب تلك الناحية وسائر أرض الجزيرة : وله حديث طريف انظره في الأغاني ج ٢ في ترجمة عدى بن زيد طبع دار الكتب ، والخابور . اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة

(٢) الكلس : الصاروج أى النورة وأخلاطها تظلى بها المنازل وغيرها، وذراه : أعاليه ، والوكور : جمع وكر : العش

(٣) صاحب الخورتنق - وهو القصر الذى بناه ستمار - هو النعمان بن امرئ القيس عامل يزدجرد بن سابور على أرض العرب وله قصة انظرها في الأغاني وهو الذى ساح على وجهه فلم يعرف له خبر

(٤) معرض بمعنى متسع ومنه أعرض الثوب أى اتسع وعرض ، والسدير : نهر

(٥) ألوت به : ذهب به

العنينة بكأس حُتوفها ، ومطلعها :

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ التَّيْنِ بِالْأَثْرِ فَمَا الْبُكَاءُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَالصُّورِ
 بيدَ أَنَا لِطَوْلِهَا رَأَيْنَا أَنْ نَضْرِبَ عَنْ إِرَادِهَا هُنَا صَفْحًا ، وَتَرَاهَا فِي الْمَجْلَدِ
 الْخَامِسِ مِنْ نِهَآيَةِ الْأَرْبِ لِلتَّوْبِرِيِّ الَّذِي قَامَتْ بِطَبْعِهِ دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ ...
 وَقَدْ شَرَحَهَا ابْنُ بَدْرُونَ ، وَمِنْ أَيْبَاتِهَا :

فَلَا تُغَرِّزْكَ مِنْ دُنْيَاكَ تَوَمَّتْهَا فَمَا صِنَاعَةُ عَيْنَيْهَا سِوَى السَّهْرِ
 مَا لِلْيَالِي — أَقَالَ اللَّهُ عَشْرَتَنَا مِنْ اللَّيَالِي وَخَاتَمَتَهَا يَدُ الْغَيْرِ
 فِي كُلِّ حِينٍ لَهَا فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مَنَاجِرَاحٍ وَإِنْ زَاغَتْ عَنِ الْبَصْرِ
 تَسُرُّ بِالشَّيْءِ لَكِنَّ كَيْ تَغُرُّ بِهِ كَالْأَيْمِ^(١) نَارًا إِلَى الْجَانِي مِنَ الدَّمْرِ
 وَقَالَ الْمُنْبِي :

أَبْنِي أَيْنَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلِ أَبَدًا عُرَابُ الْبَسِينِ فِيهَا يَنْعِنُ
 تَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشِرِ جَمَعْتَهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا
 أَيْنَ الْأَكْاسِرَةُ الْجَبَّارَةُ الْأَثَلِي كَنَزُوا الْكُنُوزَ فَمَا بَقِيْنَ وَلَا بَقُوا
 مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفِضَاءُ بِجَيْشِهِ حَتَّى تَوَى فَوَحَاؤُهُ لَعْدُ ضَيْقِ
 حُرْسٍ إِذَا نُودُوا كَأَنْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْكَلَامَ لَهُمْ حَلَالٌ مُطْلَقُ
 وَالْمَوْتُ آتٍ وَالنَّفُوسُ نَفَائِسُ وَالْمُسْتَفْرُ بِمَا لَدَيْهِ الْأَحْقُ
 وَالْمَرْءُ يَأْمَلُ ، وَالْحَيَاةُ شَهِيَّةُ وَالشَّيْبُ أَوْقَرُ ، وَالشَّيْبَةُ أَنْزَقُ

« أَبْنِي أَيْنَا : يَا إِخْوَتَنَا ، يَا بَنِي آدَمَ ، وَأَرَادَ بِعُرَابِ الْبَسِينِ : دَاعِيَ الْمَوْتِ
 يَقُولُ : نَحْنُ نَازِلُونَ فِي مَنَازِلِ يَتَفَرَّقُ عَنْهَا أَهْلُهَا بِالْمَوْتِ ، فَقَوْلُهُ : تَبْكِي عَلَى

(١) الْأَيْمِ : الْأَفْعَى .

الدنيا... ألبت مثله قول جرير يرثى امرأته :

لَا يَلْبَثُ الْقَرْنَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا لَيْلٌ يَكُورُ عَلَيْهِمْ وَنَهَارٌ

وثوى - بالمثلثة : أقام في القبر؛ وبالمثناة : هلك، وهذا البيت من قول أشجع :

وَأَصْبَحَ فِي لَحْدٍ مِنَ الْأَرْضِ صَبِيحٌ وَكَانَتْ بِهِ حَيًّا أَضِيْقُ الصَّحاصِحَ

« الصحاصح جمع صحصح : وأصله ما استوى من الأرض وكان أجرد »

والمستغر : المغرور، يقول في هذا البيت : النفوس يأتي عليها الموت وإن

كانت عزيزة نفيسة لا يمنعه ذلك من أخذها، والأحق هو المغرور بالدنيا

وبما يجمعه فيها، أما العاقل فإنه لا يغير بما جمعه لعله أنه لا يبقى هو ولا ما جمعه،

وقوله : والمرء يأمل... ألبت يقول : المرء يرجو الحياة لطيبها لديه،

والشيب أكثر له وقاراً من الشباب، يعنى : أن المرء يكره الشيب ويحب

الشباب والشيب خير له، لأنه يُكسبه الحلم والأناة والوقار، والشباب شر

له، لأنه يحمله على الطيش والنزق والحُمق، وقال الشاعر :

رُبَّ قَوْمٍ عَبَرُوا مِنْ عَيْشِهِمْ فِي نَعِيمٍ وَسُرُورٍ وَغَدَقَ

سَكَتَ الدَّهْرُ زَمَانًا عَنْهُمْ ثُمَّ أَبْكَاهُمْ دَمًا حِينَ تَطَنَى

« الغدق المراد به الخصب والسعة، وقان مالك بن دينار :

أَنْبَتُ الْقُبُورِ فَنَادَيْتُهُنَّ أَيْنَ الْمَعْظَمِ وَالْمَحْتَقِرِ

وَأَيْنَ الْمُدِلِّ بِسُلْطَانِهِ وَأَيْنَ الْمُرَكِّي إِذَا مَا أَفْتَحَرُ

قال : فتوديت من بينها ولا أرى أحدا :

تَفَانُوا جَمِيعًا فَمَا تُخْبِرُ وَمَاتُوا جَمِيعًا وَمَاتَ الْخَبِرُ

تَرُوحُ وَتَغْدُو بَنَاتُ التَّرَى وَتَمَجُّو مَحَاسِنَ تِلْكَ الصُّورِ

فِي سَائِلِي عَنْ أَنَايِسٍ مَضَوْا أَمَّاكَ فَمَا تَرَى مُعْتَبِرًا

« بنات الثرى : الدود » ...

ونزل النعمان بن المنذر ومعه عدى بن زيد العبادى فى ظل شجرة عظيمة
ليلهوا ، فقال له عدى : أتدرى ما تقول هذه الشجرة ؟ قال : لا ،
قال : تقول :

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوَانَا يَمْزُجُونَ الْخَمْرَ بِالمَاءِ الزُّلَالِ

نَمَّ أَضْحَوْا عَصَفَ الدَّهْرِ بِهِمْ وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ

ونظرت امرأة إلى جعفر بن يحيى البرمكى وزير الرشيد ، وهو مصلوب
فقلت : لئن كنت فى الحياة غايةً فلقد صرت فى الممات آية ... ولحامات
الإسكندر المقدونى وقت عليه أرسطو الفيلسوف فقال : طالما كان هذا
الشخص واعظا بليغا ، وما رعظ بموعظة فى حياته أبلغ من عظته فى مماته ،
أخذ هذا المعنى أبو العتاهية فقال :

وكانت فى حياتك لى عظات وأنت اليوم أو عظ منك حيا

من مات فقد تنأهى فى البعد

قال النابغة الذبياني :

حَسْبُ الخَالِيَيْنِ نَأَى الأَرْضِ بَيْنَهُمَا هَذَا عَلَيْهَا وَهَذَا تَحْتَهَا بِالِ

وقال أبو حية النميرى :

فلا غائب من كان يُرجى إياهُ ولكنه من ضمن اللحد غائب

غفلة الناس عن الموت

قال أبو العتاهية :

الناسُ في غَفَلَاتِهِمْ وَرَحَى الْمُنِيَّةِ تَطْحَنُ

وقال الحسن البصرى : مارأيتُ يَقيِنَا لاشكَّ فيه أشبهَ بشكِّ لا يقين فيه
 مثلَ الموتِ « وقد تقدم ، وقال عمرُ بنُ عبد العزيز في خطبة له : ما هذا
 التغافلُ عما أمرتُم به ، والتسرعُ إلى ما نهيتُم عنه ، إن كنتم على يقين فأنتم
 حَقِّي ، وإن كنتم على شكِّ فأنتم هَلَكِي ...

وقال شاعر :

وَنَامِلٌ مِنْ وَعْدِ الْمُنَى غَيْرَ صَادِقٍ وَنَأْمَنُ مِنْ وَعْدِ الْمُنَى غَيْرَ كَاذِبٍ

نُرَاعُ إِذَا مَا شَيْكَ إِخْصُ بَعْضِنَا وَأَقْدَامُنَا مَا بَيْنَ شَوْكِ الْعَقَارِبِ

« الْمُنَى : جَمْعُ الْمُنْيَةِ وَهُوَ مَا يَتَمَنَّاهُ الْمَرْءُ ، وَالْمُنَى : الْمَوْتُ ، وَأَصْلُهُ الْقَدْرُ
 تَقُولُ : مَنَى اللَّهُ لَكَ مَا يَسُرُّكَ : أَي قَدَرَ اللَّهُ لَكَ مَا يَسُرُّكَ . وَيُسَمَّى الْمَوْتُ بِالْمُنَى
 لِأَنَّهُ قَدْرٌ عَلَيْنَا ، وَقِيلَ : مَن لَمْ يَرْتَدِعْ بِالْمَوْتِ وَبِالْقُرْآنِ ثُمَّ تَنَاطَحَتِ الْجِبَالُ
 بَيْنَ يَدَيْهِ لَمْ يَرْتَدِعْ .

لا ينجو من الموت أحد

قيل : من لم يمتَّ عاجلاً ماتَ آجلاً ؛ وقال أُمَيَّةُ بنُ أَبِي الصَّلْتِ :

مَنْ لَمْ يَمُتْ عَبْطَةً يَمُتْ هَرَمًا لِلْمَوْتِ كَأَسِّ وَالْمَرْءِ ذَائِقُهَا

مَالِدَةُ النَّفْسِ فِي الْحَيَاةِ وَإِنْ عَاشَتْ قَلِيلًا فَالْمَوْتُ لِأَحْقُهَا

يَقُودُهَا قَائِدٌ إِلَيْهِ وَيَحْدُوها حَيْثُأُ إِلَيْهِ سَائِقُهَا

« يقال : مات فلانٌ عَبَطَةً : أى شاباً، وقيل : شاباً صحيحاً، وأصل العبيط من اللحم : ما كان سليماً من الآفات ويقال : عَبَطَ الشاة والناتة وكلّ دابةً : نَحَرَهَا أو ذَبَحَهَا من غير داءٍ وهى فِتْيَةٌ ،

وقيل لابن المقفع : قد كنت نُعِيتَ لنا ا فقال : ما بعدَ كائن ولا قُربَ بآن ... وقال ابن المعتز :

ألا إنما جِسمي لِروحِي مَطِيئَةٌ ولا بُدَّ يوماً أن يُعَرِّى مِنَ الرَّحْلِ
« الرحل : المنزل، والسرج يوضع على ظهر الذابة، وعُرِّى منه نُزِعَ عنه وهذا على المثل ، وقال محمود الوراق :

وما صاحبُ السَّبْعينَ والعشْرِ بعدها بأقربَ مَن حَنَكْتُهُ القوايلُ
ولكنَّ آمالاً بومأها الفَتَى وفيهِنَّ للراجِينَ حَقٌّ وباطِلُ
« القوايل جمع قابلة : المرأة تلتقي الولد لدى الولادة «المولدة» ، وحَنَكْتُهُ فالتحنيك : أن تمضغَ التمرَ ثمَّ تَدُلُّكَه بِحَمَلِكِ الصَّبِيّ داخِلَ فيه ، ...
وقال المتنبى :

وأوفى حَيَاةِ الغايرينَ لصاحبِ حَيَاةِ امرئٍ خاتمتُهُ بعدَ مَشِيبِ
« يريد المتنبى : أن الحَيَاةَ وإن طالت فهي إلى انقضاء ، يقول : أوفى عُمرٍ أن يبقى حتى المشيب ثم يخونهُ عُمرُهُ بعد ذلك ، وتصارهُ الموت ، أو تقول : إذا عاش المرءُ إلى بلوغِ المشيبِ ثم خاتمت حَيَاتِهِ يومئذٍ فقد تناهت في الوفاء ،
ومرَّ شيخٌ من العربِ بِنِغْلَامٍ فقال له الغلام : أَحَصَدْتَ يا عمّاه ، فقال : يا بُنِي ،
وَبُخْتَضِرُونَ ، أَحَصَدْتَ : آن لك أن تُحَصَّدَ ، وتُخْتَضِرُونَ : تموتون خُضْرًا في شبابكم ،

الموت لا يتحرز منه بشيء ولو كان الطَّبَّ

قال المتنبي :

يموتُ راعي الضأنِ في جَهْلِهِ مَوْتَهُ جالينوس في طَبِّهِ
ورُبَّمَا زَادَ على عُمُرِهِ وزاد في الأَمْنِ على سِرِّهِ (١)

وقبل هذين البيتين :

لا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ ضَجْعَةٍ لا تَقْلِبُ المُضْجَعِ عن جَنْبِهِ (٢)
يَنْتَسِي بها ما كان مِنْ عَجْبِهِ وما أذاقَ المَوْتَ مِنْ كَرْبِهِ (٣)
نَحْنُ بنو المَوْتِ فما بَأْنا نَعافُ ما لا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ (٤)
تَبْخَلُ أَيْدِينا بأرواِجِنا على زَمانٍ هيَ من كَسْبِهِ (٥)
فهذِهِ الأرواحُ مِنْ جَوْهٍ وهذِهِ الأَجسامُ مِنْ تُرْبِهِ (٦)

- (١) السرب : النفس (٢) لا بدَّ للإنسان من اضطجاع في القبر يبق بتلك الضجعة لا يقبله ذلك الاضطجاع إلى يوم البعث .
- (٣) إذ انزل القبر نسي الإعجاب وما ذاق من شدة الموت ، وهكذا الميت .
- (٤) نحن بنو الأموات والموت كأس مدارة علينا ولا بد لنا من شربها فما بالنا نكرها ! فكما مات أبائنا فنحن على آثارهم . كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض أصحابه يعزیه في أبيه : أما بعد ، فما أمان من أهل الآخرة سكننا في الدنيا ، أموات ، آباء أموات ، أبناء أموات ، فالعجب لميت يكتب إلى ميت يعزیه عن ميت ...
- (٥) تبخل أيدينا بأرواحنا وتمسك بها بخلاها على الزمان والأرواح مما أكسبه الزمان ! قال حكيم : إذا كان تناشؤ الأرواح من كرور الأيام فما لنا نعاف رجوعها إلى أمواتنا !
- (٦) الإنسان مركب : من جوهر لطيف وجوهر كثيف ، فالأرواح من الجوف والهواء ، والأجسام من التراب ، وكل عنصر عائد إلى عنصره

لَوْ فَكَّرَ الْعَاشِقُ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الَّذِي يَسْلِيهِ لَمْ يَسْبِهِ (١)
 لَمْ يُرَ قَرْنُ الشَّمْسِ فِي شَرْقِهِ فَشَسَّكَتِ الْأَنْفُسُ فِي غَرْبِهِ (٢)
 إلى أن قال بعد البيتين المذكورين آنفاً :

وِغَايَةُ الْمُفْرِطِ فِي سِئَلِهِ كِغَايَةُ الْمُفْرِطِ فِي حَرْبِهِ (٣)
 فَلَا قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ فَوَادُهُ يَخْفِقُ مِنْ رُغْبِهِ (٤)
 وقيل للربيع بن حُثَيْمٍ فِي مَرَضِهِ : أَلَا نَدْعُو لَكَ طَيِّبًا ؟ قَالَ : أَنْظِرُونِي ،
 ثُمَّ فَكَّرَ فَقَالَ : وَعَادًا وَنَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ، لَقَدْ
 كَانَ فِيهِمْ أَطِبَاءٌ ، فَمَا أَرَى الْمُدَاوِيَّ بَقِيَ وَلَا الْمُدَاوِيَّ صَلُحَ
 ودخل الفَرَزْدَقُ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ فَسَمِعَهُ يَطْلُبُ طَيِّبًا فَقَالَ :
 يَا طَالِبَ الطَّبِّ مِنْ دَاءٍ نَخْوَنَهُ إِنَّ الطَّيِّبَ الَّذِي أَهْلَكَ بِالْءَاءِ
 هُوَ الطَّيِّبُ الَّذِي يُرْجَى لِعَاقِبَتِهِ لِأَمِنْ يَدُوفُ لَكَ التَّرْيَاقُ بِالمَاءِ
 « الَّذِي أَبَى المَرِيضُ بِالْءَاءِ وَالَّذِي يَرْجَى لِعَاقِبَتِهِ : هُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ .
 وَيَدُوفُ : يَخْلُطُ . وَنَخْوَنَهُ : نَحَّرَ حَالَهُ إِلَى أَسْوَأِهَا ، وَيُرْوَى : نَخْوَنَهُ وَالتَّرْيَاقُ :
 الدَّوَاءُ هُنَا ، وَأَهْلَاهُ : صَنَعَ بِهِ مَا يَمْتَحِنُ بِهِ وَيَخْتَبِرُ

(١) العاشق للشئ المستهام به لو أفكر في منتهى حسن المعشوق وأنه يصير إلى
 زوال لم يعشقه ولم يملك عشقه إياه عليه أمره . وهذا يطرد في كل شئ .
 (٢) لا بد من الفناء فالشمس من رآها طالعة علم أنها غاربة لاحتمالها ، كذلك كل شئ .
 مصيره إلى الزوال .

(٣) إن الذي أفرط وجاوز الحد في السلم كالذي أفرط وجاوز الحد في الحرب ،
 الكل إلى فناء وإذن لا عذر لمن يجزع قال حكيم : آخر إفراط التوق أول موارد
 الخوف (٤) من خاف الموت لأدرك حاجته ، يدعو المتنبئ على الجبان - لأنه
 إذا كان الهلاك متيقناً فلم يخاف الإنسان من الموت ويجزع فرعاً منه ا

وقال ابن الرومي :

غَلِطَ الطَّيِّبُ عَلَى غَلْطَةٍ وُورِدِ عَجَزَتْ مَوَارِدُهُ عَنِ الإِصْدَارِ
وَالنَّاسُ يَلْحَوْنَ الطَّيِّبَ وَإِنَّمَا غَلِطُ الطَّيِّبِ إِصَابَةُ المِقْدَارِ (١)

وقال أبو ذؤيب الهذلي :

وَإِذَا المَنِيَّةُ أَثْبَتَتْ أَظْفَارَهَا أَلْقَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
وقال علي بن الجهم :

كَمْ مِنْ عَلِيلٍ قَدْ تَخَطَّاهُ الرَّدَى فَتَجَا وَمَاتَ طَيِّبُهُ وَالعُودُ

وقد أخذ هذا من قول عدى بن زيد :

أَيْنَ أَهْلُ الدِّيَارِ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ كَمْ عَادٌ مِنْ بَعْدِهِمْ وَتَمُودُ
يَبِينَمَا هُمْ عَلَى الأَسِيرَةِ وَالآنُ مَا طِ أَفْضَتْ إِلَى الشَّرَابِ الحُدُودُ
ثُمَّ لَمْ يَنْقُضِ الحَدِيثُ وَلكِنْ بَعْدَ ذَا الوَعْدِ كُكَلُهُ وَالعَوِيدُ
وَأَطْبَاءُ بَعْدَهُمْ لِحَقْوِهِمْ ضَلَّ عَنْهُمْ سَعُوطُهُمْ وَالأَلْدُودُ
وَصَحِيحٌ أَضْحَى يَعُودُ مَرِيضًا وَهُوَ أَدْنَى لِلْمَوْتِ يَمِّنَ يَعُودُ

« السعوط : الدواء الذي يُؤخذ من الأنف ، واللدود : ما يؤخذ من
الدواء بالمسقط ويصَّبُ في أحدِ شَقِي الفم » . وَيُرَوَى : أَنَّ عبدَ المَلِكِ بنَ مَرْوَانَ
كَرَبَ مِنَ الطَّاعُونَ ، فَرَكِبَ لَيْلًا وَأَخْرَجَ غَلَامًا مَعَهُ ؛ وَكَانَ يَنَامُ عَلَى دَابَّتِهِ ،
فَقَالَ لِلْغَلَامِ : حَدِّثْنِي ، فَاقْلُ وَمَنْ أَنَا حَتَّى أُحَدِّثَكَ ! فَقَالَ : عَلَى كُلِّ حَالٍ حَدِّثْ
حَدِيثًا سَمِعْتَهُ ، فَقَالَ : بَلْغَنِي : أَنَّ ثَمَلِيًّا يَخْدُمُ أَمَدًا لِيَحْمِيَهُ وَيَمْنَعُهُ يَمِّنَ يُرِيدُهُ
فَكَانَ يَحْمِيهِ ، فَرَأَى الثَّعْلَبَ عُقَابًا ، فَجَاءَ إِلَى الأَسَدِ ، فَأَقْعَدَهُ عَلَى ظَهْرِهِ ، فَانْقَضَ
العُقَابُ وَاخْتَلَسَهُ ، فَصَاحَ الثَّعْلَبُ : يَا أَبَا الحَارِثِ ، أَغَشِنِي وَاذْكُرْ عَهْدَكَ لِي

(١) يلحون : يلومون ، والمقدار : القدر

فقال الأسد: إنما أقدر على منعمك من أهل الأرض، وأما أهل السماء فلا سبيل لي إليهم، فقال عبدُ الملك: وَعَظَّتْني وَأَحْسَنْتِ، انصرف ورضى بالقضاء...

ولمناسبة الحرب من الطاعون نورد هنا ما أوردنا نظيره في قولنا على التوكل، وهو أن عمر بن الخطاب رضوان الله عليه لما بلغه أن الطاعون وقع بالشام فانصرف بالناس: قال له أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة انعم تقرب من قدر الله إلى قدر الله؛ أريت لو أن لك إبلا هبّطت بها وادياً له جهتان إحداهما خصية والآخرى جدية، أليس لو رعيت في الخصية رعيتها بقدر الله، ولو رعيت الجدية رعيتها بقدر الله؟ وكان عبد الرحمن بن عوف غائباً فأقبل، فقال: عندي في هذا علم سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إذا سمعتم به - بالطاعون - في أرض فلا تقدموا عليها، وإذا وقع في أرض وأتم بها فلا تخرجوا فراراً منه، فحمد الله عمر ثم انصرف بالناس...

وقال المتنبي:

نُعِدُّ المَشْرِفِيَّةَ والعَوَالِي وَتَقْتُلُنَا المَنُونُ بِلا قِتَالِ
وَنَرْتَبِطُ السَّوَابِقِ مُقَرَّبَاتٍ وَمَا يُنْجِينُ مِنَ حَبِّ اللَّيَالِ
وَمَنْ لَمْ يَعْشِقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا؟ وَلَكِنْ لاسَبِيلَ إِلَى الوَصَالِ

المشرفية: السيوف -، والعوالي: الرماح، والمنون: الملوت، والسوابق جمع سابق وسابقة، والمقربات من الخيل هي الكرام التي ترتبط لسكراتها على أصحابها أو لقرط الحاجة إليها والخبب: عدو ولا يستفرغ الجهد؛ يقول المتنبي: نحن نُعِدُّ السُّيُوفَ والرِّمَاحَ لِمَنَازِلَةِ الأَعْدَاءِ وَمُدَافَعَةِ الأَقْرَانِ: والملوت يخترم نفوسنا

دُونَ قِتَالٍ أَوْ نِزَالٍ ، لَا يُمَكِّنُنَا حِذَارُهُ وَلَا يَتِيمًا لَنَا دِفَاعُهُ ، ثُمَّ قَالَ فِي الْبَيْتِ
الثَّانِي : وَنَرْتَبُطُ الْحَيُولَ الْكَرِيمَةَ وَمَعَ هَذَا لَا تُنَجِّينَا مِنْ طَلَبِ الدَّهْرِ لِإِيَانَا
وَتَحَبَّبَ لِيَالِيهِ فِي آثَارِنَا :

كَأَنَّا فِي حُرُوبٍ مِنْ حَوَادِثِهِ فَتَنَحْنُ مِنْ بَيْنِ تَجْرُوحٍ وَمَطْعُونٍ
وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى الْبَيْتِ الثَّلَاثِ .

موت الفجاءة والصحيح يموت

قِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : مَاتَ فُلَانٌ أَصَحَّ مَا كَانَ ! فَقَالَ : أَوْ صَحِيحٌ مَنِ الْمَوْتُ
فِي عُنُقِهِ ! وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ : اللَّهُمَّ أَجْرُنِي مِنْ أَنْ أَكُونَ
مُخْتَلِسًا « أَيْ يَخْتَلِسُهُ الْمَوْتُ عَلَى غَفْلَةٍ » ، وَفِي الْحَدِيثِ : بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ مَرَضًا
حَابِسًا أَوْ مَوْتًا خَالِسًا ، وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : كَيْفَ مَاتَ أَبُوكَ ؟ قَالَ : مَاتَ سِرًّا
« أَيْ جَفَاءً » ، وَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَرُبَّمَا عَوْفَصَ ذُو غِرَّةٍ أَصَحَّ مَا كَانَ وَلَمْ يَسْلَمْ
« يَقَالُ : غَافِصَ الرَّجُلَ مُغَافِصَةً وَغِفَافًا . أَخَذَهُ عَلَى غِرَّةٍ فَرَكِبَهُ بِمَسَاءَةٍ »
وَقِيلَ لِرَجُلٍ : مَا كَانَ سَبَبُ مَوْتِ فُلَانٍ ؟ قَالَ : كَوْنُهُ « أَيْ وَجُودُهُ » ، وَالْبَيْتُ
الْمَشْهُورُ فِي هَذَا :

مَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسِّيفِ مَاتَ بَغَيْرِهِ . تَنَوَّعَتْ الْأَسْبَابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدٌ

كل إنسان معرض لموته أو موت أحبته

قَالَ حَكِيمٌ : مَنْ طَالَ عُمُرُهُ رَأَى الْمَصَائِبَ فِي إِخْوَانِهِ وَجِيرَانِهِ ، وَمَنْ قَصُرَ
عُمُرُهُ كَانَتْ مَصِيبَتُهُ فِي نَفْسِهِ ؛ وَقَالَ الشَّاعِرُ :

فَمَوْجَلٌ يَلْقَى الرَّدَى فِي أَهْلِهِ وَمُعْجَلٌ يَلْقَى الرَّدَى فِي نَفْسِهِ
وقال يزيد بن الحكم الثقفى :

كُلُّ امْرِئٍ مَسْتَنِيمٌ مِثْنَهُ الْعَرْسُ أَوْ مِنْهَا يَتِيمٌ
« العرس : الزوجة ، وآمت المرأة من زوجها تتيمٌ وتأيمت مات عنها
زوجه أو قُبل وأقامت لا تزوج ، وكذلك الرجل »

جهل الإنسان بوقت موته

قال الله جل شأنه : وما تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي
نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ... وقيل لجعفر بن محمد بن علي رضي الله عنهم :
كيف يأتي الموت من وجهٍ شتى ، على أحوالٍ شتى ؟ فقال : إن الله أراد أن
لا يُؤْمَنَ في حالٍ ... وقالوا : أمرٌ لا تَدْرِي متى يغشاك ألا تستعيد له قبل
أن يفجأك ا وقال ديك الجن ^(١)

والناس قد عَمِلُوا أن لا بقاء لهم لو أنهم عَمِلُوا بِمِقْدَارِ مَا عَمِلُوا

الموت يسوي بين الأفاضل والأراذل

قال المتنبي في رثائه أبا شجاع فاتكا :

(١) هو أبو محمد عبد السلام بن رغبان الملقب بديك الجن من شعراء الدولة
العباسية ولد سنة ١٦١ هـ وتوفي سنة ٢٣٦ هـ ومن قوله في الخمر وقد أعجب به
أبو نواس :

ظَلَلْنَا بِأَيْدِينَا نُتَبِّعُ رُوحَهَا فَتَأْخُذُ مِنِ أَقْدَامِنَا الرَّاحُ ثَارَهَا
مُورِدَةٌ مِن كَفِّ ظَبْيٍ كَأَنَّمَا تَنَاوَلَهَا مِنْ حَدِّهِ فَأَادَارَهَا

وَصَلَتْ إِلَيْكَ يَدٌ سَرَاءٌ عِنْدَهَا أَلْبَازُ الْأَشْهَبِ وَالغُرَابُ الْأَبْقَعُ
 «البازُ الأشهبُ: الذي غَلَبَ عليه البياضُ، والأبقعُ: الذي في صدره
 بياضٌ يقول المتنبي: وصلت إليك يدٌ - يريد المنية - الشريف والوضيع لذيها
 سواء، فعُلها مع الباز الأشهب مع كرمه كفعالها بالغرَاب الأبقع مع قُبجه
 ودَمامته، وهذا على المثل» ... وَيُرْوَى أَنَّ الْإِسْكََنْدَرَ الْمُقَدُونِيَّ مَرَّ بِمَدِينَةٍ
 قَدْ مَلَكَهَا غَيْرُهُ مِنَ الْمُلُوكِ؛ فَقَالَ: انظروا هل يَقِي بها أَحَدٌ مِنْ تَسْلِ
 مَلُوكِهَا؟ فَقَالُوا: رَجُلٌ يَسْكُنُ الْمَقَابِرَ، فَأَحْضَرَهُ وَسَأَلَهُ عَنْ إِقَامَتِهِ هَذِهِ؛
 فَقَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أُمَيِّزَ عِظَامَ الْمُلُوكِ مِنْ عِظَامِ عِبِيدِهِمْ فَرَجَدَتْهَا سِوَاءٌ،
 فَقَالَ: هَلْ تَدْبِغُنِي فَأُحْيِي لَكَ شَرَفَكَ إِنْ كَانَ لَكَ هِمَّةٌ؟ فَقَالَ: هِمَّتِي عَظِيمَةٌ
 إِنْ أَتَانِيهَا، فَقَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَ: حَيَاةٌ لَا مَوْتَ مَعَهَا، وَشَبَابٌ لَا هَرَمَ مَعَهُ،
 وَغِنَىٌ لَا فَقْرَ مَعَهُ، وَسُرُورٌ لَا مَكْرُوهَ فِيهِ، فَقَالَ: لَيْسَ عِنْدِي هَذَا، فَقَالَ:
 دَعْنِي أَلْتَمِسَهُ مَنَّهُ هُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ حَكِيمًا؛ ... وَقَالَ مَالِكُ بْنُ
 دِينَارٍ: قَدِمَ عَلَيْنَا بِشْرُ بْنُ مِرْوَانَ أَخُو الْخَافِقَةِ - عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مِرْوَانَ -
 فَطَعَنَ - أَصَابَهُ الطَّاعُونَ - فَمَاتَ فَأُخْرِجْنَاهُ إِلَى الْقَبْرِ، فَلَمَّا صِرْنَا إِلَى الْجَبَّانِ
 - الْجَبَّانَةِ - إِذَا نَحْنُ بِسُودَانَ يَحْمِلُونَ صَاحِبًا لَهُمْ إِلَى الْقَبْرِ، فَدَفَنَاهُ وَدَفَنُوا
 صَاحِبَهُمْ، فَعُدْتُ قَبْلَ الْأَسْبُوعِ فَلَمْ أَعْرِفْ قَبْرَ الْأَسْوَدِ مِنْ قَبْرِهِ؛ وَفِي هَذَا
 يَقُولُ الشَّاعِرُ:

ولقد مررتُ على القبورِ فما ميزتُ بين العَبْدِ وَالْمَوْلَى

وقال صالح بن عبد القدوس:

فيامنزلًا سَوَى الْبَيْتِ بَيْنَ أَهْلِهِ فَلَمْ يَسْتَبِينَ فِيهِ الْمُلُوكَ مِنَ السُّوقِ

انقضاء ناس بعد ناس

ورجوعهم إلى الموت

قال عليّ كرم الله وجهه : إنَّ لله في كلِّ يومٍ ثلاثَ عساكرَ : عسكرٌ ينزلُ من الأضلاب إلى الأرحامِ ، وعسكرٌ ينزلُ من الأرحامِ إلى الأرضِ ، وعسكرٌ ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة ؛ ^(١) وقال الشاعرُ :

وما نحنُ إلا رُققةٌ غيرَ أننا أقمنا قليلاً بعدمَ ونزوحُ

وقال آخرُ :

إذا زُرْتُ أرضاً بعد طولِ اجتنابِها فقَدْتُ صديقاً والبلادُ كما هيّا

وقال : * أرى الأرضَ تَبقى والأجلاءُ تَذهبُ *
وقيلَ للبهلولِ ^(٢) - وقد أقبلَ من الجَبانِ - : من أينَ ؟ فقال :

من عسكرِ الموتى ، فقيلَ ما قلتَ وما قالوا ؟ فقال : سألتهم : متى يرحلون ؟ فقالوا : نلتظرُ قدومكم ثم نرحل ... ورووا : أن راهبَيْنِ دخلا البصرةَ من ناحيةِ الشام فنظرا إلى الحسينِ البصرى ، فقال أحدهما : مِلْ بنا إلى هذا الذى كانَ سَمتهُ سَمْتُ المسيحِ ، فعدلا إليه ، فألقياه مُفترشا يدقنه ظاهرَ كَفِّهِ وهو يقولُ : يا عجباً ^(٣) لقومٍ قد أمرُوا بالزادِ وأذِنوا بالرحيلِ ، وأقام

(١) العسكر : الجماعة من كلِّ شيءٍ يقال : عسكر من رجالٍ ومن خيلٍ

(٢) كان البهلول هذا مجنوناً مروراً وكان ظريفاً وكان يتشيع ، قال له قائل : أشتم فاطمة وأعطيتك درهماً فقال . بل أشتم عائشة وأعطيتني نصف درهماً ومز به بعضهم وهو يأكل خبيصاً ، فقال له : أطعنى ، فقال : ليس هو لى ، إنما هو لعائكة بنت الخليفة بعثته إلى لآكله لها ...

(٣) يا عجباً : لك أن تقرأ بالتوين وبدونه أما بدونه فإنه يريد : يا عجبى فقلب يا المتكلم

أولهم على آخرهم ، فليْتَ شِعْرى ماذا ينتظرون ! وفي رواية أخرى هذه
الزيادة بعد قوله : وأقام أولهم على آخرهم : وآخرهم قُعود يلعبون « قوله :
أمروا بالزاد يعنى زاد الآخرة ، وهو العمل الصالح ، وقوله : وأذنوا
بالرحيل : أذنوا : أعلوا ، والرحيل يريد به الموت ، وقوله : وأقام أولهم
على آخرهم : لعله يريد : أن أولهم يرضى فعل آخرهم فلم يُنكر عليه ، ولعله
يريد أن موت أولهم كان يجب أن يكون عبرة لآخرهم ، ومن المشهور في
هذا آيات قُس بن ساعدة الايادى :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائرُ
لما رأيتُ مَوارِدًا للوتِ ليس لها مَصادِرُ
ورأيتُ قومي نحوها يَمْضى الأصاغرُ والأكابرُ
لا يَرْجعُ الماضى إلى ولا من الباقين غايرُ
أيقنتُ أنى لاحما لة حيثُ صار القومُ صائرُ

« في الذاهبين : متعلق ببصائر في آخر البيت ، وبصائر : عبر ، والقرون جمع
قرن والقرن من الناس : أهل كل زمان ، قال :

إذا ذهبَ القَرْنُ الذى أنتَ فيهِمُ وخُلِّفتَ فى قَرْنٍ فأنتَ غريبُ
ولعله مأخوذ من الاقتران ، فكأنه المقدار الذى يقترن فيه أهل ذلك
الزمانِ فى أعمارهم وأحوالهم ، ومن هنا اختلفوا فى تحديد القرن من الزمان
فقيل : أربعون سنة ، وقيل : ثمانون ، وقيل مائة سنة ، والموارد جمع مورد وهو :

ألفاوأما بالتتوين فلك أن تجعل عجباً نادى منكراً ، ولك أن تجعل دياً ، حرف تنبيه وعجبا
مصدر منصوب بفعل محذوف أى تعجبوا عجباً وأن تجعل دياً ، حرف نداء والمنادى
محذوف أى يا قوم ، وعجبا كذلك ...

محلُّ الورد ، أى الاتيان ، والمصادر جمع مصدر ، وهو : موضع الصدور ،
أى الانصراف والرجوع ، وغابر اسم فاعل من غَبِرَ بمعنى : مكثَّ وبقي ،
وبمعنى : مضى أيضا ، فهو من الأضداد ،

من يخاف الموت ولا يستعد له وحثهم على تعاظم ما يهون أمر الموت

جاء رجلٌ إلى سيدنا رسول الله فقال : يا نبيَّ الله ، ما لي لأحِبُّ الموت ؟
فقال له : هل لك مالٌ ؟ قال : نعم ؛ قال : قدّمه بين يديك ؛ قال : لأطيقُ
ذلك ، فقال سيدنا رسول الله : إنّ المرءَ مع ماله إنْ قدّمه أحبَّ أنْ يلحقَ به
وإنْ أخره أحبَّ أنْ يتخلفَ معه ... وقال الحسن البصرىُّ لشيخه فى جنازة : (١)
أترى هذا الميت لورجع إلى الدنيا أكان يعمل صالحا ؟ قال : نعم ، قال :
إن لم يكن ذلك فكأن أنت ذلك ... وقال القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز
الجزائى :

إذا قلت لم يباغ بي السن مبلغا وعظمت يطفل صار قبلى إلى التراب
وقال على رضى الله عنه لرجل : كيف أنتم ؟ قال : نرجو ونخاف ، قال :
من رجّا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه ... وقال أبو الدرداء : العجبُ

(١) قال علماء اللغة : الجنازة بكسر الجيم : السرير محمولا عليه الميت : أما بفتح
الجيم فالميت قال أبو على الفارسى : لا يسمى جنازة - بالكسر - حتى يكون عليه ميت وإلا
فهو نعش أو سرير قال الليث : وقد جرى فى أفواه الناس جنازة بالفتح والتحارير
ينكرونها ، وقال بعضهم إن اللفظ نبطى وقال آخرون : إنه مشتق من جنز الشيء
يجنزه جنزا ستره وذكروا أن النوار امرأة الفرزدق لما احتضرت أوصت أن
يصلى عليها الحسن البصرى فقبل له فى ذلك فقال : إذا جنزتموها فأذنوني

لمن يَكْرَهُ الموت لِإِسَاءَتِهِ وَلَا يَكْرَهُ الْإِسَاءَةَ فِي حَيَاتِهِ ... وَقَالَ رَجُلٌ
لِأَبِي الدَّرْدَاءِ : مَا بَالُنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ ؟ قَالَ : لِأَنَّكُمْ أَخَّرْتُمْ آخِرَتَكُمْ وَعَمَّرْتُمْ
دُنْيَاكُمْ فَكِرِهْتُمْ أَنْ تُنْقَلُوا مِنَ الْعُمُرَانِ إِلَى الْخِرَابِ ... وَقَالَ أَبُو حَازِمٍ : كُلُّ
عَمَلٍ نَكْرَهُ الْمَوْتَ لِأَجْلِهِ فَدَعَهُ كَيْلًا تَخَافُ مِنْهُ مَتَى أَتَاكَ ...

من أمر ذويه بالبكاء عليه

رَوَى عَنْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ : إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبِكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ ... قَالَ
الْعُلَمَاءُ : أَرَادَ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ إِذَا وَصَّى الْمَيِّتُ بِذَلِكَ وَأَمَرَ بِهِ عَلَى نَحْوِ مَا كَانَ
يَفْعَلُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ ، كَقَوْلِ طَرْفَةَ بْنِ الْعَبْدِ :

إِذَا مِتَ فَانْعَيْنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَشُقِّي عَلَى الْجَيْبِ يَا ابْنَةَ مَعْبُودٍ^(١)

وقول الفرزدق :

إِذَا مِتَ فَانْعَيْنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ فَكُلُّ جَمِيلٍ قُلْتِ فِي مَصْدَقٍ

وقول ابن المعتز :

إِذَا مِتَ فَانْعَيْنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَلَا تَذْخِرِي دَمْعًا إِذَا قَامَ نَائِحٌ
وَقَوْلِي : تَوَى طَوْدُ الْمَكَارِمِ وَالْعُلَى وَعُطِّلَ مِيزَانٌ مِنَ الْحِلْمِ رَاجِحٌ

« تَوَى : هَلَكَ ، وَتَقَرَأَ : تَوَى وَالطَّوْدُ : الْجَبَلُ الْعَظِيمُ ، وَالْحِلْمُ : الْأُنَاةُ وَالْعَقْلُ ،
وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الْأَوَّلَى : أَنْ يُقَالَ فِي تَأْوِيلِ الْحَدِيثِ : يَسْمَعُ صَوْتَ الْبِكَاءِ
هُوَ نَفْسُ الْعَذَابِ ، كَمَا أَنَّ نَعْدَبُ الْإِطْفَالِ ، فَالْحَدِيثُ عَلَى ظَاهِرِهِ »

(١) من معلقة طرفة، ومعبود أخوه يوصى ابنة أخيه بأن تشيع خبره هلاكه إذا هو
مات - بالثناء الذي يستحقه وشق جيها عليه وبعد البيت :

وَلَا تَجْعَلِينِي كَأَمْرِي لَيْسَ هِمَّةٌ كَهَمِّي وَلَا يُغْنِي غِنَائِي وَمَشْهَدِي

د الهِم : الْهَمَّةُ وَالطَّمُوحُ إِلَى الْعِلْمِ ، وَالغِنَاءُ : الْكِفَايَةُ . وَالْمَشْهَدُ : الشُّهُودُ أَيْ مَلَابِسُ

من أظهر الندم عند الموت على ما فرط منه

لَمَّا احْتَضَرَ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ جَعَلَ يَدَهُ فِي وَضْعِ الْغُلِّ «القيد» مِنْ عُنُقِهِ ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنَا فَقَرَّطْنَا ، وَنَهَيْتَنَا فَرَكِينَا ، اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا يَسْعُنَا إِلَّا رَحْمَتُكَ ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ هَجِيرَاهُ حَتَّى قُبِضَ ... وَقِيلَ لِبَعْضِ الْمُلُوكِ حِينَ احْتَضَرَ : مَا حَالُكَ ؟ فَقَالَ : مَا حَالُ مَنْ يُرِيدُ سَقْرًا بَعِيدًا بِلا زَادٍ ، وَيَنْزِلُ حُفْرَةً مِنَ الْأَرْضِ مَوْحِشَةً بِلا مُؤْنِسٍ ، وَيَقْدَمُ عَلَى مَلِكٍ جَبَّارٍ قَدَّمَ إِلَيْهِ الْعُذْرَ بِلا حِجَّةٍ ، وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مُرْوَانَ عِنْدَ مَوْتِهِ : وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ غَسَّالًا أَكُلُ كُلَّ يَوْمٍ كَسْبَ يَوْمِي لَا يُفْضَلُ عَنِّي ... فَقِيلَ ذَلِكَ لِأَبِي حَازِمٍ فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا بِمِثِّهِ يَتَمَنَّى الْمُلُوكُ حَالَنَا عِنْدَ الْمَوْتِ وَلَا تَمَنَّى حَالَهُمْ ... وَلَمَّا أَذْنَفَ^(١) الْمَسَامُونَ بِنِ الرَّشِيدِ أَمْرًا أَنْ يُقَرَّشَ لَهُ جِلٌّ — بِسَاطٍ — لِجَعَلِ

يَتَمَرَّغُ فِيهِ وَيَقُولُ :

كُلُّ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ دَهْرًا صَائِرٌ مَرَّةً إِلَى أَنْ يَزُولَا
لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَأَ فِي رُؤْيِي الْجِبَالَ أَرَعَى الْوَعُولَا^(٢)
وَأُنْعِمِي عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ وَهُوَ يَقُولُ :

لَيْتَكُمَا لَيْتَكُمَا . هَا أَنَا ذَا لَدَيْكُمَا

اللَّهُمَّ لَا تَبْرِيءُ فَأَعْتَدِرْ وَلَا قَوِيٌّ فَأَتَصِرْ

ثُمَّ أُنْعِمِي عَلَيْهِ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ :

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدِكَ لَا أَلْمَا^(٣)

الحروب والوقائع (١) أذنف المريض : ثقل مرضه ودنا من الموت .

(٢) الشعر لامية بن أبي الصلت . والوعول : جمع وعل : تيس الجبل

(٣) لامية بن أبي الصلت كذلك وألم الرجل من اللعم وهو مادون الكبار من الذنوب قال سبحانه : الذين يجتنبون كبار الإثم والفواحش إلا اللعم وقيل : اللعم : أن يلم المرء بالمعصية ولم يصر عليها

وقال أبو جعفر المنصور عند موته : اللهم إن كنت تعلم أني قد ارتكبتُ
الأمورَ العظامَ جرأةً مني عليك ؛ فإنك تعلم أني قد أظعمتك في أحبِّ الأشياءِ
إليك : شهادةً أن لا إله إلا أنت ، منّا منك لا منّا عليك ... وكان سببُ إحرامه
من الحضراء أنه كان يوماً نائماً فأتاه آت في منامه فقال :

كَانِي بِهَذَا الْقَصْرِ قَدْ بَادَ أَهْلُهُ وَعُرِيَ مِنْهُ أَهْلُهُ وَمَنَازِلُهُ
وَصَارَ عَمِيدُ الْقَوْمِ مِنْ بَعْدِ نِعْمَةٍ إِلَى جِدَّتِ تُثْنِي عَلَيْهِ جَنَادِلُهُ
فَلَمْ يَبْسُقْ إِلَّا رَشْمَهُ وَحَدِيثُهُ تُبْكِي عَلَيْهِ مَعُولَاتِ حَلَالَتِهِ^(١)
فاستيقظ مرعوباً ثم نام فأتاه الآتي فقال :

أَبَا جَعْفَرٍ حَانَتْ وَقَاتِكَ وَانْقَضَتْ سِنُوكَ وَأَمْرُ اللَّهِ لَابِدٌ وَاقِعٌ
فَهَلْ كَاهِنٌ أَعْدَدْتَهُ أَوْ مُنَجِّمٌ أَبَا جَعْفَرٍ عَنْكَ الْمَنِيَّةُ دَافِعٌ
فقال : ياربيعُ اتنني بطهوري ، فقام وانغاسل وصلى ولبي وتجهز للحج ،
فلما صارَ في الثلثِ الأولِ اشتدَّتْ عاتهُ ، فجعل يقول : ياربيعُ ألقني في حرمِ
الله ، فمات بِسَيْثَرِ مِيمُونَ^(٢) ... وقالوا : أَلَقْنُ مِيَّتَكَ - أَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - فَإِذَا
قَالَهَا فَدَعَهُ يَتَكَلَّمُ بِغَيْرِهَا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَلَا تُضَجِّرْهُ .

من امتنع من التوبة عند موته

اعْتَلَّ أَعْرَابِيٌّ ، فَقِيلَ لَهُ : لَوْ تُبَّتَ ، فَقَالَ : لَسْتُ مِنْ يُدْطَى عَلَى الذَّلِّ ،

(١) تبكى - بالتشديد - مثل تبكى بالتخفيف ، وحالاته : زوجاته ، ومعولات : رافعات
أصواتهن بالبكاء .

(٢) ستر ميمون : بمكة منسوب إلى ميمون بن خالد بن عامر الحضرمي .

إن عافاني الله تُبِتْ وإلا ميت هكذا ... وقيل للحجاج : ألا تتوب ؟ فقال :
 إن كنتُ مسيئاً فليست هذه ساعة التَّوبَةِ ، وإن كنتُ مُحْسِناً فليست ساعة الفِرْع
 « الفِرْع : الاستغائة والاستصراخ ، ولعله يريد : أن وقت الموت ليس وقت
 الحساب والمجازاة وإنما ذلك يوم الفِرْع الأكبر - يوم البعث - ولعل المعنى :
 مادمت محسناً فليس ثمت داع للخوف »

من يحبون الموت

قال عبد الله بن مسعود : ما من نفسٍ حيَّةٍ إلا والموتُ خيرٌ لها ، إن كان
 برا فإن الله تعالى يقول : وما عند الله خيرٌ للأبرار ، وإن كان فاجراً فإن الله
 تعالى يقول : ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملى
 لهم ليزدادوا إثماً ، ولهم عذابٌ مُهينٌ ^(١) وحضرَ أحدُ الصالحين الموتُ ، ففرَّحَ
 فقيل له : تستبشرُ بالموتِ ؟ فقال : أتجعلون قدومي على خالق أرجوه كتماعى
 على مخلوقٍ أخافه ! وسئل حكيم عن الموتِ ، فقال : هو فِرْعُ الأغنياء وشهوةُ
 الفقراء ... وقال بعضهم : لا يكون الحكيم حكيماً حتى يعلم أن الحياة تسترُّهُ
 والموتُ يُعْتِقُهُ .. وقال المتنبي :

تغرُّ حلاواتُ النُّفوسِ قلوبنا فتختارُ بمضِّ العيشِ وهو حِمامٌ

« يقول المتنبي : حُبُّ الحياة يغرُّ القلب حتى يختار عيشاً فيه ذل :

(١) قرئ : ولا تحسبن على أنه خطاب للرسول عليه السلام وقرئ ولا يحسبن
 فالذين فاعل ومافى إنما نملى لهم مصدرية وكان حقها أن تفصل في الخط ولكنها وقعت
 متصلة في الإمام - المصحف العثماني - فاتبع ، والإملاء : الإمهال وإطالة العمر ؛ وقيل .
 تخليتهم وشأنهم من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء ، واللام
 في قوله سبحانه ليزدادوا إثماً لام الإرادة وعند المعتزلة لام العاقبة

وشرَّ الحامين الزَّوَامِينِ عَيْشَةً . يَذُلُّ الذي يَخْتَارُهَا وَيُضَامُ ،

وقال أيضا :

وما الدهرُ أهلٌ أنْ تُؤمَلَ عندهُ حياةٌ وأنْ يُشتاقَ فيه إلى البَسلِ

« وقد تقدم ، وفي هذه القصيدة يقول المتلبي :

نُبَسِّكِي مِوتَانَا عَلَى غَيْرِ رَغْبَةٍ تَقُوتُ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا مَوْهَبٍ جَزَلِ

إِذَا مَا تَأَمَّلْتَ الزَّمَانَ وَصَرَفَهُ تَبَيَّنْتَ أَنَّ الْمَوْتَ ضَرَبٌ مِنَ الْقَتْلِ

« يقول : نحن نبكى على موتانا ونحزن لهم ونأسف لفراقهم ونحن على يقين من أنهم لا يفوتهم من الدنيا ما يُرغَبُ في مثله ولا يمتعون منها بما يصح أن يتنافس في نيله ؛ ثم قال في البيت التالي : وأنت إذا ماتا مئمت وأنعمت النظر في تصاريف الدهر وخطوبه تبيننت أن الموت المحتوم على المرء كالذي يتوقعه من القتل وإذن لا داعي للجبن والذعر ولا موجب لحُب الحياة والتهافت عليها قال عنبرة :

فَأَجِبْتُهَا : إِنَّ الْمُنِيَّةَ مَنَهْلٌ لَا بُدَّ أَنْ أُسْقَى بِذَلِكَ الْمَنَهْلِ

فَأَقْنَى حَيَاءَكَ لِأَبَالِكَ وَأَعْلِي أَنِّي أَمْرٌ سَأَمُوتُ إِنْ لَمْ أُقْتَلِ

« فأقنى خباءك : فالزمية واحفظيه واتخذيه قنية ، وقال الإمام الجنيد :

مَنْ كَانَ حَيَاتِهِ بِنَفْسِهِ يَكُونُ تَمَاتِهِ بِذَهَابِ رُوحِهِ ، فَتَصْعَبُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ كَانَ حَيَاتِهِ بِرَبِّهِ فَإِنَّهُ يَنْتَقِلُ مِنْ حَيَاةِ الطَّبَعِ إِلَى حَيَاةِ الْأَصْلِ ، وَهِيَ الْحَيَاةُ الْحَقِيقِيَّةُ .

تمنى الموت

قال أعرابي : خيرٌ من الحياة ما إذا فقدته أبغضت لفقدته الحياة ، وشرُّ

من الموت ما إذا نزل بك أحببت لنزوله الموت ... وقال المتلبي :
 كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكن أمانياً
 تمنيتها ما تمتيت أن ترى صديقا فأعيا أو عدواً مُداجياً
 وقال المهلبى الوزير (١) :

ألا موتٌ يُباع فأشتره فهذا العيش مالا خيراً فيه
 ألا موتٌ لذيد الطعم يأتى يُخلصنى من العيش الكريه
 إذا أبصرتُ قبراً من بعيدٍ وددت لو آتني مما يليه
 ألا رحم المهيمين نفس حُرِّ تصدق بالوفاة على أخيه
 واعتل الشبلى ثم برأ ، فقال له بعض أصحابه كيف أنت : فقال :
 كما قلتُ : قد دنا حل قيدي قدموني وأوثقوا المساراً

الحياة لا تملى

قال حكيم : الحياة وإن طال لا تُتمل ، وإنما يتمل المرء تكاليف الحياة ،

(١) كان وزير معز الدولة البويهى ، وكان أديباً فاضلاً محباً لاهله وكان قبل اتصاله
 بمعز الدولة فى ضيق شديد وكان قد سافر مرة ولقى فى سفره مشقة عظيمة واشتهى
 اللحم فلم يقدر عليه فقال هذه الايات ارتجالاً ، وكان معه رفيق يسمى عبدالله الصوفى
 فلما سمع الايات اشترى له بدرهم لحماً وطبخه وأطعمه وضرب الدهر من ضرباته
 وافترقا حتى تولى المهلبى الوزارة وضاعت الاحوال برفيقه هذا فقصدته وكتب إليه :

ألا قل للوزير فدته نفسى مقالة مذكر ما قد نسيه
 أتذكر إذ تقول لضعفك عيش ألا موتٌ يُباع فأشتره

فلما وقف على ذلك هزته أربحية الكرم وأمر له فى الحال بسبعمئة درهم ووقع فى
 رقعة : مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل
 سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ، ثم دعا به فخلع عليه وقلده عملاً يرتفق به

ولهذا فُضِّلَ قولُ زُهَيرِ بنِ أبي سُلمَى :

سَيِّمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبْأَلِكَ يَسْأَمُ

على قول لييد :

ولقد سَيِّمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطَوَّلَهَا وَسُؤَالَ هَذَا النَّاسِ : كَيْفَ أَيْدُ

« تَكَالِيفِ الْحَيَاةِ : مَشَاقِقُهَا وَشِدَائِدُهَا ، أَمَا لِيَيْدٍ فَإِنَّهُ يَكَادُ يَكُونُ مَعْدُورًا إِذَا هُوَ مَلَّ الْحَيَاةَ نَفْسَهَا وَلَمْ لَا وَقَدْ حُمِّرَ حَتَّى يَبْلُغَ ثَلَاثِينَ وَمِائَةَ سَنَةٍ ؟ » وَقَالَ الْمُتَنَبِّي :

وَلِذِيذِ الْحَيَاةِ أَنْفُسٌ فِي النَّبِّ نَفْسٌ وَأَشْهَى مِنْ أَنْ يُمَلَّ وَأُحْلَى

وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ أَفٍ فَا مَ لُ حَيَاةً وَإِنَّمَا الضَّعْفُ مَلًّا

آلَةُ الْعَيْشِ صِحَّةٌ وَشَبَابٌ فَإِذَا وَلَّيَا عَنِ الْمَرِّ وَوَلَّى

« وَقَدْ تَقَدَّمَتْ » وَدَخَلَ سَلِيمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مَسْجِدَ دِمَشْقَ ، فَرَأَى

شَيْخًا ، فَقَالَ : يَا شَيْخُ ، أَيَسْرُكُ أَنْ تَمُوتَ ؟ فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ ، قَالَ : وَلِمَ وَقَدْ

بَلَغْتَ مِنَ السَّنِّ مَا أَرَى ؟ قَالَ : مَضَى الشَّبَابُ وَشَرُّهُ ، وَبَقِيَ الشَّيْبُ وَخَيْرُهُ ،

فَأَنَا إِذَا قَعَدْتُ ذَكَرْتُ اللَّهَ ، وَإِذَا قَمْتُ حَمِدْتُ اللَّهَ ، فَأُحِبُّ أَنْ تَدُومَ لِي

هَاتَانِ الْحَالَتَانِ ...

تسلي الناس عن مات

قالوا : إِذَا أُرِدْتَ أَنْ تَنْظَرَ النَّاسَ مِنْ بَعْدِكَ فَانظُرْ إِلَيْهِمْ بَعْدَ مَنْ مَاتَ

قَبْلَكَ ... وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ :

سَيَعْرِضُ عَن ذِكْرِي وَتُنْسَى مَوَدَّتِي وَيَحْدُثُ بَعْدِي لِلخَلِيلِ خَلِيلُ

وَقَالَ مَنْصُورُ الْفَقِيهِ : (١)

(١) هُوَ أَبُو الْحَسَنِ مَنْصُورُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَمْرِو التَّمِيمِيِّ الْفَقِيهِ الْمِصْرِيُّ الشَّافِعِيُّ

كلُّ مذكورٍ من النَّاسِ إِذَا مَا فَقَدُوهُ
صَارَ فِي حُكْمِ حَدِيثِ حَفِظُوهُ فَلَسُّوهُ

وقال آخر:

هَالُوا عَلَيْهِ التُّرْبُ ثُمَّ انْتَبَهُوا عَنْهُ وَحَلَّوْهُ وَأَعْمَالَهُ
لَمْ يَنْقُضِ النَّوْحُ مِنْ دَارِهِ عَلَيْهِ حَتَّى انْقَسَمُوا مَالَهُ
سَهْمِ الْمَنَايَا بِالذَّخَائِرِ مَوْلِعِ

قال أبو تمام (١)

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَقَفًّا فَإِنِّي رَأَيْتُ الْكَرِيمَ الْحُرَّ لَيْسَ لَهُ عُحْرٌ
وقال من أبيات يرثى بنى حميد أيضا:

إِنْ يَنْتَحِلُ حَدَثَانُ الْمَوْتِ أَنْفُسَكُمْ وَيَسْلُمُ النَّاسُ بَيْنَ الْحَوْضِ وَالْعَطَنِ
فَالْمَاءُ لَيْسَ عَجِيْبًا أَنْ أَعَذَبَهُ يَفْسَى وَيَمْتَدُّ عُحْرُ الْآجِنِ الْإِسْنِ
وقال ابن النيبه المِصْرِيُّ من أبيات مختارة نوردها عليك:

النَّاسُ لِلْمَوْتِ كَحَيْلِ الطَّرَادِ فَالسَّابِقُ السَّابِقُ مِنْهَا الْجَوَادُ

الضريه، كان فقيهاً شافعيًا وكان أديبا شاعرا متقنا توفي بمصر سنة ٨٣٠٦هـ ومن شعره السائر:

لِي حَيْلَةٌ فِيمَنْ يَنْهَمُ وَلَيْسَ فِي الْكَذَّابِ حَيْلَةٌ
مَنْ كَانَ يَخْلُقُ مَا يَكْفِيهِ وَلِخَيْلِي فِيهِ قَلِيلُهُ
ومنه: إِذَا تَخَلَّفْتَ عَنْ صَدِيقٍ وَلَمْ يُعَايَنْكَ فِي التَّخَلُّفِ
فَلَا تُعَدُّ بَعْدَهَا إِلَيْهِ فَإِنَّمَا وَدَّهْ تَكَلَّفُ

(١) من مرثيته التي يرثى بها محمد بن حميد الطوسي وأولها:

كَذَا فَلْيَجَلَّ الْخُطْبُ وَلِيَتَدَجَّ الْأَمْرُ فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُذْرُ

والله لا يدعو إلى داره . إلا من استصاح من ذى العباد
 والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد
 والمزء كالأطل ، ولا بد أن يزول ذلك الظل بعد امتداد
 لا تصلح الأرواح إلا إذا سرى إلى الأجساد هذا الفساد
 أرغمت يا موت أنوف القنا ودست أعناق السيوف الحداد
 وقال شاعر :

فلا تجزعن من موته وهو نائي ولا ينكرن هذا من جرب الدهرا
 فكل طويل المجدي يقصر عمره كذاك سباع الطير أقصرها عمرا

إنكارهم الشهادة في الموت

قال عدى بن زيد العبادي :

أيها الشامت المعير بالدهر ر أنت المبرأ الموفور
 أم لبيك العهد الوثيق من الأيا م بل أنت جاهل مغرور
 « وقد تقدمت هذه الأيات ... » وقال شاعر :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
 ولما مات الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما دخل عبد الله
 ابن عباس على معاوية ، فقال له معاوية : يا ابن عباس ، مات الحسن بن علي ؟
 قال : نعم ، وقد بلغت سجدك ، أما والله : ما سد جثمانه حفرتك ، ولا زاد

= وقول أبي تمام : إن ينتحل البيتين . فينتحل : يأخذ النفوس نحلة أى عطية ، ولك
 أن تقرأها ينتحل ، والعطن : مبرك الإبل حول الحوض ، والآجن : الماء المتغير الطعم
 واللون ومثله الآسن

انقضاء أجله في محرك ، قال : أحسبه ترك صنيعة صغاراً ولم يترك عليهم
كثير معاش ؟ فقال : إن الذي وكلهم إليه غيرك ، ... وقال الفرزدق :
فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أفيقُوا سِيَلَقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا
وحكى المبرد عن بعضهم : أنه شهد رجلاً على قبرٍ وهو يُكثِرُ البكاء ،
فقلت : أعلى قريب أو على صديق ؟ فقال : أخص منهما ، قد كان لي عدواً ،
فخرج إلى الصيد ، فرأى ظبياً فتبعه ، فعثر بالسهم ، فخر هو والظبي ميتين ،
فدفن ، فانهتت إلى قبره شامتا به ، فإذا عليه مكتوب :

وما نحن إلا مثلهم غير أننا أقمنا قليلاً بدمهم وترحلوا

فها أنا ذا واقف أبكى على نفسي... ولمسات الفرزدق بكى عليه جريث ورثاه ،
فقيل له : أبعد تلك العداوة ا فقال : لم أر اثنين بلغا الغاية ومات أحدهما إلا ولحقه
الآخر عن كذب ، فكان كذلك... وقال سيدنا رسول الله : لا تظهر الشهامة لأخيك
فيما فيه الله وبيبتليك - أقول : يبدو أن الشهامة - وهي أن تفرح بالبلية تنزل بمن
يُعاديك - من الغرائز الإنسانية اللئيمة ، ومن ثم لم يته سيدنا رسول الله عن
كونها - وجودها - وإنما نهى عن إظهارها ، لأن ذلك هو الذي في استطاعة المرء ،
مثلها مثل الحسد والظن والطيرة ، ولذلك ورد في الأثر أيضاً : إذا ظننتم فلا
تحققوا ، وإذا حسدتم فلا تبغوا ، وإذا تطيرتم فأنصوا ، وعلى الله فتوكلوا ..
يقول صلوات الله عليه : إذا حسدتم : أي تمنيتم زوال نعمه الله على من
أنعم عليه فلا تتعدوا وتفعلوا ما يقتضيه هذا الخلق الذميم ، وإذا ظننتم سوءاً
بمن ليس محلاً لسوء الظن به فلا تتحققوا ذلك باتباع ، وإريده والعمل على
مقتضاه ، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ،
والظن أكذب الحديث ، ومن أساء الظن في خير موضعه دل على عدم

استقامته في نفسه كما قال المتلبي :

إذا ساءَ فِعْلُ المرءِ ساءَتْ ظَنُونُهُ وَصَدَقَ ما يَعتادُهُ مِن تَوَهُّمِ
أما من كانَ مَظَنَّةَ الظنِّ، بأن كانَ رجلاً شَريراً فالحزمُ سَوءُ الظنِّ
والاحتراسُ والحذرُ، ثم قال صلوات الله عليه : وإذا تشاءمتم بشيء فامضوا
طَيِّبَتِكم ولا يَلتفتُ خاطرُكم لذلكَ وسيمر عليك كل هؤلاء في كتاب
طبائع المذمومة ... وما يتصل بما نحن فيه من الشماتة بالميت ما يروى :
انه لما أتى عبد الله بن الزبير خَبرُ قَتْلِ مُصَعبِ أخيه احتجَبَ أياماً، فُخِّبَ
بمجيء قومٍ للتعزية، فقال : أكرهُ وجوهاً تُعزى ألسنتها وتشمّتُ قلوبها.

لا عار بالموت

قالت ليل الأخيلية :

لَعَمْرُكَ ما بالموت عارٌ على امرئٍ إذا لم تُصِبْهُ في الحياة المَعَارِ
« المعار : المعايب والمسائب يقال : عازه : إذا عابه ، وتعار القوم : عير
بعضهم بعضاً »

الموت نهاية كل حي

قال أبو بكر العنبري : كنتُ قاعداً في الجامعِ فمَرَّ بي مَعْتَوَةٌ فأقبِل
عليّ وقال :

فَهَبْكَ مَلَكَتْ هَذَا النَّاسَ طُرا وَدانَ لَكَ العِبادُ فَكانَ ما إذا
أَلَسْتَ تَصِيرُ في لَحْدٍ وَيَحْوِي تُراثِكَ عَنكَ هَذَا نِمْ هَذَا
وقال الشاعر :

هَبَكَ قد نلتَ كُلَّ ما تَحْمِلُ الأَرْضُ فَهَلْ بَعْدَ ذاكِ إِلا التَّيْبَةُ

وقال القائل:

لِدُوا اللَّبُوتَ وَابْنُوا لِلخَّرَابِ فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى ذَهَابٍ ^(١)

وصية الميت

قالوا: كُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ وَلَا تَجْعَلِ الرِّجَالَ أَوْصِيَاءَكَ، وَأَعْلَمْ صَدِيقَ

(١) جاء في الحزاة للإمام البغدادي ما خلاصته: هذا المصراع - لدوا للبت وابتوا للخراب - هو من أبيات في الديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب وهي:

عَجِبْتُ لَجَازِعِ بَاكِ مُصَابٍ بِأَهْلٍ أَوْ حَبِيبِ ذِي اكْتِثَابِ
شَقِيقِ الْجَيْبِ دَاعِي الْوَيْلِ جَهْلًا كَأَنَّ الْمَوْتَ كَالشَّيْءِ الْعُجَابِ
وَسَوَى اللَّهِ فِيهِ الْخَلْقَ حَتَّى نَسَبِيَّ اللَّهِ عَنْهُ لَمْ يُحَابِ
لَهُ مَلِكٌ يُنَادِي كُلَّ يَوْمٍ لِدُوا اللَّبُوتَ وَابْنُوا لِلخَّرَابِ

د. نبي الله: مفعول مقدم ليحباب بمعنى يخضع، قال: ورأيت في جمهرة أشعار العرب أنه قد روى أن بعض الملائكة قال - وأورد البيت الذي أوردناه، ثم قال: ولسابق البربري في هذا المعنى:

فَلبُوتٍ تَغْدُو الْوَالِدَاتُ سِخَالَهَا كَمَا لَخْرَابِ الدَّارِ تُبْنِي الْمَسَاكِينَ

هذا: وأما اللام في قولهم للبت فقد سماها الكوفيون لام العاقبة، مثلها مثل قوله تعالى: فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً، وأنكر البصريون لام العاقبة قال الزمخشري: والتحقيق أنها لام العلة وأن التعليل فيها وارد على طريق المجاز وذلك أنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدواً وحزناً بل المحبة والتبني غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته شبه بالداعي الذي يفعل الفعل لأجله واللام مستعارة لما يشبه التعليل كما استعير الأسد لمن يشبه الأسد. انتهى... وسابق البربري: هو أبو سعيد سابق بن عبد الله من موالي بني أمية، سكن الرقة ووفد على عمر بن عبد العزيز، وله أشعار حسنة في الزهد وليس منسوباً إلى البربر وإنما البربري لقب له، والسخال في بيته المذكور: جمع سخلة وهي ولد الشاة من الضأن والمعز، وقد أقام الظاهر مقام الضمير في المصراع الثاني إلا أنه باللفظ المرادف إذا الأصل: كما تبني المساكن لخرابها.

الذى يقول :

ولا يُغْرُكْ من تُوصِي إليه فَقَصْرُ وصِيَّةِ المرءِ الضياعُ
« قَصْرُهُ وقصاراهُ أن يفعل كذا : أى آخر أمره وغاية جهده هو أن يفعل
كذا » ... وقال مالك بن ضيفم : لما احتضر أبى قلنا له : ألا تُوصي ؟ قال :
بلى ، أوصيكم بما أوصى به إبراهيمُ بنيه ويعقوبُ : « يا بَنِيَّ إن الله اصطفى
لكم الدين فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون » ، وأوصيكم بصلَّةِ الرِّحمِ وحُسنِ
الجوارِ وفِئْلِ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنَ المعروفِ ، وأدْفِنُونِي مع المساكينِ ...
وقيل لِهَرَمِ بنِ جَبَّانَ : أَوْصِ ، فقال : قد صدقتنى نفسى فى الحياة ، ما لى
شئ أوصى فيه ، ولكن أوصيكم بخواتيمِ سورة النحل^(١) ...

إنكارهم وصية الميت بما ليس له

عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : جاء النبى صلى الله عليه
وسلم يعوذنى وأنا بمكة ، وهو يكره أن يموت بالأرض التى هاجرَ منها ،
قال : يرحمُ الله ابنَ عَفْرَاءَ^(٢) ، قلتُ : يا رسول الله : أوصى بمالى كُلِّه ؟ قال :
لا ، قلتُ : فالشَطْرُ ؟ قال : لا ، قلتُ : التُّلْكَ ؟ قال : فالتلثُ ، والتلثُ
كثير ، إنك أن تدعَ ورثتَكَ أغنياءَ خَيْرٌ من أن تدعَهُمُ عالَةً يتكفَّفون فى
أيديهم ، وإنك مهما أنفقتَ من نفقة فإنها صدقةٌ ، حتى اللقمة ترفعها إلى رِفي
أمرأتِكَ ، وعسى الله أن يرفعك فينتفعَ بك ناسٌ ويُبْصِرَ بك آخرون ،

(١) راجع سورة النحل ، ومن آياتها الكريمة ، الآية الأخيرة : إن الله مع الذين اتقوا

والذين هم محسنون .

(٢) هو سعد بن خولة وعفراء أمه ، ويلاحظ أن قول سعد : وهو يكره الخ

التفات من التكلم إلى الغيبة كما سيمر عليك

ولم يكن له يومئذ إلا ابنةٌ . . . رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن وغيرهم
 « وإليك شرح هذا الحديث الشريف : لما كان سيدنا رسول الله بمكة في
 حجة الوداع ذهب إلى سعد بن أبي وقاص - وهو الصحابي الجليل الذي
 هاجر إلى المدينة قبل أن يهاجر إليها الرسول صلوات الله عليه ، وقد شهد
 بدرًا والمشاهد كلها ، وبشره الرسول بالجنة ، وهو أحد رجال الثموري الستة
 الذين رشحهم الفاروق للخلافة : وهو قائد جيوش عمر في فتح العراق ،
 ثم مات بقصره في العقيق على مقربة من المدينة سنة ٥٥ هـ بعد أن كفَّ بصره
 رضي الله عنه - أقول : لما كان الرسول بمكة ذهب إلى سعد يعوده لمرض
 اشتدَّ به حتى أشقى على الموت ، وكان سعد يكره أن يموت بالأرض التي
 هاجر منها - مكة - كما مات سعد بن خولة^(١) فلما سمع الرسول اسم سعد
 ابن خولة من ابن أبي وقاص ترَّحم عليه ، وكان لسعد بن أبي وقاص إذ ذاك
 ابنةٌ واحدة^(٢) ثم قال سعد لسيدنا رسول الله - كما جاء في بعض الروايات -
 إنه قد بلغ بي من الوجع ما ترى وأنا ذو مال ، ولي ابنةٌ واحدةٌ ، أفأوصي
 بمالكُة ؟ قال الرسول : لا ، قل : أفأوصي بالنصف ؟ قال : لا ، قال :
 أفأوصي بالثلث ؟ قال : فالثلثُ توصي به ، والثلث كثير ، ثم قال الرسول :
 - مبينا عن الحكمة في ترك الوصية بالكثير إلى الوصية بالقليل : إنَّ تركَ
 ورثتك أغنياء خيرٌ من تركهم فقراء يمدون أكتفهم إلى الناس مُستجدين . .

(١) من المهاجرين الأولين الذين شهدوا بدرًا وقد توفى بمكة في حجة الوداع
 وأمه عفراء كما تقدم

(٢) أما بعد أن برئ من هذا المرض بفضل دعوة الرسول فقد عاش كثيرًا كما
 قلنا ورزقه الله من الذرية بضعة عشر ابنًا واثنتا عشرة بنتًا

ثم بين الرسول أن كل ما يُنفقه على زوجته أو ولده أو أقاربه أو خدّمه صدقة ولو كان قليلاً، حتى اللقمة يرفعها إلى فم امرأته، يريد صلوات الله عليه: أن المرء إن استقل أمر الوصية بالثك أو مادونه فليستكثره بالإنفاق، والأقربون أولى بالمعروف، فإن امتدت به الحياة فليَسلك هذا الطريق، ثم رجا له الرسول أن يَبْرأ وتطول حياته ويرتفع شأنه حتى ينتفع به أناس. ويستضرّ به آخرون، وقد تحقق هذا كله حتى عزّ به الإسلام. هذا الوصية بالثك فأقل قد استقر عليه الإجماع إذا كان هناك ورثة واختلفوا فيمن ليس له وارث «راجع كتب الفقه»... وعن أبي هريرة: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: أن تصدق وأنت صحيحٌ حَرِيصٌ تَأْمَلُ الْغِنَى وتَخْشَى الْفَقْرَ ولا تُعْمَلْ حتى إذا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ قلتَ: لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا... وفي الأثر أيضاً: مثلُ الذي يُعْتَقُ ويتصدق عند موته، مثل الذي يهدى إذا شَبِع... وقال بعض الصالحين عن بعض المترفين: يَعْصُونَ اللَّهَ فِي أَمْوَالِهِمْ مَرَّتَيْنِ، يَبْتَخِلُونَ بِهَا وَهِيَ فِي أَيْدِيهِمْ - يعني في الحياة - ويسرفون فيها إذا خَرَجَتْ مِنْ أَيْدِيهِمْ - يعني بعد الموت.

من أوصى بِبَشَرٍ وَكَانَ قَاسِيَا

لما حضرت الحُطَيْبَةَ الْوَفَاةُ اجتمع إليه قومه فقالوا: يَا أَبَا مُلَيْكَةَ: أَوْصِ؛ فقال: وَيْلٌ لِلشَّعْرِ مِنْ رَاوِيَةِ السُّوءِ؛ قالوا: أَوْصِ رَحِمَكَ اللَّهُ يَا حُطَيْبُ، قال: مَنْ الَّذِي يَقُولُ:

إِذَا أَنْبَضَ ^(١) الرَّامُونَ عَنْهَا تَرْتَمَتْ تَرْتِمٌ تَمْكِي أَوْجَعَتْهَا الْجِنَانُ؟

(١) أنبض القوس وأنضها: جذب وترها لتصوت

قالوا : الشَّاهُخ ؛ قال : أبلغوا عَظَمَانُ أَنَّهُ أَشْعَرُ الْعَرَبِ ؛ قالوا : وَيَحْكُ أ
أَهْذَهُ وَصِيَّةُ أَرْضِ بِمَا يَنْفَعُكَ ؛ قال : أبلغوا أَهْلَ صَابِيٍّ ^(١) أَنَّهُ شَاعِرٌ
حَيْثُ يَقُولُ :

لِكُلِّ جَدِيدٍ لَذَّةٌ غَيْرَ أَنِّي رَأَيْتُ جَدِيدَ الْمَوْتِ غَيْرَ لَذِيذٍ
قالوا : أَوْصِ وَيَحْكُ بِمَا يَنْفَعُكَ ؛ قال : أبلغوا أَهْلَ أَمْرِئِ الْقَيْسِ أَنَّهُ
أَشْعَرُ الْعَرَبِ حَيْثُ يَقُولُ :

فِيَالِكَ مَنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نَجْوَمَهُ بِكُلِّ مُغَارٍ الْفَتْلُ شُدَّتْ بِيَذْبُلٍ ^(٢)
قالوا : اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ عَنْكَ هَذَا ؛ قال : أبلغوا الْأَنْصَارَ أَنَّ صَاحِبِهِمْ ^(٣)
أَشْعَرُ الْعَرَبِ حَيْثُ يَقُولُ :

يُغْدَوْنَ حَتَّى مَا تَهْرُ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
قالوا : هَذَا لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ، فَقُلْ غَيْرَ مَا أَنْتَ فِيهِ ؛ فقال :
الشَّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سَلْبُهُ إِذَا آرْتَقَى فِيهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ
زَلَّتْ بِهِ إِلَى الْحَضِيضِ قَدَمُهُ يَرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهُ ^(٤)
قالوا : هَذَا مِثْلُ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ ؛ فقال :

قَدْ كُنْتُ أَحْيَانًا شَدِيدَ الْمُعْتَمَدِ وَكُنْتُ ذَا عَرَبٍ ^(٥) عَلَى الْخَصْمِ أَلَدِّ

- (١) هو ضابئ بن الحارث البرجمي الشاعر من بني تميم
(٢) من معلقة ، ومغار الفتل : محكمه ، وهو اسم مفعول من أغار الحبل
لإغارة : شد فتله ، ويذبل : جبل
(٣) هو حسان بن ثابت الأنصاري شاعر سيدنا رسول الله وقد تقدم شرح هذا البيت
(٤) الفاء هنا للاستئناف ، والمعنى : فإذا هو يعجمه ولا يصح نصبه عطفا على
قوله « يعربه » ،

(٥) الغرب : الحد ومنه غرب السيف : حده

﴿ قَوَّرَدَتْ نَفْسِي وَمَا كَادَتْ تَرُدُّ ﴾^(١)

قالوا : يا أبا مُلَيْكَةَ ، أَلَمْ كَ حَاجَةٌ ؟ قال : لا والله ، ولَسَكُنْ أَجْزَعُ عَلَى الْمَدِيحِ الْجَيِّدِ يُمَدِّحُ بِهِ مَنْ لَيْسَ لَهُ أَهْلًا . قالوا : فَمِنْ أَشْعَرِ النَّاسِ ؟ فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ وَقَالَ : هَذَا الْجَحِيْرُ إِذَا طَمِعَ فِي خَيْرٍ (بَعْنَى تَمَنَّى) وَأَسْتَعْبَرَ بِأَكْيَا ؛ فَقَالُوا لَهُ : قَلْ لَإِلَهِ إِلَّا اللَّهُ ؛ فَقَالَ :

قَالَتْ وَفِيهَا حَيْدَةٌ وَذُعْرُ عَوْذُ رَبِّي مِنْكُمْ وَحُجْرُ^(٢)

فَقَالُوا لَهُ : مَا تَقُولُ فِي عَيْدِكَ وَإِمَائِكَ ؟ فَقَالَ : هُمْ عَيْدٌ قِنْ مَاعَاقِبِ اللَّيْلِ النَّهَارَ ؛ قالوا : فَأَوْصِصْ لِلْفُقَرَاءِ بِشَيْءٍ ، قَالَ : أَوْصِيهِمْ بِالْإِلْحَاحِ فِي الْمَسْئَلَةِ فَإِنَّهَا تَجَارَةٌ لَا تَبُورُ ، وَأَسْتُ الْمَسْئُولِ أَضِيْقُ^(٣) . قالوا : فما تقول في مالك ؟ قال : للأثني من ولدي مثل حظ الذكر . قالوا ليس هكذا قضى الله جلَّ وعزَّ لهنَّ ، قال : لَكِنِّي هَكَذَا قَضَيْتُ . قالوا فما تَوْصِي لِيَتَامَى ؟ قال : كُلُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَنْكَحُوا أُمَّهَاتِهِمْ ؛ قالوا : فهل شيءٌ تَعَهَّدُ فِيهِ غَيْرُ هَذَا ؟ قال : نعم ، تَحْمِلُونِي عَلَى أَتَانٍ وَتَتْرَكُونِي رَاكِبَةً حَتَّى أَمُوتَ ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَا يَمُوتُ عَلَى فَرَاشِهِ ، وَالْأَتَانُ مَرَّ كَبُّ لَمْ يَمُتْ عَلَيْهِ كَرِيمٌ قَطُّ ؛ فَحَمَلُوهُ عَلَى أَتَانٍ وَجَعَلُوا يَنْدَهَبُونَ بِهِ وَيَجِيئُونَ عَلَيْهَا حَتَّى مَاتَ وَهُوَ يَقُولُ :

- (١) وردت : أشرفت ، يقال : ورد فلان بلد كذا إذا أشرف عليه وإن لم يدخله ولعله يريد من الورد : الإشراف على الموت
- (٢) حيدة : من حاد عن الشيء إذا صد عنه أو تغير خوفًا منه ، وحجر : أي دفع ومنع ، والعرب تقول عند الأمر تنكره : حجراً له ، (بالضم) : أي دفعا
- (٣) هذا كناية عن العجز ، يقال للرجل يستضعف : استك أضيقت من أن تفعل كذا ، ويقال للجماعة أتم أضيقت أستاذها من أن تفعلوا كذا .

لأحدُ الأُمِّ من حُطيةِ هِجَا بَيْسِيَةِ وَهَجَا المُرِّيَةِ
* من كُومِهِ ماتَ على قُرْيَةٍ *

« المرية : تصغير مرّة - امرأة - يريد : زوجته ، والفرية يريد الفراء
أى الحمار »

نهيهم عن الإفراط في البكاء وإظهار الجزع

دخلت أعرابيةُ الحَضْرَ نَسَمَعَت بُكَاءَ من دار قتالت : ما هذا ! أراهم من
رَبِّهِمْ يَسْتَغِيثُونَ ، ومن استرجاعه يَتَضَجَّرُونَ ، ومن جزيل ثوابه يَتَبَرَّهُونَ ...
وقال أبو سعيد البلخي . مَنْ أَصَابَتْهُ مَصِيبَةٌ فَأَكْثَرَ النِّعَمَ جَعَلَ اللَّهُ عُقُوبَتَهُ
غَمًّا مِثْلَهُ ، قال الله تعالى : فَأَنَابَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا ... الآية ..
وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه
وسلم : ليس بمنّا من لطم الخدود ، وشقّ الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية ...
« ودعا بدعوى الجاهلية : أى من نحو قولهم : وأبناه ، وأمامه ، وأولاده ،
وامصيتاه ، ونحو ذلك من ضروب النياحة والثدبة ... ، أما البكاء والجزع
دون إفراط فُرِّخَ فِيهِ ، حدث أنس بن مالك قال : دَخَلْنَا عَلَى أَبِي سَيِّفِ
الْقَيْنِ ^(١) - وَكَانَ ظَنُرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ^(٢) ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ ، فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمَ
يَجُودُ بِنَفْسِهِ ، فَعَمَلَتْ عَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تَذُرِفَانِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ

(١) هو البراء بن أوس زوج أم بردة خولة بنت المنذر مرضع إبراهيم بن سيدنا
رسول الله . والقين : الحداد

(٢) الظنر : المرضع وأطلق عليه ذلك لأنه كان زوج المرضعة

رضى الله عنه : وأنت يا رسول الله ! فقال : يا ابن عوف ، إنها رحمة ، ثم أتبعها بأخرى - أى أتبع الدمعة الأولى بأخرى - وقال صلوات الله عليه : إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى الله ، وأنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون ... قوله صلوات الله عليه : ولا نقول إلا ما يرضى الله وفي رواية : ولا نقول ما يسخط الرب : أى من النياحة والصراخ وما إلى ذلك مما يوجب سُخْطَ الله عز وجل ، وقيل لأعرابي : أصبر فالصبر أجر ، فقال : أعلى الله أتجلد ، والله : للجزع أحب إليه ، لأن الجزع استئانة والصبر قساسة ... وقيل لفيلسوف : أخرج الحزن من قلبك فقال : لم يدخله يا ذنى فأخرجه يا ذنى ... وأقرطت امرأة في الجزع على آبنها ، فعوتبت في ذلك ، فقالت : إذا وقع حكم الضروريات لم يقع عليها حكم المكتسبات ، فأما تجزعي فليس في الطاقة صرفه ، ولا في القدرة منه ، ولي عذراً للضرورة ، فإن الله تعالى يقول : فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ...

في البكاء تخفيف من الحزن

قال ابن عباس رضى الله عنه : كنت إذا أصابتنى مصيبة وأنا شاب لا أبكى ، وكان يؤذنى ذلك ، حتى سمعت أعرابياً يثبُد :
لعلَّ انحدارَ الدمعِ يُعقبُ راحةً من الوجدِ أو يثبني شجى البلايل
فسألته لمن الشعر ؟ فقال : لذي الرمة ، فكنت إذا أصبت بكيت ،
فاسترحت

ضعف بذية الإنسان

سئل جالينوس عن الانسان فقال : سراج ضعيف ، وكيف يدوم ضوءه

بين أربع رياح ا » يعنى بالسراج : رُوْحَه ، وبالرياح الأربَع : طبائِعُه^(١) ،
وقال الشاعر كبيد :

وما المرءُ إلا كالشهابِ وِضْوَتِهِ يحورُ رَمَاداً بعد إذ هو ساطِعُ
كل شيءٍ تغيّر من حال إلى حال فقد حارَ يحور حورا ، وقال أفلاطون :
إذا كانت الطائفة فاسدةً والبديّة ضعيفةً ، والطبائع مُتَنَافِيَةً ، والعُمُرُ يسيراً ،
والمَيتَةُ صادقةً ، فالثِقَةُ باطلة ... :

استنكافهم من أن يموت المرء حتف أنفه

قال خالد بن الوليد : لقد لقيت ككذا وكذا زحفاً ، وما في جسدِي
ووضِعُ شبرٍ إلا وفيه طائفةٌ أو ضربةٌ أو رميّةٌ ثم ها أنا ذا أموتُ على فراشي
حتفٌ أني ، فلا نامت أعينُ الجبناء . وقال الشنفرى :

(١) قال وهب بن منبه : قرأت في التوراة : أن الله عز وجل حين خلق آدم
ركب جسده من أربعة أشياء ، ثم جعلها وراثه في ولده ، تمنى في أجسادهم وينمون
عليها إلى يوم القيامة : رطب ، ويابس ، وسخن ، وبارد ، قال : وذلك أن الله سبحانه
وتعالى خلقه من تراب وماء ، وجعل فيه نفساً وروحاً ، فيبوسة كل جسد من قبل
التراب ، ورطوبته من قبل الماء ، وحرارته من قبل النفس ، وبرودته من قبل الروح
ثم خلق للجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع أخرى ملاك الجسد لا يقوم الجسد إلا بهن ،
ولا تقوم واحدة منهن إلا بالأخرى : المرة السوداء ، والمرة الصفراء ، والدم الرطب
الحار ، والبلغم البارد ، ثم أسكن بعض هذا الخلق في بعض ، فجعل مسكن اليبوسة
في المرة السوداء ، ومسكن الرطوبة في الدم ، ومسكن البرودة في البلغم ، ومسكن
الحرارة في المرة الصفراء ، فأما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربعة وكانت كل
واحدة فيه وفقاً لا تزيد ولا تنقص ، كلك صحته واعتدلت بنيته . فإن زادت واحدة
منهن غلبت وقهرت من ومالت بهن ، دخل على أخواتها السقم من ناحيتها بقدر ما زادت
وإن كانت ناقصة عنهن . ملن بها وعالونها ودخان عليها السقم من نواحيهن : لقلتها
عنهن حتى تضعف عن طاقتهن وتمجز عن مقاومتهم .

ولا تَقْبِرُونِي إِنْ قَبِرِي مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَيْشِرِي أُمَّ عَامِرٍ (١)
وقال السموأل أو غيره :

وما مات منا سيّد حتفَ أنفه ولا طُلَّ مِنّا - حيث كان - قتيل
تسيل على حد السيوف نفوسنا وليس على غير السيوف تسيل
«طُلَّ: أهدر دمه، وقيل: أن لا يُثَارَ به وتقبل، ديته وقال أبو تمام:
لولا يمُتُ تحتَ أسيافِ العدا كرمًا لمات - إذ لم يمُتْ - من شدة الحزن
وقال آخر:

إنّ موتَ الفرائسِ ذُلٌّ وعارٌ وهو تحتَ السيوفِ فضلٌ شريف
وقال: ❦ وأتعبُ ميتٍ من يموتُ بداء ❦
وسيمر عليك كثير من عبقرياتهم في هذا المعنى، في «باب الشجاعة»

تم الجزء الأول

من الذخائر والعبقريات

(٢) أم عامر وأم عمرو: كنية الضبيغ، قال الراجز:

يا أم عمرو أيشري بالبشري موتٌ ذريعٌ وجرادٌ عظلي
وهم يزعمون أن الضبيغ من أحق الدواب: لأنهم إذا أرادوا صيدها يجيء الرجل
إلى وجارها فيسد فيه بعد ما تدخله لثلاث ترى الضوء فتحمل الضبيغ عليه فيقول لها:
أيشري يا أم عامر بجراد عظلي وكر رجال قتلى. فتذلل له حتى يلقمها ثم يجرها
ويستخرجها وجراد عظلي: ركب بعضها بعضا كثرة؛ وأصل العظام: الملازمة في
السفاد من الكلاب والسباع والجراد، وقولهم وكر رجال قتلى، فإنهم يزعمون أن
الضبيغ إذا وجدت قتيلًا قد انتفخ غرموله ألقته على قفاه ثم ركبته قال عباس بن مرداس:
ولومات منهم من جرحنا لأصبحت ضباع بأعلى الرقتين عرائسا

فهرس

الجزء الأول من الذخائر والعقريات

المقدمة

الكتاب الأول

في الفضائل وصالح الأخلاق والمثل العليا

الباب الأول في البر والتقوى

البر وألوانه

معنى البر - عبقرياتهم في البر مطلقاً - من صفحة ٢ - ١٤

بر الوالدين وصلة الرحم وعبقرياتهم في الآباء والأبناء

والأقارب - من بابات شتى

- بر الوالدين ١٤ - ١٨ - من أخبا البرة ١٨ - العقوق وأحوال
العققة ١٨ - من أقوالهم في الأولاد المتخلفين ٢٥ - حق الولد على الوالد ٢٥ -
احتجاج بعض العققة لعقوقهم ٢٦ - ذم الولد وقلة جدواه ٢٩ - الإشفاق
على الأولاد ٣٠ - صلة الرحم ٣٦ - معاملة الخلفاء الراشدين لذوى قرباهم
في التولية ٣٧ - حث الأقارب على التعاون ٣٨ - العطف على القريب
والحميظة ٤٢ - الشكوى من الأقارب ٤٣ - مظاهره الاجنبى على القريب ٤٦ -
علاج العداة الذى بين الأقارب ٤٧ - كلامهم في الإخوة ٤٧ و ٤٨ - قطيعة
الإخوة ٤٩ - الناس تجاه البنات ٤٩ - ٥٢ - الخال والخثولة ٥٢ -
مدعو القرابة البعيدة ٥٤ - تفاخرهم بالحسب وكرم المحتد ٥٥ - من يشبه أباه
في علاة ابتناه ٥٦ - لاعتدادهم بشرف أصله إذالم يشرف بنفسه ٥٧ - اعتذار
المتخلفين الأندال عن نخلةهم عن آباءهم الاشراف ٥٨ - ذم من قصر عن
آبائه ٥٨ - من لا يعتد بأبيه ٥٩ - الابن يجارى أباه ٥٩ - الاسلام بعد
الشرف والحسب بالتقى ٦٠ - الدعوة - أى ادعاء الولد الدعى غير أبيه ٦٠ -
الولد ينسل من الأقارب فيخرج ضاويًا ضعيفاً ٦٢ - الرضاة ٦٣

الإحسان

وعبقرياتهم في الجود واصطناع المعروف وقرى الأضياف

وذم البخل والسؤال

- تحفى الاسلام بالإحسان ٦٤ - الناس مجبولون على البخل ٦٥ - مدح الجود
 وذم البخل ٦٨ - طرفة لجندى مع معن بن زائدة ٧٦ - حثهم على الجود حتى
 في حالة العسر ٧٨ - واجبات ذوى الجاه ٨١ - عبقرية أحمد بن أبي دواد في
 اصطناع المعروف ٨٥ - رسالة للجاحظ ينضح فيها عن الجود ٩٥ - كلمة علوية
 لسيدنا رسول الله في الحث على الإحسان ١٠٦ - هيات أن أبيت مبطأنا: لسيدنا
 على ١٠٩ - كان الخلفاء الراشدون مثلاً علياً في الرغبة عن شهوات الحياة
 الدنيا ١١٠ - عظمة الفاروق في زهده وتقواه ١١٢ - عبقرياتهم في الجود من
 بابات شتى ١١٣ - قرى الأضياف ١١٨ - وصية بخيل لابنه ١٢٤ - بخيل
 يبيع القرى ١٢٨ - عبقرياتهم في قرى الأضياف ١٢٩ - عادية الضيف
 والحديث على الطعام ١٣٢

السؤال وعبقرياتهم فيه من جميع نواحيه

- ذم السؤال ١٣٥ - عبقرياتهم في آداب السؤال واستجراح الحوائج ١٣٩ - المستول
 تجاه السائل ١٤٥ - طلب الكثير والرضا بالقليل ١٤٨ - من يسأل حاجة
 يزعمها صغيرة ١٤٨ - الحث على الصبر والناة في طلب الحاجات ١٤٨ -
 العطية لانهجى في غير وقتها ١٤٩ - التأسف على الحرمان ١٥٠ - تعريضهم بمن
 خبيهم ١٥٠ - الهدايا والرشى مدرجة للنجاح ١٥٠ - قطع العادة ١٥١ -
 شكرى العاقين من تفضيل بعضهم على بعض ١٥٢ - بلاغة المكدين ١٥٢ -

حسن الخلق

- حسن الخلق ١٥٤ - تهميم عن سوء الخلق ١٥٧ - صعوبة تغيير الطباع ١٥٨ -
 مداراة الناس ١٥٩

التقوى

- التقوى ١٦١ - معنى التقوى ١٦٢ - الحكمة ١٦٥ - عبقرياتهم
 في التقوى ١٧٠ - كليمه في التوكل ١٧١ - التقوى مع الجهل ١٧٧ -
 التماوت والإفراط في الخشوع ١٧٧ - قلة اليقين في الناس ١٧٨ - إصلاح
 الضمير ١٨٠ - احتمال المكاره في العاجل رجاء المسار في الآجل ١٨١ -
 مراعاة الدين والدنيا معاً ١٨٢ - الجمع بين الرجاء والخوف ١٨٣ - العبادة
 لاطلباً للثواب ولا خوفاً من العقاب ١٨٤ - الرياء ١٨٦ - التوبة ١٨٨ -
 الاستغفار ١٩٢ - عبقریات شتى في الخوف والتقوى ١٩٣

الباب الثاني

في الشكر والحمد والثناء

- معنى الشكر ١٩٨ - حثهم على الشكر ٢٠١ - العجز عن الشكر ٢٠٤ -
 من لا تخفى إياديه ٢٠٦ - الشكر بقدر الاستحقاق ٢٠٦ - من لم يردعه خوفه
 عن الشكر ٢٠٧ - شكر من هم بإحسان ولم يفعل ٢٠٨ - ثقل الشكر
 والحمد ٢٠٨ - تفضيلهم الثناء على العطاء ٢٠٨ - تسهيل القول على الشاكرين
 بتوافر ما يشكر عليه ٢١٠ - حب المنعم أن يرى أثر إنعامه ٢١١ - لا يمدحون
 إلا إذا أعطوا ٢١٣ - حثهم على الشكر ولو لمن ليس على دينهم ٢١٥ -
 استحيائهم من المدح ٢١٥ - من يمدح نفسه ٢١٦ - نهيهم عن المدح قبل
 الاختبار ٢١٧ - عبقریات شتى في الشكر ٢١٧

الباب الثالث

في الصبر وعبقرياتهم فيه وفي الدنيا وفي المرض وفي هازم اللذات

- ماذا يراد بالصبر في هذا الباب ٢٢١ - عبقرياتهم في الصبر ٢٢٢ - عود
 إلى أسباب الحزن ٢٢٩ - حثهم على الاستعداد للمصائب كي نخف وطأتها ٢٣٠ -
 الغم يورث السقم والحرم ٢٣١ - الحزن يبلى بتقادم العهد ٢٣٢ - التأسى بمن

مصابه كصاب المصاب وعكس ذلك ٢٣٤ - عروة بن الزبير مثل أعلى للصبر ٢٣٥
 مطرح المعلوم ٢٣٨ - عبقرياتهم في الدنيا وأنها دار محن ٢٤٥ - أسماء
 الدنيا ٢٤٦ - قلة لبث الإنسان في الدنيا ٢٤٨ - قلة متاع الدنيا ٢٤٨ - الماضي
 والحاضر والمستقبل ٢٤٩ - تحذيرهم من تضييع الأيام ٢٤٩ - الأيام تهتم
 الحياة ٢٥٠ - البقاء في الدنيا سبب الفناء ٢٥١ - فرح الدنيا مشوب بالترح ٢٥٣
 الدنيا هوم وغوم ٢٥٣ - النقصان بعد التمام ٢٥٥ - الدنيا لا يدوم فيها فرح
 ولا ترح ٢٥٦ - الدنيا غزارة ٢٥٧ - حب الدنيا على الرغم من عيوبها ٢٥٨ -
 الدنيا تضر بحبها ٢٥٨ - بنو الدنيا أغراض لضروب المحن ٢٥٩ - الأيام تضي
 في تراذلها ٢٦٥ - حدم ماضى الزمان وذمتهم حاضره ٢٦٥ - إنكار ذم
 الدهر ٢٦٣ - المسرة من حيث تخشى المضرة ٢٦٤ - الفرج بعد الشدة ٢٦٦
 - من زال كربيه فنسى صنع الله ٢٦٦ - لاتعرف النعمة إلا عند
 فقدها ٢٦٧ - فضل العافية وسلامة الدين ٢٦٧ - عبقریات شتى في
 الدنيا ٢٦٨ - عبقرياتهم في الموت ٢٧٣ - أسماء الموت ووصفه ٢٧٣ - تعظيم أمر
 الموت ٢٧٦ - حثهم على تصور الموت ٢٧٧ - استدلال الانسان على موته
 بمن مات قبله ٢٧٨ - الاعتبار بمن مات من الكبار ٢٨٠ - من مات فقد تهاى
 في البعد ٢٨٤ - غفلة الناس عن الموت ٢٨٥ - لا ينجو من الموت أحد ٢٨٥ -
 الموت لا يتجزئ منه بشئ ٢٨٧ - موت الفجأة والصحيح يموت ٢٩١ - كل
 إنسان معرض لموته أو موت أحبته ٢٩١ - جهل الانسان بوقت موته ٢٩٢
 الموت يسوق بين الأفاضل والأراذل ٢٩٢ - انقضاء ناس بعد ناس ورجوعهم
 إلى الموت ٢٩٤ - من يخاف الموت ولا يستعد له ٢٩٦ - من أمر ذويه بالبكاء
 عليه ٢٩٧ - من أظهر الندم عند الموت على ما فرط منه ٢٩٨ - من امتنع من
 التوبة عند موته ٢٩٩ - من يحبون الموت ٣٠٠ - تمنى الموت ٣٠١ - الحياة
 لا تمل ٣٠٢ - تسلى الناس عن مات ٣٠٣ - سهم المنايا بالذخائر مولع ٣٠٤
 إنكارهم الشهادة في الموت ٣٠٥ - لا عار بالموت ٣٠٧ - الموت نهاية كل
 حى ٣٠٧ - وصية الميت ٣٠٩ - إنكارهم وصية الميت بما ليس له ٣٠٩ -
 من أوصى بشر وكان قاسياً حين احتضاره ٣١٢ - نهيم عن الافراط في البكاء
 وإظهار الجزع على الاموات ٣١٤ - ضعف بنية الانسان ٣١٥ - استكفائهم
 من أن يموت المرء حتف أنفه ٣١٥

تصحیحات واستدراكات

نرجو القارئ الكريم أن يبادر إلى تصحيح هذه الأخطاء

المطبعية التي نلته إليها هنا

سطر	صفحة	خطأ	صواب
٢٠	٤	فَاهَا	فَاهَا
٢٣	٣	إلا قول خالد لأبي ذؤيب « أنظر الأغانى فقد جاء فيها	
		« ج ٦ ص ٢٧٥ » أن البيت لأبي ذؤيب وهناك بقية	
		الآيات وهي قصيدة جميلة	
١	٣٣	مع الوضم	على الوضم
٥	٤٢	فَرَعَت	فِرَعَت
٤٩٣	٤٣	وتوله ولم تك منهم الخ	وقوله لست منهم يروى
			« إذا كنت في قوم عدى ولم تك منهم »
٥	٤٣	فأبا قوم عدى	فأما قوم عدى بمعنى أعداء
٦	٦٠	في الغبار	من الغبار
١١	٧٠	وقال آخر	وقال بشار بن برد
١٢	٧٠	وتهلح	وتفرق
٢	٧١	يَبْسُ	يَبْسِ
١٢	٧٤	مع غير	مع غير
١٤	٧٨	بعض الشعراء	عبيد الله بن عبد الله بن طاهر
١٥	٧٨	وأنفق إذا أنفقت	وأنفق إذا أيسرت غير مُقْتَر

سطر	صفحة	خطأ	صواب
٧٨	١٦	سقط في هذه الصفحة شرح لقول الشاعر سطر ١٦ :	
		على ماخيات ، وهذا هو الشرح : على ماخيلت : أى	
		شبهت ولونت ، يريد : على أى حال ،	
٦	٨٤	والجود	والجود
١٥	١١٩	تهدده	تهدد
		« أى تصوت كما يهدد البعير ويهدر ،	
٢١	١٤٧	عذرتها	عذرت
٧	١٥٩	صقيل	صَيْقَلُ
٥	١٩٥	بِخْوَيْصَةٍ	بِخْوَيْصَةٍ « ويوضع بعد كلمة تصغير
		خاصة في الشرح هذه الزيادة :	
		قال الزمخشري : الخويصة	
		تصغير خاصة بسكون الياء	
		لأن ياء التصغير لا تكون إلا	
		ساكنة وجوز التقاء الساكنين	
		فيها أن الأول حرف لين	
		والثاني مدغم ،	
١٥	١٩٦	وكلُّ شَيْءٍ	وكلُّ شَيْءٍ
١٩	٢٠٢	مأوليتها	مأوليتها
٢٠	٢٠٠	قول البحترى قول إبراهيم بن العباس الصولي	
١٩	٢٠٤	مُنْكَشِفًا	مُنْكَشِفًا

خطأ	صواب	صفحة	سطر
وفي هادم اللذات	وفي هادم اللذات وفي المرض	٢٢١	٧
ونضوا ونضوا	ونضوا ونضوا	٢٢٢	٢٠
مُسْتَهْدَفٌ	مُسْتَهْدَفٌ	٢٢٩	١٣
والضييفُ مُرْتَحِلٌ	والضييفُ مُرْتَحِلٌ	٢٥٥	١٨
ثم تردّه	ثم تردّه	٢٥٥	١٩
أقول لعله	قوله زراع... ألبت لعله	٢٧٠	٦
لا يَلْبِتُ القُرْناة	لا يَلْبِتُ القُرْناة	٢٨٣	٢
ويروى تخونه	ويروى : تخونه	٢٨٨	١٣
خِباءك	خِباءك	٣٠١	١٥